أنيس منصور



الذين هاجروا

دار الشروق

الذين هاجروا

الطبعة الأولى

١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م

الطبعة الثانية

١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م

الطبعة الثالثة

١٤١٤ هـ - ١٩٩٣ م

الطبعة الرابعة

١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م

أسسها محمد المعلّم عام ١٩٦٨

القاهرة : ١٦ شارع جواد حسني - هاتف : ٣٩٣٤٥٧٨ - ٣٩٢٩٣٣٣

فاكس : ٣٩٣٤٨١٤ (٠٢) تلكس : SHROK UN 93091

بيروت : ص.ب: ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣

فاكس : ٨٦٧٥٥٥ - تلكس : SHOROK 20175 LE

أنيس منصور

الذين هاجروا

دار الشروق

كلمة أولى

لا مانع من بعض الفلسفة، فإن الموقف يقتضي شيئاً من ذلك:

هناك فرق بين التغير والتغيير..

التغير: من داخلك..

والتغيير: خارجك..

التغير لا إرادي. أي لا دخل لنا فيه.. تماماً كما تتفتح الزهرة وتنمو الثمرة وتذبل الزهرة وتسقط الثمرة.. وكما ننمو أطفالاً ونصبح شباباً، ونذوي رجالاً ونتساقط مرضى أو موتى بعد ذلك..

أما التغيير فهو أن تنتقل من مكان على اليمين إلى مكان على اليسار، أو تذهب من البيت إلى المكتب أو تخلع ملابسك وترتديها.. وتلقي بالورقة من النافذة، أو تنحني عليها في الطريق وتضعها في صندوق الزبالة..

وقد يكون الطفل نظيفاً بالأمر، صادقاً بالتخويف، أي أنه نظيف الأصابع أمامنا فقط. ساعة واحدة.. ولكنه لا

يفعل ذلك من تلقاء نفسه . .

ومن السهل أن آتي بألف سجين وأجعلهم يرصفون الشوارع، ويغرسون الأشجار، ويجففون البرك، ويقتلون الفئران في الحقول. ويصنعون أثاث العرائس - كل ذلك بالأمر . . بالخوف . . بالأجر . .

ولكن الفرق كبير عندما يكون الطفل نظيفاً من تلقاء نفسه، صادقاً عن عادة، يغرس شجرة بطبعه ويرويها دون خوف من أبيه وأمه . . ولا يلقي الماء من النافذة على المارة . .

والفرق هو أن النظافة ترسخت في أعماق الطفل، حتى أصبح كذلك . . وصار صادقاً أميناً مجتهداً محباً لحياة الأشجار والزهور والطيور والكلاب والقطط وغيره من الأطفال . .

فإذا نحن جعلنا إنساناً نظيفاً بالأمر فهذا هو التغيير . .

وإذا صار نظيفاً بالتربية والاقتناع فهذا هو التغير . .

وقد حدث في أول ثورة يوليو سنة ١٩٥٢ أن ذهب الرئيس محمد نجيب فزرع الأشجار في «كوم أوشيم» . . ورأينا الأشجار في الصور . . ورأينا الماء يتدفق عليها . . والناس يقفون شامخين كالأشجار، والوجوه لامعة مشرقة كأننا غطينا كل الصحاري والأراضي البور وجبل المقطم

بـالأشجـار، فلم يبق في مصـر كلهـا شبـر واحـد أصفـر. . ولذلك كانت سعادتنا غامرة لمصر من أولها لآخرها. .

ولم يمض وقت طـويـل حتى مـاتت الأشجـار. . فمـا الذي حدث؟. .

لقـد غيـرنـا مسـاحـة من الأرض الصفـراء، وجعلنـاهـا خضراء. .

ولكن الـذي لم يحدث هـو أننـا لم نتغيـر من داخلنـا. . أي لم يكن لـدينـا أدنى إحسـاس بـالـرغبـة في «تخضيـر» الأرض، وزرع الغابات. . ليست لدينا أيـة رغبة في أن ننشـر الحيـاة في كل مكـان. . لم يتعمق فينا أن نـزرع الشجرة وأن نـرويها وأن نـرعاهـا. . وأن ننتقل من «كـوم أوشيم» إلى بقية الأكوام الأخرى في مصر. .

ولـذلك لم يكن لهـذه الغابـة مستقبل، فقـد مـاتت يـوم ولادتها. .

مـاتت لأن لـدينـا شعـوراً تـاريخيـاً بتقـديس المـوتى، بالتخريب. . بـالتدميـر. . ولا يزال هـذا شعورنـا. . فنحن ما نزال إذا رأينا أرضاً زراعية، أقمنـا عليها البيـوت. . وإذا رأينا أرضاً «طرحها» النيل، «جرفناها» وصنعنا منهـا الطوب الأسـود والأحمـر. . ولم نستخدم الـطوب الرملي أو الأحجـار. . وما زلنـا نوسـع الشوارع لا لأننـا نحب الشوارع الـواسعـة، ولكن

لأننا نبحث عن عذر لكي نقطع الأشجار. ولو كنا نحب الشوارع الواسعة لجاءت المدن الجديدة التي أقمناها في الصحراء الشاسعة، واسعة الشوارع، واسعة البيوت.. لقد رأيت في مدينة العاشر من رمضان أناساً ينقلون أثاث البيت من البلكونة لأن الباب الأمامي ضيق، ولأن السلم إلى الطابق الثاني ضيق.. مع أن البيوت قد أقيمت في الصحراء..

وهذه البيوت تشبه قصر «أنس الوجود» المغمور في النيل الذي وصفه أحمد شوقي أمير الشعراء فقال: «ممسكات بعضها من الذعر بعضاً».

فأصحاب البيوت في خوف أن يتباعدوا، ولذلك ضاقت الشوارع، وضاقت الغرف، وتلاصقت البيوت..

ولم نعد لذلك نضحك لنكتة الرجل الذي ذهب إلى السينما، فلم يجد بها إلا شخصاً واحداً قد ارتدى طربوشاً، فجلس وراءه ليقول له: من فضلك اخلع طربوشك!.

والنكتة أنه جلس وراءه ثم أبدى ضيقه من ذلك..

ولكنها ليست نكتة إنما هي حقيقة. فليس في طبعنا أن نتباعد. إنما أن نتلاصق وأن نشكو من ذلك..

ويوم أمسك كاتبنا توفيق الحكيم مقشة ليكنس مساحة من الأرض، تفرجنا على الصورة، وابتسمنا، ظناً منا أن

الحكيم يريد أن يضحكنا. . وانتظرنا في اليوم التالي فلم يفعل شيئاً كأننا توقعنا أن يمضي الأستاذ توفيق الحكيم ومن معه من الأدباء في كنس بقية شوارع مصر. . أو كأننا لا نصدق هذه الحركة الإصلاحية النموذجية. . فلم يكن توفيق الحكيم إلا داعية للنظافة في مصر. .

واختفت مقشة الحكيم، كما اختفت أشجار أوشيم. . ولم يفعل أحد شيئاً!.

أما السبب فهو: أن الأشجار لا تزرع ولا تروى والنظافة لا تتم بالأمر، إنما بالشعور العميق في داخلنا. .

ويوم انفتحت أبواب فندق «النيل هيلتون» تغيرت الحياة الاجتماعية في ليالي مصر. . ففي هذا الفندق كانت الكافيتريا. وأهم ما فيها: فتيات جامعيات يعملن جرسونات. . ولو عدنا إلى الصحف المصرية وكل الأقلام، لوجدناها جميعاً في ذلك الوقت قد تناولت الفتيات: جمالهن ونشاطهن. . والتجربة الناجحة. . ولم يعد أحد يجد عمل الفتاة الجامعية جرسونة عيباً. . إنما هو احترام للعمل اليدوي. أو العمل. . وكان البقشيش السخي، مكافأة للفتيات ومساهمة في نجاح هذه التجربة. وكانت هناك فتيات جميلات، تزوجن بسرعة. أي أن الجرسونة الجامعية تلقى من الناس عظيم الاحترام. . وقد أدت هذه الغرفة الزجاجية الواحدة، أي التجربة العلنية، إلى أن

دخلت الفتاة في كل الفنادق والمطاعم. . ولم يعد شيئاً غريباً أن نرى الفتاة تعمل ليلاً ونهاراً في هذه الأماكن العامة. .

لقد حدث تغيير ناجح مستمر محترم أدى إلى تغير في النظرة إلى الفتيات العاملات. .

ونحن نعرف أن مئات الشبان إذا سافروا إلى الخارج عملوا في فنادق أوروبا شيالين وبوابين وسفرجية، ولا لوم عليهم. فهم يقومون بأعمال شريفة ويكسبون كثيراً ويشترون احتياجاتهم، ثم يعودون إلى مصر. .

ولكنهم كانوا يترددون في أن يفعلوا نفس الشيء بالقاهرة. . إما لأنهم لا يتقاضون نفس الأجر، وإما لأننا لا نحترم مثل هذه «الأعمال المنزلية» للرجال! . .

ولكن بعد ذلك رأينا الكثير من الشبان في الصيف يبيعون السندوتش والآيس كريم على الشواطىء. . ولم تدم هذه التجربة الموسمية إلا وقت تصويرها ونشرها في الصحف. .

وهي لم تستمر لأننا لم نتهيأ نفسياً لقبولها، ولا كذلك الشبان. . إلى أن حدثت تجربة محترمة: وهي اشتراك الشبان في ترميم المتاحف والآثار الإسلامية والقبطية. وصفقنا وأسعدنا ذلك. . ووصفتها الصحف العالمية بأنها

«ثورة ثقافية» في مصر. والذي قصدته الصحف العالمية هو ترميم الآثار.. ولكن الذي أعجبني أكثر هو أن يقوم الشبان بذلك..

لقد أسعدنا إصلاح وتنظيف وتنظيم المتاحف التي كانت قذرة، وكانت عاراً على مصر، وأسعدني أعمق أن يتولى الطلبة والطالبات هذا العمل التاريخي الجليل..

واليوم نرى الشباب يقومون بطلاء الكباري..

إذن فقد حدث تغير واضح أقنعنا فأسعدنا فتغيرنا من داخلنا، ولذلك فسوف نتوسع في هذه المساهمة العملية المحترمة في تجميل مصر.. وفي بنائها بعد ذلك..

ولم تكن القوات المسلحة المصرية، تنظر إلى مشاركتها في رصف الشوارع ومد الأسلاك التليفونية. باحترام.. لأن عملها وواجبها هو أن تقاتل فقط. أما مثل هذه الأعمال المدنية فمن اختصاص الآخرين.. ثم نجحت القوات المسلحة. وضربت لنا أمثلة رفيعة في الضبط والربط والاتقان.. سواء في صناعة الخبز أو في البناء أو تركيب الخطوط التليفونية أو الأسلاك الكهربية.. وأصبح المعنى هو: إذا لم تكن هناك حرب، فإن هناك جبهات أخرى تحتاج إلى كل الأيدي المدربة والعقول الخبيرة. فلا مانع من أن تنقل القوات المسلحة مجال عملها إلى مواقع

داخلية . . ونجحت . .

وفي بريطانيا بعد الحرب العالمية الثانية وبعد انسحاب قواتها شرقي السويس، لم تشأ تسريح جيوشها، إنما راحت تدعو الشركات إلى استئجار قواتها في البناء والحفر وإصلاح الأراضي والزراعة والصناعة! . .

لقد حدث تغير هام: القوات المسلحة تقبل عن طيب خاطرٍ أن تعمل كالمدنيين! . ونحن المدنيين نحترم مساهمة القوات المسلحة في حياتنا، لأننا نرى فيها آمالنا في الدقة والضبط والربط . .

فهذا هو التغير العميق في نظرتهم وفي نظرتنا إليهم . .

وهذا هو بالضبط ما نقصده عندما نتحدث عن الإصلاح أو الثورة . .

فالإصلاح ليس أن يتغير الناس بالإكراه ولكن برغبتهم العميقة . . ليس أن نأمرهم أن يقفوا طابوراً، ولكن أن يفعلوا ذلك دون أمر . . ليس بإرغامهم على الصدق والنظافة والأمانة، ولكن بأن يصدقوا ويتطهروا دون ترغيب أو ترهيب .

وكما أن المدرسة لا تصلح أحداً، فالكباريه لا يفسد أحداً ـ إلا إذا كانت لديه رغبة في ذلك . .

فالنظافة بالطبع أقوى من النظافة بالأمر . . لأن العادة

أقوى من القانون!.

ولا يمكن أن يتم إصلاح الناس إلا إذا كانوا مستعدين لذلك..

أي يجب أن تتعمق الرغبة في التغيير، لكي يتغير الناس.. لا بد أن يقوى الشعور عند الناس، وأن يحتشد الناس، ويكونوا جاهزين أن ينتقلوا من حالة إلى حالة..

مثلاً: إن الرجل الذي اخترع القطار، كان يعد لنفسه كوباً من الشاي، وكان إناء الشاي محكماً والماء يغلي في داخله والإناء يهتز بعنف. ويقال إنه عندما رأى هذا المشهد بدأ يفكر. فهداه تفكيره إلى أن هذا الإناء لو كانت له عجلات، أو إذا اتجه البخار إلى دفع العجلات، لتحرك الإناء في كل اتجاه، ولذلك وضع له عجلات، وتحت العجلات قضباناً حديدية.. فانطلق البخار بالقطار إلى الأمام. أي انطلق وفقاً لخطة موضوعة..

وكذلك الإصلاح: إنه بخار يغلي في النفوس وتغلي به النفوس.. ثم وجد برنامجاً فانطلق إلى محطات الإصلاح واحدة بعد أخرى!.

أي أن التربية تسبق التعليم.. فتربية الطفل على الصدق والنظافة واحترام الآخرين وحب الحياة، تجعله مستعداً لقبول بقية النصائح الاجتماعية والمبادىء السياسية

والقواعد الأخلاقية والأذواق الجمالية . .

وأيضاً هذه مهمة الأدب . . فالأدب يعبر عن واقع المجتمع . وهو في نفس الوقت يريد أن يغيره . فالأدب ينقل إلينا عيوبنا ، ويفضحنا أمام أنفسنا . . أي أنه يريد أن يدفعنا إلى تغيير أنفسنا يوماً بعد يوم ، وعاماً بعد عام ، وكتاباً بعد كتاب ، ومسرحية بعد قصيدة . . إلى أن نصبح جاهزين تماماً لتغيير أنفسنا . . فيجيء التغير تلقائياً . . مع أن هذا التغير قد جاء عن طريق التغيير الأدبي والفني . . وهكذا يتناوب التغير والتغيير حياتنا . حتى ننطلق إلى ما هو أفضل أو إلى ما هو أسوأ . . إلى التقدم أو إلى النكسة ، إلى الازدهار أو إلى الانهيار . .

ومهما رأينا على الشاشة من حياة الشعوب المتحضرة فإن هذا وحده لا يكفي لتطويرنا . .

فطعام الآخرين لا يشبعنا ، وملابسهم لا تدفئنا ، وحضارتهم لا تطورنا . . إنما يجب أن يكون في أعماقنا هذا الشعور القوي العنيف بأن نكون أفضل وأجمل وأنظف وأعلم .

ولسنا في حاجة إلى أن نبني في كل حي من أحياء مصر مكتبة لكي يقبل الناس على القراءة . . ولكن تكفي مكتبة واحدة . . يكفي نموذج واحد ناجح . . ثم نمضي

على مهـل نضرب للنـاس الأمثال السهلة النـاجحة. . ولكننـا في مصر عندما نبدأ مشروعاً فـإننا نبـدأ مشروعـاً كبيراً جـداً، ثم لا نمضي فيه حتى نهايتـه، وبعد ذلـك نلوم أنفسنا وغيـرنا أكثر، على هذا الفشل. .

وقــد قـرأنـا جميعـاً عن المستعمـرات اليهـوديـة في الصحـارى وعلى التـلال والجبـال. وبهـرنـا ذلـك: كيف يـزرعون ويتفـوقون ولم يكـونـوا فـلاحين إلا من مـائـة عـام؟ وكيف لا نـزرع مع أننـا فلاحـون من ألـوف السنين؟. . لقـد كـانت تجاربهم صغيـرة ضيقة نـاجحة. ولـدينا نحن تجـارب أروع وأنجح ولكننا لا نصـدق أنفسنا: لـدينا تجـربة مـديريـة التحـريـر، وشـرق وغـرب النـوبـاريـة والصـالحيـة والـوادي الجديد. . وكلها تجارب ناجحة.

وكـان من الممكن أن تكون أروع لـو كانت أصغـر وأكثر انتشـاراً على أرض مصر. . ولكنهـا رغم اتساعهـا وتكـاليفهـا وتشكننـا في كـل نجـاح نحققـه، أعـظم وأضخم وأكثـر طموحاً. .

المهم أن نعمـل وأن نجيد الـذي نعمله. وأن نعمـل في أي مكـان وفي أية ظـروف، وألا نخترع الأعـذار حتى نفشـل ونبكي على فشلنـا. وهكذا يتعمق لـدينا اليـأس في كل شيء وفي أنفسنـا. وبعد نكسـة ١٩٦٧ لم يكن لدى أحـد أمل في أحـد، أو في شيء، أو في مصر أو في قـواتها المسلحـة، أو

في قـادتهـا . . ثم انتصـرنـا في ١٩٧٣ على كـل ذلـك . . أو انتصرنا على أنفسنـا، ولكن هذا النصـر لم يحقق لنا التـوازن النفسي، ولم يكن تعـويضـاً كـافيـاً لمـا أصـابنـا . . مـع أنــه تعويض نفسي ومادي وقـومي وعسكري عـظيم . . ولكن لأننا اعتـدنا على أن نبخس أنفسنـا حقها في الاحتـرام والإكـرام، نتحدث عن النصر كأنه هـزيمة، وعن الجـلاء كأنـه احتلال، وعن القائد الذي انتصرنا به على أنه خائن فقتلنـاه، كأنــه هو الـذي أتى بالنكسـة ٦٧، ونسينا أنـه هـو الـذي نصـرنـا سنـة ٧٣ ـ إلى هــذه الـدرجــة اختلطت المكـاييــل والموازيـن، والأرباح والخسائر، والنكسة والعبور . .

يقـال أن شيخ الإسـلام ابن تيمية سـألـوه إن كـان يمكن أن يتـوضـأ النـاس من مـاء البـرك الآسن؟ أو هـل يصــح أن يتـطهر النـاس بالمـاء ذي الرائحـة الكريهـة؟ . وكـان جـواب الإمام ابن تيمية أنه روي عنه زوجات الرسـول عليه السـلام : عـائشة وأم سلمـة وميمونـة، إن الـرسـول عليـه السـلام كـان يغتسل هو وزوجاته من إناء واحد . فكان يقول عليـه السلام : أبقي لي . وكـانت الواحـدة منهن تقول : أبق لي . . أي اتـرك لي بعض الماء . .

فلم يكن على عهد الرسول قنوات ولا مياه جارية . .

فـإذا كان عليـه الصـلاة والسـلام يفعـل ذلـك في الإنـاء

الواحد، فكيف لا يجوز أن يتوضأ الناس ويغتسلوا من مياه البرك والأمطار؟ . .

والمعنى الذي قصده الإمام ابن تيمية أننا يجب ألا نبحث عن عذر حتى لا نتوضأ ونتطهر، فأي ماء يكفي. والمهم أن تكون لدى المسلم هذه الرغبة الصادقة في الوضوء والطهارة والصلاة والتمسك بالدين. . وأي ماء يكفي ويصلح، وليس من الضروري أن ننتظر الأنهار حتى تتفجر من الأرض، والبحار حتى تزحف على البلاد، ليكون الوضوء ممكناً والطهارة واجبة.

وكذلك في الإصلاح، وكذلك في التمسك بمبادىء التربية والأخلاق، فكل وقت وكل مكان هو بداية لغرس المبادىء عميقة وعميقاً في النفوس. .

يقول الله سبحانه وتعالى: «إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم».

أي يجب أن تتغير نفوسنا أولاً . . يجب أن نستعد وأن نحتشد وأن نتربص. هنا فقط يساعدنا الله على التغير بعد ذلك. .

وأهم ما يجب أن نتحلى به هو أن تكون لدينا الرغبة القوية، وأن يكون عندنا أمل، والرغبة عند شخص واحد لا تكفي، ولا عند ألف. . ولكن الرغبة يجب أن تكون عامة

مغروسة مغروزة في أعمق أعماقنا . . وأن يكون لدينا أمل . ولكن إذا كان أمل بلا عمل ، أو عمل بلا أمل ، فنحن نهتز كالإناء الذي يغلي ولا يتحرك ، أو يتحرك ولا يتقدم ، أو يتقدم بغير خطة ، بغير نهج ، بغير دين . .

وإذا كانت غابة كوم أوشيم قد اندثرت ، فإنني ما زلت أرى ذلك إلا قليلاً . . إلا شجرتين : شجرة الندم على ما حدث ، وشجرة الأمل في أن نبدأ من جديد . .

نعم . . لا بد أن يكون عندنا أمل ، ولكن لا أمل فينا إذا لم نكن نملك إلا الأمل . .

أنيس منصور

القاهرة ١٩٨٨

حوار مع مصريين في ألمانيا:
هل النظام يخلق العبقرية؟

قلت لصاحبي: أرجوك أن تقفل هذا الراديو. . فهذه إهانة لا يستحقها منك الشعب الألماني الذي علمك وأكرمك. . أقفل. . عيب!. .

وهو صيدلي اسكندراني يستمع إلى صوت بدرية السيد التي يعجبني صوتها والتي زفت نصف سكان الاسكندرية. . أحب صوتها كما أحب الفول المدمس والفول الأخضر واللب السوداني، ولكن في المانيا، ذهاباً وإياباً من الشارع الذي ولد ومات فيه بيتهوفن العظيم. .

ولا أظن أن الطبيب قد قاوم كثيراً. فإنه بسرعة أقفل الراديو، وقطع لسان بدرية ومتقال وعدوية. ولم يعد يضع يده في جيبه حتى لا يخرج اللوز المقشر الذي يأكله على أنه سوداني مقشر ـ إنه كثير ورخيص. ثم إنها عادة سيئة!. .

ـ قل لي من فضلك. . أنت الآن عشت في المانيا سنوات طويلة. . فما الذي تراه في تقديرك هو سبب عظمة الألمان؟

وأجاب: إنه النظام!

وسألت رجلاً متزوجاً من أستاذة جامعية ألمانية: وأنت ماذا ترى؟

فأجاب: إنه النظام!

أي أن الذي يبهرهم في الألمان أنهم منظمون في كل شيء. أو بعبارة أخرى أن هناك إطاراً للحركة أو للنشاط. وهم يتبعون هذا الإطار ولا يخرجون عليه..

ولكني لا أرى ذلك. فالنظام لا يخلق عبقرية. لأن النظام معناه: تقنين النشاط اليومي. المشي في الشارع. وفي العمل وبين العمل والبيت. ولكن ما الذي جعلهم هكذا منظمين؟ لا بد أن يكون السبب هو أنهم يحبون النظام. فما الذي جعلهم يحبون النظام؟ إنهم توارثوا هذا الأسلوب في الحياة. ولكن كيف توارثوه؟ لأن أجدادهم وآباء أجدادهم كانوا كذلك. فأصبح النظام عميقاً كالغريزة عند الحيوانات والطيور.. فالنمل يبني بيته بشكل خاص، والنحل يبني خلاياه بصورة ثابتة لا تتغير.. والحيوانات والطيور تهاجر في الصيف والشتاء وتبني أوكارها وأعشاشها بطريقة واحدة.. فالنظام عند الألمان «غريزة» قديمة..

والنظام هو احترام للقانون.. لقانون السير والعمل والنوم والحياة والرياضة..

ولكن النظام لا يخلق عبقرية . .

فالنحل الذي يبنى خلاياه بالصورة التي نعرفها، لم يغير هذا النظام من ألوف السنين . .

ثم إن النظام من الممكن أن تجده في السجون ومن الممكن أن تجده في الورش . . ولكن السير منظماً داخل وخارج المصنع ليس هو الذي أدى إلى اختراع المصنع وتطوير المصانع . . ولا تطوير أية دولة ونقلها من السيارة إلى الطيارة إلى الصاروخ إلى سفن الفضاء . .

ـ قل لي من فضلك ما هو سر عظمة الشعب الألماني وأنت أستاذ في علم النفس والفلسفة؟

فأجاب الأستاذ المصري، وكنا جالسين في أحد المطاعم في قمة واحد من الجبال السبعة بالقرب من مدينة بون : إن الناس الجالسين وراءنا يتناقشون في موضوع من الممكن أن يكون الإجابة . .

فلديهم ثلاثة أطفال : تسع . . وخمس . . وثلاث سنوات . . فوجدوا أن الصغير يريد بدلة مثل بدلة الكبير في اللون والطول . . فأقنعوه بأن تكون أصغر، ولم يعرفوا كيف يقنعونه بأن يكون لها لون مختلف . . ثم أقنعوه . . وأنا أرى أن حرص الأب والأم على أن تكون لكل طفل بدلة من لون مختلف، هو تأكيد للفردية والشخصية المستقلة في سن

مبكرة.. فالألماني يجب أن تكون لهِ شخصية متميزة.

قلت: ألا ترى أن هذا صحيح إلى حد ما؟.. فالألمان يفضلون أن يذوبوا في الجماعة.. في الفرقة.. في الجيش.. في القطيع.. فالشعب الألماني مطيع بطبعه. ويظل واقفاً حتى يجيء من يقوده ويدفعه بالقوة إلى الأمام.. وربما كانت هذه مصيبة الألمان.. فهم يتكاثرون ويتزاحمون ليقفوا وراء رجل واحد.. فإذا ساروا فلن يتوقفوا حتى الموت.. فهم يؤمنون بالفردية.. صحيح.. ولكنهم يؤمنون بالفرد الأوحد.. بالرجل الأعظم.. بالبطل.. فإذا أجله.. فالمواطن الياباني لا يصح أن يرى الامبراطور.. فإذا تصادف أن رآه فهو يعود إلى البيت ويخرج سيفاً ويقتل نفسه.. لأنه خالف قرار القداسة، بأن الامبراطور لا يراه أحد.. وإذا بنى أحد بيتاً مرتفعاً وقيل له: هل تعلم أن بيتك أعلى من بيت الامبراطور؟.. فإنه بسرعة يلقي بنفسه من فوق البيت.. وبعد الاحتلال الامريكي تغير وزن الامبراطور وحجمه، وتغير الدستور.. ولم يعد الامبراطور نصف إله.. وأذكر أنني ركبت الاتوبيس السياحي، وكانت المرشدة السياحية اليابانية تخرج لسانها عندما مررنا بالقصر.. وفي إحدى دور السينما، كانت نشرة الأخبار قبل عرض الفيلم.. ورأينا الامبراطور كبيراً في السن يتعثر في مشيته ويتلعثم في كلامه.. وضحك الناس.. وأكثرهم من

أبناء اليابان. . وعلى الرغم من أن أمريكا ضربت اليابان بالقنابل الذرية، وهدمت مدناً وقتلت مئات الألوف وأصابت بالمرض الملايين، فإن الشعب الياباني لم يغير خطوطه وقواعده. . فما يزال منظماً، وما يزال يقدس الأسرة. . الأسرة الصغيرة. . والأسرة الكبيرة التي هي المصنع، والأسرة الكبرى التي هي اليابان وعلى رأسها الامبراطور. . أما إخراج اللسان، فهو قلة أدب ونفاق للسيد الأمريكي الذي ما يزال يحتل البلاد. . والعالم كله يتذكر ذلك الجندي الذي وجدوه في إحدى غابات الفلبين ما يزال بملابسه العسكرية. . وما زال ينظف بندقيته ويجلوها كل يوم، ويعيش على خطف الطيور والدواجن. . سبعة وثلاثين عاماً، لأنه لم يعرف أن الحرب قد انتهت. . وعندما اعتقلوه رفض أن يلقي سلاحه، إلا إذا سمع بأذنه قراراً من الامبراطور بذلك. وإلا إذا تلقى من رئيسه المباشر أمراً بإلقاء السلاح. . وجاءوا إليه برئيسه المباشر. . فألقى سلاحه وهو يبكي. . فلم يتصور أن الحرب قد انتهت بهزيمة اليابان. . وهو نموذج للجندي الياباني الذي يقدس الامبراطور. .

قال صاحبي وقد أجلس واحداً من الأطفال الصغار على ركبته: وأنت لماذا تريد بدلة مثل أخيك الأكبر؟ . .

قال الطفل: لأن جيوب بدلة أخي بها فلوس وبها

شيكـولاتة. . ولأنـه عندمـا يقف إلى جوار بـابـا يبدو طـويـلاً مثله!

وعـاد صـاحبي يقـول: إنني لا أختلف عنك تمـامـاً. . فحرص الألماني على الامتيـاز الشخصي، هو الـذي جعله لا يكتفي بمـا قـرأ أو تعلم. . إنمـا يحـاول أن يغـوص أعمق، وأن يحلق أبعد. . ولذلك فالألماني باحث بـطبعه. . والـدولة تشجع الطلبـة على البحث، وترصـد لهم المال والجـوائز. . ولذلك لا يوجد فـرع واحد من فـروع المعرفـة لم يضف إليه الألمـان شيئاً جـديداً. . والسبب هـو أن يكون الألمـان أروع وابـدع. . فالـدولة تعـطي الفرصـة، وتشجع على الـظهور. . وتشجـع على الابتكار. . والبـاقي على الموهبـة نفسهـا. . أو على كل المواهب. . وفي مصر ظهرت مدرسة المـوهوبين أو المـواهب. . وهو مـا لم نسمـع بـه في أي بلد من البـلاد. . فـأنت إذا وضعت الممتـازين معـاً، أرهقتهم. . عـذبتهم. . تماماً كما نضع الأقـزام معاً. . أو العمـالقة معـاً. . فإحسـاس الإنسـان بـأنـه مختلف، ثم وضعـه مـع أنـاس عنـدهم نفس الإحساس، يجعل الموقف أكثر صعوبة، فـالشاب المـوهوب لديه إحساس بذلـك بعض الوقت. . ثم يعيش حيـاته العـادية بين زمـلائه. . ولكن إذا أفـرزته عن بقيـة الزمـلاء مؤكـداً أنـه مختـلف، وأنــه يجـب أن يخـتلف. . فـهــذا الإحـســاس يضـايقه. . فـإذا وضعته مـع عشرات من الشبـان لديهم هـذا

الإحساس كان معنى ذلك: أنه مختلف عن الشبان العاديين، ومختلف عن الشبان غير العاديين، ويجب أن يزداد اختلافه. ولذلك لم تنجح هذه المدرسة في مصر. ولم أسمع عن موهبة ظهرت من هذه المدرسة، بل لقد سمعت أن الطلبة قد تضخم لديهم الإحساس بالعظمة لدرجة أنهم لم يعودوا يحترمون أساتذتهم. وهي خسارة كبرى وإفساد لأخلاقيات التلميذ والشاب.. وتحطيم لمعنويات الأستاذ.. فالمدرسة قد خربت معنويات التلميذ وحطمت كبرياء الأستاذ! ثم إن الموهبة ليست «سلق بيض».. تضع البيضة على النار وترفع درجة حرارة النار لتسلق البيضة بسرعة.. في دقيقة بدلاً من ثلاث.. الموهبة لها عمر.. ولها مواعيد.. تماماً كما أن للبيض درجة حرارة وأياماً معدودة للفقس.. وبيض العصفور غير بيض الثعبان غير بيض التمساح غير بيض النعام.. وكذلك فترة الحمل عند الثدييات.. تختلف من الفأر إلى الفيل إلى الإنسان.. مع فارق واحد: هو أن نعترف أن ميلاد العبقرية ممكن؛ فقد ولد عباقرة كثيرون.. ولكن نحن لا نعرف بالضبط كم تستغرق من الشهور والسنوات ودرجات الحرارة وتفاعل البيئة الاجتماعية والنفسية مع البيئة العلمية.. لتولد العبقرية!

ولكن أبين لك مدى إحساس الرجل بسخافة السؤال..

فدعني أصف لك كيف كان وقع السؤال على وجهه. لم يكد الرجل يستوعب السؤال بعد أن تأكد لديه أنني أجنبي.. وبعد أن تشكك تماماً في الغرض من هذا السؤال أو هذه البداية.. حتى وجدت شفتيه تحاولان أن يكون لهما شكل آخر.. وأعتقد أنه حاول أن يجعل لأنفه شكلاً آخر.. أما عيناه فقد لمع فيهما شيء من الضيق والقرف والاستخفاف.. ومد يده اليمنى إلى ذراعه اليسرى لأجد أنها مقطوعة.. ثم أعاد البالطو ليخفي الذراع، فقلت بسرعة: آسف جداً..

وأجاب بسرعة هو أيضاً: ولكني لست آسفاً على ذلك.. ولو عادت الحرب لقدمت ذراعي الأخرى.. حتى التراب المتبقي من رفات أبنائي، فإني على استعداد لأن أنفخه في عين من يعتدي على ألمانيا..

ولا أعرف كيف مضى الحديث بيننا.. أو الحديث الذي فرضته على الرجل لأنني مشغول بعمل حساب ختامي لمعنى العبقرية الألمانية، وسر هذا التفوق الهائل في كل شيء. وقلت له: إنني شاهد على ما حدث في ألمانيا..

ويبدو أن هذا التعبير ليس دقيقاً. فسألني، فقلت: لا أقصد أنني عايشت الحرب العالمية الثانية.. وإنما أنا رأيت ألمانيا بعد الحرب، وكيف كانت منهارة مهدمة.. مادياً ومعنوياً، هذه المدينة مثلاً.. رأيت كيف أنني إذا وقفت

أمـام كتـدرائيتهـا الشهيـرة، كنت أرى المـدينـة من أولهـا لآخـرهـا. . فلم يكن بهـا مبنى واحـد ولا بيت، والنـاس يخـرجون من تحت الأنقـاض. . فـأنـا شـاهـد على دمـارهـا وعمرانها. . على انهيارها ونهضتهـا. . كنت هنا يـوم كان في استطاعة أي طفل أن يحصي عدد المصـابيح المضـاءة. . أما الآن فلا أحد يستطيع ذلك في أي شارع. . فـالمدينـة باهـرة الأنوار والمؤسسات والمصـانع والفنـادق والمعامـل والمطاعم والكباريهات والكنائس. .

واعتقد أن الرجل قد استـراح إلى هذا التكـريم للألمـان المعـاصرين والتمجيـد لـلألمـان القـدامى. . وكـان رده على سؤالي وبصـورة قـاطعـة: إن الإجـابـة قـد جـاءت أيضـاً في أسئلتـك الكثيرة. . إنهـا الثكنات يـا سيدي. . فـالألمـان قـد دخلوا الجيش قبـل أن يدخلوا الجـامعة. فـالنظام والانضبـاط والطاعة والالتزام والتفاني هي أهم عناصر النجاح. . فالعـالم إن لـم تكن عنـده صفات الجنـدي، فلا أمـل فيه. . وكـذلك الأديـب والشـاعـر والـفيـلسـوف. . يجـب أن ينـضبط وأن يتفانى. . وأن يتعذب ويموت من أجل التقدم. .

هـل يمكن أن نقـول إنـه مـوقف أخـلاقي؟ نعم هـو كذلك. كيف؟

لنفـرض أننـا نتحـدث عن «آداب المـرور». . أي السيـر في الشـارع وفقاً للقـواعد المعـروفة، التي من الضـروري أن

يتبعها المشاة وراكبو السيارات. فمن الملاحظ أن أحداً لا يخالف القواعد الكثيرة المكتوبة والمرسومة على لوحات على جانبي الطريق.. وكذلك الإشارات الضوئية.. ولذلك فأحياناً نجد الشارع خالياً تماماً في كل الاتجاهات. ومع ذلك نجد الطفل والشيخ واقفين إلى أن يظهر اللون الأخضر.. مع أنهما لو تحركا عند اللون الأحمر، فلا خوف عليهما لأنه لا يوجد أحد هناك.. وكذلك نجد السيارات قد وقفت بعد منتصف الليل عند النور الأحمر. مع أنه لا توجد سيارات ولا يوجد رجال مرور.. لا أحد.. إذن فما الذي يجعل الناس يفعلون ذلك؟

إنه «الواجب».. الإحساس بأن من الواجب أن يفعلوا ذلك.. هم يفعلون ذلك وكل الناس أيضاً. فالواجب قرار عام. وعلى الرغم من أنه لا يوجد أحد يراقب أداء الناس لواجبهم، فإنهم لا يترددون لحظة في تطبيقه. لماذا؟ لأن الضمير هو الذي يتولى مراقبة أداء الواجب.. إذن فهذا الموقف أخلاقي. فهي أخلاق عامة.. هي دين.. أي أن تطبيق آداب المرور: أخلاق.. دين، وكذلك أداء الواجب التربوي والاجتماعي والعلمي والعسكري. كل ذلك من الأخلاق وله قوة الدين..

ولكن هناك التزام بأداء الواجب، وليس أخلاقياً ولا دينياً. فاللصوص الذين يتفقون على خطة سرقة بنك.

هؤلاء اللصوص يطبقونها حرفياً ولا يخرجون عنها. وإذا انفرد واحد بالفلوس فإنه لا يسرق منها، رغم أنه لص. ولا يأخذ أكثر من الذي اتفقوا عليه، حتى لو كان هو أكثرهم تعرضاً للخطر. . لماذا؟ لأنهم اتفقوا على خطة. وطبقوها بنظام. ولأنهم اتفقوا على توزيعها بينهم. فالواجب يحتم على كل واحد منهم ألا يخرج على هذا الاتفاق. . وهو واجب ليس أخلاقياً. . إنما هو واجب يبدو كما لو كانت له قوة الأخلاق والدين!

إذن فبغير أن تكون هناك أخلاق أو دين، فلا أمل في نظام، ولا أمل في أن يؤدي النظام إلى إصلاح ومزيد من النور. .

وأنا كواحد من أبناء الريف المصري، لا أعرف متى بدأ اهتمامي وإعجابي بالألمان. . ولكن أذكر أن أول اسم ألماني عرفته وكررته مع الاحترام العظيم هو: باير،

عشرة ملايين شجرة سنوياً؟!
الجزائر فعلت ذلك!!

سؤال: ما الذي ينقص مصر؟.

جواب: كل شيء!

وهي إجابة صحيحة!.

سؤال: ما الذي ينقصنا في مصر؟.

جواب: لا شيء!.

وهي أيضاً إجابة صحيحة!.

إذن فما هو الخطأ في تفكيرنا وفي حياتنا؟. والجواب بعدد سكان مصر والعالم العربي. ولكثرة الأسئلة والإجابة وتضاربها وتخبطها أصبح من الصعب علينا أن نعرف معالم الخطأ وأوجه الصواب. حتى ليخيل إلينا كثيراً أن الذي نراه في سماء القاهرة على أنه «تلوث» بسبب التراب والهباب، ليس إلا ملايين الملايين من علامات الاستفهام والتعجب!.

ولكن الحل سهل وليس جديداً. أما الصعب عندنا فهو «إرادة الحل». ولننظر ما الذي كان يفعله الفلاح قبل اختراع الولاعات الإلكترونية. كان يمسك عدسة صغيرة ويضعها

تحت الشمس، وتحت العدسة يضع سيجارته. وفجأة يظهر الدخان وتحترق السيجارة، فماذا حدث؟. لا شيء إلا أنه ركز أشعة الشمس على مساحة صغيرة.. وهذا التركيز رفع درجة الحرارة..

والمعنى: أن التركيز الشديد على هدف واحد يصنع العجائب!.

ومما يعرفه صغار الطلبة أن الماء إذا نحن ركزناه ودفعناه بقوة فإنه يستطيع أن يثقب الصخر. ولقد رأينا في المصانع الكبرى كيف أن الواحد منا إذا أمسك سيفاً وضرب به الماء المندفع فإن السيف لا يقطع الماء!.

والكبار يعرفون أن أشعة «الليزر» شيء من كل ذلك!.

وفي كتبنا مئات الأمثلة لما فعلته الدول الأوروبية والآسيوية بعد الحرب من أجل نهضتها التربوية والعلمية والصناعية. نقرأ أن الصين (ألف مليون نسمة) أرادت أن تقضي على الذباب، فوزعت على كل مواطن منشة. وفي يوم واحد مات كل الذباب.

ومرة أخرى عندما أدركت حكومة الصين أن العصافير تأكل مئات ألوف الأطنان من القمح، طلبت من الشعب أن يسترد الرغيف من مناقير العصافير ـ فقتلوها كلها في أسبوع واحد!.

وفي إيران قررت الحكومة القضاء على الأمية. فأرسلت طلبة المدارس والجامعات إلى الريف. وأجلسوا الشعب تحت الأشجار وتعلقت السبورة بين الأغصان. وبعد شهور عاد التلاميذ والطلبة ومعهم شهادات تثبت أنهم علموا ملايين المواطنين. وكانت هذه الشهادات هي شرط القبول في المعاهد والكليات.

ورأيت في إيران أيضاً أن الموظف لكي ينتقل من درجة إلى درجة لا بد أن يكون قد محا أمية عشرين مواطناً!.

أما كوريا الجنوبية فهي تبعث بمئات الألوف من أبنائها يعملون في جميع أنحاء العالم. يأتون إليها بالعملات الصعبة. وقررت كوريا أن يكون هذا العمل في الخارج هو «الخدمة العامة» أو هو «الخدمة العسكرية»!

ورأت بريطانيا بعد أن سحبت جيوشها شرقي السويس، ألا تسرح هذه القوات. وإنما قررت تأجيرها لكل من يريد أن يبني بيتاً أو يرصف شارعاً أو يجفف مستنقعاً ـ فالعمل المدني والعمل العسكري، عمل وطني!.

وفي كوبا اتخذ الرئيس كاسترو قراراً ثورياً وطنياً من الدرجة الأولى. لقد أغلق كل معاهد التعليم سنة. وذهب التلاميذ والطلبة وطلبة الدراسات العليا إلى كل المدن والقرى يعلمون الشعب القراءة والكتابة. ولم يعد في كوبا

أمي واحد!.

وفي برلين الغربية، أرادت البلدية إقامة جامعة جديدة. وتقدم ألوف الطلبة. وكان للجامعة شرط واحد هو أن يحمل الطلبة الطوب والأسمنت حتى يرتفع صرح هذا المعهد العلمي الكبير. وكان ذلك هو رسم الدخول!.

ومن «علامات العصر» في مصر خمسة أحداث: الحدث الأول بناء «السد العالي» وهو نموذج للإنجاز العلمي العظيم: خطة دقيقة. وتنفيذ محكم. الهندسة سوفيتية والتنفيذ مصري. وإذا كانت هناك خلافات على نتائجه، فهذه مشكلة علمية معقدة. ولكنها لا تقلل من روعة المفكر والمهندس والعامل..

الحدث الثاني: غابة أوشيم، عندما توجه الرئيس محمد نجيب، شاعرياً رومانسياً مثالياً يزرع أول شجرة من أجل تحويل صحارينا إلى غابات ـ كما كانت من مئات ألوف السنين. فزرع الشجرة الأولى ورواها وتركها، فماتت ومات معها المشروع العظيم ـ المشروع التربوي الجمالي الزراعي الصناعي. وكان موت الشجرة التي ليس لها اسم أفدح خسارة منيت بها مصر شجرة ماتت في مكانها على مرأى من الجميع، فلم يبك عليها أحد، ولا مشى في جنازتها ـ جنازتنا أيضاً!.

الحدث الثالث: «القاهر والظافر». وهما صاروخان حربيان.. من أروع الصناعات المصرية الألمانية ـ باكورة صناعية عسكرية متطورة. وكان هدف هذه الصواريخ كما قيل لنا: تل أبيب. وانطلق الصاروخان وكانت الفضيحة. فالصاروخان ليس لواحد منهما عقل الكتروني يوجهه إلى أي هدف.. انطلقا مثل ثور هائج. أي أننا صنعنا وعرضنا على الرئيس جمال عبد الناصر، هذا الإبداع الهندسي، أي صنعناهما للعرض وليس للاستخدام. فقط لكي يراهما الرئيس ومصورو الصحف العالمية.

والقاهر والظافر، مثل كثير من المشروعات: للعرض فقط.

ثم إنهما بلا هدف.. أي بلا عقل!.

والحدث الرابع: «مديرية التحرير».. وهو مشروع قومي في غاية الطموح. فلا يزال من أعز أمانينا إصلاح الصحراء وزيادة الأرض الزراعية التي ضاقت بنا وعنا. وقد ظهرت مشاريع أخرى كثيرة متطورة وفادحة التكاليف. ولكنها لا تسير إلا بالجهود الشخصية للقائمين عليها. ولذلك فهي إنجاز عظيم إلا قليلاً. وهي أيضاً معرضة لظاهرة «التصحر» ـ أي أن تزحف عليها الصحراء.. والروتين والإهمال واللامبالاة الرسمية!.

والحدث الخامس: «حرب أكتوبر». وهي نموذج رفيع لتضافر العلماء والمهندسين والعسكريين وسياسة الرئيس السادات.. ولكي ينجح أي مشروع فلا بد أن تتوافر له كل هذه العناصر المركزة في التخطيط ووضح الهدف ودقة التطبيق والتفاني من أجل ذلك..

فما الذي حدث ويحدث في الجزائر العربية الشقيقة هذه الأعوام!.

أذكر في لقائنا بالرئيس هواري بومدين ـ مكرم محمد أحمد عن (الأهرام) ومصطفى نبيل عن (دار الهلال) وأنا عن (أخبار اليوم) أن عاتبنا الرئيس الجزائري لأننا لا نعرف شيئاً عن الجهود التي يبذلها الشعب والحكومة من أجل «التعريب» أي فرض اللغة العربية على الجميع، إيماناً من الرئيس بومدين «وحده» بأن الجزائر بلد عربي، يجب أن يرتبط بالعالم العربي عقلاً وقلباً ولساناً وديناً. وعاب علينا أيضاً أننا ننشر صوراً عن الذين يصيدون الغزلان بالقصور، وهي رياضة بديعة، ولكننا لا ننشر شيئاً عن فلسفة «التسيير الذاتي» الزراعي والصناعي في الجزائر. وهو من أروع إنجازات الجزائر. وتزاحمنا في الاعتذار له. ولم يقبل اعتذارنا والحق معه..

ومات الرئيس الجزائري، ولم تنشر الصحف والمجلات المصرية شيئاً عن مفردات الثورة الجزائرية التي

بدأت بالرئيس أحمد بن بلا واستمرت إلى آخر عهد الرئيس بومدين. .

وأمتعني عالم الفضاء المصري د. فاروق الباز العائد من الجزائر، بالحديث عن مشروعهم الجليل في زراعة ستين مليون شجرة. . واعترف فاروق الباز، بأنه وكل الهيئات الدولية قد أخطأوا فهم هذا المشروع. فقد ظنوا أن الجزائر قررت زراعة هذه الأشجار لتكون ستاراً يحميها من رمال الصحراء، وحتى لو فعلت ذلك فهو قرار حيوي حكيم. ولكن الجزائر قررت أن تزرع «غابة» على جبالها بطول ١٢٠٠ كيلومتر وبعرض أربعين كيلومتراً ينتهي بعد سنتين. . هذا قرار نهائي. وبدأت الجزائر تزرع الغابة منذ أربع سنوات. أما الذين يزرعونها فهم الجنود، كل واحد يزرع أربعين شجرة يومياً. وهذه الزراعة للأشجار هي الخدمة العسكرية. وقد اختارت «وزارة الزراعة وحماية البيئة» أنواع الأشجار التي تناسب الارتفاعات المختلفة للجبال والسفوح. ومن آمال الجزائر من زراعة هذا الجمال والجلال أن تكون الأشجار مصدراً لثروة قومية هي بيع الأخشاب.

لقد تقرر ذلك وبدأ التنفيذ فوراً ودون أن يدري أحد!.

قارن هذا القرار بقرارنا بزراعة كوم أوشيم!!

وفي مدينة الإسماعيلية طالب المحافظ كل زائر للمدينة أن يزرع شجرة وكانت غابة صغيرة. وكان ذلك درساً تربوياً متواضعاً لعل الذين يزرعون شجرة في الإسماعيلية يفعلون نفس الشيء إذا عادوا إلى بلادهم.. ولم يكن أحد في مدينة الإسماعيلية في حاجة إلى هذا الدرس، فهم محبون للحياة الخضراء وللجمال.. وكانت هذه الغابة الصغيرة مدرسة لمحو أمية الذين لا يقرأون الأشجار، أو كانت تصحيحاً لعيونهم التي لا ترى إلا لون الرمال، فإذا رأت شجرة تشوه هذه الرمال، اقتلعوها.

وأصبحت غابة الإسماعيلية نكتة، ودليل إدانة لنا.. نحن سكان المدن الأخرى!!

فما هو الخطأ فينا؟

والجواب: أننا لا نعرف الفرق بين الوزارة والإدارة..

فالإدارة تضم جهاز الخبراء والمتخصصين في جميع الوزارات لتنفيذ السياسة الثابتة التي وضعتها الدولة بكل مؤسساتها.

أما الوزارة فهي «طاقم» الوزراء الذين يأتي بهم حزب الأغلبية.. إنهم مثل طاقم الطائرة وطاقم القيادة وطاقم المدرسين. أمامهم برنامج نوقش طويلاً، ثم انتهى إلى صيغة ثابتة معروفة. ومهمة هذا الطاقم هي تنفيذ الخطة،

مع شيء من المرونة.

والإدارة أبقى من الحكومة.

والوزير مثل مخرج أي فيلم - هو الذي ينسق أعمال المؤلف وكاتب السيناريو والحوار والمصور وصانع الماكياج وجميع الممثلين.. فالمخرج لا يظهر على الشاشة.. ولكنه موجود وراء كل شيء.

وفي تاريخ السينما عرفنا رجلاً واحداً كان المؤلف والبطل والموسيقار والممول والمخرج، وهو نموذج لا يصح أن يتكرر.. إنه: شارلي شابلين. وهو ظاهرة فريدة، ولكنه مثل أسلوبه في الضحك ظاهرة تاريخية، تلاشت وانقرضت، ومن الضروري أن يحدث لها ذلك!

والوزراء عندنا يطبقون فلسفة شارلي شابلن، دون أن يعرفوا ذلك.. أما نحن فنعرف هذه الصورة الهزلية..

وموقف الوزراء هذا يجعلنا نفرق بين نوعين من الحكومات..

الحكومة العلمية.

وحكومة العلماء..

والحكومة العلمية هي التي لها خطة ثابتة.. ومهما تغير الوزراء فإن الخطة لا تتغير.

وحكـومـة العلمــاء هي التي يكـون أعضــاؤهـا خبـراء متخصصين فيكون وزير الاقتصـاد أستاذاً في الجـامعة ووزيـر التـربية مـدرساً ووزيـر الصحة طبيبـاً ووزير الـداخلية ضـابطاً ووزراء الصنـاعـة والـزراعـة والكهـربـاء والمـواصـلات من المهندسين. . وهكذا.

ومشكلة هـذه الوزارة أن كـل واحـد من هؤلاء الخبـراء، يعيد صياغة الوزارة ومشاريعها من أول وجـديد. . كـأن أحداً لم يسبقـه إلى مقعده، كـأن أحداً لم يفعـل شيئـاً، ولم يشب شعره وينشف ريقه، ويموت ناقصـاً عمراً أو شـرفاً. . ولـذلك فالوزارة تهتـز وترتجف ـ والبلد أيضـاً. . لأن الوزيـر الجديـد سيعيـد تفنيط أوراق اللعب في الـوزارة وخـارجهـا. ومن أول واجبـات الوزيـر الجديـد ـ عادة ـ أن يثبت للنـاس جميعـاً أن سلفـه كان لا يفهم شيئـاً ولـذلـك كـان سبب كـل المصـائب التي سينقـذنا هـو منها لـو صبرنـا عليه قليـلاً. وبعد أن يثبت الوزير الجديد خـطأ الوزيـر السابق يبـدأ في العمل الشخصي الفـردي فيوقـع بإمضـائه على كـل قرار وكـل تصريـح، وهنـا يكـون العد التنـازلي قد بلغ الصفـر. فينطلق خـارج الـوزارة رئيساً لإحدى المؤسسات الاستثمارية.

ويجيء وزير جديد، والباقي أنت تعرفه.

وأستـطيـع أن أضـرب عشـرات الأمثلة على هـذا الخلل والبلبلة التي نعانيها من عشـرات السنين. . وأنت تعرف مثـل

الذي أعرفه وزيادة. . فما هو الحل؟.

والحل ليس بعيد المنال. والأسلوب ليس مبتكراً. . فقط أن نمشي وراء الدول التي قررت ونفذت وجربت ونجحت ثم انصرفت إلى قرارات أخرى!

لا بد أن نتخذ مرة واحدة قراراً قومياً من أجل القضاء على ضعف عام:

الأمية. . دودة القطن. . ردم المستنقعات. . البلهارسيا. . تحديد النسل. . نظافة الشوارع. . زراعة الأشجار. . تعميق القيم الأخلاقية والدينية في المدارس ومراجعة الكتب المقررة التي تسيء إلى الدين وتفسد عقول التلاميذ. . «الخدعة العامة» أقصد الخدمة العامة، التي لا هي عامة ولا هي خدمة. . الرياضة وزيادة الملاعب الرياضية. . المكتبات العامة في كل قرية وفي كل مؤسسة، وفي ذلك تنشيط لصناعة الكتاب، طباعة وتأليفاً وتسويقاً وتجويداً. . السياحة الداخلية ليسافر كل طلبة المدارس إلى كل المدن المصرية ويقيمون في الخيام أو تبني لهم الدولة فنادق من الدرجة الثالثة، بدلاً من أن تبني الفنادق لتكون غرفها شاغرة. . تحويل ألوف الطلبة إلى الصناعات اليدوية وبذلك نساهم في حل مشكلة العمال الحرفيين وزراعة الأرض وجني المحاصيل، بعد أن اختفى الفلاح المهاجر إلى المدينة وإلى الدول العربية الأخرى. . وإلخ. .

وليس مطلوباً حصر مشكلاتنا كلها. ولكن مطلوب اختيار واحدة أو اثنتين، ووضع برنامج زمني لإنجازها.. وأمامنا نموذجان عظيمان من عندنا ومن عند غيرنا: حرب أكتوبر.. وغابات الجزائر!.

درس من أمريكا:
أمة في خطر . .
وهذا هو العلاج!

لا فرق بين الرئيس الأمريكي والرئيس السوفيتي إذا تحدثا عن القوة والسلام. فكل منهما يرى أن بلاده هي الأقوى، لأن مبادئها السياسية والإنسانية هي الأصح، وأنه لذلك قادر على تحقيق السلام العالمي لولا أمريكا ـ إن كان المتحدث تشرينكو، ولولا روسيا ـ إن كان المتحدث ريجان . .

وأمريكا وروسيا متشابهتان لأنهما دولتان قد أدمنتا «المستقبل» . . فروسيا تدخر السعادة الإنسانية عند نهاية التاريخ، حين لا تكون صراعات بين الطبقات، فتتوقف كل محركات التاريخ، وتكون الجنة الموعودة للطبقة العاملة . . وأمريكا ترى أن الثراء لكل الناس هو نهاية التاريخ . . تصعد الطبقات الكادحة فتكون طبقة وسطى، والوسطى فتكون هي الرأسمالية المالكة لكل أدوات الإنتاج، وحين يصبح الخادم إنساناً آلياً . . فلا أحد يخدم أحداً. إنما كل شيء قد أصبح عند أطراف أصابعك، فأنت السيد لكل الذي حولك . .

ولا فرق بين الدولتين ففيهما أكبر مصانع للسلاح . .

وفيهما أكبر أجهزة للمخابرات. . وفيهما يتم تدبير كل مؤامرات قلب نظم الحكم في العالم كله. .

والدولتان تنقلان معاركهما العلمية التدميرية من الأرض إلى الدوران حولها وفي اتجاه الكواكب الأخرى. .

ونحن لا نفهم بوضوح ما يحدث في أمريكا وروسيا. . لأننا ننظر إليهما من خلال عواطفنا: الحب والكراهية والخوف والاستسلام. . وكلها مشاعر تفسد الوزن والحجم الحقيقي للأشياء والأشخاص والعلاقات. والمنظار الأسود كالمنظار الوردي، يخفي عنك اللون الحقيقي لما تراه. . والعدسة المحدبة كالعدسة المقعرة، تشوه أبعاد الدنيا حولنا. .

ولذلك فنحن لا نعرف بالضبط مدى صدق الذي نقرأه، أو الذي نسمعه عن هاتين الدولتين. وربما كان استعدادنا لتشويه صورة أمريكا أكثر - أي نبالغ في حسناتها أو نغالي في سيئاتها. .

فعندما نتحدث عن أمريكا تقفز إلى خيالنا: الأفلام الأمريكية. وأن الحياة هناك مثل هذه الأفلام - ثراء فاحش، وجرائم في كل مكان. وأن كل الناس أصحاب ملايين، وأن أقلية ضئيلة من اللصوص، ولكن اللصوص لأنهم أمريكان فهم عصابات منظمة على أسس علمية متطورة. .

وننسى أن «الفن» السينـائي هـو «تكثيف» لجـانب من الحيـاة. أي اختيـار مـادتـه ثم ربـطهـا وحبكهـا وعـرضهـا وإنهائها. . فلا الحياة كلها هكذا، ولا الناس جميعاً كـذلك، ولا كـل الأثريـاء لصوص علمـاء، وأغنيـاء يحكمـون. ولكن الطبيعي أن تجد في كل المجتمعات الـرأسماليـة، مثل هـذه العلاقات بدرجات متفاوتة. .

ثم إن صناعة السينمـا المتطورة هي مجمـوعة من العلوم والفنـون: علوم التجارة والإدارة وعلوم الأجهـزة المتطورة في التصوير والتحميض والتكبير، وفنون التصـوير والخـدع وفنون التمثيل والموسيقى والحوار والسناريو. .

وإذا كـانت أمريكـا دولة غنيـة، فهي لم تصبـح كـذلـك صـدفة. . ولا أصبـح أغنياؤهـا كذلـك بلا مجهـود، ولا تعب ولا فكـر. ثم إنهم لا يـرمـون فلوسهم في الأرض. إنمـا هـو مجتمـع ضخم عـامـل مجتهـد مبدع متنـافس. ومن العمـل المستمر والمنافسة المخيفة. يصبـح المليونيـر مليونيراً. . فلا نهاية لما يمكن أن يكسبه أي إنسـان إذاً. . إذا عمل واجتهـد ولم يتـوقف لحظة واحـدة عن المنافسـة، منافسـة الأمريكـان والأوروبيين واليابانيين وغيرهم. .

ونحن لا نعـرف الكثير عن الاتحـاد السوفيتي، إمـا لأننـا لا نقـرأ إلا القليـل. . وإمـا لأننـا لا نـرغب في ذلـك. وفي

الحالتين: نحن لا نعرف عنه ما يجعلنا قادرين على الحكم له أو عليه. ولكن روسيا دولة عظمى. تقف وراء الشعوب ضد أمريكا. وتقف ترسانة من السلاح المتطور. وهي أيضاً ترتاد الفضاء وتدور حول الكواكب. وهذا يدل على تطورها العلمي الهائل. بل إنها كانت أسبق من أمريكا في إطلاق أول قمر حول الأرض.. إذن فلدى روسيا من العلوم ما لدى أمريكا. والخلاف بينهما طفيف..

كما أنه لا خلاف في رغبة كل من الدولتين في السيطرة على العالم كله، وفرض نظريتها السياسية، أما الطريق إلى ذلك فلن يتم إلا بالقضاء على الدولة الأخرى ـ أي تقضي روسيا على أمريكا وأمريكا على روسيا. وليس هذا ممكناً.. وإن كانت الدولتان توكدان أن هذا ممكن، وأنهما لذلك يحاولان تأجيل هذا الموعد الذي هو نهاية الحضارة الإنسانية كلها..

وليس أسهل من أن تضع اسم تشريننكو بدلاً من اسم ريجان والعكس، في نهاية أي بيان سياسي. فكل واحد يقول للآخر: أنت السبب في كوارث الكرة الأرضية!..

وكل واحد منهما كاذب على حدة، ولكنهما معاً صادقان: لأنهما السبب!..

ولكن الفرق يظهر بينهما عندما يتحدثان عن الجوانب

الإنسانية. . وهذا ما لا نجده في خطاب الرئيس السوفيتي. فالفلسفة الماركسية منطقية حديدية ـ والإنسان ليس إلا مسماراً في جهاز كبير. وككل مسمار إذا انثنى أو انكسر أو أصبح «ناعماً» فلا بد من اقتلاعه حتى لا يتعطل الجهاز الكبير من أجل مسمار صغير. . فالمسمار من أجل الجهاز وليس العكس. والفرد من أجل الدولة، وليس العكس. . ولذلك لا أتوقع أن أجد عبارة رقيقة أو تعبيراً جميلاً. . لأن الرقة والجمال من صفات المتعطلين المتسكعين بين المصانع والحقول. وليس في روسيا هذا الطراز الفاسد من الناس. ولكن من الممكن أن نجد ذلك في أمريكا وكل الدول الرأسمالية. يعملون ويتذوقون. يأكلون ويستطعمون. يغنون ويرقصون.

ولذلك لم يدهشني أن أقرأ أن ريجان في خطابه إلى الشعب الأمريكي، مستهلاً رئاسته الثانية قد تحدث عن عنايته الفائقة بالشعر والموسيقى ـ أي تشجيعه لدراسة الشعر، وتعلم الموسيقى وتذوقها ونشرها بين الناس. وهو لم يكن يعبر عن ذوق خاص، باعتباره فناناً سابقاً، عرف فنون التمثيل والموسيقى والغناء. ولكن لأنه ما يزال فناناً. أي ما يزال إنساناً يعرف أن الفن بلا حرية ليس فناً. فالفنان هو الموهوب الذي يتذوق بحرية، وهو الذي يعبر بحرية أيضاً ـ ونجاح الفنان استفتاء حر بين الناس. فالناس

يختارونه بلا ضغط من أية قوة أو من أي أحد. فالحرية هي التي جعلت الناس يختارونه، والحرية هي التي ينتعش فيها نجاحه. فبغيرها لا شعر ولا موسيقى!..

وقد يتسابق المحللون السياسيون في تعديد إنجازات الرئيس الأمريكي ريجان من أجل اقتصاد بلاده وتطورها العلمي وسباقها النووي وانطلاقها الفضائي، ويضعون في مقدمة كل إنجازاته أنه أعاد الكرامة إلى أمريكا.. وأنه أعاد إليها روحها الشابة، وأعاد إلى الشباب جوهره الحقيقي: التسابق والفوز في النهاية، كما حدث في الدورة الأوليمبية..

ومن أجل كل هذه الإنجازات اختاره الشعب الأمريكي مرة أخرى: لأنه صورة نموذجية لما يحبه الأمريكان: الشيخ الشاب، البسيط المتفائل، الواثق من نفسه بلا غرور، الذي أطلق عليه الرصاص، فخرج من المستشفى سليماً، وكان ذلك دليلاً على تقدم الطب في أمريكا، وعلى أن السماء ادخرته لمهام أخرى، فهو رجل القدر!

ولكني أرى أن أعظم إنجازات ريجان، هو ما وعد به ـ أي أنه وعد فقط بإنجاز عظيم. هذا الوعد يدل على عمق وذكاء الإدارة الأمريكية. فهذه الإدارة لم يبهرها ما حققته أمريكا في كل الميادين. ولم يسكرها أنها ما تزال أقوى وأغنى..

فقد وعد الشعب الأمريكي بأن يصلح الخلل الذي أصابه. إذن فهناك خلل. نعم هذا الخلل هو أن الشعب الأمريكي «جاهل» وأن الذي يعلمه قليل عن نفسه وعن غيره. وأن خلاصة التعليم في أمريكا: قشور.. وخلاصة التربية: تفاهة! فالشعب الأمريكي سطحي الثقافة. ولأنه سطحي، فقد نقص عدد المثقفين. وبسبب نقص المثقفين تضاءل عدد المخترعين. ولضآلة المخترعين، تقدمت اليابان وألمانيا وبريطانيا وفرنسا على أمريكا. وإذا نظر الأمريكان إلى محلاتهم التجارية فوجدوا كل البضائع الأجنبية أجمل وأرخص، فليس سبب ذلك أن الشعوب التي أنتجتها أفضل، إنما لأن الشعب الأمريكي الذي هو أفضل قد تراخى وتكاسل وانزوى وانطوى سعيداً بقشور المعلومات، وتفاهة الدراسات، وسطحية الثقافة. واللوم يقع على الدولة.. وعلى الجامعات والمعاهد وعلى أولياء الأمور.

وبدلاً من أن يتسابق الشعب الأمريكي في إلقاء الطوب والطين، حتى يصبح البيت الأبيض أسود اللون، وحتى لا يبكي الشعب على الحكومة، وتلطم الحكومة خديها - الكونجرس والشيوخ - فقد انتقل الرئيس الأمريكي إلى علاج المرض القومي - أي لم يكتف بأن وضع أصبعه على مكان المرض، إنما جمع الأطباء. وطلب إليهم علاج أمريكا لتستأنف تقدمها على كل الشعوب..

فتشكلت لجنة ـ وليست كاللجان التي نعرفها وعشنا عليها ومتنا بسببها ـ وهذه اللجنة تضم عباقرة التعليم والتربية. واتخذت اللجنة أول قرار لها: أن تظل منعقدة إلى نهاية القرن..

أي حتى يتأكد لديها تماماً أنها وجدت الحلول النهائية لإصلاح الحياة التربوية والعلمية في أمريكا. وأنها قادرة على أن تتفوق على الدول المنافسة لها.. وبعد أن تطمئن إلى ذلك تماماً، فسوف تنحل هذه اللجنة التي قررت أن تنعقد ١٦ عاماً. وهذا القرار يدل على خطورة المهمة، ويدل على فداحة المسؤولية. وعلى أنها قادرة على أن تجد حلاً.

ويوم أطلق الروس أول قمر حول الأرض، روعت أمريكا. ومكث علماؤها يتساءلون: ما الذي جعل الروس يسبقوننا؟..

وكانت عشرات الإجابات. من بينها أن الطفل الروسي يدرس الهندسة والجبر في رياض الأطفال!..

وقيل أيضاً: إن الأب الروسي لا يدلل أولاده!..

وقيل: إن الأطفال الروس لا يتفرجون كثيراً على التليفزيون!..

أي أن التقدم سببه الطفولة الروسية الجادة.. فمن

الطفل الجاد، يولد الشاب الجاد، ومن الشباب الجاد، تتفجر العبقرية الإبداعية! . .

وقيل أيضاً: في غياب الزوج الروسي تقوم الأم بكل العمل. .

وقيل أيضاً: لأن الروس «يسيسون» كل شيء. . فالتفوق العلمي معناه تفوق النظرية الماركسية على النظرية الرأسمالية. ومعناه أن روسيا أفضل من أمريكا! . .

ولم يمض وقت طويل، حتى أطلق الأمريكان قمرهم الأول. وعرف الأمريكان أن هذا القمر الذي أخرجه العالم الألماني فون براون، كان من الممكن إطلاقه قبل ذلك بسنوات. . لولا البيروقراطية الأمريكية. . إنه إذن ـ الروتين والعقول الجامدة، التي لم تر العائد المادي لإطلاق جهاز معدني صغير يدور حول الأرض ويطلق صوتاً: بيب بيب. . ويتكلف مئات الملايين من الدولارات! . .

ولم يكن إلا جهازاً بدائياً أطلقه الروس حول الأرض، فاهتزت الكرامة العلمية والكبرياء القومية واحتشد الأمريكان وراء هيئة الفضاء، يقدمون لها ألوف الملايين من الدولارات لكي تظل أمريكا في السماء. ولكن بعد الذي أصاب الشعب الأمريكي في هزيمة فيتنام، وبعد احتجاز الرهائن الأمريكان في طهران، وفشل محاولة إنقاذهم، وبعد الزحف

الياباني الألماني البريطاني الفرنسي على الاختراعات الأمريكية كان لا بد من وقفة للفهم، وفهم للعلاج . .

وفي هذا المكان تعرضت للتقرير الذي قدمه العلماء الأمريكان للرئيس ريجان بعنوان «أمة في خطر» وكتبت مقالاً وثلاثة. وقرأها الرئيس مبارك، وبعث بها للدكتور مصطفى كمال حلمي. وكتب د. مصطفى كمال حلمي عرضاً ثم ترجمة لهذا التقرير. ثم مقالين طويلين عن إنجازات التربية والتعليم من أجل إنقاذ ما يمكن إنقاذه من الروح المصرية المنهارة. . وبعد ذلك لا شيء. .

ولم يكن هذا التقرير خاصاً بالتعليم والتربية في المدارس والجامعات فقط، إنما تحدث عن العلم والعلماء، ومعاملتهم والاستفادة منهم وتشجيعهم. ودعوة الهيئات العلمية والمؤسسات الاقتصادية على أن تساعد الدولة في خلق الجو العلمي النظيف، حتى يتمكن العلماء من الإبداع . .

ولم يكن هذا التقرير موجهاً إلى نظار المدارس وعمداء الكليات والقساوسة، إنما للآباء والأمهات والأدباء والشعراء وأصحاب الملايين. فالهدف هو: إنقاذ أمريكا اليوم وغداً وبعد غد! . .

فلقد جاء في التقرير أن حياة الكافتيريا قد سيطرت

على أسلوب التفاهم بين الطلبة. فهم يجتمعون فيها. يتكلمون خطفاً، وكذلك يأكلون ويشربون. ثم ينطلقون إلى خارجها.. إلى قاعات المحاضرات والمعامل أو بعيداً عنها.. وعادة الخطف في الأكل، أصبحت هي أسلوبهم في جمع المعلومات أيضاً. فقد اعتاد الطلبة على أن يأكلوا ويشربوا وهم يتفرجون على التليفزيون.. لقد اختفت المائدة أو الترابيزة التي تجلس إليها الأسرة والأولاد يأكلون ويمضغون على مهل ويتناقشون ويسمعون إلى النصيحة الرقيقة، ويستفيدون من تجارب الأبوين..

إذن فلم يكن هذا التقرير موجهاً إلى وزير التربية والتعليم فقط، إنما لكل الوزراء والناس.. إلى الأمة. لأنه يقرر بموضوعية: أن الشعب في خطر، وأن على الشعب أن ينقذ نفسه من نفسه وبنفسه!..

صحيح أن هذا التقرير لم تظهر له نتائج بعد، ولذلك فلا يمكن أن يوصف بأنه إنجاز عظيم.

ولكن التقرير هو تشخيص عظيم، لإنجاز سوف يكون أعظم. ومن أجل ذلك يستحق الرئيس الأمريكي ريجان عظيم الاحترام من شعبه.. ومن كل الذين أثقلهم الهم والغم على ما أصاب شعوبهم التي لم تعد تعرف أين رأسها وأين رجلاها ـ نحن مثلاً.

ليست الأبواب ولكن الطريق إليها!

الجامعة ليست مكاناً لعبادة الكتب، أو إطلاق البخور الأدبي، وإقامة الطقوس الفلسفية، وتعميق الشعوذة الإدارية، وتنظير الدروشة السياسية، وتطوير الوثنية الدينية.. إنما الجامعة هي مكان عظيم الاحترام لولادة الأفكار الجديدة، وحضانتها ـ أي خلق مستقبل أفضل!

وليس من المفاخر أن يكون للجامعة ألف باب للدخول وألوف للخروج.. ولكن الأهم هو الطريق إلى هذه الأبواب والطريق منها. فكثرة الأبواب هي التي نسميها: تكافؤ الفرص للناس من كل لون وطبقة ودين وجنس، ولذلك يجب أن يكون الطالب مسلحاً بالعلم ذهاباً وإياباً. لأننا نعيش في عصر العلم.

أما الهدف من دخول الجامعات عندنا الآن فقد أصبح شيئاً مختلفاً عما كان عليه من خمسين عاماً.. ولذلك فهي قد تجاوزت عمرها الافتراضي. فنحن أقمنا الجامعات للعلم.. لا ليدخلها الطلبة من كل الأبواب دون أن يحمل الواحد إذناً بذلك، فهم لا يدخلون الأبواب وإنما أصبحوا

يقتحمونها. وعندما يتخرجون فليسوا مسلحين بشيء. فإذا أوجدت الدولة لهم عملاً رغم ذلك فكأنها قد ساهمت في البطالة المقنعة، وشاركت أيضاً في التسيب. لأنها أدخلت من لا يستحق الدخول، وعينت من لا يستحق ذلك. ولا لوم على الطالب داخلاً أو خارجاً. إنه وجد باباً فدخل، ووجد باباً فخرج. ووجد مقعداً فجلس، ومرتباً فقبض وتدليلاً من كل الأجهزة فركب أرجوحة الاستخفاف فتراخى: لا يبالي ولا ينتمي؟!

إذن فهذا هو الطراز من الطلبة الذين «أنتجناه». . فإذا وضع الواحد منهم ساقاً على ساق وراح يأمر أباه وينهي أمه، فلا لوم عليه. . أليس عالماً جليلاً؟ أليس موظفاً كبيراً؟

إننا نعيش في عصر انشغل فيه الطلبة بتربية آبائهم، وابتزاز أمهاتهم، حتى لم يعد لديهم وقت للمذاكرة!

فما الذي يحدث في بلاد أفضل وأكثر تقدماً؟

في ألمانيا مثلاً. ينشرون على الطلبة «دليلاً» سنوياً. في هذا الدليل كل ما تحتاج إليه الجامعات من طلبة. وكل ما يريده الطلبة أيضاً. فالطالب الذي يريد أن يتخصص مثلاً في مقاومة (فئران الحقل) سوف يجد في هذا الدليل: أن المطلوب بعد خمس سنوات عشرة من المتخصصين. بشرط أن يحصل الواحد على درجة الامتياز. إذن فلقد عرف

الطالب مخاطر هذا التخصص. وعليه - إن أراد - أن يستعد له من الآن. والطالب الذي يريد أن يتخصص في الفلسفة الإسلامية، سوف يجد أن هذا التخصص ليس مطلوباً في السنوات الأربع القادمة. وعليه أن يبحث عن تخصص آخر. فيجد أن التخصص المطلوب هو في «التصوف وعلاقته بالمخدرات والاغتيال في إيران وسوريا وتركيا» مثلاً. هنايجب أن يقرر الطالب بينه وبين نفسه إن كان قادراً على الخوض في أمواج هذا البحر من المذاهب الدينية والجماعات السرية والاضطرابات السياسية في الشرق الأوسط.

مثلاً.. مكتوب في هذا الدليل عام ٨٤ و١٩٨٥ أن الدولة ليست في حاجة إلى أطباء في السنوات الخمس القادمة. فقد بلغت مرحلة الاكتفاء، بل إن ألمانيا قد طلبت من جميع الأطباء الأجانب، ومن بينهم المصريون أن يتركوا البلاد، وسوف تدفع لهم تعويضاً سخياً، وتساعدهم أيضاً على تجهيز العيادات والمستشفيات في بلادهم. ولكن أكثرهم رفض. وهكذا ظل عشرات المئات من الأطباء الألمان بلا عمل. وحتى لا تتضاعف هذه البطالة فقد أنذرت الذين يدخلون كليات الطب: أن دخولهم وخروجهم على مسؤوليتهم وحدهم - إلا إذا تفوقوا تفوقاً عبقرياً أو وجدوا عملاً في أي بلد آخر!

فالطالب ـ إذن ـ يعرف بصورة مؤكدة مستقبله. وهو وحده الذي يختار الباب الذي سوف يدخله، والطريق الذي سوف يخرج إليه. وفي جميع الأحوال فالدولة لا تنفق إلا على المتفوقين فقط ـ في الدول الاشتراكية وفي الدول الرأسمالية أيضاً!.

ولكن في مصر: عندنا الإنتاج بالجملة..

فالدراسة ليست مثل الصناعات اليدوية الدقيقة الأنيقة. والفرق بين الطلبة عندنا والطلبة عند غيرنا أن التعليم عندنا: ملابس جاهزة، والتعليم عندهم: تفصيل.. أي على قدر الطالب، ووفاء لاحتياجات المجتمع..

فما الذي حدث في الجامعة وحدث لها؟ هناك طريقتان لمعرفة أعماق مصر: أن تمشي في شوارعها، وأن تدخل جامعاتها. فليس إلا الزحام، والزحام يجعل الناس يضغطون بعضهم على بعض. يتضاربون بالأقدام والأكتاف والرؤوس. ومن هذا الزحام والاختناق في الطابور، وفي الأوتوبيس، وفي المدرجات والمستشفيات والإدارات العامة تتولد الرغبة في العدوان. انظر إلى نفسك وقد هبت الريح عنيفة على وجهك. إنك تكشر، وتقرب المسافة بين حاجبيك، وتزم شفتيك وتتحفز، لأن عدواناً قد وقع عليك.. وكذلك كل الناس ضغط وتضاغط، وتكشير عن أنياب، واحتشاد

الألفـاظ عنـد طـرف لسـانـك وأظـافـرك، وشعـرك يقف على حيله. لماذا؟ إنه الزحام. .

ثم إن هـذا الزحـام يجعل من الصعب عليـك أن تكـون طـالباً للعلم، حتى لـو أردت. ومن الصعب على الأستـاذ أن يكـون معلمـاً حتى لـو صـدقت نيتـه. . فـلا هـو استـطاع أن يقـول، ولا أنت استطعت أن تسمـع. وإذا لم تفهم، وبحثت عن الأستـاذ كان الـطابور الـذي تمشي فيه طـويلاً: مـظاهـرة خـرساء. . لا أول لهـا ولا آخر. . ولا معنى أيضـاً. ولـذلـك فأنت تجعل من نفسـك طابـوراً، وتجعل من مشيتـك مسيرة، ومن ضيقـك الخـاص سخـطاً. . ثم تنضم إلى السـاخـطين، ولنفس السبب، أو لأسباب أخرى من السياسة ومن الدين.

ومعنى آخر يتولد من الزحام: الخوف. . فالطالب الـذي يـزاحم الآخرين يتـولاه الخوف، إذ كيف يستـطيع أن يتفـوق على كل هؤلاء، وهو ليس واضـح المعالم بينهم، . ولا يـرى علامات الطريق إلى الأستاذ.

وشعـور آخر هـو أن أحداً لا يـريده بصفـة خاصـة، فهـو ليس إلا واحداً من عشرات الألـوف. ولو كـانت السماء تـريد أن تخصـه بشيء لجعلته ابنـاً لأستـاذ أو عميـد أو وزيـر. . أو لأتت به في عصور سابقة، يـوم كان المـدرج يضم عشرة من الـطلبـة. إذن فـلا هـو قـادر على أن يكـون طـالبـاً، ولا هـو مطلوب له أن يتفوق. فهو مثل كل النـاس بلا قـدرات فريـدة

وظروف سعيدة. . وسوف يلقى مصير عشرات الألوف.

أما «دليل» دخول الجامعة عندنا فهو: المجموع. إذا كان الطالب قد حصل على كذا وتسعين في المائة، فسوف يدخل كلية الطب، أو كلية الهندسة. . ولكن لم نسمع قط أن طالباً حصل على هذه النسبة العالية ثم اختار كلية الآداب (قسم الدراسات الشرقية): ليتعلم اللغتين الفارسية والتركية. . لماذا؟ لأنه عندما دخل شعبة العلوم كانت هذه رغبة أبيه، ولكن عندما دخل كلية الآداب كانت هذه إرادته. وما دامت هذه رغبته، فسوف يتفوق في هذا المجال ـ لم أسمع عن شيء من ذلك!

وكنا نتصور فيما مضى أن الأستاذ هو الشخص الوحيد الذي دخل الجامعة ولم يخرج منها، أما الآن فهم الطلبة الفاشلون، دخلوا كأنهم ما دخلوا، وخرجوا كأنهم ما خرجوا. ولذلك فهم غير قادرين على أن يفيدوا أحداً ـ ولا حتى أنفسهم!

فنحن جعلنا التعليم من حق كل الناس. شيء عظيم. فقد طال حرمان الفقراء من الدراسات العليا. ولكن نحن فتحنا الأبواب بلا حدود. بل إننا افترضنا مقدماً أن ينجح الطالب. لا بد أن ينجح حتى إذا لم يذاكر. ولهذا لم يحدث ولو مرة واحدة، أن جاءت امتحانات عامة لم نتهم فيها الأساتذة بأنهم وضعوا أسئلة صعبة أو من خارج

المقـرر. وليس ذلك صحيحـاً دائماً. ولكن الصحيـح هـو أن لدينا شعـوراً عميقاً، بـأن الأسئلة يجب أن تكون سهلة. لكي ينجح الطالب، حتى ولـو لم يبذل جهـداً، فالامتحـانات هي الوسيلة الوحيدة. . والنجاح هـو الهدف الأوحـد. . ولا يهمنا كثيـراً: أن الـطالب لا يصـح أن يتهم كـل النـاس قبـل أن يمتحن، وقبـل أن تظهـر النتيجـة، وبعـد ظهـورهـا. فـإن لم يكن هذا إفساداً للطلبة، وإهانـة للأسـاتذة، وتحقيـراً للعلـم، فهـو تدليـل للطالب. . . وهو جـزء من التـدليـل العـام لكـل النـاس، والمشاركـة الرسميـة في التزويـر والتزييـف للحقـوق والواجبات ـ بل للحقوق بلا واجبات!

لقـد كان من الضـروري أن نـوقف الـزحف المتـواصـل على الجامعات والمعـاهد. وأن نجعـل الطريق إلى الجـامعة أضيق وأشق. فـالدولـة فقيرة في أمـوالها، ولـذلـك يجب أن تنفق القليـل الـذي لـديهـا، على المـواهب القليلة. وليس القليل الذي لديها على مئـات الألوف من الـذين بلا مـوهبة. أي يجب أن تكـون لدى الـدولة خـطة معلنة عن احتيـاجاتهـا لكـل أنواع الـدراسـات والتخصصات ـ أكثـر الـدول العلميـة والصناعية تفعل ذلك!

ونحن في عصـر السـد العـالي ـ أي البنـاء الضـخم الشـامـخ الـذي أقمنـاه في طـريق تـدفق النيـل إلى البحـر. لنـوقف المـاء بعض الـوقت، قبـل أن يتـلاشى في البحـر.

ونـدخـره ونستثمـره. نـدخـره في البحيـرة، ونستثمـره بـأن نـدير التـوربينات لتـوليـد الـطاقـة الكهـربيـة . أي أننـا نقـوم بتـرشيد تـدفق الماء وتعقيله ـ أي بـأن يكون لـه عقـل. هـذه إحدى علامات العصر.

ولكن حـدث في نفس الـوقت أيضـاً أن صنعت مصـر صاروخين: القاهر والظافر. لقد انـطلق الاثنان إلى الفضـاء، ولم يصيبـا هدفـاً، فالصـاروخ ـ هكذا ـ قـوة غاشمـة لأنه بـلا عقل. وبلا خطة وبلا هدف ـ أي بلا دليل!.

واعتقـد أن الجامعـات عندنـا قـد أصبحت مثـل القـاهـر والظاهر، ولكن بصـورة أخطر وأفـدح: قوة هـائلة مندفعـة بلا خطة.. بلا رشد.. بلا عقل!

وهي كذلك لأن أحـداً لا يعرف مـاذا يريـد بالتحـديد.. ولا الدولة تعرف ما الذي أرادته له!

فـانعـدام الـرأي، وانعـدام الـرؤيـة، وضـلال الإرادة، وغيـاب الهـدف، قـد أدى إلى هـذا العنف.. إلى العـدوان على الغيـر، والعـدوان عـلى النفس بـالهـرب والإدمـان واللامبالاة!

مثـل آخر: هـذه الأهرامـات وكل المعـابد الفـرعـونيـة. كـانت أمامنـا، ولكننـا لم نعـرف مـا هي.. كـانت وكأننا لا نراها، حتى جـاء العالم الفـرنسي شامبليـون فاكتشف «حجـر

رشيد». . أي «دليل التاريخ الفرعوني». . أي دفتر «الشفرة» الذي استطعنا به أن نفك طلاسم هذه الآثار الرائعة. فبعد حجر رشيد اكتشفنا الأهرامات، لأنها رغم وضوحها وبروزها، كانت مجهولة لنا. . فأكثر الأشياء بروزاً ووضوحاً من الممكن أن تكون أكثر غموضاً، لأننا لا نعرف ما هي. . ولا الطريق إليها. . ولا المدخل والمخرج منها.

فالطلبة والخريجون مثل أحجار الأهرام تكدست وترسخت بعضها فوق بعض، ولكن ما هو المعنى؟ ما هو الهدف؟ ما هو دورنا في بناء الإنسان!

لا بد من «حجر رشيد». . ولا بد من تفسير لهذه المفردات، لا بد من هدف لهذا البناء، لا بد من دلالة لهذا التدفق، لا بد من علامات على الطريق.

وطبيعي جداً أن يخرج المصريون من مصر يدقون أبواب الرزق في القارات الخمس. إنها مغامرة تماماً وعلى مسؤوليتهم وحدهم. كثيرون نجحوا. وكثيرون أيضاً فشلوا، وبدلاً من أن يعودوا إلى مصر منكسي الرأس مكسوري القلب، وأكثر سخطاً على الذين علموهم فلم يعلموهم شيئاً ينفعهم، ولذلك فهم يفضلون البقاء هناك، يعملون أي شيء، ابتداء من كنس الأرض وغسل الأطباق وحمل الزبالة ـ وأول ما يضعون في الزبالة هذه الشهادات التي حصلوا عليها!

إن دولاً كثيرة ترسم خريطة العمل في الخارج. فيعرف المهاجر أين يبيع تخصصه؟ أين يحتاج إليه الآخرون، وما الذي يحتاجون وكم يدفعون؟ كل ذلك يعرفه قبل أن يتخرج في الجامعة، بل قبل أن يدخلها..

ولأن المصريين ـ نحن جميعاً ـ قد اعتدنا على أن نعتمد على الدولة في كل شيء، حتى إذا هاجرنا إلى بلاد أخرى ووجدنا حياة أفضل. ولذلك لا نفكر، ولا يشجعنا أحد على أن نتوطن نهائياً ونتجنس. ونظل دائماً مصريين. مثلاً: لو أن في ليبيا مليونا من أصل مصري، لأصبحوا قوة محركة لتدعيم العلاقة بين البلدين..

فلأنهم مصريون سوف يسافرون إلى مصر ويشترون منتجاتها، ويصطافون على شواطئها، ويعلمون أولادهم في جامعاتها.. فهم ـ في جميع الأحوال ـ مصريون.. لو كان لنا مثل عدد اليهود في أمريكا: أربعة ملايين، لكان لنا رأي وموقف، ولوجدنا من يساعدنا على مهمتنا الشاقة في المؤسسات الأمريكية.

ولكن نحن نعطي انطباعاً للمهاجر المصري أنه «بركة يا جامع» أي أنه أراحنا بخروجه.. وإذا كانت في مصر أزمة قلل وبلاليص، فلأننا كسرنا الكثير منها وراء المهاجرين والخريجين! وهي خسارة علينا في الداخل

والخارج. والسبب هو: أنه لا برنامج للتعليم المفيد حقاً ولا برنامج للعامل في الداخل أو الخارج!

أمريكا نفسها أغنى وأعظم دولة، أحست فجأة بأن الطلبة لا يذهبون إلى الجامعة، وإنما إلى الكافيتريا. ولا يتعلمون وإنما يتسلون بالحديث عن ذلك.. وأن أولياء الأمور غائبون.. فأمريكا قد استشعرت غياباً كاسحاً. الطالب لا يحضر والمدرس لا يجد أحداً، والآباء يقابلون أولادهم بالصدفة.. وأجهزة الدولة غارقة في بناء سفن الفضاء، والتدريبات على الحرب في أوروبا واليابان.. بينما ظهر التفوق الياباني في الصناعة والتجارة، والتزاحم الألماني والانجليزي والفرنسي.. ولا بد لها أن تتدارك قوتها وعظمتها.. أي لا بد أن تبحث عن مصادر جديدة للموهبة ومنابع للعبقرية..

أي لماذا هي ضحلة؟ ولماذا ملايين الطلبة تافهون سطحيون؟

لماذا هم: يتامى؟ فليس اليتيم من مات أبواه، ولكن من عاش أبواه، وكأنهما في عداد الموتى.. وليس المواطن اليتيم هو الذي نام وقام فلم يجد الحكومة، وإنما هو الذي نام. وقام فوجد الحكومة هي النائمة!

ولذلك أعلنت أمريكا حالة الحرب.. وحشدت كل

علمائها وخبرائها من أجل المعركة الوحيدة على أرضها ـ فأمريكا لم تحارب على أرضها قط ـ إلا هذه المرة، فهي تحارب نفسها على أرضها. من أجل صناعة أفضل وتقدم أعمق، ومستقبل أعظم، حتى لا يغزوها ويقهرها على أرضها وفي معاهدها جيوش العلماء والعباقرة والتجار من آسيا وأوروبا.

وإلا فلا فرق بين الشوارع والجامعات.. فالجامعات شوارع لها قباب.. والشوارع جامعات بلا أبواب!

هو: لا يبالي
وأنت: لا تبالي
وهذه هي النتيجة!

ذهب ذلك الزمان ولن يعود، عندما جاء هيرودوت «أبو المؤرخين» إلى مصر من خمسة وعشرين قرناً، فأعجب بصحة الكهنة المصريين لأنهم يستحمون مرتين في الصباح ومرتين في المساء ويتعاطون «الشرب» مرة كل شهر. . فتكون لهم النظافة في الداخل والخارج. . وقد اندهش هيرودوت كيف أن المصريين جميعاً لا يأكلون الفول: لا أخضر ولا مسلوقاً. ولذلك فمصر لم تزرع الفول. وإن وجدوه نباتاً شيطانياً في الحقول داسوه بالأقدام ورفضوا أن يقتلعوه حتى لا تتلوث أيديهم!

ونسينا ـ ونحن نتباهى دائماً بأن أجدادنا أقاموا الأهرامات وأنشأوا أول حكومة في التاريخ ـ أنهم كانوا «لا يتفولون» ـ أي لا يأكلون الفول ـ ولسبب ما أقبلنا على «التفول» في الشارع وفي المكاتب. واستراح كثير من المفكرين المصريين إلى أنه سبب التراخي عندنا، وأنه هو الذي دفعنا إلى الاستماع إلى أغنيات أم كلثوم الطويلة وتشجيعها على أن تغني وتقول: يطولوك يا ليل. . والسبب:

هو الفول والحشيش.

وعندما جاء كوكتو ـ أديب فرنسا ـ إلى مصر وصف أمراضها بأنها في ثلاث كلمات تنتهي بحرف الشين: حشيش، بقشيش، معلهش. وكانت هذه الكلمات هي الأهرامات الثلاثة التي كتمت أنفاس المصريين، وعوقت النهضة الحديثة.

ثم أضافوا إليها عبارة نسبت إلى سعد زغلول تقول: مافيش.. فايدة.

وقيل أيضاً أن انخفاض سعر الفول وسهولة طبخه، هما اللذان جعلا المصريين يرضون بالقليل من الطعام، ونحن الآن لم نعد نرضى بالقليل من هذا الطعام، فقد ارتفع سعره، فالطفل لم يعد يشبع بأقل من طبق بخمسين قرشاً، فإذا كان هناك عدد أكثر من الأولاد فإنهم يوزعون الفول بينهم مثل حبات الفستق!

وظهر في الحياة المصرية ما هو أصعب من ذلك، فأصاب مصر ما أصاب أمريكا بعد نكستها في فيتنام. وروسيا بعد نكستها في أفغانستان، فبعد نكسة مصر ـ بعد ٦٧ ـ وبعد الخلل الذي أصاب المثل العليا عندنا، حارت عيون المصريين وعقولهم بعيداً عن شخصية البطل أو الذي أصبح بطلاً في حياتنا.. بعيداً عن جمال عبد الناصر بطل

الثورة السياسية والنكسة العسكرية، وعن السادات بطل الحرب والسلام.

فماذا حدث لأمريكا في فيتنام وبعد فيتنام؟!..: كان من أثر معاناة الهزيمة العسكرية والجرح الذي نزفت منه الكبرياء الأمريكية أن اتجه الجنود الشبان إلى تعاطي المخدرات. أي إلى الغيبوبة: أي الشعور بالغياب أمام الهدف الذي جاءوا من أجله وهو قتل الفيتناميين، انتصاراً للمثل العليا الأمريكية في النصر، وسحق القوة الماركسية في كل مكان. فالأمريكان يؤمنون ـ كما قال ريجان منذ أيام ـ بأن الهدف الأعلى للماركسية هو إعادة تقسيم الحدود في العالم، أما أمريكا فسوف تسقط ثمرة متعفنة من تلقاء نفسها. ولذلك فالأمريكان حريصون على إسقاط روسيا قبل أن تسقطهم، فبدأوا الطريق إلى روسيا من فيتنام، ولم تسقط لا فيتنام ولا روسيا، ولا يزال القتال مستمراً بأسلحة وأساليب أخرى على الأرض وبين الكواكب، فلما عاد هؤلاء الجنود مهزومين مقهورين يجللهم العار غابوا مرة أخرى عن المجتمع الأمريكي بالمخدرات.

وكذلك أصيبت القوات السوفيتية في أفغانستان. فالحرب طويلة والجنود شبان بعيدون عن أوطانهم، وهم أيضاً صدمتهم الجبال الأفغانية والصلابة الإسلامية، ودارت المعارك بين حقول الحشيش في أفغانستان، فباع الجنود

ملابسهم وأسلحتهم من أجل تعاطي المخدرات.

وفي إسرائيل أيضاً أدمنوا المخدرات فرحة بنصرهم سنة ٦٧ وتستراً على عارهم سنة ٧٣.

وبعد النكسة المصرية انهزمت مصر معنوياً وقهرت تاريخياً وتحيرت الرؤوس وداخت العقول، فكل واحد يريد، ولا يجد مقعداً في أتوبيس أو في مكتب، ولا سريراً في مسكن أو في مستشفى، ولا نظرية في السياسة أو في الدين، ولا صورة للمستقبل في الصحف أو الفنجان.. وكان الذي نعرفه ونشكو منه الآن. وسوف يستفحل ذلك عند كل الطبقات وفي كل سن صغيرة وكبيرة ـ عند الصغار أكثر.

ونحن لا نعرف بالضبط ما الذي سوف يصيبنا، ولكن نعرف ما الذي أدركته الدول الأخرى الكبيرة، أما الصين فقد سبقت العالم كله عندما أعلنت حربها على الأفيون فأعدمت التاجر والمدمن، وأما الاتحاد السوفيتي في عهد جورباتشوف فقد شدد الأحكام على الذين يترنحون من الخمر في الشارع أو في المكاتب أو المصانع..

ومن ثلاثين عاماً اتخذ منديس فرانس ـ رئيس وزراء فرنسا ـ شعاراً: «اشرب لبناً: إذا أكلت فاشرب لبناً، وإذا نمت فاشرب لبناً، وإذا صحوت فاشرب لبناً، ففي ذلك بناء

لصحتك، وفي صحتك بناء لفرنسا».

وكان ذلك لمقاومة إدمان الخمور.

ومنذ أيام أعلنت إحدى لجان التربية في أمريكا نتائج أبحاثها على الشباب وماذا طرأ عليهم في الخمسة والعشرين عاماً الماضية، وقد كشف هذا التقرير أن مليونين ونصف مليون شاب فيما بين ١٥ و٢٠ عاماً يعتبرون خسارة على أمريكا، لأنهم لا يعملون، وإذا عملوا لا ينتجون، والسبب هو الادمان، والانحراف، والحمل بلا زواج عند الفتيات، وانتحار شاب كل تسعين دقيقة.

ولكن ما الذي انحرف بهؤلاء الشبان إلى العنف والجريمة والإدمان والانحلال والإسراف في الجنس؟!.

يقول التقرير الأمريكي: أول هذه الأسباب هو التفكك العائلي، أي أن هؤلاء الشبان في حالة انفكاك.. انفلات.. فالأبوان لا وجود لهما في حياة الشبان. وإن وجدا فلا أثر لهما. وإن كان لهما أثر فهو السلبية المطلقة. فالشاب الأمريكي يشارك أباه في التدخين وفي شرب الخمر، ولا يرى سبباً معقولاً لاحترام والده ولا سبباً وجيهاً للأخذ برأيه أو بمشورة والدته.. أحد الشبان قال لهذه اللجنة: إن والدي ليس إلا رجلاً غريباً أراه من حين إلى حين في بيتنا، ولولا أنني على يقين من أنه مرتبط بعقد

زواج مع والدتي لأغلقت الباب في وجهه.

كما أنهم لاحظوا أنه لا أثر للأندية الرياضية أو الجمعيات ذات النشاط الاجتماعي أو الجماعات الدينية، ورجال الكنيسة لا أثر لهم في حياة الشبان، وإذا كان هناك أي أثر فإن التليفزيون الأمريكي بقنواته الأربعين قادر على سحق كل ذلك في أقل من رقصة أو أغنية أو إعلان يقول: اشتر هذه الفيتامينات ذات القوة الجنسية الخارقة، انهض فوراً!

ويقول التقرير الأمريكي «٣٤ صفحة» إن عدد الذين يدمنون المخدرات من الشبان قد زاد ٦٥٪ في الخمسة والعشرين عاماً الماضية، وعدد الفتيات الحاملات بلا زواج قد زاد ١٢٠٪ وحوادث القتل والانتحار زادت ٢٥٣٪.

ويجب على الشعب الأمريكي أن يتوجه بعظيم الشكر للشعب الياباني الذي أدت عبقريته في التنظيم والإدارة والاختراع إلى زلزلة الرأي العالم الأمريكي، فقام الخبراء الأمريكان في حالة من الفزع يبحثون عن أسباب التخلف الصناعي والإبداعي في بلادهم، فكانت لجان التربية والتعليم والبرامج وتخطيط الأسرة كلها تبحث في أعماق المواطن الأمريكي عن سبب هذه الكارثة.

وعرفوا السبب. يبقى أن يعالجوا هذه الظاهرة المرضية

التي اكتسحت الشباب في أمريكا وفي أوروبا. . حتى اليابان نفسها بدأت تشكو هي الأخرى من بداية عدم الانضباط بين العمال، فقد أدى بهم الانضباط الشديد في البيت والمصنع إلى الانفلات من ذلك بإدمان الخمور، ويبحث العلماء اليابانيون عن مواد كيماوية تضاف إلى الخمور لتقلل أثرها على العمال، ولكن خبراء آخرين يعارضون هذا الاتجاه لأنهم يرون أن الإنسان كما أنه حيوان متدين فهو أيضاً حيوان مدمن، فإذا لم يجد الأفيون فسوف يتجه إلى الحشيش. وإذا لم يجد الحشيش فسوف يدمن الخمور، وإذا لم يجدها فإنه لا بد أن يدمن سلوكاً أو نظرية. أي لا بد أن يتطرف. والتطرف معناه: إلغاء كل الطرق والنظريات والاكتفاء بطريق واحد ونظرة واحدة. وفي ذلك إهدار لحرية التفكير وإرادة الإنسان.

فما الذي عندنا في مصر؟!

انتهى ذلك الزمان الذي يقف فيه الابن إذا جاء أبوه. . وانتهى أيضاً عصر إطفاء السجاير في بطن اليد وفي البنطلون خوفاً من الأم. . فنحن في عصر الابن الذي يدخن ويدخن حتى يخفي وجهه وراء سحب الدخان، وتكون السيجارة نوعاً من «الشراك الخداعية» ـ هو يخفي وجهه ووجه أبيه أيضاً، وفي نفس الوقت يعرف الجميع أن هناك فضيحة: الابن لا يستحي والأب لا يخيف.

ثم إننا بدأنا نفزع على الجيل الجديد، أي على مستقبل مصر، وبدأنا نشم الخطر في أصابع الأطفال وفي لون أسنانهم وتشرد عيونهم. هل هناك حشيش؟! الجواب: نعم.. هل هناك حبوب أقراص هلوسة؟! والجواب أيضاً: نعم. هل هناك ما هو أكثر من ذلك؟! الجواب سوف يكون. والعبرة بما حدث في أمريكا وروسيا ودول أوروبية أخرى.

ومن المؤكد أننا لم نصل إلى هذه الحالة الخطرة، ولكن ليس بعيداً أن يحدث ذلك قبل نهاية القرن، ولذلك يجب أن نواجه هذه الأخطار تربوياً وإعلامياً وأمنياً ودينياً.

وإذا كانت البشرية تدين باستمرارنا إلى كوب من البيرة - كما تقول الأساطير الفرعونية - فإننا ندين البيرة وأخواتها والدخان وعائلته. فقد حدث أن أمر الإله «رع» ابنته الإلهة «حتحور» أن تقضي على البشرية، وبدأت بالفعل تقتل وتذبح لولا أن أحد الكهنة قد قدم لها كوباً من البيرة ممزوجة ببعض السموم، فشربت حتى سكرت، وماتت فعاشت البشرية.

وإذا كانت الإلهة الفرعونية قد ماتت، فقد صنعنا بأيدينا ومخاوفنا وقلقنا ويأسنا وضياعنا ألف ألف حتحور، وإذا لم تكن قد قضت.. الحتحور على حياة الإنسان.. فمن

المؤكد أنها تقضي على حيويته وإيجابيته، ثم تدفن ما تبقى من ماضيه في حاضره، وما تبقى من حاضره في أكبر مقابر التاريخ: اللامبالاة!

تعالوا نتعلم

كيف «البداية» لنهضة مصر؟!

. . فما العمل؟ ونحن عادة لا نتلقى إجابة عن هذا السؤال. لأنه يجيء في نهاية كل مناقشة. عن أحوال مصر. وأحوالها لا تعجبنا. فنحن في غاية القسوة على أنفسنا. لأننا نريد أن نكون أفضل من بلادنا، وأن تكون بلادنا أجمل ما في الدنيا. .

وبدلاً من أن نتساءل عن الذي يجب عمله، ما زلنا نكرر عبارة منسوبة إلى سعد زغلول وهي أنه: «مفيش فايدة»!.

أي لا فائدة من السؤال، ولا أمل في جواب. فإذا كان جواب فلا فائدة منه أيضاً. وعلى ذلك ينتهي كل نقاش، كل يوم، وفي كل بيت، كما بدأ: ما العمل؟ لا عمل. ما الفائدة؟ لا فائدة!. .

ولكن شعوباً أخرى نهضت وعرفت وتحملت وتقدمت. فالهند عندما وجدوا أن الإنجليز يحتكرون الملح، صنعوا لأنفسهم الملح، وعندما وجدوا الإنجليز يحتكرون تجارة

القطن وصناعة النسيج، جعل كل واحد «نولاً يدوياً» في بيته . .

وعندما أدرك الهولنديون أن بلادهم ضيقة، وأنه لا مفر من أن يشربوا البحر، حتى يجف ويزحفوا عليه. كان شعارهم: ضع طوبة كل يوم! . .

فوضعوا طوبة فوق طوبة . . سدًّا يحميهم من زحف البحر . . ثم زحفوا هم على البحر يضيفون كل يوم شبرا إلى بلادهم . .

وعندما وقف الأسطول الأمريكي بمياه طوكيو في القرن التاسع عشر يهدد اليابان: إن لم تفتح أبوابها للسلع الأمريكية بالذوق فسوف تنسف الأبواب لتشتري اليابان المصنوعات الأمريكية. وانفتحت الأسواق اليابانية، وأغلق اليابانيون الأبواب عليهم يقلبون في المصنوعات الغربية . . ثم فتحوا الأبواب وفي أيديهم نفس السلع ولكن أجود وأرخص . . ولم يذهب الأسطول الياباني يهدد أمريكا وأوروبا ويرغمها بالقوة على شراء السلع اليابانية . . ولكن الأمريكان والأوروبيين تنافسوا على فتح أسواقهم للبضائع اليابانية الأرخص والأجود! . .

وعندما ارتفع سعر السمك في تايلاند، رغم أنها تقع على المحيط. كان لا بد من حل. ووجدوه. فقد أقام كل

مواطن أمام بيته حوضاً من الماء. وفي الماء ألقوا بالسمك الصغير، ليكون صالحاً للأكل بعد شهور.. وانخفض سعر السمك، ثم أصبح طعاماً شهياً لكل الناس!..

إذن فهناك حل. أي هناك جواب عن السؤال الذي يقول: ما العمل؟..

ذهب الرئيس حسنى مبارك لزيارة أربع قرى فى الدقهلية وجدت الحل. والحل هو العمل. والعمل فى كل بيت. فى هدوء وبعيداً عن الأضواء.

واحدة من هذه القرى كانت قد احترقت.. تماماً كما احترقت دول في الحرب العالمية الثانية. ولكن من الأنقاض ومن اليأس خرجت القرية قوية منتجة. هذه القرية هي: سلامون القماش.. والاسم كما ترى غريب، ولم يسمع به أحد أبعد من مدينة المنصورة. ولكنها عملت ما يجعلها مثلاً أعلى وقوة رفيعة ـ رغم أنها متواضعة. ورغم أن أهلها بلا فلسفة. ولم يكن من آمالهم أن تتسلط عليهم الأنوار، وأن يتصدر اسمها الصحف. فقط إنهم أناس عملوا وأنتجوا..

وسوف يكون للقرى: «سلامون القماش» و«طوخ الأقلام» و«شبر سندى» و«اتميده» من يعترض نموها. ويوقف تقدمها. لا لشيء إلا لأن ظهور هذه القرى يضايق

مئات الألوف من المدن والقرى. ويفضح الجميع.. أي يفضح عجز الكثيرين عن فعل شيء مماثل..

وقد حدث قديماً أن عاشت سيدة فاضلة.. واحدة اسمها لوكريسيا، في مدينة منحلة: رجالها ونساؤها. وكان الرجال يضربون المثل بلوكريسيا هذه. فضاقت بها النساء وتآمرن عليها حتى تكون واحدة مثلهن ـ ساقطة. فأقمن وليمة لكل الرجال خارج المدينة، وبعثن إلى لوكريسيا بمن يتهجم عليها في بيتها، ثم يخبرن زوجها بذلك.. لا لشيء إلا لكي تكون واحدة مثلهن.. فلا يقال لوكريسيا فاضلة وبقية النساء ساقطات.. فإذا سقطت لوكريسيا لم يعد للرذيلة معنى، ولا الفضيلة أيضاً.. فالكل في الأرض وتحتها!..

وكذلك الذين يرون قرى منتجة، يضايقهم ذلك!..

وكذلك فعل أستاذنا طه حسين حين كتب في السطر الأول من أحد كتبه.. هذا الإهداء: «إلى الذين لا يعملون، ويغضبهم أن يعمل الناس، أهدي هذا الكتاب»!.

المهم أن نعرف ما الذي ينقصنا، فإذا عرفنا عملنا. وإذا عملنا يجب أن نشجع العاملين.. وأن نرى فيهم القدوة الحسنة. فأهم ما ينقصنا في مصر: القدوة.

ومعناها أن نجد واحداً مثلنا قد رأى رأينا، وتعذب

عـذابنـا، وذاق بؤسنــا، ثم لم يستسلم. وإنمـا نهض ووقف وعمل وصبر وثـابر ونجـح، ولا يزال حـريصاً على ذلـك. ثم وجـد من يشجعـه. وهـذا الـذي يشجـع الآخـرين هـو قـدوة حسنـة أيضاً. فـالعامـل قدوة والـذي يساعـده قـدوة. والـذي يحميه قدوة. . فإذا كان ذلك في قريـة، فهي قدوة، وإذا كـان في مـدينـة. . فهي قـدوة. . فنحن جميعـاً يقتـدي بعضنـا ببعض. وحينئـذ لن يكون هنـاك مجـال للتسـاؤل العقيم: مـا العمل؟ لأننا نعمل ولا وقت عندنـا للتساؤل! ولكن إذا ضقنـا بـأنفسنا، وهـربنا من كـل موقـع، ثـم رحنا نتفنن في وسـائـل الهـرب: بـالمخـدرات والسلبيـة والاستسـلام والتـواكـل والانتحار، فلن نزرع إلا غابات بهـا أشجار قـاتلة اسمها: مـا العمل؟ ثم لا عمل بعد ذلك! . .

وعندما ضاق القديس بطرس بوحشيـة الرومـان خرج من روما غاضباً، وتراءى له السيد المسيـح في الطريق فقـال له: كو. . فاديس. . دوميني؟ . .

وهي كلمـات لاتينية معنـاها: أين. . تـذهب. . سيدي؟ فأشار المسيح إلى روما. .

أي يجب عـلى القـديس بـطرس أن يـعـود من حـيث أتى. . إلى المقاومة. . هنـا عظمـة الإنسان، وهي التضحيـة من أجل العقيدة. أمـا الهرب فليس أسهـل، وليس أقتل منـه أيضاً! . .

فما الذي رأينا في قرى الدقهلية؟ . .

لا شيء باهراً. إنهم أناس بسطاء يعملون. ويضربون المثل الرفيع على الإيجابية. في البناء والاستمرار والإنتاج، وحرصهم على ذلك. ويطلبون من الدولة أن تخفف عنهم القيود، ليمضوا في إنتاج النسيج من كل لون ونوع. . ملايين من قطع النسيج للبيع في مصر وفي غيرها. .

وفي مواجهة الرئيس حسني مبارك، الذي أدهشه، وأدهشنا أيضاً جودة الإنتاج وانخفاض أسعاره، لم يطلبوا منه أكثر من الرعاية، وبعد ذلك الحماية. والرعاية ضرورة، وحماية الإنتاج المحلي واجبة. . إن أمريكا نفسها تتعالى فيها الأصوات بحماية التجارة الأمريكية أمام الفيضان الياباني الذي يغرق الأسواق ويتسلل إلى كل البيوت بالذوق ـ لا بالقوة. . .

رأينا أسرة منتجة عندها ماكينة ضخمة في البيت. لا بد أنها كانت تعمل بالنول اليدوي. الأبوان عجوزان، والأبناء والأحفاد. العدد قليل. والإنتاج وفير. والكسب عظيم. إنها أسرة واحدة تنتج. وسوف تمضي في ذلك. . ولم نسمع من واحد من أبناء الدقهلية ادعاء نظرية جديدة في الإنتاج أو اعتناق مذهب فلسفي، أو أنه يمن على مصر بما فعل. لا شيء من كل ذلك. إنهم خرجوا من تحت أنقاض

الحرائق يطفئون نيرانها بعرقهم، ويحولون نارها إلى نور، وخرائبها إلى عمار، وليلها الأسود إلى أقمشة زاهية الألوان. وهم يحمدون الله على ما أعطاهم، ويحمدونه على أنه جعلهم قادرين على الكفاح والنجاح أيضاً! . .

وقبل ذلك زار الرئيس حسني مبارك إحدى قرى بني سويف. ورأينا على شاشة التليفزيون عجباً! وكنت قد كتبت أشفق على الرئيس مبارك أن يدور في قرى مصر يرفع معنويات المواطنين، ويشهد عليهم غيرهم من الذين يعملون والذين لا يعملون. . فالقرى كثيرة. ومهام الدولة شاقة. ولكني أنتهز هذه الفرصة وأعدل عن رأيي، وأطلب إلى الرئيس أن يضيف إلى همومه ومهامه زيارة كل القرى المنتجة. فهذه القرى هي واحات من الإيجابية والفاعلية. . وهي نقط تضيء بالأمل. . فهؤلاء المواطنون الطيبون لم تفسدهم المدنية: وساوسها وكلامها الكثير وسهرها الطويل، وجنونها واحتراق أعصابها. . بل إن الفلوس لم تفسد الناس بعد.

فقد سمعت أن مواطناً قد أقام مدرسة بنصف مليون جنيه، وأهداها للقرية. ولم يشأ أن يكتب اسمه عليها.

وأرى أن هذه هي البداية. أن نعمل جميعاً من أجل القرى التي خرجنا منها. وأن نهتم بها وأن نحمل أعباءها. وأن نساعدها من هنا، أي نساعدها من القاهرة. فالقاهرة

هي التي تتحكم في أقدار كل القرى وكل الناس.

وعندما فكرت في أن أقيم مكتبة عامة في مدينة المنصورة، وتعهدت بأن أملأها كتباً هدايا من الأصدقاء والناشرين من أبناء الدقهلية في مصر وفي أمريكا، تلقيت وعوداً بألوف الكتب.. واستعداداً بألوف الجنيهات للبناء والتأسيس. ولو فعل الأطباء مثلي والمهندسون والمدرسون.. أي لو التفتنا إلى المنبع، وأعطينا بعض وقتنا ومالنا للمدن والقرى التي جئنا منها، كما فعل هذا المواطن الكريم، الذي أقام مدرسة، لارتفع مستوى الريف، وارتفع مستوى الأداء، ولتعانقت المدينة مع القرية، وذابت هذه الفوارق بين القرى والمدن.

فنحن عندما نذهب إلى المدينة تأخذنا ضوضاؤها، وتبهرنا أضواؤها، ونضيع في زحامها، ولا نرى ولا نسمع إلا أنفسنا.

ويقال أن حكيماً صينياً طلب من رجل غني أن ينظر من النافذة الزجاجية وسأله: ما الذي ترى؟ فأجاب الرجل: الناس!

ثم أخذه من يده وطلب إليه أن ينظر في المرآة وسأله: وماذا ترى؟! قال: نفسي.

وهنا قال له الحكيم: المرآة زجاج.. والنافذة زجاج.. ولكن المرآة قد أضيفت إلى زجاجها طبقة من الفضة، هي

التي جعلتك لا ترى إلا نفسك! . .

طبقة من الفضة أو طبقة من الذهب. . إنها الفلوس التي تشغلنا عن كل الناس، فلا نرى ولا نسمع ولا نحرص إلا على أنفسنا! . .

وهذا ما يصيب أبناء المدن، فإذا هم بعيدون عن الريف ومتاعب الريف وخطورة الريف وقدرته المتجددة على إحياء مصر وإنهاضها وإنعاشها، وتقدمها أيضاً. . فالقرى هي المنبع، وهي المورد لكل ما في المدن. . ولذلك يجب أن نرتد إلى المنبع وإلى العناية به. . فنحن الذين علمنا أهل الريف. وقد جاء الدور على أهل الريف ليعلمونا نحن سكان المدن. . أنهم أكثر عملاً وأقل كلاماً!

وهناك عبارة مشهورة للأديب الساخر برنارد شو. يقول: إذا كان آدم يحرث. . وحواء تغزل. فمن الذي يلعب كرة القدم؟! . .

لا أحد طبعاً. فلا وقت هناك. ولذلك إذا انشغل الناس، فلا وقت للعبث. . لا وقت للانحراف والمخدرات والهرب واللامبالاة! . .

والذي يفعله الرئيس مبارك هو القدوة في تشجيع القرى المنتجة، والقدوة في ضرورة العودة إلى الريف ـ قدوة للوزير وللمحافظ، ولكل أبناء المدن الوافدين من الريف.

وهكذا يكون لنا حضور في الريف، ويكون للريف حضور مثالي في حياتنا العملية، وفي حرصنا على الأمل بالعمل، وعلى النجاح بالكفاح، وكل ذلك ممكن، وقد أمكن في الريف.

وفي كثير من الدول الاشتراكية يفرضون على أبناء المدن أن يعيشوا في الريف بعض الوقت: الإجازة الدراسية أو الإجازة السنوية، أو يؤدوا شهوراً من الخدمة العامة أو الخدمة العسكرية. وبذلك يرحمونهم من أنفسهم.. أي من الكلام والتعليق على الكلام والضياع بين الشوارع والحانات والندوات.

وفي نفس الوقت يعيشون في هدوء أكثر، وهواء أنقى، ولا ينسون الريف..

ولا بد أن تكون الخطوة التالية هي أن يقوم أبناء المدن بمحو أمية أبناء الريف. فعلت ذلك إيران وكوبا. فقد كان من الضروري أن يمحو كل مواطن أمية عشرين، وإلا فلن يدخل المدرسة أو الجامعة.. وإلا فلن يحصل الموظف على الترقية.. وهذا هو الطموح الأعظم في مصر: استصلاح العقول البور في عام أو عامين.

يقال إن الرومان كان عندهم إله اسمه مركوريوس وهو إله: التجار والخطباء واللصوص!..

فمن الممكن أن يكون التاجر خطيباً، أي يخدع الناس علناً، أو يكون لصاً، أي يخدع الناس سراً. ولكن التاجر الأمين لا يخطب، وإنما يذهب إليه الناس يخطبون وده ويتمسكون بصداقته.

والتجار واللصوص والخطباء يذهبون في يوم ٢٧ مايو من كل سنة، إلى معبد الاله مركوريوس. يقدمون القرابين ويطلبون الصفح عن خطايا العام الماضي - أي السنة التي خدعوا فيها الناس وسرقوهم.

ولكن حدث في إحدى السنوات أن التجار لم يذهبوا للصلاة. فتساءل الإله: ولكن لماذا؟!. فقال التجار: إننا وجدنا الذين يعبدونك هم من الخطباء واللصوص، فهذه إهانة لك.. وإهانة لنا إذا وقفنا بينهم! ولذلك قررنا أن نصلي في صمت في بيوتنا!

ومنذ ذلك الحين والإله مركوريوس يترك معبده للصوص والخطباء، ويتجه هو إلى بيوت التجار والصناع المخلصين. ثم يترك عند الباب قطعة مبللة من القماش - فقد مسح عرق التجار والصناع ودموع الأطفال والنساء!..

«فإلى.. أين يا سيدي؟!»

إلى القرية، إلى حيث نشأنا.. وكبرنا وهاجرنا وانشغلنا ونسينا من أين جئنا؟!

نحن شعب الله المختار
ولكن من أجل
ماذا؟!

كل الشعوب تنظر في غضب..

شعوب تنظر وراءها في غضب: فهي ساخطة على الماضي الذي جعل حاضرها هكذا سيئاً. فكل مصائبها التي لم تنته قد ظهرت ونمت وكبرت وتدفقت من الماضي، ثم طغت على المستقبل..

هذه الشعوب متبرمة بحاضرها أيضاً!

وهناك شعوب تنظر وراءها في حسرة. فقد كان ماضيها الذهبي وراءها. فالناس الطيبون والعباقرة كلهم عاشوا وماتوا في الماضي.. ولا عودة لهم ولا أمل.. فهذه الشعوب حزينة على ماضيها السعيد.. وهذه الشعوب تعيسة بحاضرها أيضاً..

وهناك شعوب تنظر أمامها في فزع. فهي تخاف مما يدخره المستقبل.. فالعالم غارق في الماديات: كل العلاقات تمشي على قاعدة: هات وخد.. شيلني

أشيلك. . فلا حب ولا صداقة. وإنما هي مصالح متبادلة. فالإنسان الذي اخترع الآلة لكي يخفف متاعبه ويختصر الوقت ويدخر الطاقة، أصبحت هذه الآلة هي مثله الأعلى. . يحاول أن يكون دقيقاً مثلها، لا يتأثر بشيء أو بأحد مثلها. . وهو كالآلة حديد يدق حديداً ويدوس حديداً. . وهو مثل الآلة: قطع غيار. . إذا انكسر جاء من يحل محله. . وكل قطع الغيار متشابهة تماماً. . ولذلك يجب ألا يختلف أحد عن أحد. . فالناس قوالب طوب. . زجاجات فارغة. . مسامير. . كلها متطابقة، وإلا لم تكن قطع غيار. . والإنسان الذي اخترع الآلة خادماً له، أصبحت هي سيدة له وسيدة عليه. . فهو السيد الذي أصبح بعلمه وعقله خادماً لخادمه. .

ولا بد أن المستقبل الذي يتغير ويتطور حسب احتياجات الإنسان سوف يجعل الإنسان أكثر تعاسة. .

وهذه الشعوب غير راضية عن حاضرها. .

وشعوب تنظر أمامها في سعادة. فهي في حاضرها قد حققت كل ما تريد وزيادة. فالطعام موفور والمسكن. وهي قد وصلت إلى الكواكب الأخرى. وهي تحاول توسيع مجال الإنسان من كوكب إلى كوكب. . كما فعلت ذلك في القرن الخامس عشر، عندما أضافت العالم الجديد إلى العالم القديم. . فاكتشفت استراليا والأمريكتين وضمتها إلى إفريقيا

وأوروبا وآسيا. . وهي الآن ترتاد المجموعة الشمسية. . وسوف تقيم المدن والمصانع والورش في الفضاء وتحت قشرة القمر والمريخ وغيرهما. .

وكانت الدول الصناعية الكبرى قد اخترعت الطائرة للحرب، وهي الآن كبرى وسائل المواصلات. . وهي اخترعت سفن الفضاء للتنصت والتربص وهذه السفن سوف تكون أتوبيسات الرحلات إلى الكواكب. .

وقد ظهرت في هذه الشعوب: الخطة الخمسينية الأولى. . والخطة المئوية الثانية. . وكل شيء قد دخل فيه حساب المستقبل. ومن المألوف أن تجد عند هذه الدول نماذج للبيوت الفضائية والكهوف القمرية، وتجد عندهم طعام المستقبل وأبناء المستقبل. .

وكان الفيلسوف الفرنسي رينان يتمنى أن يعيش عند نهاية التاريخ، ليرى ما الذي استطاع الإنسان أن يحققه. . أي كيف استطاع الإنسان أن يحل مشكلة المكان. . أي كيف ينتقل من مكان إلى مكان بسرعة الضوء مثلاً ـ أي بسرعة ١٨٦ ألف ميل في الثانية ـ فبدلاً من أن يصل إلى المريخ بعد سنة في سفينة فضاء بسرعة ٣٩ ألف ميل في ساعة. . ينتقل في ربع ساعة. مثلاً كيف يستطيع أن يحل مشكلة الطعام. فبدلاً من أن يقطف التفاحة ويقشرها

ويأكلها . . فإنه ينظر إليها فينتقل رحيقها فوراً إلى معدته . . وهكذا ! ! !

وفي العالم شعبان يؤمنان بأن السعادة في نهاية التاريخ . .

هما : أمريكا وروسيا . . فالدولتان أدمنتا المستقبل .

فالمستقبل هو أفيون الشعوب السوفيتية والأمريكية واليابانية . .

الروس يرون أنه عند نهاية التاريخ ، تختفي الصراعات بين الطبقات ويتلاشى النزاع على السلطة وعلى الرغيف . وعندما يتوقف الصراع ، تسود الشعوب ، وتصبح الطبقة العاملة هي ألوف الملايين من الملوك . . فهم الملوك ولا شعب هناك . . طبقة واحدة سيدة ، لا سيد لها ولا سيد عليها . . هنا فقط تكون «الجنة الأرضية» قد حققتها الشعوب بكفاحها الطويل . . بعد أن تحررت من الجوع والخوف والظلم والمرض والجهل . .

ويرى الأمريكان أن الإنسان بعلمه العظيم وتقدمه الهائل سوف يعطي الإنسان مزيداً من كل شيء . . حتى يصل الإنسان إلى حالة التشبع التام . . تماماً مثل حالة الارتواء والشبع بعد كل وجبة . . وحالة الراحة عند القيام من نوم هادىء . . هنا فقط يشعر الناس أن الإنسانية قد

بلغت أوجها، وأن العقل كان الخادم الأمين لجسم الإنسان وروحه..

والأديان أيضاً ترى أن الجنة هي نهاية الحياة على الأرض. وفي الجنة وفي الطريق إليها يكون الناس جميعاً سواء.. قد حاسبهم الله على كل ما فعلوا. وتطهرت نفوسهم. ثم النعيم إلى أبد الآبدين..

والأديان ترى أن الحياة الدنيا انتقالية، وإنه يجب أن نمر بها وأن تكون أحمالنا خفيفة.. خطايانا قليلة، حتى لا يطول حسابنا وعذابنا يوم القيامة.. «يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم»..

والمسيح عليه السلام قال: «الدنيا قنطرة: فاعبروها ولا تعمروها».

والأديان أيضاً ليست راضية عن حاضر الإنسان. وإلا ما نزل هذا العدد الهائل من الرسل والأنبياء من المصلحين والمفكرين، الذين يريدون للإنسان أن يكون أفضل في دنياه ليصير أسعد في أخراه.. والإنسان قد عاش على الأرض ليموت، وهو مات ليدخل الجنة.. وفي ذلك يقول الله تعالى:

﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾. فما دام الله خلقنا فهو يميتنا. وهو خلقنا لنعبده بعض الوقت أو كل

الـوقت. . ثم يحاسبنـا على مـا فعلنـاه، ثم يـدخلنـا في رحمته. . وما رحمته إلا جناته الواسعة. .

والمؤمنـون ينـظرون إلى مـاضينـا في سعـادة. ففـي المـاضي كـان الـرسـول عليـه الصلاة والسـلام والخلفـاء والصحـابة والتـابعون والأوليـاء. . والسلف الصالـح. . وأهل البيت. وفي حاضرنـا لا شيء من ذلك. . فـالدنيـا قد شغلت النـاس عن صـلاحهم وعن الله. . ولـذلـك لا بـد من العـودة إلى الماضي أو إحياء الماضي. .

وهؤلاء نسميهم: السلفيين أي الـذين يؤمنـون بـالسلف الصالح، والماضي الطيب، والعصور الذهبية للإسـلام. فهم يعيشـون في المـاضي ويـديرون ظهـورهم للحـاضـر، قلقـون على المستقبـل. . فهم ينظرون إلى المـاضي في حسرة وإلى الحاضر في غضب وإلى المستقبل في فزع.

ونحن نعيش جميعنـا في القـرن العشـرين الميـلادي والخـامس عشـر الهجـري، والحقيقـة غيـر ذلـك، فبعضنـا يعايش القرن الأول الهجري. . والقرن العـاشر الميـلادي. . ويحلم بالقرن الواحد والعشرين. مثلاً نحن وأمـريكا: عنـدنا الشـادوف والكارو، وعنـدهم التـوربين والمكـوك الفضـائي. ونحن نعيش معـاً في يوم واحـد وعام واحـد وقـرن واحـد. . فنحن نتجاور في المكان ونتبـاعد في الـزمان. . فـالذي يـراه

الأمريكان حاضراً، نراه مستقبلاً.. والذي يرونه مستقبلاً، نراه غيباً..

فأين نحن المصريين من كل ذلك؟

لقد كان فينا من يتجاوز حاضره إلى مستقبله..

كان لطفي السيد يتحدث حتى الموت عن العلم الحديث والتقدم..

وكان الشيخ محمد عبده يفتح بأظافره باب «الاجتهاد» من أجل أن نلحق بالخواجات الذين تحررت عقولهم من الجمود الديني والتصلب لشرايين العقل.

وكان قاسم أمين يطالب بالمساواة في الحاضر بين المسلمين والأجانب.. تكشف المرأة وجهها كالرجل المسلم، وكالمرأة الأوروبية..

وكان سلامة موسى وشبلي شميل ومنصور فهمي، يحاولون كشف الغطاء الحديدي عن العيون لكي نرى المستقبل.. أي نرى التطور العلمي الأوروبي ونلحق به..

وكان طه حسين يرى أن نتحرر من الثقافة الصفراء ـ أي من الكتب العربية القديمة ـ وإنه إذا لم يتغير لون الورق في أيدينا، وصداه في آذاننا وظلاله في عقولنا، فلا تقدم.. وقد فعل ذلك طه حسين. فاندفعنا وراءه نلتهم الحضارة الغربية.. والأدب الغربي.. على جثث الخرافات

والأساطير التي كانت أغلالاً على العقل العلمي والوجدان الأدبي والبصيرة الدينية. .

وكان الأستاذ العقاد يزلزل «التواكلية» الفكرية. . والاستسلام المطلق للأوثان الأدبية والطلاسم الفلسفية. . وكان يرى أن الإنسان سيد الكون، وأن العقل هو أعظم أسلحته. . وأنه بهذا السلاح سوف يرتفع بكرامته إلى ما فوق الحيوان. . وأن الإنسان العاقل هو الملك صاحب التاج. . وأن الملك الجالس على العرش، ليس كذلك إلا لأنه يحترم عقولنا. . فإذا لم يحترمها، أنزلناه من عرشه. . وكذلك فعل العقاد في كل ملوك الأدب والشعر والتاريخ. . فكرامة الإنسان هي المادة الأولية. . ومنها ينمو ويكبر ويتطور عقل الكون. . أي حكمة الله. . «فكما تكونوا يول عليكم» ـ فالأبقار إذا اختارت إلهاً، اختارت ثوراً، وكذلك الكلاب والصراصير. . والإنسان إذا كان عاقلاً، اختار الله حكيماً عادلاً خيراً أزلياً أبدياً. .

وقد سادت النظرة الفلسفية والنظرة المستقبلية الفكر المصري والعربي. وهي ذات معنى واحد: إنهم غاضبون على حاضر الإنسان، ولذلك فهم ينظرون وراءهم في تعاسة. وأمامهم في سعادة!.

فالخير: كان. . والخيرات: كانت. . والشر: كائن. . والجوع: كائن. .

أما توفيق الحكيم فهو ينظر وراءه في غضب، وأمامه في يأس.. فليس على يقين من قدرة الإنسان على أن يكون أفضل وأقدر وأسلم..

أما نحن الآن فليس واضحاً أين نقف وأين ننظر؟! إن كان الحاضر، فلسنا راضين جميعاً عنه، وعنا.. ولذلك نطالب أنفسنا بروح الجدية، وبالعمل. ونحاسب أنفسنا بشدة وبقسوة على أننا لا نساهم بالرأي أو بالعمل.. فأكثر الناس يتفرجون على الناس. ولا يشاركون. ولا يعجبهم ما يعمله الناس. فيوم حاربنا وانتصرنا سنة ١٩٦٧ كان الندم عميقاً وكانت الشماتة عظيمة! فنحن لا نمتن للجيش.. الذي هو الشعب المصري وقد ارتدى الكاكي وسارع ليموت من أجل الملايين.. وإذا كان قد انكسر فليس لأنه يستحق ذلك، ولكن الذين يصدرون القرار قد أخطأوا.. وقد داخلهم الغرور فأعماهم.. فليس الذي مات يستحق هذا العقاب، وإنما الذي يستحق الموت من أصدر القرار، ويستحق العار، من ساق الشعب لابساً الكاكي إلى الموت بلا قضية.. ولا استعداد.. فبعد النكسة لم يرحم المصريون أنفسهم، عاتبوا أنفسهم.. عذبوا أنفسهم أهانوا أرواحهم.. لطخوا بالطين تاريخهم.. فكانوا القاتل والقتيل.. وكانوا الجلاد والشهيد.. وكانوا اليد التي تلطم والخد الدامي.. لقد انكسرت مصر.. كما ينكسر غصن

فينطوي ويلتوي على نفسه.. ولم نقم حتى الآن!

ويوم انتصر الشعب المصري في ملابسه الكاكية في حرب سنة ١٩٧٣ كانت النكسة أعمق وأعنف من النصر.. فنصر ١٩٧٣ لم يرد الذراع التي انكسرت، ولم يفتح النفس التي انسدت، ولم يرفع تاج الشوك عن الرأس، ويضع أكاليل الغار.. فالرأس انحط وما زال ينحط حتى صار قدماً ثالثة.. فكانت لنا أقدام ولم يكن لنا رأس.. إمعاناً في هوان أنفسنا وتعذيبها.. وتدوخ الرؤوس والنفوس: فلم نعرف لها وجهة ولا قبلة ولا شيخاً. ولا إماماً.. وظهر «الأنبياء الكاذبون» فالساحة خالية.. والعيون زائغة.. والفساد هواء في كل أنف.. ثم أننا سالمنا العدو، وعادينا الشقيق.. واتحد الأخوة على مصر، ولم يتحدوا على إسرائيل.. وكانت الصحف العربية تعيش على طعام واحد: فضيحة مصر وأهل مصر، وكان ذلك بأقلام مصرية أيضاً. فكأن العار القومي لا يكفينا نحن المصريين، فأقيمت الولائم في القصور العربية، وكان الطبق المفضل: هزيمة مصر إلى الأبد!

ولم يعد أحد يعرف الفرق بين الصديق والشقيق، وبين عدو اليوم وعدو الغد.. ومن هو الذي أجرم حقاً؟ وما هي الجريمة؟ وهل هذا القاتل نفسه يستحق العقاب؟

هل هو يستحق الرحمة لأنه قتل نفسه من أجل غيره،

يستحق العفو الشامل والاحترام العظيم؟

هل استعرنا بعض ويلات اليهود فآمنا نحن أيضاً بأننا «شعب الله المختار» ليموت من أجل العروبة؟

هل نحن شعب الله المختار من أجل الاستشهاد والفقر، دون أن يمتن أحد من العرب ومن المصريين؟

إن أضعف الناس على الساحة العربية هم المصريون.. وإلا فما معنى أن ندافع عن أنفسنا طوال الوقت.. ونبرر لغيرنا لماذا انتصرنا؟ ولما انتصرنا استعدنا أرضنا، ولماذا لا نسترد أرضنا؟! وعندما عادت لنا أرضنا، لماذا نعتذر عن السلام مع العدو الذي أرغمناه على أن يحقق أغلى أمانينا؟ مع أننا لم نفعل أكثر مما فعلته ألمانيا وفرنسا واليابان وأمريكا وروسيا، في أعقاب الحروب؟!

لماذا كلما رأينا أحداً قلنا له: نحن آسفون لأننا إذا صلينا فلا بد أن نتوضأ؟

لماذا نعتذر عن الوضوء والصلاة والإيمان؟ وإذا كان هذا هو الذي نعتذر عنه، فما الذي سنباهي به الأمم يوم القيامة؟!.

لماذا نحن على خطأ؟ هل لأنه ليس لدينا بترول؟. لماذا على خطأ ما دمنا ننفق كل ثروات الشعب من أجل الشعب وليس من أجل عشرة وعشرين من الناس - لماذا

نعتذر عن الحرية التي يتمتع بها كل الناس، أعداء الشعب وأصدقاؤه حكامه ومحكوموه؟

لماذا لا نلتفت إلى أثر كل هذه الاعتذارات على الشباب؟ . . أي على الذين سيجعلون مستقبل مصر صورة مهزوزة، لأن عقولهم كذلك، ونفوسهم أسوأ من ذلك . . هل نحن «شعب الله المختار» لكي نضحي بمستقبلنا، بعد أن ضحينا بحاضرنا وماضينا؟

وهل صحيح أن الله قد اختارنا لكي نموت من أجل الآخرين . . لكيلا نكون ويكون الآخرون . . لكي نزداد فقراً، ويزداد الآخرون ثراء؟

بل نحن ـ إذن ـ الذين اخترنا لأنفسنا هذا الذي لا نرضاه . . ونحن نظلم العناية الإلهية، عندما نحملها خطايانا وهواننا . .

يجب أن نعيد اختيارنا لأنفسنا . . واختيارنا هو قرارنا . . وقرارنا هو أن «نكون» من أجل أنفسنا . .

وأن نصحح مسارنا، ونطهر سلاحنا، ونحشد شبابنا على الوضوح والصدق والصراحة والحب، فبغير الشباب الذي نحبه ويحبنا، فلا مستقبل لهم ولنا . . فإن كان الماضي مراً، فقد مضى وانقضى ويجب أن نمحو مرارته من شفاهنا، وظلامه من عيوننا، وضبابه من رؤوسنا، وحزنه من قلوبنا، ومطباته من أقدامنا . .

فلسنا شعب الله «المختار» أي الذي اختاره للحيرة والقلق فحتى لا تكون الحيرة، فقد أرسل الله أنبياءه من أجل الهداية فبغير إيمان قوي بالله، وبأنفسنا سوف نظل أسرى ماضينا، وضحايا حاضرنا . .

فلننظر إلى حاضرنا في غضب وإلى مستقبلنا في ثقة . . ففي حاضرنا يتولد مستقبلنا بأيدينا وبأعيننا وشبابنا .

فإن كانت بداية فلتكن الشباب . . وإن كانت غاية فهي الشباب أيضاً . وإن كانت ولادة المستقبل متعسرة، فلأننا نفخنا في الماضي، وظننا هذه النفخة حملاً صحيحاً . . إنها حمل كاذب . . فالحاضر هو أم المستقبل . فلننفخ في الحاضر بالعمل والأمل، وستكون ـ بإذن الله ـ ولادتنا بغير ألم .

مرحلة «الفلاحين» في الثقافة المصرية

مطلوب مني أن أتحدث عن «الثقافة» ودورها في تطوير المجتمع. وليس أسهل من تعريف الثقافة.. فهي كل هذا الذي نحن فيه.. إنها الجامعة والمباني الجامعية والحدائق والسيارات في طرقاتها، وهي تمثال نهضة مصر والكوبري والمساجد على الناحيتين. فالثقافة هي هذا التراث الاجتماعي لكل ما أنجزه الإنسان على مر العصور. وهناك نوعان من الثقافة: مادية ومعنوية أو نفسية.. والثقافة المادية هي كل هذه الأدوات التي يستخدمها الإنسان في حياته. في الزراعة والصناعة والانتقال. ثم إنها المصانع التي تنتج كل هذه الأدوات.. وهي حرص الإنسان المستمر على تطوير هذه الأدوات عاماً بعد عام أو جيلاً بعد جيل.. أما الثقافة المعنوية أو النفسية: فهي الأدب والفن والقيم الأخلاقية والقيم الجمالية وتعاليم الدين وأداء فروضه ثم العلوم النظرية: التاريخ والجغرافيا والرياضيات والفيزياء.

ويمكن أن يقال إن هناك ثقافتين: ثقافة بورجوازية أي خاصة بالطبقة الغنية القادرة، وثقافة شعبية أي أسلوب

الجماهير في الحياة والتفكير والتطلع إلى المستقبل أو الحرص على القديم . .

ومصادر الثقافة: وسائل الإعلام والمدارس . .

ومن الممكن أن يعيش الإنسان وسط هذا الخضم الهائل من المعلومات ويظل جاهلاً . . ممكن، أو يعيش في قصر فخم أنيق وهو جلف لا يتذوق كل هذه الفنون التي تحيط به . . فالثقافة حوله، وليست في داخله . . ومن الممكن أن يكون هو مثقفاً والبيئة حوله جاهلة . . والذين زاروا الأستاذ العقاد في بيته وجدوا بيتاً قديماً كالح الألوان عاري البلاط، مرهق المقاعد به وابور جاز ـ ولكنه عنده أحدث كتاب عن سفن الفضاء . . إنه هو وحده المثقف، أما البيت فكأنه في غابات إفريقيا!

ويوم أقامت ملكة هولندا مأدبة عشاء للعالم الكبير أينشتين عندما حصل على جائزة نوبل في الفيزياء، ظل الحراس ينتظرونه عند مداخل القصر . ولكنه تأخر عن موعده بضع دقائق . . ثم فوجئوا بأنه جاء مرتدياً «الأفرول» راكباً دراجة منكوش الشعر . . ولما اندهش رجال المراسم الملكية قال: ولكن جلالتها طلبت أن تراني، لا أن ترى ملابسي . . فأنا هكذا عندما اكتشفت نظرية النسبية التي أخذت عنها جائزة نوبل التي استحقت اهتمام الملكة!

ويكـون الإنسان مثقفاً إذا كان على علم بمـا يجـري في عصره. ويكون مثقفاً أيضاً إذا كـان حريصـاً على طلب العلم ومتابعة ما يتطور منه في الأدب والعلوم.

ويقال ثقافة شخص، وحضارة شعب.. أو شعوب.

ولكن يقـال أيضـاً إن هنـاك «دائـرة ثقـافيـة» أو «دائـرة حضـارية» ـ أي مجمـوعة الشعـوب ذات الثقافـة الـواحـدة أو الحضـارة الواحـدة: كالـدول العربيـة أو الشعوب الـلاتينية أو الانجلوساكسونية، فقد وحـدت بينها الجغـرافيا والتـاريخ على دين واحـد ولغـة واحـدة وكفـاح مشتـرك وإنجـازات يكمـل بعضها بعضاً.

ومن تفاعل عناصر الثقافة المادية والمعنوية تتولد أشكـال جديدة وعلاقات جديدة.. وقـد يكون هـذا التفاعـل بين هذا التراث الاجتماعي والأفـراد بطيئـاً، ولأنه بـطيء، فالمجتمـع راكـد.. واقف يهتـز ولا يتحـرك، وإذا تحـرك فـإنـه يتقـدم ويتـراجـع أو يـدور حـول نفسـه؛ ولـذلـك كـان لا بـد من التغييرات.. أي «الثورة الثقافية».

ـ وهذه الثورة يجب أن تبدأ في زمن محدد معروف.

وأن تحقق أهـدافهـا في وقت محـدد، ولا ثـورة إلا إذا بـدأت من تحت.. من النـاس.. من التـربيـة والتعليم، ولذلك فـالثورة الثقـافية هي ثـورة في التعليم، وفي التربيـة،

وفي التمسك الجديد، والحرص والصبر عليه أيضاً.

وكل فيلسوف إصلاحي له وجهة نظر في قلب النظام الجامد للمجتمع.

فهناك من يقول: كما تأكل تكون.. أي لا شيء يدل عليك إلا طعامك.. إلا رغيفك.. فلا بد أن يتغير لون وطعم وحجم الرغيف.. فتتغير أشياء كثيرة.. فالبداية هي الطعام.. هي المعدة.. أي ما هو ضروري.

وهناك من يقول: كما تحب تكون!

أي بسبب الحب والعلاقات الإنسانية التي يحددها الإنسان بكامل حريته..

فهو يختار، وهو يحب الذي اختار، أو اختار الذي أحب، بلا قهر من أحد من الناس.. ومن هذه العلاقات الإنسانية الحرة العاطفية يقام صرح المجتمع على المشاعر والصدق والتذوق والسلام.

والمفكر الإنجليزي رسكن هو الذي قال: أعطني زمام الموسيقى في أي بلد وأنا أغير لك هذا البلد!

أي أن الذوق الرفيع والاستماع والحرص على كل ما يعلو بالإنسان فوق رغباته الجسمية الفانية المضطربة، هو الذي يرفع الناس إلى أعلى.. من الحيوانية إلى

الإنسانية. . ومن الإنسانية إلى الملائكية. . ولا وسيلة لإنقاذ الحضارة المادية، إلا بالموسيقى. . والشعر والأدب والفن!

والفيلسوف الإغريقي أفلاطون عندما أقام «المدينة الفاضلة» ـ أي المدينة المثالية القائمة على الفضيلة والعدل والمساواة، طرد منها الشعراء لأنهم يفسدون الناس. . ولأنهم يحملون لهم الأوهام ويجعلون لها موسيقى. . فهم أناس كذابون، يزيفون المشاعر ويجعلون لها إيقاعاً لكي يستسيغها الناس!

فإذا خرج الشعراء، أصبحت مدينته هي المدينة الصالحة الفاضلة. . فإصلاحها لا يتم إلا بإخراج الشعراء منها!

وفي التقرير الخطير الذي قدمه علماء التعليم والتربية في أمريكا للرئيس ريجان وعنوانه «أمة في خطر» ـ أي أن الأمة الأمريكية تواجه خطر التخلف وراء اليابان وألمانيا وروسيا وفرنسا وبريطانيا ـ وجدوا أن بداية الإصلاح هي فيما يأكله الشباب. .

أما الإصلاح فهو أن يكف الطلبة عن أكل السندوتش. . أي عن خطف الطعام دون استمتاع به. فهم يأكلون وهم يلعبون، وهم يذاكرون وهم يشاهدون التليفزيون. . وخطورة السندوتش أنه أصبح المثل الأعلى

لكل شيء: فالطلبة يريدون كتباً مثل السندوتش ـ أي الملخصات ـ التي تضع كل المعلومات في مساحة ضيقة.. تماماً كما يضعون اللحم والبصل والبطاطس والصلصلة والسلاطة في رغيف واحد.. فما لم يجلس الطالب إلى المائدة ويأكل على مهل ويمضغ ويتذوق ويستمتع بلون الطعام وترتيب المائدة ويسترخي، فإنه لن يفعل شيئاً من ذلك في الدراسة.. لا يقرأ على مهل.. لا يفكر.. لا يتأمل.. لا يتخيل.. لا يبتكر.

فما لم تعدل أمريكا عن اتخاذ «السندوتش» مثلها الأعلى كل شيء، فلن تلحق بالدول الأخرى التي سبقتها.. والتي لا تعرف السندوتش.

أما فيلسوف الحضارة الألماني اشبنجلر فهو يرى أن الثقافة هي الحضارة الإنسانية.. فهناك ثقافة عامة لكل الشعوب. وهذه الثقافة مثل كل الكائنات الحية تمر بمراحل من النمو والنضج والانحلال والموت.. وأن الحضارة هي شباب الثقافة، وأن المدنية هي موتها. فإن تزرع حديقة وترويها وترعاها وتتذوقها هذه هي الحضارة.. أن تفعل ذلك فلا تروي ولا تزرع ولا تتذوق.. هذه هي المدنية ـ أي إنحلال الحضارة!

وأن تركب طيارة.. هذا استمتاع بأدوات الحضارة، وأن تبصق على أرضها، هذا دليل على أنك تنتسب لعصر

آخـر. فـأنت بـوسيلة المـواصـلات متحضـر، وأنت بعـدم الإحساس بعصرك متخلف. . متمدين!

والفيلسوف الألماني يرى أننا الآن في عصر المدنية ـ أي عصر موت الثقافة أو انحلال الحضارة. فنحن نجري وراء المواصلات السريعة التي ابتدعناها.

فنحن عبيد لما صنعت أيدينا. . ونحن نصنع الأسلحة القاتلة ونخاف منها.

ونحن الذين ندخل إلى الحانات ونفقد عقولنا. . فنحن كما ترى: ضحايانا.

وأخطر من ذلك أنه ليس عندنا أمل في النجاة. . فنحن كالذي سقط من طائرة بمظلة واقية ونحن ساقطون والسقوط مستمر. . ولم نرتطم بالأرض بعد ولكننا هابطون في كل شيء.

ويتحدث الفيلسوف اشبنجلر عن «حالة الفلاحين» ـ وهو يستخدم الكلمة العربية. وهو يصف بها حالة الفلاح الذي هجر أرضه. واتجه إلى المدينة ليضاعف التكدس فيها، ويضاعف أعباءها في إطعامه، وفي رفع الثمن الفادح لإفساده للذوق العام ولجهله أيضاً. فماذا حدث؟. ازدحمت المدينة وأصيبت الأرض بخلخلة. . لا ناس ولا سكان ولا فلاحين ولا إنتاج. . ولا عناية بالأرض المزروعة

والحدائق.. هذا الفلاح من المؤكد أنـه لن يصلح المدينـة، ومن المؤكـد أنه أفسـد الريف.. والمـدينة قـادرة على ابتلاع سكـانهـا وضـواحيهـا وكـل نـوعيـات البشـر.. وهي مـركـز لـلاضطرابـات والفوضى وكـل الحركـات التشنجية في الفكـر السيـاسي والديني.. ومـا تفعله مدينـة واحـدة بـالقـرى التي حـولهـا، هـو بـالضبط مـا تفعله الـدول الصنـاعيـة الكبـرى، بالدول النامية.. أما المستقبل فهـو في الصين: فألف مليـون نسمـة نهضت كي تـزرع وتصنـع في وقت واحـد وبـنفس القوة ـ هذا رأى اشبنجلر.

أمـا كـل دول العـالم الكبـرى فقـد تجاوزت عمـرهـا الافتـراضي. وهي تموت الآن أو تستعـد لذلـك. ولا يغرنـك هـذا التقـدم الهـائـل في وسـائـل الانتقـال والاكتشـاف والحـرب.. فهذا التـطور مادي على حسـاب الروح والـذوق والوجدان والحرية والعدل!

ونحن ـ الآن ـ نرثي لأنفسنا، فلم تعد لدينـا هذه القـدرة على البكـاء.. فالبكـاء ترف. لقـد جفت الدمـوع كما جفت العـواطف.. وجفت الإنسانيـة.. وليس من قبيل الصـدفة أن تتبارى الدول الصناعية في خلق «الإنسـان الآلي» ـ وهم الآن يحاولون صناعته بـالجملة لتصديـره إلى الشعوب الأخـرى.. هـذا الإنسان الآلي هـو صورة لأعمـاق الإنسـان الحـديث.. إنه آلة قد صنعت آلة وهـو آلة بـلا عقل.. والإنسـان أيضاً..

وهـو آلـة تقضي على الإنســان نفسـه، فهــذا هـو الانتحــار الحضـاري ـ أي هـذه هي مـرحلة المـدنيـة. والمـدنيــة هي الكلمـة المشغولـة بالـذهب على كفن الإنسان! وليست سفن الفضـاء هذه إلا مثـل المـوتـوسيكـلات التي تسبق الجنـازات الـرسمية للملوك والـرؤساء.. فنحن نشهـد جنازة الحضـارة الإنسـانيـة التي يجـري دفنهـا بغيـر احتفـال في الكــواكب الأخرى!

ثم هذه الأسئلة التقليدية ـ فهي متشابهة في كل لقـاء مع الشباب.. إنهم يريدون أن يعرفوا بسرعـة. وكما أن أسئلتهم مــوجـزة خــاطفـة، فــالإجـابــة يجب أن تكــون من جنس السؤال..

سؤال: كم يعيش أي بطل؟

جـواب: البطل سـوف يكون إنسـاناً ممـلاً في وقت ما ـ لاحظ بـرامـج الإذاعـة والتليفـزيـون في ذكـرى أي بـطل في السياسة والفن والأدب!

سؤال: هل تتمنى أن تكون مالكاً لأرض؟

جواب: لا.. فمن يملك الأرض، تملكه الأرض!

سؤال: من هو الرجل الصادق في نظرك؟

جـواب: كـل النـاس يتكلمـون بصـدق، ولكن ليس من الضروري أن نصدقهم!

سؤال: ما هو أقوى شيء في العالم؟

جواب: أقوى من كل الجيوش: فكرة تجيء في زمانها ومكانها!

سؤال: ما هو مصير الحرية؟

جواب: قد نفقد الحرية ساعة، ولكن لن نفقدها يوماً، قد نفقدها عاماً، ولكن لن نفقدها قرناً!

سؤال: هل صاحب الموهبة في خطر؟

جواب: نعم. . إذا كان يعيش في عصر التفاهة!

سؤال: ما دلالة الطلاق والزواج في أي مجتمع؟

جواب: ارتفاع نسبة الطلاق دليل على كثرة الأحرار. . وارتفاع نسبة الزواج دليل على كثرة الشجعان!

سؤال: ما الذي يحتاج إليه أديب شاب لكي يظهر؟

جواب: يحتاج إلى أن يكون أديباً. . وإلى أن يكون شجاعاً وإلى أن يؤمن بنفسه. فالطريق إلى الظهور هو هو. لم يتغير.

والأسلوب واحد. وكل الذين ظهروا تساقطت دموعهم وعرقهم ودماؤهم عند كل خطوة، وعند كل عسرة وكل وردة وكل شوكة. فلم يكن سهلاً أن يصلوا، ولكن لا شيء مستحيل. . إن الكاتب الساخر برنارد شو له قصة معروفة.

فقد كانت إحدى الصحف البريطانية تنشر أحاديث عنه نابية صارخة مستفزة للقارىء.. وكانت كل هذه الأحاديث تهاجم الأديب نفسه وأسلوبه وحياته وبيته ولسانه السليط.. وغضب القراء من الصحيفة.. وغضبوا للأديب الذي يسكت على كل هذه الإهانات.. ولم يصدق أحد أن أديباً يقبل كل هذه البهدلة دون أن يلجأ للقضاء.. وتطوع بعض المحامين أن يفعلوا ذلك نيابة عنه.. وتصور الناس أن برنارد شو هذا ليس إلا شخصية وهمية.. وإلا فكيف يسكت.. وبعد سنوات كشفت الصحيفة: أن الأحاديث كلها بقلم برنارد شو نفسه!

لقد أراد أن يعرفه الناس. فأخرج لسانه الطويل. ووقف عليه!

سؤال: ما هو أطول كتاب في العالم؟

جواب: ربما كانت مضابط مجلس العموم البريطاني قد جاءت في كتاب من ٢٥٠٠ جزء.. وكتاب آخر للأديب الفرنسي جيل رومان في ٢٨ مجلداً.. وفي الأدب العربي كتاب «الأغاني» لأبي الفرج الأصفهاني في أكثر من عشرين مجلداً.

ويقال إن ملك الصين يونج لو (١٤٠٣ ـ ١٤٢٥) قد ألف دائرة معارف في عشرة آلاف مجلد.. ولكن وجد أن

طبعها بالجملة فادح الثمن ـ ولذلك بقيت بخط يده ولم يطبعها!

سؤال: وما هو أقصر كتاب في العالم!

جواب: لقد ألف الكاتب الإيرلندي صموئيل بيكت الحائز على جائزة نوبل في الأدب مسرحية يستغرق عرضها ثلاثين ثانية اسمها «التنفس» ليفتح الستار عن رجل يتنفس وينزل الستار!

وهناك كتاب اسمه «بحث عن الصمت» من تأليف ألبرت هوبارد.. فقط العنوان.. أما بقية الصفحات فخالية تماماً!

وهناك كتاب إنجليزي شهير اسمه «كتاب للصلاة بلا كلمات» وهو من ثماني صفحات، اثنتان لونهما أسود.. للندم.. واثنتان لونهما أحمر: للخلاص.. واثنتان لونهما أبيض: للطهارة.. واثنتان لونهما ذهبي: للبركة الأبدية!

سؤال: ما هي أكثر الدول إقبالاً على القراءة؟

جواب: روسيا بها ربع مليون مكتبة عامة وفيها ملياران من الكتب.. وأمريكا بها سبعون ألف مكتبة عامة وفيها مليار كتاب.. وألمانيا الغربية بها خمسة آلاف مكتبة عامة فيها خمسون مليون كتاب.. واليابان بها ألفا مكتبة عامة فيها خمسون مليون كتاب..

سؤال: هل صحيح ما يقال أن هناك مؤلفاً منحوساً أو نحساً على الناشرين؟

جواب: يقال الشاعر «ابن الرومي» قد أصاب كل الذين تعرضوا له بالنشر أو بالدراسة. فقد مرض ناشرون وقتل باحثون بسبب إقبالهم على دراسة ابن الرومي. ولكن الأستاذ العقاد كان يتحدى الشؤم والنحس.. فهو يسكن في بيت رقم ١٣ ويضع على مكتبه تمثالاً لبومة، ثم إنه كتب أحسن دراسة في الأدب العربي عن «ابن الرومي» ولكن الذي أصاب الأستاذ العقاد كثير، ولسنا ندري إن كان ذلك بسبب ابن الرومي أم لا!

ويقال إن الفيلسوف الفرنسي فولتير كان نحساً على كل الناشرين في القرن التاسع عشر والعشرين. فأول من نشر له كتبه أفلس ومات شاباً.. وتبعه أربعة ناشرين ماتوا في ظروف مشابهة.. وناشرون أفلسوا وتسولوا.. وأحد الناشرين ضبط زبونة تسرق كتاباً لفولتير، فلما أمسك بها قتلته!

سؤال أخير: ما هو آخر كلام؟

جواب: آخر كلام لم يقله أحد بعد، عن أحد أو عن أي شيء!

ليس بالقنبلة الذرية
يموت الإنسان!

كثيـرة جـداً أمـراض الإنسـانية. . وكثيـرة جـداً جـروح الإنسـان. ولكن الإنسـان لا يحـاول أن يعـالـج نفسـه بنفسـه ومن نفسـه. . وإنما هـو يضاعف عـذابه ويتـوهم شفاءه. إنـه يضـع كل يـوم الملح على الجـرح ويشكـو غيـره، وينسى أن يشكو نفسه لنفسه. .

صحيـح نحن في العصر الـذري. ولكن أول وآخـر قنبلة ألقـاها الإنسـان على الإنسان كـانت من أربعين عـامـاً. ومن يـومهـا لم يعـد يستخـدم هـذا النـوع من السـلاح إنـه يهـدد باستخدامـه. ويكدس أشكـالاً وألوانـاً من هذه القنـابل تحت الأرض وتحت المـاء، وفي المحـطات المـداريـة حـول الأرض. . وغداً في الكواكب الأخرى. .

ومنـذ ألقى الأمـريكـان قنبلتهم على اليابـان أصبحت لـلإنسان القـدرة الهائلة على القضـاء على تاريخـه في لحظة واحـدة. لقد دخلنـا عصر الـذرة لنخرج من هـذا العصر ومن هذه الدنيا.

وكان الفريـد نوبـل مخترع الـديناميت وصـاحب الجائـزة

المعروفة يقول: إنه إذا التقى جيشان وتفانى كل منهما في فناء الآخر، سوف ترتجف الإنسانية كلها من أهوال الحرب ـ ولم يحدث شيء من ذلك. . ففي العالم الآن عشر حروب لم يتوقف نزيفها. ولم تؤد الحروب إلى القضاء على فكرة الحرب. . ولا التربص والعدوان. .

وأصبحت القنبلة الذرية أقل الأخطار التي تهدد الإنسان. بل أن شخصاً واحداً يستطيع أن يوقف إطلاق القنبلة الذرية في أي اتجاه. ويستطيع شخصان اثنان هما رئيسا أمريكا وروسيا أن ينهيا الحروب الذرية كلها في لحظة واحدة.

أما الأخطار الأخرى التي تهدد الإنسان والحضارة الإنساينة كلها، فهي تنتشر وتستشري. ولا نعرف كيف نوقفها. . أو كيف نوقف أنفسنا عن المضي في القضاء على أنفسنا. .

أما مصيبة المشاكل ومشكلة المصائب فهي : زيادة السكان

أنت جالس في بيتك. وفجأة يدق الباب. وتعرف أن القادم في هذه الساعة من الليل أحد أقاربك من الريف. وتندهش جداً لهذه الزيارة المفاجئة وعند منتصف الليل، أما هو وزوجته وثلاثة من الأطفال فقد أسعدهم أنك فتحت

الباب وأدخلتهم في إحدى غرف البيت، لأن الأطفال قد هجم عليهم النوم، ولا بد أن يناموا فوراً.

أما أنك مندهش فلأن هذا ليس مألوفاً في المدينة: أن يجيء أحد دون إخطار سابق. وإذا جاء لا يكون عند منتصف الليل. وإذا حدث فلا بد أن تكون هناك كارثة قد وقعت. وإذا وقعت فليس معنى ذلك أن يجيء لينام، وإذا جاء فوحده وليس هو وجميع أفراد أسرته..

أما قريبك الريفي هذا فهو لم يفعل إلا ما يحدث في الريف. يزور جيرانه في أي وقت وبأي شكل. وسوف يرحبون به. ويرون أنه من العار ألا يفعلوا ذلك. إنه ضيف. وإكرام الضيف واجب. والنبي أوصى بالجار. بسابع جار.. وإن لم تحمله الأرض، فأنت يجب أن تحمله على رأسك والناس لبعضها البعض..

فعادات الناس في المدن الكبرى مختلفة.. ففي المدينة أنت لا تعرف جارك. ولست حريصاً على ذلك. لا صوته ولا صورته. ولا يهم. فالجيران كثيرون. والناس ملايين وأنت لا تستطيع أن تكون على صلة بكل الجيران. ولا بكل الناس. ويا جاري أنت في حالك وأنا في حالي. ثم إنه ليس عند أبناء المدن وقت لتكون لهم صلة بكل الناس. وإذا كانت صلة، فهي عابرة، لأن الصلات الأعمق من ذلك تشغل الإنسان وتأكل وقته وتعطله، ولا فائدة

منها . .

وإذا كان لا بد من الصداقة فليكن مع عدد قليل جداً من الناس. حتى هذا العدد يجب أن تكون الصلة به قوية وليست عميقة. لأن العلاقات العميقة مرهقة للأعصاب. فإذا كان حب، فالحب من هموم الدنيا، ومن أوجاع القلب، فعلى إيه؟ أي أن الإنسان يجب ألا يندمج، في علاقته بأحد. . . لأن الاندماج هو الانشغال والاستغراق والإغراق في الحب أو في الكراهية وخير العلاقات ما كانت خفيفة.

ويكفي أن تلاحظ نفسك وسط الزحام ما الذي تفعله. . في الأتوبيس في المصعد في الطابور. إن الناس يدوسون بعضهم البعض. وكلما زاد الزحام، تضاعف ضيق الناس ورغبتهم في العدوان على الآخرين. ولذلك أفضل العلاقات هي أن تكون على صلة جيدة بكل الناس، أي أن تكون لطيفاً مع كل الناس، والناس الذين تلقاهم يومياً كثيرون، وأن تكون لطيفاً مع الكثيرين يرهق أعصابك. إذن الحل الوحيد لكي تخفف عنك هذا الإرهاق هو: ألا تبالي بأحد. .

لا بالزميل ولا بالجار ولا بمن تراه ألف مرة في الطريق أو الأتوبيس أو الأسانسير. هذه اللامبالاة معناها أن ترى الناس وكأنك لا تراهم وتسمعهم وكأنك لم تسمعهم. إذا

وجدت زوجة جارك ترقع بالصوت، فليس هذا شأنك. . وإذا وجدت جارك قد قتل زوجته، فلا داعي لأن ترى حتى لا يجرجرك البوليس وتكون شاهداً. . وعطلة لا ضرورة لها. . فما معنى هذا كله؟

معناه أن الزحام الشديد في كل مكان قد جعل العلاقات الإنسانية: لا ـ إنسانية. . وجعل الناس جامدين باردين. يخافون من العلاقات ومن العواطف. أما المثل الأعلى لما يجب أن يكون بين الناس: هو ألا يكون بينهم شيء. أن ينعزلوا وينطوي كل واحد على حاله. وأنا في حالي وأنت في حالك. وأنا مالي وأنت مالك. . والباب الذي يأتي منه الريح، يجب أن تسده لتستريح. . والريح يجيء من عند الجار والصديق والزميل.

وهكذا يتقطع ويتمزق ويتفتت المجتمع الإنساني، وتنحط القيم الأخلاقية ويؤذن رجال الدين في مالطة وفي قبرص. ـ ولا يسمعهم أحد. لا لأن أصوات رجال الدين قد ضاعت في ضوضاء المدن الكبرى، ولكن لأن الناس لا يريدون أن يسمعوا أيضاً أو يروا. . فكل واحد عنده ما يكفيه!

هذه اللامبالاة التي فرضها التكدس السكاني هو ملح كثير تحشو به جرحاً دامياً!

مصيبة أخرى: ما يفعله الإنسان في البيئة: في الأرض والجبال والغابات والوديان والمساكن وشاطىء ومجرى النيل.

إن البيئة قادرة بحيواناتها ونباتها وطحالبها على أن تتوازن.. فعلت ذلك ملايين السنين. حتى جاء الإنسان وأدخل أنواعاً من الخلل في كل موازينها.

ففي الغابات نجد الوحوش تتوافق وتتعايش. وترى أن هذا التعايش ضروري لها.. نجد الأسد على مسافة متقاربة. فإذا جاع الأسد اصطاد غزالاً. وإذا لم يبق في الغابة إلا غزالة واحدة، فإن الأسد لا يهاجمها.. هذه هي الحكمة البليغة فالقاتل حريص على بقاء القتيل لكي يتكاثر ويعيش عليه.. تماماً كما نفعل نحن فنحن نعيش على لحم الدجاج والأبقار، ونقوم بتربيتها أيضاً.. هي تعيش لكي نعيش..

وعندما استوردت استراليا كلب الدنجو المستأنس تركته حتى توحش.. ولم يقض على الحيوانات التي جاء لتخليص البيوت منها، وإنما الذي مات هو الذئب مع أن الذئب أكثر شراسة ولكن الذئب أكثر غباوة من الكلاب. فله أسلوب في الحياة والدفاع جعله عرضة للخطر الطويل حتى انقرض.

ونحن نعرف إذا أسرفنا في صيد الأسماك تناقصت حتى جاع الإنسان، وإذا تركناها توحشت حتى على الأسماك الأخرى الصغيرة والأعشاب وأصبحت كتلاً عضلية كأسماك بحيرة السد ـ إذن لا بد من تحقيق هذا التوازن.

وعندما استورد الإنسان الأرانب في استراليا، قضت على البيئة النباتية، فالإنسان هو الذي أحدث هذا الخلل في توازن الحيوان والنبات. ـ عندما أتى بالأرانب.

ولم تعد هناك علاقة متوازنة بين الإنسان والبيئة إلا في أماكن محدودة من هذه الأرض هذه الأماكن أصبحت مثل المتاحف نتفرج عليها ونندهش مثل الهنود الحمر الذين يعيشون في الغابات على جمع الثمار ـ فلا زرعوا أرضاً ولا قطعوا شجراً ولا ذبحوا حيواناً.

وكذلك بعض القبائل البدائية في جزر المحيط الهادىء: يعيشون على جمع الثمار وعلى جوز الهند وصيد السمك.

أما الفلاح الأمريكي فهو يعرف أكثر من غيره أن موارد الطاقة من الممكن أن تنفد. فالفلاح قد أرهق سطح التربة، وقطع الأشجار لاستخدام أخشابها، وكذلك فعل بالأسماك والطيور. فالإنسان قد أرهق البيئة، وهو الآن يهددها بالإبادة.

ولم يعد لدى الإنسان وقت لكي يصلح هذا الذي أفسده. . وإنما الإنسان سعيد بهذه القوة وهذه السيطرة. والسلطنة، على قوى الطبيعة.

فهو إيجابي ـ والإنسان لا بد أن يكون إيجابياً يفعل شيئاً، لا أن يتفرج ـ يجب أن يكون له دور ورأي وسهم وأن يكون السيد الآمر المطاع. ولذلك فهو يعبث بقوة في كل البيئة. . ثم أن الإنسان قد استسلم تماماً للمواد الكيماوية ـ للمبيدات الحشرية والأسمدة في الحقول والبساتين.

كما أنه استسلم أيضاً لاستخدام العقاقير وبإسراف ـ وهي مواد كيماوية. . وأساتذة علم المناعة يصرخون بكل حناجرهم من خطورة الإسراف في تعاطي المواد الكيماوية.

ولكن الناس أصبحوا ضحايا ذلك الشعار الذي يطالبهم في الصحف وفي التلفزيون: مفعولها سريع أكيد!

وتحت ضغط الإعلانات الملونة الراقصة أقبل الناس يشترون ما لا حاجة له من المواد الكيماوية والشركات الكيماوية الكثيرة المتنافسة لا بد أن تبيع، ولكي تبيع لا بد أن تقنع الإنسان وأن تستولي عليه، فكانت الإعلانات الرائعة.

وهناك شعار آخر هو: ليس من الضروري أن يتألم

الإنسان. إذن استخدم هذا الدواء!

ولقد ضاعت صيحات مئات من العلماء الذين أنذروا الإنسانية وحذروها من استخدام المبيدات الحشرية والسموم الكيماوية في الماء والتربة وفي أوراق الخضراوات وثمار الفاكهة وفي اللبن واللحم. ولكن أحداً لم يستمع إليهم.. بل أنكروهم وأهانوهم.. ووصفوهم بأنه نوع البوم يريد أن يخرب الدنيا ليبكي عليها بعد ذلك!

فالإنسان الذي حطم البيئة، يحطم نفسه الآن..

بسبب اختفاء الطبيعة الجميلة، لم يعد لدى الإنسان ذوق.. ولا رغبة في تذوق جمال الطبيعة.. لأن الطبيعة لم تعد هناك..

فإن كنت من سكان المدن هل تذكر ما هي آخر مرة رأيت فيها القمر.. أو رأيت فيها النجوم أو رأيت الأشجار وظلالها على سطح النيل أو جلست تحت شجرة على ترعة.. أن أحداً منا لا يرى السماء، حتى إذا أراد.. أين هي السماء وبيننا وبينها سحب التراب والهباب.. والعمارات العالية..

وكلما تقدم الإنسان ازدادت البيئة قبحاً..

هات صورة قديمة من أيام الحملة الفرنسية على مصر.. إقطع هذه الصورة من كتاب وصف مصر. الذي

كتبه علماء نابليون.. وهات صورة حديثة لنفس المكان. وقل لي ماذا ترى؟

الفرق بين المدينة وبين القرية: كالفرق بين الخلية السرطانية والخلية السليمة.. فالخلية السليمة تنمو وفقاً للبرنامج الغريزي الموجود في الجسم الإنساني.. فهي خلية على علم، على نور على بينة من أمرها.. ونموها محسوب وفي مكانه من العضو ومن الجسم الإنساني.. أما الخلية السرطانية فهي قد أضاعت البرنامج.. الذي يجعل لها دوراً نافعاً بالتعاون مع بقية الخلايا في الجسم الإنساني. ولذلك فالخلية الخبيثة تنمو وتتكاثر بجرأة وجنون. إنها لا تنمو وإنما هي تعربد.

إنها لا تمشي وإنما تتطوح في كل اتجاه.. ولذلك فالخلية الخبيثة متسلطة على الخلايات السليمة المجاورة.. والخلايا السليمة مترابطة تجمع بينها برنامج يحكم نموها «هذا البرنامج يضم معلومات غريزية عميقة». هذا البرنامج قد اكتسبته في تاريخها الطويل.

انظر إلى المدينة الحديثة من الجو ستجدها تشبه الورم الخبيث ـ بيوت متشابهة ليس فيها فن ولا ذوق. هذه البيوت أقيمت بسرعة. وهذه السرعة سببها المنافسة المميتة بين شركات البناء. هذه المنافسة هي مصدر الدمار والخراب في العالم كله ـ فحياتنا تتحكم فيها التجارة. والتجارة مكسب

والمكسب أساسه الإنتاج بالجملة . .

وهذه العمارات السكنية والمجمعات السكنيـة هي المثل الأعلى الآن. ونحن لا نستـطيع أن نفـرق بين شقـة وشقـة أو بيت وبيت إلا بأرقامهـا فقط. وهي مساكن وليس بيـوتاً. وهي تصلح لسكنى الـدواجن والحيوانـات الأخرى التي استـأنسهـا الإنســان. . هـذه الشقق مثــل حظـائـر الــدواجن. . مثـل «بــطاريـات» الكتــاكيت. . وهي مكـان منــاسب للمــواطن العـادي. . لكي يأكـل وينام هـو وأولاده ويخـرج إلى العمـل مثـل ملايين غيـره في زحام شـديد، ليعـود وقد تهـدم تمـامـاً لينام ويصحو حتى يموت. . إن هذا الإنســان قد وجـد ليعمل وليكـون في وفاق مـع الآخرين. . إنـه مثلهم تمـامـاً. ويجب أن يكـون مثلهم، لا أكثر ولا أقـل. . وألا يتعـطل عن القيـام بهذا الدور. .

وفي استـطاعتك أن تـزور «الدجـاج البيـاض» ـ أبلغ مـا يمكن أن تــراه لأبشـع صــورة يعيشهـا الــدجـاج ويعيشهــا الإنســان. فالـدجاج قـد وضعوه بـالعشرات في البـطاريـات. وضعــوه ليـظل نــائمـاً يــأكـل ويشــرب ويبيض. . وأشعلوا المصـابيح ليـلاً ونهاراً حتى لا ينـام. وإنمـا يـظل في حـالـة يقظة يأكل. وتدفعه الحالة العصبية إلا أن يـأكل أكثـر ويشرب أكثـر ويبيض. وبعد سنـة من الأشغال الشـاقـة، يصبـح هـذا الـطائر قـد استنفد كـل قدراتـه على وضع البيض. . وأصبح

جثة غير منتجة. ولا بد أن يباع لحماً للإنسان. وبسبب الحالة العصبية عند الدجاج فإنه يضرب بعضه بعضاً بسبب الزحام والإرهاق.. ولذلك فهم يكسرون منقاره لكي يشرب من الحنفية وهو نائم.. وإذا ضرب جيرانه من الدجاج فإنه لا يكون قاتلاً ـ والإنسان قد أصبح الآن كذلك..

مع أن الإنسان يجب أن تكون له فرديته.. مزاياه الخاصة.. حياته.. حريته.. قيمته الجمالية والأخلاقية.. فالإنسان ليس دجاجة تبيض بالقوة.. ولا هو مثل النمل أية واحدة من الممكن أن تحل محل الأخرى.. ليس قطعة غيار..

إن آخر صور الإنسانية بين سكان مدن مصر هي في مدينة الإسماعيلية، فهي «المدينة المتحف» لما كان عليه المواطن المصري وما يجب أن يكون عليه ـ ولن تكون مدينة أخرى في مصر مثل الإسماعيلية. وأسوأ ما وصلت إليه حال المدن هو مدينة بورسعيد.. إنها مدينة قد انهدت على رأس سكانها وانحطت بهم، وتسحب وراءها مصر كلها!!

وسكان المجمعات السكنية ليس عندهم إحساس بالجمال ولا بالقيم الأخلاقية. فهم في عزلة تامة. وإذا تجاورت بلكونتان، ظهر «قاطوع» بينهما حتى لا يرى الجار جاره ولا يسمعه..

في كل مصر ـ فيما عدا الإسماعيلية ـ إذا اجتمع مجلس المدينة وكان موضوع المناقشة هو تحويل قطعة أرض إلى محطة بنزين، فإن أحداً لا يتردد في اتخاذ هذا القرار. . لأن محطة بنزين أنفع من حديقة مزروعة، وفتح شارع ونزع أشجاره أفيد من بقائه هكذا لينظر إليه الناس ذهاباً وإياباً. وهكذا فليس على عشاق الجمال والفن والنظر إلى نجوم السماء إلا أن يذهبوا إلى الإسماعيلية أو إلى سيناء.

وهكذا قضت الحياة الحديثة على كل ما هو جميل من أجل كل ما هو مفيد. . وغطينا السماء بالتراب والهباب من أجل أن نبني ناطحة سحاب من الأسمنت المسلح!

كارثة أخرى أضيفها بكل تواضع إلى عذابنا في هذه الدنيا. . إنها مثل محلول من الملح والخل نغطي به جرحاً قديماً، على أمل أن ينزف وأن يوجعنا من جديد؟

فنحن على علم بكثير مما حولنا من الأرض وتحتها وفي السماء. ولكن الذي نعلمه عن أنفسنا قليل. فالإنسان قد تغلب على مشاكل كثيرة، وحل عقداً كثيرة. . وفتح طرقاً في البر والبحر والجو وبين الكواكب. ولكن الطريق إلى نفسه ما يزال مسدوداً. . أو موارباً. فالإنسان الحديث ضحية ما صنعت يداه. فالإنسان عامل منتج. . الإنسان صانع بيده وصانع بالآلات الحديثة. وهو ينتج بالجملة كثيراً. وهو من أجل أن يبيع أسرع وأكثر، في حالة منافسة

وحشية مع غيره من الناس.

والمثل اللاتيني القديم يقول: الإنسان ذئب لأخيه الإنسان.. أما أنياب هذا الذئب فهي المنافسة اليومية من أجل البيع.. والبيع من أجل المكسب.. والمكسب من أجل مصانع أكبر، ومنافسات أخطر بين الأفراد والشركات والدول.. وغدا بين سكان الأرض وسكان الكواكب الأخرى.

والكسب التجاري يعطي القوة الاقتصادية، والقوة الاقتصادية تلد السيطرة السياسية..

فالمكسب المادي هو الأساس.

والمكسب لا حدود له.. والفلوس هي الوسيلة الوحيدة لحصول الإنسان على كل ما يريد. كل شيء بالفلوس. وأنت تساوي جيبك بالضبط. تساوي مليماً إذا كان معك مليم. تساوي مليوناً إذا كان معك مليون. وعلى الرغم من أن الفلوس هي الوسيلة للحصول على المتعة، فقد أصبحت الفلوس هي المتعة.. هي الهدف.. جمعها هو اللذة.. إن بعض تجار بورسعيد المدينة الصغيرة الخانقة المخنوقة ليس لديهم وقت للنزهة ولا أماكن للمتعة. فقد أغلقت هذه الأماكن «الطفيلية» كدور السينما والمطاعم والكازينوهات والكباريهات.. ولذلك فالمتعة الوحيدة ليلاً

عند التاجر في بورسعيد هو أن يركب سيارته المرسيدس ـ لا بد أن تكون مرسيدس ـ ويدور بها حول المدينة ثم يقف بها أمام الدكان لأن البيت فوق الدكان. فهو قد خرج من الدكان واتجه إلى بيته بعد الدوران حول بورسعيد.. وبسرعة يدخل غرفته ويقفلها عليه ويعد الفلوس ـ هذه هي المتعة الكبرى!

وما يقال عن الفلوس يقال عن «الوقت» أيضاً. فنحن نقول الوقت من ذهب. أو الوقت ذهب. فما الذي نفعله بالوقت؟

إن كل شركات الطيران تتنافس في الوصول أسرع ـ أي في وقت أقل. ويكلفها ذلك ألوف الملايين. ولكن المهم أن يكون الوقت أقل. أما ما الذي يفعله الإنسان بالساعة التي توافرت له في عبور الاطلنطي، فلا يهم ماذا يفعل بها.. المهم أن يصل أسرع وأن يدفع في ذلك أكثر. والوقت مثل الفلوس وسيلة، وليس هدفاً.. ونحن نحرص على الوقت لا لكي نستريح أطول، أو نستمتع أعمق.. ولكن في زماننا المهم: هو الوقت الأقصر والطائرة الأسرع. مهما كان الثمن!

وشركات السيارات تتنافس حتى الموت من أجل سيارة أسرع. والشوارع يجب أن تكون أوسع، لكي تنطلق فيها السيارات الأسرع والأكثر والأجرأ.

فما اسم هذا المرض؟

اسمه: جنون الفلوس والوقت.

فماذا كانت النتيجة؟

الخوف هو النتيجة. الخوف من أن يسبقك أحد. من أن يتخطاك.. من أن يتجاوزك.. وأن يثير الغبار في وجهك..

والخوف توأم القلق. والقلق يحطم الأعصاب ويرفع الضغط ويسوس الأسنان ويذبح القلب ويتخابث في الخلايا..

وكذلك التسرع والتخبط وعدم القدرة على اتخاذ القرار.

أما الضحية فهي أعز ما يملك الإنسان: التفكير..

التفكير هو الذي جعل الإنسان يتطور. فالإنسان تطور عندما أدرك ما الذي حوله. عندما فهم. وحلل. وربط واكتشف.. وأول ما اكتشف: ذاته..

وهذا الاكتشاف يجيء من دهشة الإنسان لما حوله. والدهشة هي بداية الفكر. بداية الفلسفة. ولكن الإنسان لم يتطور لأنه تفلسف. وإنما تطور لأنه بالفلسفة أدرك حدود قوته. وبقوته أمسك الأشياء. ومن قدرة أصابعه أن تمسك

الأشياء. يصنع لنفسه كل أدوات الحياة: السهم والقوس والفأس والعجلة والملعقة والبيت والملابس والسرير. . وكلها نقط تحول. . نقط وثوب في تاريخ الحضارة الإنسانية. والكائن ـ كالحيوانات والنباتات والطحالب ـ الذي لا يدرك ذاته ويعرف قدراته لن يفلح في تطوير ما حوله أو تطوير نفسه: بالفكر واللغة والأخلاق والفن والتكنولوجيا. .

ولذلك فنحن أمام أزمة كبرى. فالإنسان نتيجة لهذا الخوف والسرعة أصبح غير قادر على أن يجلس بمفرده. على أن ينفرد بنفسه. ولذلك فهو يتفادى الجلوس وحده يفكر ويتأمل. . ولذلك فهو حريص على أن يكون مع آخرين، وإن لم تربطه بهم صلة. حريص على الضوضاء والهيصة. . حتى لا يسمع صوته الداخلي. .

إنه يفضل صوت الراديو، على صوت العصافير. .

والإنسان بسبب هذه المنافسة الخطرة، يأكل ويشرب ويلبس ويتداوى بما لا يحتاج إليه. لأن هذه المنافسات بين الشركات الكبرى، أطلقت أسلحتها الفتاكة على الإنسان: الإعلانات في التليفزيون. فاستطاعت هذه الشركات أن تجعل الإنسان يعيش على الكماليات، كأنها ضروريات. . عشرات المياه الغازية والشكولاتة والبطاطس والآيس كريم والحلويات. . وكلها كماليات. ولكن الإنسان يقبل عليها ويشربها ويأكلها، كأنها ضرورية.

وكـذلك الأدويـة الكيماويـة: المنشـطة والمقـويـة والتي تنقص الــوزن والتي تجلو العين والأظـافــر وتلين البشـرة.. إلخ.

وهي جميعـاً سـوف تقضي على الإنســان، وعلى القيم الإنسانية بسبب الأمراض الجسمية والنفسيـة التي تردى إليهـا الإنسان في كل لحظة!

نتيجة أخرى: الجنون بالجديد..

ففي المـدن الكبـرى لا ينـدمـج الإنسـان في أي شيء، لأن الاندماج استغراق واشتراك عميق. ووضـع جذور وروابط وقيـود ـ والإنسان يجب أن يكـون طليقـاً لا يـربـطه أحـد ولا يـرتبط بأحـد.. ففي الدنيـا أناس كثيـرون، وجوه جـديدة.. عـلاقات جـديدة.. فـالإنسـان يجب أن يكـون مثـل الكـرة، يتـدحرج على الحيـاة.. لا يقف ولا يوقفـه شيء.. والنـاس جميعـــاً مثـل كــرات البليـاردو.. أو مثــل البلى:. أو مثـل البـطيخ إذا وضـع معاً، تـلامست مساحـات صغيـرة.. بقيـة سطح الكرة أو البطيخة وكذلك جـوفها، فـلا أحد يعـرف عنه شيئـاً. ولكن مـا دامت العـلاقـات سـطحية تــافهـة، فهــذه المســاحة من المكـان ومن الزمـان التي نلتقي عندهـا تكفينـا جداً. وما زاد عن ذلك، فلا فائدة منه.

وعنــد الأمريكـان إذا مات شخص، فـإنهم لا يتحـدثـون

عنـه مطلقـاً. انتهى. كـان لـه رقم. والـرقم سقط. كـان لـه مكـان. والمكان قـد شغله غيره. كـان له سـرير والسـرير في الزبالة. ولذلك فالإنسـان لا يصح أن يكـون له «عـزيز» حتى لا يحزن على فقده..

والأمـريكان أبنـاء كبـرى الـدول الصنـاعيـة وأقـواهـا إذا انتقلوا من مكـان إلى مكان فـإنهم يبيعون كـل أثـاث البيت. ولا يحتفـظون بأي شيء. أذكـر أنني ذهبت لمشـاهـدة أثـاث شقـة يسكنها دبلومـاسي أمـريكـاني في المعـادي انتهت مـدة خدمته في مصـر. كل شيء معـروض للبيع حتى مجمـوعات الصحف المصـرية.. حتى الأشيـاء التي اشتـراهـا من خـان الخليلي.. حتى المـلابس معروضـة للبيـع. مـلابس الكبـار والأطفال.. ولعب الأطفال!

فهو سوف يشتري كل شيء من جديد..

بينمـا نجد الـرجل الإنجليـزي لا يفعـل ذلـك ـ ولا أنت أيضـاً ـ فالقـديم لـه معنى. لـه ذكـرى. لـه تـاريـخ عنـدك. ولذلك فأنت لا تفرط في ذكرياتك!

حـدث أن طلبت سيـدة إنجليـزيـة الـطلاق من زوجهـا الأمـريكي. ونـظر القـاضي إلى المحلفين، فلم يجـدهـم قـد اقتنعـوا بطلبـات الزوجـة. ولكن عندمـا قـالت الـزوجـة: يـا سيـدي القـاضي أنـه في العـام المـاضي ألقى كلبـاً لنـا في الطريق العـام وتركه. لأنه يريد شراء كلب آخر.

والتفت القاضي يسأل الزوج الأمريكي فقال: فعلاً.. وأنا أعلم أن أي إنسان يعثر عليه سوف يحرص على اقتنائه..

والتفت القاضي بسرعة إلى المحلفين فوجد في عيونهم إجماعاً على تأييد الطلاق. وجاء في حكم القاضي: إن رجلاً لا خير له في كلبه، فلا خير له في زوجته!

إنه الجديد.. إنتاج الجديد.. وشراء الجديد ـ شعار كل الشركات الكبرى التي تتنافس على الزبون. فقد نجحت في أن تغرس في أعمق أعماق الزبون أن يشتري الجديد.. وأن يتخلص من القديم..

أذكر في أول زيارة لأمريكا سنة ١٩٥٩ أن اقترح أحد أصدقائي أن اشتري سيارة كاديلاك انتقل بها بين معالم هوليود. وظننته يسخر مني. ولكن ذهب معي إلى أحد الجراجات واشتريت سيارة كاديلاك بمائة دولار. وكانت السيارة موديل سنة ١٩٤٠. وكانت في حالة جيدة جداً.

واستخدمت السيارة اسبوعاً. ثم كان لا بد أن أبيعها قبل سفري.

ولم أجد أحداً يشتريها. وإنما نصحوني جميعاً بأن أركنها على جانب من الطريق وسوف تجيء عربات الزبالة وتحملها إلى مقابر السيارات.. وبعد ذلك ينقلونها إلى

المصانة ليعجنوها في كتلة واحدة. . ولم أتصور أن أفعل ذلك. إنها سيارة فخمة. متعة جميلة. أبهة. أجمل الذكريات. إنني لا أملك مثلها في مصر ولا أستطيع. وتمنيت أن يشتريها أي إنسان بأي مبلغ. فالشراء معناه أنها تساوي شيئاً. إن لها قيمة. ولكن أن أرميها هكذا فهذا صعب على النفس!

فما هو هذا الصعب على نفسي؟

صعب أن أتخلص من سيارة ارتبطت بها بعض الوقت. ولم أعرف بالضبط ما هو معنى هذا الارتباط. ولكن سيارتي أحببتها. ولم أناقش نفسي إن كانت كلمة «الحب» هي الكلمة المناسبة. إن الحب علاقة متبادلة بين اثنين: أساسها الإعجاب والاحترام والسعادة. . أما أنني أعجبت بالسيارة فلا شك في ذلك. أما أنني سعيد بها فهذا مؤكد. ثم أنني انظر باحترام لهذه التحفة الهندسية ـ ولكنها لا تبادلني ذلك. فليكن.

إنك تقطف وردة من الشارع. . ولكن أن تجيء فتاة جميلة وتعطيك هذه الوردة، فالمعنى يختلف والوردة هي الوردة. . ولكن العلاقة التي ولدت بسرعة وهزت أعماقك. هذا هو الذي يجعل لهذا الرمز معنى جميلاً. .

لقد أخذت السيارة إلى المطار. ونزلت منها وأقفلتها

بعناية. ودرت حولها. وتركتها حزيناً.. ورحت أتلفت ورائي لأراها.. ومشيت بسرعة حتى لا أراها..

ولذلك هناك فرق بين الصلة والعلاقة والوشيجة..

فالكوب الذي أشرب منه الشاي، تربطني به «صلة»..

والكوب الذي أشرب فيه الشاي واعتدت على ذلك فهذه ليست صلة وإنما هي «علاقة»..

والكوب الذي تركته أمي أو أبي وأعطاه لي متمنياً لي: الصحة والعافية مع كل قطرة أشربها.. هذا الكوب تربطني به «وشيجة» أي أعمق العلاقات.

ولكن في عصرنا الحديث يجب أن تتحول الوشائج إلى علاقات والعلاقات إلى صلات..

ولذلك فالسيارة هي مجرد جزمة واسعة استخدمتها بعض الوقت. ونزعتها بحثاً عن غيرها أفضل وأجمل.. أو ليس من الضروري أن تكون أفضل يكفي أن تكون جديدة لتكون أفضل وأحسن، بعض الوقت.

وما لم ندرك هذه المصيدة اليومية التي وقعنا فيها، وتساقطنا بداخلها، فسوف ننحدر بالإنسان وحضارة الإنسان إلى حيوانية خفية.. ثم حيوانية سافرة!

أبشع من هذا كله أيضاً: احتقار الماضي والتاريخ

والأكبر سناً والعادات والتقاليد والقيم الفنية والأخلاقية. . والحضارة الإنسانية.

أما من الذي يفعل ذلك فهم الشباب!

وهناك نوعان من الشباب العنيف: المجرمون والساخطون.

أما المجرمون: القتلة وأعضاء العصابات وتجار المخدرات وأبطال السلب والنهب، فهم مجرمون شبان. أي مجرمون عاديون ولكنهم يحاولون أن يتمسحوا في شرف السخط والغضب عند الشبان المثقفين وقد يلجأ الشباب الغاضب إلى العنف. ولكن العنف ليس هدفاً. وإنما هي وسيلة كريهة، تحط من شرف هدفهم، ونبل غايتهم.

والشباب يرفض والديه. .

بل ويكره الوالدين ويحتقرهما ويتعالى عليهما. . فهو كاره مغرور. .

والشباب يكره الأبوين والمدرسين ورجال الدين ورجال السلطة. وينظر إليهم على أنهم مغتصبون للوطن. وأنهم أجانب استولوا على كل شيء في غياب الشباب. وأنهم لذلك نوعية أخرى من البشر. كما أن الشباب نوعية أفضل.

وفي مواجهة الأكبر سناً والمؤسسات الأقوى، فإن الشباب «يتشرذمون». . أي يكونون جماعات وهيئات. لها

لغة خاصة. ولها زي خاص. ولها مبادىء اعتنقوها بسرعة. وعلى الرغم من أنهم لا يطيعون أوامر الأكبر سناً، فإنهم يطيعون أوامر الجماعة وأمير الجماعة، مهما كانت سنه وثقافته.

ونحن نجد عند القبائل البدائية ان ابن هذه القبيلة إذا قتل واحداً من القبيلة الأخرى، فليس قاتلاً. وإنما هو بطل. وإذا مات فهو شهيد.. بينما قتيل القبيلة الأخرى فهو كلب إذا سقط، وكان يجب أن يسقط. أي أن القبيلة ترى أن قتل الخصم ليس جريمة. فقتله ليس قتلاً! أي أنها تبيح القتل للآخرين. وكذلك الشباب يرى الاعتداء على غيرهم ليس عدواناً. وإنما هو تأكيد لذاتهم وتوسيع لسلطاتهم، وتمكين لهم. فهم وحدهم البشر، أما غيرهم فليسوا كذلك..

وعلى الرغم من أن الشبان في أمريكا وأوروبا قد كرهوا الحروب والحياة العسكرية، فإنهم يرتدون الملابس العسكرية.. كأنهم جنود في جيش آخر، جيش تحرير، غير جيش الاحتلال الذي يتكون من الأب والأم والمدرس والكاهن ورئيس العمل والهيئات الحكومية والصناعية والتجارية..

وهذا واضح في جماعات: الخنافس والهيبز والروك والمود والاستون وغيرهم. فهم يحاولون أن يكونوا مختلفين

عن آبائهم لا بتجاهلهم فقط، وإنما بعمل عكس ما يريدون لهم وما يطلبون منهم. . فهم يرتدون الملابس الممزقة. ولا يغسلون أظافرهم ويطلقون شعورهم وينامون في الزرائب ويتزوجون ويعيشون عالة على الآخرين وهذا يفسر لماذا تزاحم الطلبة على جامعة فيينا على مدرجات المحاضرات ومعامل الكلية وراحوا يتبولون ويبرزون لقد عادوا بأنفسهم إلى مرحلة الطفولة، مرحلة ما قبل دخول الطفل دورة المياه. . انتكسوا. . أي رفضوا التربية والأخلاق. رفضوا تربية الأب والأم والمدرسة والكنيسة. . مسحوا شبابهم. أعادوا أنفسهم إلى الطفولة. . طفولة الكلاب ضالة - احتجاجاً على المجتمع ورفضاً لكل ما فيه من علم وأخلاق وحدود وقيود وتنظيم وتطير من أجل المستقبل الأفضل.

فإذا عرفت أن هذه موجات تعلو وتهبط بنصف سكان الأرض. أدركنا كم هو مظلم شنيع مستقبل هذه البشرية التي يقوم نصفها اليوم على رفض نصفها الآخر. . وتجاربها المتكاملة من أجل أن تصل إلى ما وصلنا إليه اليوم من تطور شامل. .

وأخيراً نحن أمام وابل من التعليمات والتوجيهات الفكرية والسياسية والاجتماعية والدينية في الصحف والمجلات والميكروفون والشاشة. كلها تصب معلومات ونظريات واجتهادات واحدة. وذات هدف واحد: أن يكون

الناس متشابهين. أن يكون هناك طابور نمشي فيه ولا نخرج عنه.. أن يكون هناك «زي عقلي» موحد.. وعاطفي أيضاً.. نفكر في الشيء الواحد، وننفعل بطريقة واحدة للغضب والبهجة والذكرى الواحدة.. وبذلك نكون مجموعة من قوالب الطوب.. أو من الزجاجات الفارغة التي تمتلىء بسائل من لون واحد..

وسواء كانت وسائل الإعلام تملكها الدولة أو تملكها الشركات الكبرى فالهدف واحد: أن نرتبط بها وأن نتأثر بها وأن نستجيب لكل دعائها وندائها.

أي أن يكون الناس جميعاً متشابهين. كأنهم شخص واحد.. كأنهم ماكينات.. كأنهم قطع غيار أنتجها مصنع واحد.. فكما أن المنتجات بالجملة لا يختلف بعضها عن بعض، كذلك يجب أن يكون كل الناس.. قطع غيار.. يمكن استبدالها واستعواضها.. وكانت بعض الجماعات تحاول أن تختلف عن غيرها في ملابسها الفلاحون.. والبدو.. وسكان الجبل.. ولكن بمرور الوقت اختفت هذه الأزياء التي تميز فئة عن فئة، ودخل الجميع في الزي الواحد..

حتى الموضة: التي بسرعة تصبح زياً عاماً لكل الناس، وبذلك لا تكون ميزة لأحد. فالمرأة عندما تريد أن تبدو مختلفة عن غيرها وتريد أن تؤكد لنفسها ولغيرها

ارتباطها بفئة أخرى من نساء العالم في باريس ولندن، فإنها تسرع «بتقليد الموضة. . وتبدو غريبة في بلدها. ولكن يرضي غرورها أن تشعر بأنها غير النساء اللاتي حولها. . غير مجتمعها، وإنما هي تنتسب إلى نساء أخريات في مجتمعات أخرى. .

ولكن هذا الشعور بالامتياز والاختلاف مؤقتاً على رغم أنه مؤقت فإن المرأة تحرص عليه. . ولذلك لا ينقذها من الشعور بالضياع وبأنها مثل كل النساء، إلا أن تتجدد الموضة بصفة مستمرة ـ وسوف تتجدد الموضة وبسرعة، لأن وراءها مصانع القماش والعطور وأدوات الزينة والاكسسوارات والأحذية والشنط والمجوهرات. . وكلها تنتج كثيراً وسريعاً، وتريد أن تبيع. .

وأحب أخيراً أن ألفت نظرك إلى صفه هامة مؤلمة: فأنت عندما تقف أمام البقال أو حظيرة الدواجن: فلا فرق كبيراً بينك وبين العلب والصناديق والدواجن. . كلها سلع، وأنت أيضاً. . كلها تباع وتشترى. . وأنت أيضاً كلها من مقاس واحد وحجم واحد ووزن واحد ـ وأنت يجب أن تكون كذلك. وبهذا النظام والتطابق والسلبية التامة نشترك معاً، ودون أن ندري، في دفن حضارة الإنسان. . والإنسان!

نصف مصر
لا يعمل . .
ونصف النصف
ساخط على ذلك!

في سنة ١٩٥٠ كنت محرراً في جريدة «الأهرام» وبهذه الصفة نشرت خبراً: إن كمال الملاخ وأنيس منصور يسافران على «ظهر» الباخرة أسبريا إلى أوروبا. ولم يتنبه أحد إلى أن كلمة «ظهر» هذه ليست تعبيراً مجازياً. وإنما فوق ظهر المركب في خيمة. هذه الخيمة يجب حلها قبل طلوع الفجر ليتمكن البحارة من غسل ظهر السفينة. وعلى ذلك يجب أن نصحو مبكراً، وأن نلم ملابسنا، ونقفل حقائبنا، ونقف في العواصف إلى أن يفرغ البحارة من عملهم . . لنعود ننصب الخيام وننام تحتها مع الفنانين: صلاح طاهر وحسين بيكار وعبد السلام الشريف وحسن فؤاد وجمال كامل وعبد الغني أبو العينين وأبو صالح الألفي ولبنى عبد العزيز والأخوين سيف وانلى وأدهم وانلى . .

ولم نجد ما نشكو منه فنحن سعداء بكل شيء. فكل شيء جديد. وكل ما هو جديد باهر، البحر لأول مرة. والعواصف والبرودة والدوخة والنشوة وحياة الكشافة.

وعلى ظهر الباخرة أسبريا وجدنا عدداً من طلبة

الجامعات الإيطالية والألمانية يغسلون ويكنسون. ولكي نتناول طعامنا في مكان أفضل كان لا بد أن نساعد نحن أيضاً بحمل الطعام من الدرجة الأولى إلى بطن المركب عبر سلالم طويلة ملتوية كأنها أحشاء ديناصور محموم.. وقد كان من نصيبي أن أتولى طبع قوائم الطعام للدرجة الأولى. وكان على غيري أن يحمل زجاجات النبيذ والمكرونة والفاكهة إلى ركاب الدرجتين: الثانية والأولى. أما المكافأة فهي أن يسمحوا لنا بالسهر ليلاً في الدرجة الأولى لكي نرى الفرق الغنائية والموسيقية والاستعراضات حول حمام السباحة في ضوء القمر. حتى إذا انتصف الليل أشاروا إلينا أن نهبط الدرجة الأولى والثانية والثالثة ونتكوم على ظهر السفينة تحت الخيام.

لا شكوى. لا ألم. لا تعب. بل متعة وضحك ومرح - شباب.

وفي البندقية وتحت «جسر التنهدات» ونحن نركب عشرين جندولاً وراء بعضها البعض، ونغني بصوت مرتفع أغنية الجندول.. شعر علي محمود طه، وغناء وموسيقى محمد عبد الوهاب. وأكثرنا لم يجرب الغناء بصوت مرتفع. ولكن الموقف هزنا وجعلنا نعبر بإيقاع واحد، وتنهدنا تحت «جسر التنهدات».. وتمنى كل واحد ما يشاء. ودون اتفاق منا كان أملنا واحداً: أن نعود إلى البندقية!..

وكان بحارة الجندول طلبة في الطب والهندسة والفلسفة والفنون الجميلة. وفي الليل كان اللقاء والحوار بعشر لغات من بينها العربية.. فبعض بحارة الجندول جاءوا من لبنان ومن اليمن، يعملون في الإجازة الصيفية. وتبادلنا العناوين والتليفونات. وكان للحياة طعم العنب والتفاح والمكرونة، ولم نشعر لحظة واحدة أن مياه البندقية راكدة آسنة متعفنة. وأن الاخضرار ليس من ألوان الجنة، وإنما هو نتيجة للعفونة.. ولكن من الذي يجرؤ أن يستخدم حاسة أخرى غير العين والأذن والأصابع في ليالي البندقية؟!

فنحن شباب يهضم الظلط من الكلام والأحداث، ويحول الماء الأخضر إلى كولونيا، وإذا جلس وظهره للحائط يملأ معدته بالفاكهة والعيش والجبن فهو في جنات تجري من تحتها الأنهار - شباب.

وفي إحدى الليالي جلسنا.. خمسين.. ستين.. مائة من كل لون ودين.. وكان الحب سيد الليل.. قلنا وقالوا. وغنينا ورقصوا. تحدثوا وتحسرنا. بكوا وخجلنا. وانتهى الليل عند أطراف أصابعنا سلاماً وتحية وعناقاً ودعوات بالعودة وافترقنا.

وفي مدينة ابنروك بالنمسا. تساندنا نصعد «برج إيزل» - قمة التلال النمساوية وأجمل مناطق التيرول هنا: وقف نابليون. هناك: شرب نابليون. وهذه الشجرة هي ابنة

ابنـة شجـرة نبتت من بـذرة تفـاح روتهـا قـطرات من عـرق نابليون . .

وإذا وضعت أذنـك على هـذه الشجيـرة فستجـد الـريـح تنفـخ في أذنك بـاللغة الفـرنسية: هـذه هي النهـايـة. . وهي آخر عبارة من خطبة عصماء ألقاها نابليون عائـداً من الهزيمـة الروسية!

وعلى هذه الدكـة جلسنا: د. عبـد العزيـز حجازي ود. محمـد محمـود الصيـاد نـاقش الفتيـات: كيف يجمعن بين الدراسة الجامعية وعمل الجرسونات. وإن كن يجـدن حرجـاً أو معاكسة من أحد؟ وكانت نظراتهن تقول: لـم يعاكسنا أحـد قبلكم!

والتقت عيـوننا، ولمـاذا لا يكون لنـا شيء من ذلـك في مصر: فيعمل كل الطلبـة والطالبـات في الصيف. . أي عمل شـريفـ؟ هل يقبـل الشباب؟ مؤكـد. هل يـرضى أولياء أمـور الفتيات؟ ليس مؤكداً. . ولكن لا بد من عمل شيء . .

وفي مدينة تبيجن بالغابة السوداء الألمانية نـزلنا في أحـد بيـوت الشباب. وفي حـديقة البيت جلسنـا: د. عبـد المنعم البنـا واللواء حسني نجيب ومديـر الإذاعة الأستـاذ طيفور ود. حسن عثمـان مترجم الكـوميديـا الإلهيـة. . نحـاول أن نجـد أسبـاب العظمـة الألمانيـة في كل العلوم والفنـون والصنـاعـة

والحرب والموسيقى والفلسفة.

وقلنا معاً: لا بد أنها تبدأ من تحت السلم.. أي من هذا الموقع الذي نجلس فيه، حيث تكنس وتمسح طالبات جميلات. إنهن طالبات في الجامعة، ولكنهن هنا عاملات خادمات.. شغالات.. لا يهم ما الذي يعملنه ولا أين ولا كم يتقاضين، وإنما العمل واجب. والعمل شرف. وعمل كل الناس معاً نهضة قومية.

وكان أحد الفلاسفة الألمان قد سألوه يوماً: ما هو سر عبقرية الشعب الألماني؟ فكان جوابه: لا يوجد سر. وإنما نحن قبل الجامعة مررنا على الثكنات!

أي عرفوا الضبط والربط والنظام والطاعة والهدف الواحد الواضح، وبعد ذلك دخلوا الجامعة يستأنفون الحياة العسكرية، ولكن بصورة أخرى!

والذي ينظر إلى الفتيات وهن يعملن في الحديقة وعلى السلم وفي الغرف، يشعر كأنهن فرقة موسيقية واحدة لها مايسترو واحد. تعزف نوتة واحدة!

وبعد أيام كنا في حديقة «هايد بارك» في لندن.. كان يوم أحد. الناس كلهم هناك.. دوائر يتناقشون في أي شيء وبكل حرية.. وفي دائرة واسعة من الشباب الصغار حشرنا أنفسنا نستمع. قالوا: إن إهمال الكبار لنا لا يمكن السكوت

عليه. يجب أن يفسحوا لنا مكاناً على مقاعدهم، وعلى موائدهم، فليس معقولاً أن تنتهي الحرب التي أكلت خمسين مليوناً من الشباب والتي أدارها الكبار. فهي غلطتهم وحماقتهم.. ثم إذا بالكبار مرة أخرى هم الذين يجنون ثمار النصر - كأنهم حاربوا. كأنهم استشهدوا. كأنهم ماتوا، خمسين مليوناً، وعاشوا ألف مليون.. وكأننا لا شيء.

ووزعوا علينا المنشورات، نقرأ ونفكر ونقتنع. واقتنعنا، فهم يطلبون المزيد من العمل في بناء بريطانيا التي انهدمت عماراتها، وتحولت أرضها إلى كهوف وبيوتها إلى مقابر، وأمهاتها إلى أرامل، وشبابها إلى يتامى. ويريدون أن يجعلوا «فحم» الماضي ناراً تضيء طريقهم وتدفىء بيوتهم وتدفع قطاراتهم، وتنضج آمالهم.

وعلى الرغم من أن العمل متوافر لكل منهم. ولكنهم يريدون أن يكون العمل «تجنيداً» سلمياً.. وأن تقوم الدولة بحشد فيالق السلام، وكتائب البناء.. فبناء الوطن ليس نزوة حاكم، ولا جذوة شباب. وإنما هو فرض.. صلاة واجبة في كل وقت!

في كوبنهاجن عاصمة الدانمرك أرشدونا كيف نقف نتفرج على جلالة الملك.. يقف عند إشارة المرور فوق دراجته. يراه عسكري المرور وكأنه لا يراه، فلا هو يفتح له

الإشارة ويعطل له المرور. . ونسأل عسكري المـرور فيقول: إنه الملك.

أي أنـه الملك عنـدمـا يجلس على العـرش، ولكن في الشـارع دراجتـه مثـل أيـة سيارة، فهـو سـائق مثـل عشـرات الألوف. والقانـون على رقاب العباد. . ورقبة الملك، يجب أن تنحني أكثر. فهو قدوة للجميع.

ولكن أهم من ذلك أنهم نبهونـا إلى أن الملك قد وضـع وراءه كيسـاً به الفـاكهة والصحف ـ فهـو يشتريهـا. ثم إن لـه عمـلاً إضافيـاً يتقاضى عنـه أجـراً. هـذا العمـل في تهـذيب حديقة القصـر مع عـدد من العمال. ولمـا كان القصـر تملكه الدولة، ولما كان هذا العمل غير الذي نص عليـه الدستـور، فهـو حـريص على الأجـر وعلى السـاعـات الإضـافيـة وعلى إجازاته المرضية والسنوية.

إذن فـلا بد أن يعمـل كـل الشبـاب. طبيعي فـالـذي لا يعمل لا يأكل. . والذي لا يأكل قد مات من سنوات!

وهـزنـا رؤوسنـا، وتمنينـا أن نجـد شيئاً من ذلـك في بـلادنا. وقـد أقسمنا عنـدما نعـود أن نكتب وأن نحاضـر وأن نتحـدث في الإذاعـة وأن نعـرض هـذه الأمثلة الـرفيعـة على أحفاد بناة الأهرام.

وفي إحـدى ضـواحي استـوكهلم نـزل عشـرون منـا في

بنسيون. إنه تحفة في الجمال والهدوء ـ وموسيقى الوان. . ألوان الأحجار والأعشاب والأخشاب والسحاب والأشجار والأبقار. . أما ملابس صاحبة البنسيون وزوجها فهي الأبيض الناصع والأحمر الدموي. أما الوجه فهو خليط من كل ذلك. فالبشرة تفاحية، والعيون سماوية، والأسنان عاجية، وأما البرق الذي يرتاد الوجه ذهاباً وإياباً وصعوداً وهبوطاً فهو الابتسام الذي يرحب بك في أي وقت، ومهما كان سخيفاً ما تقول ـ وكان سخيفاً حقاً. فنحن نسألهم عن العدالة، ومفهوم الاشتراكية والحرية الفردية والوطنية وبناء الوطن ـ لقد تأخرنا مائة عام. فهم في السويد ينعمون بهذه الدرجة الرفيعة من الحياة الإنسانية يوم احتل الإنجليز بلادنا. .

أما هذا الشاب الطويل جداً والذي يضع منظاراً طبياً ويوزع الفوط والصابون على الغرف فهو مدرس الكيمياء الحيوية بالجامعة ـ وهو ابن صاحبة البنسيون. أما هذه الفتاة التي تجمع الزهور من الحديقة وتصعد السلالم مائة مرة في اليوم، فهي تتوقع مولوداً في أية لحظة، وهي زوجة هذا المدرس، وهي أيضاً مدرسة الموسيقى في الكونسرفتوار. أما الذين يحلبون الأبقار ويطعمون الخنازير ويصيدون الأسماك ويحملون البريد ويوزعون اللبن على البيوت المجاورة، ويضعون كتل الخشب في المدفأة فهم أولادها الأربعة، وهم طلبة في كليات: الطب والهندسة والبحرية. .

وأما هذه العجوز التي تجلس تحت الشجرة لتشد عقد السجاجيد القديمة فهي أم صاحبة البيت.

وأدهشنا أن كل واحد منا له مقعد.. وهذا المقعد عليه رقم الغرفة. وعندما كنا نداعب صاحبة البيت بأنه ماذا يحدث لو جلس واحد منا على مقعد الآخر؟ فكانت لا تضحك، وترى أن الضحك شيء سخيف لأن هذا هو النظام!

وكان موضوع سهراتنا: معقول أستاذ جامعي يكنس ويغسل؟ لماذا؟

لم نفهم. ولم نهتد إلى تفسير. ولما سألناه هو، تحيرت الألوان والأضواء على وجهه بين الإحساس بسخافة السؤال وضرورة المجاملة لنا، وكان حريصاً على إخفاء فكرة خبيثة وهي أننا متخلفون!

أما في باريس فكان من نصيبنا أن ننزل في فنادق متجاورة في حي «بازبيس».. الجو عربي، فهناك كثير من المغاربة. لا هم عرب ولا هم فرنسيون، فهم يتكلمون الفرنسية بلهجة عربية، والعربية بلكنة فرنسية، ولكن الملامح بربرية، والملابس أوروبية مبهدلة. وهم يجلسون على المقاعد أمام الدكاكين ـ وهذا ما لم نره في كل أوروبا. وهم يقفون على الرصيف يعترضون المشاة دون أن

ينبهــوا إلى ذلــك. . أو لا يعنيهــم شيء مــن ذلــك، وعلى الأرض أوراق وقشــور فاكهة وعلب فارغــة. . إذن فنحن على أرض عــربية في قلب العــاصمة الفــرنسية. وهــذا هو الفــارق بين إفريقيا وأوروبا. وكان شيئــاً بشعاً أن تجـد في باريس مـا يذكرك ببــلادنا المصــرية والعــربية. ويكفي أن تنتقــل من هذا الجانب من الشارع إلى الجانب الآخر، مــائة متــر لتكون قــد انتقلت مــائة عــام. . إلى النظافــة والنظام والأنــاقة والحيــويــة الفــرنسية. وهــذا هو الــذي بهر الشيــخ رفــاعــة الــطهــطاوي عندما جاء إلى باريس في بداية القــرن الماضي يــطلب العلم وينقل إلينا النور. .

وتــرددنــا على هــذا الحي كثيــراً بعــد أن تــركنـــاه. لكي نعرف ما هو الفرق بين مــا نحن فيه ومــا صارت إليـه أوروبا. والسبب هو: العمل لكل الناس!

فما أكثر مــا كتبنا ورسمنــا وتغنينا بعــد عودتنــا إلى مصر. ما أوسع أحلامنا وأعمق آمــالنا. ومــا أصعب الطريق إلى كــل ذلك. مع أن كل هذه المصــاعب تتركــز في حروف قليلة في كلمة واحدة: العمل. .

أن يعمل الشباب. أن يعتقــد الشباب أن العمــل واجب. وأن العمــل حيــاة، وأنــه لا طــريق إلا مــوسيقى العمــل ـ أي العمل المنظم المنسجم الممتــع، أي لا بد أن نحب العمــل لكي نجده ممتعاً. وهم يفعلون ذلك.

ومضت السنون وخرج الشباب المصري إلى أوروبا وأمريكا. وعملوا هم أيضاً في مسح الأرض وغسل الأطباق وحمل الحقائب. . واستمتعوا بهذ الإيجابية، وبهذه المساواة مع الأوروبيين، ولكنهم لم يجدوا الشجاعة في أن يعملوا في مصر فالجو العام لا يشجع أحداً.

واستطاعت غرفة واحدة في فندق «هيلتون النيل» أن تقلب الأوضاع الاجتماعية في مصر. فالغرفة مفتوحة ليلاً ونهاراً لكل الناس. وفي هذه الكافتريا تعمل الفتيات الجامعيات. . كأنهن مانيكانات يستعرضن. وليس في مصر قلم واحد لم يكتب عن هذه الكافتريا وعن فتياتها الجامعيات ابتداء من الأستاذ العقاد حتى أصغر محرر في مجلة شهرية. وامتلأت الصحف بأسماء المضيفات وأكوابهن التي تساقطت، واختفت الفتيات الجميلات زوجات في بيوت الأغنياء ـ أي أنه لا عيب في أن تعمل فتاة جامعية، وأن تجد عريساً غنياً. لا يعيبه ولا يعيبها ذلك.

وانتشرت الفتيات العاملات في كل الفنادق والمطاعم والشركات والبنوك والأتوبيسات السياحية. . وتضاعف عدد الشبان أيضاً.

ومن حين إلى حين يظهر على الشواطىء في الصيف من يبيع الآيس كريم والفول. . ومع الموسم يختفون ولا

يعـودون. إنها ـ إذن ـ تقليعـة مطلوب أن تـظهـر في الصحف أو في التلفزيون، وفي ذلك ميلاد لها ووفاة أيضاً!

وصدر قانون «الخـدمـة العـامـة» الـذي يحتم على كـل جامعي أن يعمل سنـة. ولا أحد يعمـل في هذه السنـة. فهي سنة ضائعة على الشباب وعلى مصرا

وعلى الـرغم من استطاعـة الشبـاب أن يعملوا في محـو أمية نصف الشعب المصري، بـالقانـون أو بالخـدمة العـامة، فإن شيئاً من ذلك لم يحدث. ورغم مئـات المقالات وألـوف الإذاعات. فهي ليست خدمة عامة وإنما هي «خدعة» عـامة ـ خدعة للشباب ولأنفسنا أيضاً!

ثم الحـالات الـطارئـة التي تـحتـم صـدور قـرارات طـوارىء. مثـلاً: انهـدمت فنـادق وأحـرقت مـطاعم. وعلى الشباب أن يساهموا في إزالة الأنقـاض وفي البناء. ويتحمس الشبـاب ومن ورائهم المسؤولـون ووسـائـل الإعـلام، يـومـاً يومين. وبعد ذلك يعود الشبـاب إلى معاهـدهم. هل أنجـزوا شيئاً؟ هل أضافوا؟ هل أرسينا قـاعدة بنـاء مصر؟ لا شيء من ذلك!

فالحالة طارئة والقرار طارىء أيضاً.

ولكن الـواجب هو أن يعمـل الشباب بصـورة منظمـة في زراعــة الأرض وجني المحـاصيــل ورصف الـطرق والبنــاء

والعلاج ومحو الأمية ـ مقابل أجر. تماماً مثل كل العمال الذين كانوا هنا وسافروا، ومثل كل الفلاحين الذين هاجروا. وكل الأسطوات الذين تسللوا إلى القارات الخمس.

وإذا نحن قلنا ـ وهو صحيح ـ أن نصف شعبنا من الشباب وهو ثروة ضخمة، فلا يصح أن نقف عند هذه العبارة دون أن نكملها: إنها ثروة ضخمة معطلة. طاقة مبددة في التسكع في الشوارع، والتراخي على المقاهي، والصراخ في الملاعب.

فما لم يكن جيش آخر للسلام والبناء، فسوف تبقى مصر مشلولة النصف ـ نصفها الشيخ يجرجر نصفها الشاب.. وحتى هذا النصف الشاب ساخط على نفسه وعلى غيره.. ويكون السخط شللاً نصفياً أيضاً.. فبالله عليك قل لي من الذي يعمل لمن؟ ومن الذي يساهم مع من؟ فلا استطاع الشيوخ، ولا رضي الشباب ـ ولا استفادت مصر!

الحدث العظيم !

هناك طريقتان لكي تنشر النور : أن تضيء مصباحاً . . وأن تعكس نوره على مرآة !

وهناك طريقتان لكي تنشر الظلام : ألا تضيء مصباحاً . وأن تخمده إذا أضاء !

وأكثر الناس لا يفكرون عادة . وإنما يرددون أفكار الآخرين . فإذا ظهرت فكرة جديدة قاوموها لأنها مختلفة عن التي يسمعون ويرددون ، ولم تتقدم الإنسانية في كل المجالات ، إلا لأن أناساً فكروا . ونشروا ضياءهم . وكانت لديهم الشجاعة في الدفاع عن الذي آمنوا به .

ومن الغريب، ونحن في عصر النور الكثير ، أن نجد ملايين الناس لا يفكرون ولا يريدون . وإنما سعداء بأن الآخرين قد فكروا نيابة عنهم . ففي ذلك راحة لرؤوسهم .

ولذلك انتشرت مذاهب كثيرة متشددة متعصبة ـ أي نظريات ومذاهب تطلب من الناس أن يستسلموا لها . . أن يسدوا آذانهم وعيونهم ونفوسهم عن أية آراء مغايرة !

وفي زماننا هذا نجد رجال السياسة يقومون بدور كهنة العصور الوسطى ـ أي يطالبون الجمهور بالإيمان الأعمى . استسلاماً مطلقاً . ومن وراء هؤلاء الكهنة يمشي الذين يحملون المباخر والطبول والمزامير في الصحف والاذاعة والتليفزيون : إنهم بعض الصحفيين!

فكل الخطوات الرائعة التي تقدم بها العلم يريد هؤلاء الكهنة محوها ـ إلا إذا استسلم العلماء لخرافات الكهانة في عبادة الظلام وعشق العبودية !

ومنذ أيام قرأت مقالاً بديعاً في مجلة المانية تصدر باللغة العربية اسمها «فكر وفن» . المقال تضمن آراء رائعة لأعظم فلاسفة العصر الحديث : ايمانويل كانت (١٧٢٤ ـ ١٨٠٤) ذلك الرجل البسيط المتواضع الذي زلزل العقائد الفلسفية والدينية والعلمية . وبهدوء شديد .

كانت حياة هذا الرجل مضبوطة. ففي الساعة الثالثة والنصف من بعد ظهر أي يوم ينظر الناس في ساعاتهم . فقد حان موعد خروج الفيلسوف . ويجدونه قد استعد لرياضته اليومية . قصير نحيف كتفه اليسرى أقل مستوى من كتفه اليمنى. في يده عصا يدق بها الأرض كأنه يريد أن يوقظها لتشهد الانقلاب الذي سوف يحدثه في كل رواسخ الفكر الإنساني . أما ملابسه فرمادية وكذلك قبعته وعصاه . وأما رأسه فصغير . ولكن الجبهة عالية والعينين واسعتان

والشفتين غليظتان . لما سألوه : ولماذا لم تتزوج يا أستاذ؟

أجاب : حاولت أن أجد مكاناً لزوجة في برنامجي اليومي ، فلم أستطع رغم حرصي على ذلك!

فقير؟ نعم فأبوه رجل يعمل في صناعة الجلود ، وله أحد عشر ولداً وبنتاً . أما البنات فيعملن خادمات في البيوت . ولم يجد الفيلسوف شجاعة في أن يزور واحدة منهن في البيت الذي تعمل فيه . وإن كان لديه احساس بأنه غير سائر البشر . وأن السماء ادخرته لإنقاذ العقل الإنساني . ولم يجد وسيلة يعيش منها سوى أن يكون مدرساً لأبناء الأغنياء . ثم عمل مدرساً في الجامعة . وفي الجامعة رأي تلامذته عجباً . . أستاذاً ضئيلاً يتوارى وراء قبعة لا يظهر منها إلا رأسه وعيناه . . أما صوته فهادىء مليء . . أما لغته فذلك ما لم يسمعه أحد من قبل : جمالاً وبلاغة ودقة ومنطقاً!

وكان إذا أبدى أحد إعجابه بروعة الفكر الذي يفيض منه يقول : ولكن معشوقتي ـ أي الفلسفة ـ لم تطلعني على الكثير من أسرارها ولكن سأظل راكعاً حاني الرأس في انتظار ما تجود به!

وتوالت كتبه الجبارة تهز وتزعزع وترسي أصولاً جديدة للفكر والفلسفة والدين والأخلاق والسياسية .

ولما احست الحكومات بخطورة ما يقوله الفيلسوف وجدوه قد تجاوز السبعين . ولم يتصور أحد أن رجلاً بهذه المواصفات قادر على أن يكون بركاناً يذوب حمماً وحريقاً ودخاناً في كل الاتجاهات ، دون أن يبدو عليه شيء من ذلك .

ثم من الذي يستطيع أن يقترب من هذه العظمة . . من هذه المفخرة . . من هذه الشيخوخة الحكيمة ؟

وفي مجلة «فكر وفن» يتوجه إلينا الفيلسوف : إن كنا نريد نهضة وانتفاضة وصحوة حقاً ، إن كنا نريد أن نخرج من الضباب إلى النور ، ان كنا نريد ان نفيق حقاً من غيبوبة الكسل والبلادة .

فلولا فلسفة هذا الرجل وتلامذة لَه نابهون في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، ما انطلقت العلوم والفنون والفلسفة والدين والسياسة .

يقول الفيلسوف ايمانويل . . بعبارتي :

ما هو التنوير المطلوب للنهضة الشاملة؟

التنوير : أن ينسلخ الإنسان من عجزه . وعجزه هو عدم استخدام عقله . اكتفاء بأن عقولاً أخرى تقوم بالوصاية عليه .

وهذه غلطتك أنت وحدك لأن لك عقلاً . فكيف لا تستخدمه . كل ما ينقصك هو أن تكون شجاعاً في

استخـدام عقلك . وأن تكون لـك إرادة الاستمرار . أي أنت وحـدك الـذي تفكـر لـك ، وألا تسمـح لأحـد ، أيـاً كـان الأحد ، أن يفكر لك . ويقرر لك . ويدبر لك .

فـالكسل ـ إذن ـ والجبن همـا سبب بقـاء عـدد كبيـر من الناس في حالة «تواكل» على الآخرين .

وما دمت هكذا جباناً كسولاً ، فسوف يكـون هناك أنـاس كثيرون يروقهم ذلك .

فهم يتـطوعـون بسحبـك وجـرجـرتـك وراءهم . أعمى أصم أخـرس معوقـاً . أي أنهـم يتطوعـون بفـرض الـوصـايـة عليك ، لتظل عاجزاً دائماً .

والإنسان المتواكل يريحه أن يعتمد على الغير . يريحـه أن يكون آخرون أوصياء عليه . فالكاتب يفكـر له ، والـطبيب يختار له الـطعام والـدواء ، ورجل الـدين يحدد لـه المساحـة التي سـوف يشغلها في الجنـة ، والـدرك الـذي سـوف يهبط اليه في النار .

فالمتواكـل القاصـر العاجـز مستريـح تمـامـاً ، في سلبيـة واستسـلام تامين ، فـلا ضـرورة عنـده للتفكيـر مـا دام قـادراً على دفـع ثمن الكتاب وثمن الـدواء وثمن نسخة من الكتـاب المقدس . .

وأكثر الناس يفضلون هذه السلبية ـ وخاصة المرأة .

والـدولـة الآن هي التي تقـوم بـدور المفكـر والـطبيب ورجل الدين . ولذلك فالجماهيـر تعيش عالـة على الدولـة . والـدولة تقـدم أفكاراً جـاهـزة . معبـأة . محفـوظـة صـالحـة لـلاستخـدام في أي وقت ، ولكن مـواطن . طعـام واحــد . عبـوة واحدة . ليتشـابـه النـاس في كـل شيء . في أزيـائهم العقليـة . لا يشذ أحـد . لا يخـرج من الصف ، ولا يتخلف عن الـطابور . فـالدولـة قد أقنعت الجميـع بخطورة الخـروج عليها . ولو وقع حادث واحـد في أي طابـور ، لو حـدث فإن الـدولة تـرى في ذلك منـاسبة للتحـذير من الخـروج والشذوذ والمعارضة .

إذن فـالذين يعملون أوصيـاء على الناس ، لهـم مصلحـة في أن تظل الجماهير عاجزة كسالى جبنـاء . وهذه المصلحـة هي السيـطرة على الناس . وإرغـامهم على الصمت . فليس عنـدهم مـا يقـولـون : إنهم أطـاعـوا واستسلمـوا ومشـوا في الخط . . و«بلطوا» في الخط أيضاً .

ومن الصعب على الإنسـان الذي أدمن العجـز والتواكـل والسيــر أعمى وأطــرش وأخـــرس ، أن يتخـلص من هـــذا المـرض. فقد أصبـح الإدمان طبعـاً . والمدمن هـو الشخص الذي فقد أرادته ، ولا يريد أن يستردها .

ولكن عــدداً قليـلاً من النـــاس خــرجــوا عن الصف . وهربوا من الـطابور ، وأفـاقوا من الاستسـلام ، ونفضوا عنهم

المخـدرات . وفطمـوا أنفسهم عن رضـاعـة العبـوديـة لهؤلاء الأوصياء الأشرار . .

ولا قيمـة . . «للتنويـر» ـ أي استخـدام العقـل بشجـاعـة وإصرار واستمرار ـ إذا كان فردياً . ولذلـك فلا بـد أن يكون قضيـة مطروحـة لكل النـاس . لا بد من الـرأي الآخر الـذي يعتـرض ويعارض . لا بـد من النقد ونقـد النقد . ولا خـوف من ذلـك . . فالـطائرة لا يـرفعها الهـواء ، وإنما هي تـرتفـع بمعـارضة الهـواء والاتجاه ضـد العواصف ، والمعـارضة هي التي تدفع الإنسان إلى التأمل والتفكير والتقرير والتدبير . .

ولذلك كان الفيلسوف العـظيم سقراط هـو المثل الـرفيع لكـل المفكرين الأحـرار في التاريـخ . لقد وقف وحـده ضد عصـره . راح يدق رؤوس النـائمين من رجال الفكـر والـدين والسيـاسة . فقـد جمع حـولـه الشبـاب يسـألهم : ومـا معنى الفضيلة . . وما دلالة الخير . . وما جدوى العدل . . ومـا آفة الحرية؟

وزلـزل المجتمع الإغـريقي كله . فحاكمـوه، وأدانـوه . وخيـروه بين أن يموت بيـده أو أن يموت بيـد غيره . فـاختـار أن يمـوت بالسم بيـده . . وحاول تـلامذتـه أن يقنعوه بـطلب الرحمة أو العفـو . ولكن الرجـل العظيم رفض الاعتـذار عن الحق الذي يؤمن به . فكما كانت حيـاته قـدوة ساميـة ، جاء مـوته أعلى مـراتب الكرامـة والإرادة وانتصـار العقـل من ٢٦

قرناً !

ومشكلة «التنوير» خطيرة . لأنها تتحدى العجز الذي يغلب على سلوك الناس . وعاداتهم الخاملة وأفكارهم البليدة وكرامتهم المقضي عليها .

ولا يمكن أن نبلغ حالة «التنوير» هذه إلا ببطء . .

وفي مواجهة الأوصياء علينا نجد متعة في إلقاء اللوم عليهم . هم فكروا . هم أخطأوا . . فلا ذنب لنا . ولا لوم علينا . وأروع رحلات الصيد اليومية هي أن نعثر على «كبش فداء» يحمل عنا أوزارنا !

سؤال : هل يمكن القفز بسرعة وفجأة إلى الأمام . . أي هل يمكن اختصار هذا الوقت الطويل في تحقيق التنوير المنشود ؟ هل يمكن إسقاط الأوصياء على عرش إرادة الشعوب ؟

الجواب : نعم. بالثورة على الاستبداد . أي الاستبداد بأفكار الناس وإرادتهم وإنسانيتهم على أساس من الجشع والتسلط . ولكن الثورة لا تؤدي إلى إصلاح حقيقي لأسلوب التفكير . بل إن الثورات تصدر أحكاماً جديدة . هذه الأحكام سوف تستخدمها الثورة مرة أخرى لتضليل الناس في طوابير وصفوف جديدة مع تحذيرات مبتكرة لكل من يخرج عنها أو يحاول . فالثورة لا تأتي بالحرية التي

ينشدها الناس . وإنما تأتي بإرهاب جديد وسيطرة جديدة .

وعندما يحدث التنوير يكون رد الفعل نوعين :

حماسة أول الأمر تتحول ألف خيبة أمل . لأن الثورة لم تحقق ما كان يتمناه الناس ، مع أنهم كانوا على استعداد للتضحية والفداء . ولذلك يدفعهم اليأس إلى الانضمام إلى أعداء الثورة .

أما الثوار أنفسهم فيدفعهم الخوف على انتفاضتهم إلى القمع الوقائي . وخوف الناس يدفع الثورة إلى الاعتداء عليهم . والاعتداء يولد الإرهاب . ومقاومة الإرهاب تخلق الإرهاب !

انتهى معنى ما قاله الفيلسوف العظيم في أواخر القرن الثامن عشر في مدينة كونجسبرج في دولة بروسيا القديمة . .

وهذا السلوك عند الشباب ليس قائماً على التنوير ـ على التفكير بالعقل الحر المستقل الشجاع ـ وإنما هؤلاء الشبان قد «رفضوا» الحاضر والماضي ، ماضي الأجداد وحاضر الأبوين . وكل ما له علاقة بالأمس ، مهما كان عظيماً نافعاً .

وهم بذلك يرفضون عقول الآخرين ، ويرفضون أن تكون لهم عقول أيضاً .

وليس اسهل أن يلقي أي لاعب بالكرة خارج الملعب ـ اسهل كثيراً جداً من أن يصيب الشبكة!

إنهم يفضلون السير في طريق مظلم على المضي في طريق مرصوف مضيء عليه علامات وله خرائط . لا لشيء إلا لأن هذا الطريق المضيء قد رصفه الآباء !

إنهم يرفضون هذه الوصاية . ولكنهم يقبلون دون تفكير وصاية أخرى . . بلا مناقشة . . بلا تفكير . . ولذلك رأينا ملايين الشبان في العالم يستسلمون لعدد من النصابين والمحتالين الأذكياء الأشرار . هل النصابون عندهم أفكار جديدة؟ هل لديهم وسيلة للخلاص ؟ هل قدموا أهدافاً نبيلة ؟

الجواب : لا . . .

فما الذي وجده الشباب في أمريكا وبريطانيا والمانيا واليابان وفي الشرق الاسلامي؟

وجدوا مذاهب عنيفة متطرفة . ترفض الوصاية العائلية والاجتماعية والرسمية.وتقبل أي شيء آخر .

المهم هو رفض هذه القوالب السابقة على ميلادهم . ثم يقبلون بنفس الحماسة الإرتماء في أحضان جديدة . . أي قبول أي رأي آخر ، من أي إنسان آخر ، في أي وقت آخر ، وفي أي مكان آخر . . .

فالآخرون ـ أي الذين ليسوا آباء وأمهات ـ على حق دائماً !

ومن الأحداث الطريفة في القضاء الأمريكي أن أبا «مليونيراً» حاول «شراء» ابنه من الذين استولوا عليه . وقدم مليوناً واثنين وثلاثة . . فقد تمزق قلب الأب عندما وجد ابنه مهلهل الملابس ، متسخ الأظافر ملتهب العينين منكوش الشعر . يمشي حافي القدمين ومعه زوجته الصغيرة وطفلهما المصاب بالحصبة . . قال الأب في المحكمة : يا ولدي استطيع أن أبني لك اصطبلاً في أي مكان تراه . . وسوف أقدم لك الطعام والدواء في أي وقت !!

وكان رد الابن : لا شيء له صلة بك . .

ـ ما ذنبي يا ولدي . .

ـ لا ذنب لك . . ولكننا جيل آخر . . كرهنا سيطرتكم على كل شيء . . كرهنا الشوارع وناطحات السحاب والصواريخ والكواكب الأخرى . . إننا نمشي على الأرض الخشنة التي لم ترصفوها ، ونحني رؤوسنا حتى لا نراكم ونغير اسماءنا وديننا ولغتنا حتى لا نعود إليكم !

وليس غريباً أن تنتشر المخدرات بين هؤلاء الشبان . فهذه المخدرات تعزل الشبان عن الحياة الاجتماعية ، وتشل إرادتهم . وتدخلهم جنات مزيفة . وفي هذه الجنات

يحققـون لأنفسهم كـل مـا يـريـدون . ثم إن المخـدرات تكافئهم بالراحة العصبية .

إذن فهم يتعاطون نـوعين من المخدرات : رفض كـل ما يقوله الآباء ، رفضاً لا رجوع فيه . .

أمـا المخدرات الأخـرى : فهي التي يتعاطـونهـا حبـوبـاً ومسحوقاً وحقناً . . أما هـذه المخدرات فتمكن مقـاومتها . . ولكن المخـدرات الأولى هي مشكلة المشاكـل. لأنهـا تتعلق بعقـل الإنسان وتشغيله . واستقـلاله وانـطلاقـه وتحـريـره من السـلاسل التي قعـدت بـه عن الحـركـة والتـطلع إلى الأمـام والأمل في شيء أفضل !

هذا هو الواجب الأوحد للتـربية والتعليم . ومن هنـا تبدأ قطرات العرق على جبين المفكرين.

وهـذا هـو الحـدث العـظيم الـذي يستحق أن نضيء لـه كل قوانـا وكرامتنـا. فليس أعظم من الفكـر. وليس أروع من حـرية الفكـر. ففي ضوئـه البـاهـر يكـون الخـلاص البـطيء المستمر في هدوء. ولـذلك يجب أن نتخلص بـالتدريـج من كـل أنـواع الكهـانـة السيـاسيـة والـدينيـة والعلميـة والأدبيـة والاجتماعية والفنية . .

هـذا هو الحـدث العـظيم ـ كـان عـظيمـاً في القـرنين : الثامن عشر والتاسع عشـر ، ويجب أن نبدأ بـه القرن الـواحد والعشرين . .

وليس في استطاعتنا جميعاً أن نكون عظماء . . ولكن نستطيع أن نرتبط بالعظمة : فكرة عظيمة . . شخصية عظيمة . . هدف عظيم !

أنت ضائع حتى تحب . .
فتزداد ضياعاً . .

منذ مائتي عام ونحن حائرون في تسمية هذا الزمان . .

فقلنا أننا في عصر الآلة . . يصنعها الإنسان ويعبدها الإنسان . . أي عصر الوثنية التكنولوجية . . فلم يعد الصنم من حجر وإنما هو من حديد وفحم وأسلاك كهربية . . فالإنسان قد اتخذ من الآلة مثلاً أعلى . . بلا عواطف . . قطع غيار يحل بعضها محل البعض . . لا رأي له . . لا يخرج عن الصف . . يموت واقفاً . . لا يقول : لا . . ولا يقول : نعم . . لا يقول . . وقيل إنه عصر الكل من أجل الواحد . . كل الناس من أجل شخص واحد . . يعيشون ـ إن عاش ـ ويموتون من أجله . . فهم يرون فيه مجدهم وتاريخهم ومستقبلهم وشرفهم ومبرر وجودهم : الفاشية والنازية . .

أو هو يعيش من أجل الحزب الواحد . . الدولة الواحدة : الشيوعية . . أو هو زمن الكل من أجل الكل . . كل الناس من أجل جميع الناس . . فلا أحد يملك أكثر ، ولا أحد يقول أكثر . . ولا أحد يعلو على أحد . .

أو هـو زمن الواحـد من أجل الـواحد. . زمن الأنـانية. . فيا روح ما بعدك روح. . وأنا ومن بعدي الطوفان. .

وقيل إنه زمن الكراهية النبيلة. . زمن الوطنية المتـطرفة، التي ترفض أية وطنية أخرى. . زمن القـومية التي تعـادي كل القـوميـات. . زمن العنصـريـة. . سيـادة عنصر على كـل العناصر. .

زمن التعصب الـديني. . أي التعصب لدين واحـد ضـد الأديان الأخرى. . أو زمن المـوت من أجل مـذهب في نفس الـدين ضد مـذهب آخر. . الكـاثوليـك ضد البـروتستانت. . الشيعـة ضد أهـل السنة. . اليهـودية ضـد الجميع. . البـوذية الرياضية، مع وضد كل الأديان. .

وقيل زمن الإنسان الصغير. . الفلاح والعـامل. . الـذين هم فتـات المجتمع. . الـذين هم طـرح البحـر. . النفـايـات البشـرية. . «نشـارة» الميكنة النقـابية. . رجـل الشارع الـذي ليس رجـل المكتب. . ولا رجل الكنيسـة. . ولا رجل البلاط الملكي أو الجمهوري.

الديمقراطية حكم الشعب في مواجهـة الارستقراطيـة أي حكم النبلاء. . في مواجهـة التكنوقـراطية. . أي الخبـراء. . أي في مواجهة الدينوقراطية أي رجـال الدين أو سيـطرة الدين على السياسة والاقتصاد. .

وزمن الشيء الصغير.. أي زمن الذرة التي عندما انشطرت وانفصلت تولدت منها طاقة لم نعرفها من قبل.. فكانت القنابل الذرية والهيدروجينية.. زمن القنابل الذرية النظيفة، أي التي ليس لها إشعاع ورماد قاتل.. وإنما هي تصيب وتقتل دون أن تلوث أناساً.

وكما أن الذرة تخرج منها أعظم القوى، فكذلك النفس البشرية: إنها غابة من الوحوش.. اختزنها الإنسان على شكل دوافع ومخاوف ورغبات عدوانية.. فمن القفص الصدري للإنسان ظهرت كل وحوش التاريخ.. ففي جوف كل إنسان كل ما عرف وما لم يعرف من قوى الطغيان والرغبة في القتل..

زمن الكوكب الذي تخرج منه كل إبداعات العقل الإنساني المحدود لمعرفة مجاهل الكون.. فالأرض ليست نقطة للوثوب إلى كواكب أخرى..

وعلى الرغم من أن أرضنا حبة على رمل شاطىء محيط القدرة الإلهية، فإن سكانها يريدون أن يتعاظموا ويتطاولوا وتترامى أطرافهم الصناعية ـ التيليسكوب والميكروسكوب والرادار ـ إلى مالا نهاية له من جوانب الكون..

فنحن في عصر التمرد العقلي على حدود القدرة

الإنسانية. .

نحن في عصر الكراهية الحيوانية أيضاً. . عصر العنف. . العنف الفردي والإرهاب الجماعي والمافيا والحرب. . ومن أجل المزيد من القوة اخترعنا كل وسائل الدمار. . فلولا الحرب ما ظهرت السيارة والطيارة والرادار والتصنت الالكتروني. . والتصنت المداري حول الأرض. . وتاريخ الإنسان هو سجل لحروبه. . فلم تعرف الإنسانية إلا سنوات قليلة من وقف إطلاق النار والمفاوضات من أجل تثبيت الحدود لتهدمها في حروب جديدة وبأسلحة أكثر تطوراً. . ولا تزال الشعوب كلها تفضل المدفع على الرغيف. . تفضل الجوع في الحرب على الشبع في السلام. . تفضل الموت مع الهتاف بسقوط الأعداء، على السلام والتعايش مع الأصدقاء والأشقاء. .

نحن إذن في عصر اليتامى والأيامى. . فما دامت الحروب هي الأصل فموت الأب والزوج هو القاعدة. . فكل الأطفال يتامى. وكل النساء أرامل وأيامى. .

نحن في عصر أهل الكهف. . أي في عصر الإنسان الذي يختفي في الظلام وفي يده سلاحه خوفاً من الوحوش. . في عصر الجنود ينامون في المخابىء المظلمة وفي أيديهم السلاح في انتظار الوحش الأدمي القادم من الجو والبر والبحر. . وسوف يستأنف الإنسان الحياة على

الكـواكب الأخرى في الكهـوف. . . أي تحت قشـرة القمـر، أو المـريخ خـوفاً من الإشعـاعات الكـونية ومن هـذه الكهوف العـالميـة سـوف يستـأنف حيـاة جـديـدة على سـطحهـا، لا تختلف كثيراً عن حياتـه على الأرض. . ولكن بصورة أخـرى وعلى مستـوى جـديـد، في مـواجهـة أخـطار ليست في حسـابه. . وكمـا أننا نحـارب من دولـة إلى دولـة، ومن قـارة إلى قارة، فسوف نحارب من كوكب إلى كوكب. .

وكان الأديب الإنجليزي أوروبـل يتصور أن قمـة استعباد الإنسان للإنسان سيكون في سنة ١٩٨٤. . فكان بـذلك آخـر الحـالمين. . فقد بلغنـا هـذا الاستعبـاد، أي إنكـار إنسـانيـة الإنسـان قبـل ذلـك بـوقت طـويـل جـداً. . بلغنـاه دون أن يدري. .

وكان الشعراء الحالمون يقولون:

أنا أحب إذن أنا موجود. .

ومن ستين عـاماً قـال أمير الشعـراء شـوقي وغنى محمـد عبد الوهاب:

الحياة الحب والحب الحياة. .

وكان شوقي يقول أيضاً:

أنتم الناس أيها الشعراء. .

أي أن الإنسان هو الذي يحب ويحلم. . وبغير الموسيقى والغناء لا حياة. . ومن لا يحب فليس حياً. . ومن لا يقول شعراً أو يتذوقه، فلا يحق له أن يعيش. .

وجاء على الإنسانية زمن البكاء الشامل بعد الحرب العالمية الأولى والثانية. . وبعد النكسة المصرية وقفت في سماء الأمة العربية سحب سوداء أسقطت دموعها الكثيرة من أعين المصريين وحناجرهم وأقمنا للبكاء مسرحاً غنائياً لأم كلثوم ومحمد عبد الوهاب وعبد الحليم حافظ وفريد الأطرش ولم نبلغ جميعاً ما بلغه سيد درويش وحده في الغناء من أجل العمل والأمل ولذلك كان صوته غريباً بين أهله، فمات بسرعة. .

ونحن لم نعرف البكاء وإنما انهزمنا للعويل، لم نقتنع بالعويل، بل أسرفنا في تكريم الموتى، ونبش قلوبهم وأكل لحمهم بعد ذلك. . ليجري الحزن والموت في دمائنا. . فنكون قبوراً متحركة. .

وكان شيئاً شاذاً أن تغني مطربة اسمها ليادنير: الحب جاء متأخراً ولكنه جاء. . أهلاً بأعز الأصدقاء. .

وضاق هتلر بهذا الضعف الذي تحدى قوته. . ولم يعد أحد يسمع هذه الأغنية أو هذه المطربة من خمسين عاماً. .

وعندما احتفل موسوليني بعيد ميلاده جاءت حبيبته كلارا

بتاتشي تغني له من تأليف صديقه الشاعر دانسيو:

فجأة أحسست أن مخدتي شفاه ناعمة.. همست في أذني: قومي.. قومي.. إنه الحب.. إنه الحب.. إنه موعدك مع القدر.. لقد اختارك لتكوني صوته.. صداه.. لتكوني أنت الحب!

واعتذر الشاعر عن هذا المنشور السري الذي تسرب إلى فراش موسوليني. فلا وقت للحب.. إنه زمن الحرب.. إنه زمن العظمة والكبرياء الفاشية القائمة على الكراهية الفخمة لكل الشعوب الأخرى..

حتى المطربة ايفا التي أحبت دكتاتور الأرجنتين بيرون.. كانت تذهب لزيارته في السجن وتغني له من ثقب الباب الحديدي: يا حبيبي.. هذه جنتي.. يا حبيبي إن ضاق بك السجن، فسوف تضيق عنك الدينا.. يا حبيبي.. أنا لا أبكي لك.. أنا لا أبكيك.. أنا لا أبكي عليك.. إنه الفرح.. إنها البهجة أذابت عيوني على مجدك الذي ينتظرك غداً.. غداً.. غداً..

مرة واحدة وهي على فراش المرض.. كان هو الذي يغني لها نفس الأغنية.. لا لأنه زمن الحب.. ولكن لأنه زمن الحب الذي ولى.. والذي أخذ معه ايفا بيرون قلبه وعقله.. فمعها ذهب الحب.. ذهب.. ومعها خرج الحب ولن يعود!

واستطاعت مطربة واحدة في فرنسا جاءت من الشارع.. من الرصيف.. فقيرة.. وحيدة.. مريضة.. إنها أديت بياف، أن تكون الصورة الحية لكل من يمشي في الشارع.. لكل أنواع الإنسان الصغير.. لكل الفئات الذين لا يربطهم مذهب في الدين أو في السياسة.. ولا يجمعهم مكان واحد للمناقشة أو الصلاة.. وإنما تربطهم خيوط حريرية ذهبية خرافية اسمها: حب الحياة بأي ثمن. فالحياة تساوي ما نبذله من أجلها.. فليست للناس إلا هذه الحياة.. وما بعدها غيب.. وأغنيتها التي ألفها صديقها الأديب كوكتو تقول: وما بعد اليوم غيب.. وما بعد الغيب غيب.. فقط هذا الرصيف من هذا الشارع من هذه المدينة..

عاش الاثنان للحب وماتا على مدى ساعات. مات الحب في جسدين في قلبين.. مات مرتين!

ونحن عشنا أكثر مما يجب، ولكن أحببنا أقل مما يجب..

فرغم الأمراض والسموم في الهواء والماء والإشعاعات الصناعية، فإننا لا نزال أحياء.. أحياء يخافون الحياة.. فكأننا أحياء إلا قليلاً.. أموات إلا قليلاً.. ولكن نحن تجاوزنا أعمارنا الافتراضية.. فنحن عشنا أكثر مما ينبغي. وفي ذلك بداية لفرصتنا بما تبقى لنا من حياة.

ولكن أحداً لم يعبر عن هذا المعنى إلا «الخنافس».. إنهم صغار متمردون على الطبقة العمالية الفقيرة.. ساخطون على السيطرة الأمريكية على قلوب الناس..

إنهم «الخنافس» أبناء العمال والفلاحين.. فكانت أغنياتهم من أجل الحب.. من أجل الأمل في الحياة، في الحرية.. من أجل أن يعيشوا أزماتهم، من أجل الفرحة بما أعطوا من شباب وأمل في الأفضل.. من أجل الكثير من الحياة والحب، صدا للكراهية ورداً على الحقد.. فلم تعد الأغنية إعلاناً للحرب، واعترافاً بمشروعية الموت من أجل ما لا يفهمون من الأشخاص والمذاهب والقيم.. وإنما الأغنية لفتة.. نظرة.. همسة.. دعوة.. قبلة.. عناق.. اعتذار رقيق وداع بالزهور والعطور..

وتعددت الفرق الغنائية بالألوف في كل مكان.. وهم جميعاً كهنة يدعون لدين جديد.. دين الحياة والحب والحب الحياة.. صلاة قائمة لشعار: أنتم الناس أيها الشعراء..

تقول المطربة بربارة سترايزند: قلها.. بلا عنف.. قلها.. فالعنف يهز الأذن.. ويسدها.. قلها في أذني لتظل مفتوحة.. لتظل شفتين.. ذراعين.. يعانقان أنفاسك.. قلها.. فحياتي في الذي تقول والذي أسمع والذي أقول..

وتقول مطربة فرنسا ميري ماتيو، وهي أجمل صوت خلقه الله: الحب؟ نعم.. كلمة قالها كل الناس.. ولكنها جديدة.. تماماً كأنفاسنا الجديدة.. كأوراق الشجر.. كالزهور كقطرات الندى والمطر.. كأشعة الشمس.. قديمة كلها وجديدة.. جديدة.. عاش أجداد أجدادي وماتوا.. ولكني عشت ولم أمت.. جديد.. كل ما أقول جديد.. لا تستعر صوت أجدادك، فأنت جديد.. كما الحب جديد.. والأمل أيضاً.. كالأزهار كالفراشات كالشعاعات.. إنك لا تستطيع أن تشعل حرباً.. ولا أن تصدر قراراً يخيف الناس.. هذا شرف لك.. فقط أنت وحدك قادر على إسعاد نفسك.. أعظم قرار.. أصدق قرار.. أنت أعظم إنسان يعيش تحت جلدك.. أنت أعظم!

كثيرون جلسوا على العروش وماتوا عليها.

وكثيرون نزلوا عنها..

إلا الملك ادوارد الثامن ملك الإنجليز. فهو أحب أمريكية مطلقة. وترك العرش تحت قدميها..

وقيلت أسباب كثيرة تفسر هذا القرار الشاذ.. فقد كان في استطاعته أن يبقى ملكاً وتظل هي العشيقة في الظل.

كان في استطاعته أن يتزوج من مذهبه الديني، لتتأكد أركان العرش البريطاني، ويستقر التاج على رأسه.. وتظل

العشيقـة الأمريكيـة. الملكة تـأتي لـه بـالأولاد ليبقى العـرش على رأس أولاده. . وأن يطلق الملكة وتعيش العشيقة. .

ولكنه خالف الأسـرة المالكـة وخالف الكنيسـة. . فتزوج المرأة التي عندمـا التقت به قـالت له مـا لم يسمع من أحـد: ولكنـك تقـول كـلامـاً غيـر مفهـوم. . لقـد اعتـدت على أن يصدقك الناس أو اعتدت على أن يصـادقوا على مـا تقول. . ألست ملكاً؟!.

وأحس الملك أن هـذه السيـدة قـد اختـرقت الحـواجـز والستائر الحـريريـة من البروتـوكول ونفـذت إليه دون حسـاب لأي شيء. . فلمست جسمـه. . وقلبـه. . وأدارت عقله. . وتحـول إلى طفل صغيـر يمسـك بـطرف ثـوبهـا. . وأجلستـه على ركبتيهـا ولقنته الـدروس الأولى في الشخصيـة والفـرديـة والحرية والاستقـلال في الرأي والتمـرد على الكهانـة الملكية والبـلاط البابـوي. . فـرأى معهـا وسمـع وعـرف مـا لـم يكن يـدري من أمر الإنسـان وأخيـه الإنسـان وانفتـح قلبـه عـرشـاً ومخـدعاً وعش غـرام لها. . ودخلت ولم تخـرج. . وجلست وتـربعت، ونـزل عنـد قـدميهـا سعيـداً بـأن يكـون المـواطن العادي الوحيد في مملكة سمبسون. . دوقة وندسور. .

وقال السياسيون: بل هو جبان. .

وقالوا: لأنه التقى بهتلر. . هو شديد الإعجاب به. .

وقيل: ضعيف جنسياً . .

وقيل: خائن لبلاده . .

والرجل لم يخن أحداً . . ولكنه اختار. وكان الاختيار صعباً. والثمن فادحاً. ولكنه رأى الحب الذي لا ينتهي بأن يعيش الاثنان معاً، ليس معاً . . ولا هذه حياة!

وعاش الاثنان مشردين. ولكن قلوب الملايين تلتف حول الذين يعيشون من القلب وللقلب. فكل الناس يحبون الذين يحبون. وكان الناس ينظرون ويقولون: أمن أجل هذه يخلع التاج؟!

أي أنها لا تساوي هذه التضحية . .

ولكنهم لا يرونها بعينيه، ولا يتجهون إليها بقلبه، ولا يضعونها في ميزانه الذي جعلها ترجح الدنيا كلها . . وكانت دهشة الناس هذه تحية عظمى للحب . . الذي يرى الكل رخيصاً من أجل المحبوبة، ويرى التاج كومة من الزجاج والمعادن إذا قورن بشعر المحبوبة الذي هو أعظم التيجان، ولا يرون كم هي الدنيا معها أوسع من الامبراطورية البريطانية، وإذا كانت الشمس لا تغيب عن الامبراطورية، فإن القمر لا يغيب عن المعشوقة.

ومن هو المحب الذي يفضل الشمس على القمر؟

وانحسرت الدنيا كلها وسكنت. . فلا أحد سواها، ولا صوت إلا همسها، ولا متعة إلا لمسها، والدنيا ملايين المخلوقات الجميلة إذا جلس إليها، الدنيا بغيرها غربان ودمار. .

فهو اختار محيطات العواطف وكواكب الحب. فهو الرابح من أول لحظة حتى مات. . وحتى ماتت. .

وكان هذا الحب، مثل بركان تفجر من الأرض. . دليلاً على أن بطن الأرض ملتهب. . ولكن هذا اللهب قادر على أن يزلزل الصخور، ويحطمها ويخرج منها عنيفاً عالياً سامياً ساخناً مخيفاً للذين اعتادوا على أن الحياة موت. . وعلى أن الحب للدولة وللحزب وللفكرة الغامضة وللخوف وللكراهية.

إلا إذا أحب الإنسان إنسانة أخرى، يرى فيها دولته ودينه وحزبه ودنياه وآخرته. فالله سبحانه وتعالى هو الحب. فالحب الشريف النبيل إيماناً بالله لا حد له. .

ولكن الإيمان غريب، كما أن الحب غريب، كما أن الناس قد أبعدوا الله عنهم، والتفوا حول أدعياء الألوهية. . أدعياء الحقد والتعصب والكراهية!

وفي نفس الوقت الذي قرر ملك بريطانيا ادوارد الثامن أن يحب السيدة سمبسون، قرر اثنان آخران من الفلاسفة

شيئاً مثل ذلك. ولكن لأسباب مختلفة.

اقرأ هذا الحوار بين الاثنين في ركن من مقاهي باريس:

قالت: ألا ترى أننا صغيران؟

قال: بل يجب أن نكون كذلك. فمشكلة زماننا أن الناس يقفزون إلى الرجولة.. فراراً من عار الطفولة. ولذلك فقد أخفوا في حقائبهم ملابسهم الصغيرة يرتدونها سراً.. فكأنهم قد كبروا علناً، وما زالوا صغاراً سراً. إنهم في اليابان يصنعون كل لعب الأطفال ولا يستخدمونها. وإنما هي للتصدير وليست للاستهلاك. فليس في اليابان أطفال.. وإنما هناك رجال يشبعون طفولتهم بصناعة اللعب التي تسعد الأطفال غيرهم في كل مكان..

ـ ماذا تقصد؟

ـ يجب أن نكون أطفالاً.. يجب أن نعود أطفالاً..

ـ تقصد أن نحب؟

ـ بالضبط.. فلم تعد عندنا مشاكل جنسية.. بل الجنس صورة من العنف، لا نستخدم فيها أيدينا معظم الوقت.. فالجنس قتال وملاكمة ومصارعة.. ولذلك فالجنس موجع. كل الذي ينقص الحضارة الأوروبية هو

الحنان.. هو اللمس برفق.. هو العناق بلطف هو النظرات بدلاً من الكلمات.. والكلمات بدلاً من اللكمات.. هو السير معاً والجلوس معاً.. وليس النوم معاً.. ولذلك...

قالت: أعرف.. وأوافقك.. ولكني كنت أفكر في شيء آخر.. تصورت أنك أنت اليتيم الصغير كنت تحتاج إلى البيت.. إلى الأم بدلاً من الأم.. إلى الطفل بدلاً من الأب.. أو بدلاً من الطفل المعذب الذي هو أنت.. كنت أتصور أنك اخترتني لأنني مثلك.. أتكلم وأجد الحياة في الحوار.. وأجد الحوار الحياة.. وأجد أننا معاً نلف حول أعناقنا وقلوبنا خيطاً واحداً يشدنا.. ويخنقنا ونتحرر به.. ولكن نظل طول الوقت طرفي هذا الخيط.. إن هذا الخيط هو ذراعي.. ذراعك.. طويلة.. ولكنها تستطيع أن تأتي بي من أي مكان وفي أي وقت..

قال: ولكنك طبعاً تنسين ما الذي يجمعنا أكثر.. إننا نقدس حريتنا.. حريتي.. حريتك.. إنني أرفض أي قيد.. قيدك.. وأنت ترفضين قيدي.. ما الذي يجعل امرأة تعمل؟ خوفها من أن تفقد حريتها عندما تعتمد على رجل آخر.. ما الذي يجعل امرأة تتزوج؟ خوفها من أن تجد نفسها في الشارع.. ما الذي يجعل امرأة تلد؟ حرصها على أن تمتد حياتها في أطفالها الذين سوف يكونون سنداً لها.. وما الذي يجعل امرأة تتزوج مرة

أخرى؟ حرصها على أن تختار لأولادها أباً أفضل من والدهم.. وبيتاً أحسن من بيتهم وأن تبدو في عيونهم أكثر احتراماً، وفي عيون الآخرين أيضاً.. إنها إذن الأمومة.. ولا شيء غير الأمومة هو الذي يتحكم في عواطف المرأة: أولادها ثم أولادها ثم أولادها.. ثم زوجها ثم أخوها.. فمن أجل أن تكون أما تقطع المرأة ذراعيها وساقيها ونهديها.. ويوم التصقت صخرة برأس هرقل، لم تجد زوجته حلاً لإنقاذه إلا أن قطعت رقبته، لكي ترحمه من العذاب.. ويوم التصقت نفس الصخرة بواحد من أطفالها، جعلت تحطمها بأظافرها.. ثم بأسنانها.. ثم طالبتها الآلهة أن تدفع الثمن لكي ينقذوا طفلها، فقدمت قدميها وساقيها وذراعها وعينها.. ووضعت يدها على رأس طفلها الذي لم تعد تراه.. وماتت.. فقد استراحت. عندما اكتملت التضحية من أجل طفلها: فالأمومة اكتمال الأنوثة..

قالت: أفهم الذي تقول. ولذلك أرى أن حبنا أقوى من الصداقة. وصداقتنا أقوى من الزواج وحريتنا أعظم من أن نضحي بها من أجل أي شيء.. ولو كان ذلك هو الحب!

هذان هما الفيلسوف الوجودي جان بول سارتر والأديبة سيمون دي بوفوار التي توفيت أخيراً بعد ثلاث سنوات من وفاة الفيلسوف..

ولم تكن الفلسفة الوجودية صيحة حب.. وإنما هي صرخة احتجاج على فقدان الإنسان لحريته.. وضياع هويته.. وتزوير بطاقته الشخصية.. فبعد الحرب العالمية الثانية انهدمت الحضارة الإنسانية على رأس الإنسان.. لماذا؟ لأن الإنسان لم يكن يبحث عن جنة مفقودة.. فالأرض واسعة وقدرة الإنسان على الابداع لا حدود لها. وإنما هو الإنسان دفعه الضيق والخوف والحقد إلى الاستسلام لأشرار أقوياء أذكياء: هتلر وموسوليني..

فقد أراح الإنسان نفسه من التفكير والتدبير.. فنزل عن إرادته في اختيار ما يراه مناسباً، وأسلم عقله للذين أقوى منه.. ليحددوا له طريق الموت وسبيل الحياة!

وجاء الفلاسفة الوجوديون منذ نهاية القرن الماضي يصرخون عليه.. ألا يضيع في الدولة.. وألا يضيع في سلطة الحاكم.. وألا يكون «واحداً» ـ أي واحد ـ ضمن ملايين.. وإنما أن يكون «الواحد» الشخص المتميز الذي له رغبات خاصة.. نزوات.. الذي يقدر على أن يقول: لا.. وأن يصر عليها.. وأن يدفع الثمن ـ أياً كان ـ وألا يعيش مجاناً.. لا يدفع أي شيء، لأنه لم يتناول طعاماً خاصاً وشراباً خاصاً.. وإنما هو مثل الآخرين.. لا تستطيع أن تميزه عن أي أحد.. لأنه قطعة غيار.. لأنه استسلم للزي الواحد ـ عقلياً وجسمياً واجتماعياً!

والحب ليس علاقة واضحة بين اثنين من الناس. .

ولا كلمات المحبين في وضوح المعادلات الرياضية. .

فالمحبون لا يطيقون الشمس ولا ضوء النهار، وإنما يفضلون القمر والنجوم والليل والسحاب. . ويفضلون الدموع والآهات على الكلمات. .

ويفضلون أن تكون هناك موسيقى لكي تضبط إيقاع الدموع. . ويكون هناك غموض مثل منديل حرير يلف الكلمات الملتهبة. . دون أن تخمد الكلمات ودون أن يحترق الحرير. كيف؟ إنه الحب. .

والشيء الواضح تماماً في الحب: هو أن المحبين في حالة حب. دون أن يعرفوا معنى الحب ولا غاية الحب. إنه الحب بلا حدود. . بلا تحديد.

إن الحب احتجاج على كثرة النور الباهر في كل مكان. .

إنه احتجاج على تفتيش جيوب الناس والنظر الطويل في بطاقاتهم دون سبب الشخصية. .

إنه رفض وضع المحبين في قوالب. . توصيف المحبين. . تصنيف المحبين. .

إن الفيلسوف اليوناني أفلاطون قد أخرج الشعراء من

مدينته الفاضلة.. أخرجهم لأنهم لا يعملون: فلا هم عمال ولا فلاحون ولا هم فلاسفة.. إنه لم يعرف أين وكيف يصنفهم.. فطردهم وأغلق وراءهم الأبواب..

وعلى الرغم من أن أفلاطون نفسه كان فنان العبارة ذواقاً للشعر.. فإنه عندما أقام الدولة التي هي ورشة ومزرعة لتربية الدواجن.. والتي هي ثكنة عسكرية، طرد العشاق ودعاة العشق.. فلا وقت عنده للحب.. ما دامت الدولة في حالة حرب.. في مرحلة بناء.

فهو يرى أن الحب ضعف.. وإن العشق تبديد لطاقة العامل والجندي..

ولذلك ماتت هذه المدينة الفاضلة يوم ولدت.. فقد أقامها الفيلسوف على تجريد الإنسان من إنسانيته.. على نزع قلبه من أحشائه ليكون إنساناً مزوراً.. حيواناً ناطقاً، لا إنساناً عاشقاً..

والفلسفة الوجودية عندما كتبت بطاقة هوية جديدة للإنسان قد وضعت في كل خاناتها: إنه حر.. حر القرار.. حر الاختيار.. حر المصير.. إنه يختار كيف يعيش وكيف يموت.. وكيف يحب أيضاً!

ولم تكن حياة الفيلسوف سارتر والأديبة سيمون نموذجية.. فقد استخدم هو حريته إلى أقصى درجة..

فأحب غيرها. . فعاد إليها. . وهربت هي أيضاً من قيد حبه. . فعرفت غيره. . ولكنه لم يضق بذلك. . فضايقها أنه لا يغار عليها. .

ولكن بقي الحب بينهما رمزاً لحرية الإنسان في أن يختار أوسع القيود وأن يظل مخلصاً خمسين عاماً!

فدوق ودوقة وندسور: أشهر حب أكمله الزواج. .

وسارتر وسيمون: أشهر حب لم يفسده الزواج. .

ولا يزال الحب غريباً. .

لأننا في عصر الكراهية بالملايين، والحب بالعشرات!

قل لي
يا عالم بالأحوال
ماهو الحرام
وما هو الحلال

ذهبت إلى مغارة «دلفى» بجبل البرناسوس فى اليونان وعند هذه المغارة كان يقف الملوك والأغنياء والفلاسفة يسألون «العرافة» عن مستقبل الأيام . وكان الرد يجيء إليهم بسرعة .. والعرافة هى سيدة زهدت الحياة بعد الخمسين ، وانفصلت تماماً عن الدنيا وتفرغت للتأمل .. ويقال كانت أحياناً فتاة صغيرة بريئة .. ويقال كانت تشرب ولا تأكل .. ويقال كانت على الحافة بين النوم واليقظة .. فهى فى قمة الشفافية .. قادرة على أن تعرف ما وراء اليوم والغد .. وتقول .. والناس يرمون عند قدميها بالذهب والماس .. يسمعونها ولا يرونها ..

وكان أستاذنا العظيم سقراط يتردد في الذهاب إليها . . ثم يتردد عليها. وفي إحدى المرات سألها: ما الذي يمكن أن أعمله . . إنني حائر في هذه الدنيا . . والناس كأنهم نائمون على آذانهم لا يسمعون، وعلى عيونهم لا يرون، وعلى قلوبهم وعقولهم لا يفهمون . . ولا بد من فتح حواس كل الناس . . فإذا انفتحت لم يعودوا حيوانات . .

وقالت العرافة لسقراط: اعرف نفسك «أي قبل أن تعرف الناس. اعرف نفسك أولاً». . افهم نفسك. . تعمق داخلك. . وإذا عرفت نفسك عرفت الناس. .

وكانت المشكلة الكبرى لسقراط: أن يعرف نفسه. . وأن يعرفها بنفسه. .

صعدت أنا إلى جبل البرناسوس. . وفعلت ما يفعله كل من يريد أن يعرف. فكان الطريق طويلاً صاعداً وهبطت. . وعند نهاية الطريق غسلت يدي وقدمي في النهر المقدس. . بعض السياح خلعوا ملابسهم، إلا قليلاً. . واستحموا في هذه المياه المقدسة. . فكل ما تلمسه هذه المياه سوف يكون سليماً صحيحاً. .

وكانت العرافة تطلب إلى الناس أحياناً أن يناموا وأن يسمعوها في المنام. . وكان الناس يفعلون ذلك!

وعندما التف حولي شباب من الجامعة الأمريكية لكي نتفق على «ندوة» عن الشباب. . ماذا أقول وماذا يقال. . ما المشكلة وما الحل وما الأمل وما السبيل وما الهدف. . ومتى؟

أحسست كأنني هذه «العرافة» القديمة. . لولا أنني لست كذلك، ولولا أن العرافة القديمة عندها جواب عن كل سؤال، وأن الناس يطيعونها تماماً.

ويوم ذهبت إلى كهف دلفي، تمنيت لو أن العرافة كانت هناك أسألها بعض الذي سألني الشباب.. وكنت أسرف في طلب القهوة والشاي لهم، كأنني أريد أن تكون هذه المشروبات مثل الماء المقدس الذي اغتسلنا به عند نهاية الزيارة. كأنني أريد أن تنتهي الزيارة.. فليس عندي حلول لكل مشاكلهم، فنحن الجيل الأسبق مسؤول عن مشاكلهم!! والذي يعانونه اليوم، هو بعض ما تركنا وقدمنا أو سكتنا عنه.. وليس قبل أن يموت آخر واحد من جيلنا يمكن لهذا الجيل أن يرفع رأسه ويسأل ويتولى هو الإجابة..

فهل صحيح أنها مشكلة هذا الجيل والذي قبله، وسوف يجيء الجيل القادم أحسن حالاً؟

لا أظن ذلك فالأجيال متداخلة كأمواج البحر، لا نعرف بداية أو نهاية أية موجة.. ولا نعرف بداية ونهاية أية مشكلة.. فهي تذوب بعضها في بعض.. وتفنى الواحدة عند ولادة الأخرى..

إن الشباب حائر تماماً، مرتبك تماماً، متشكك في كل الذي يقال له.. فالذي يقال ليس مقنعاً والقائل ليس محترماً أيضاً.

فإذا كان الشبان يتطلعون إلى الأكبر سناً: الأب والأم

والمدرس والقاضي والوزير ورجال الدين وزعماء السياسة على أنهم القدوة. فهل هم كذلك؟

إن الأب والأم مختلفان عنهم تماماً. وما يراه الأبوان واجباً، يراه الأبناء تطوعاً ولا ضرورة له.. فالدنيا تغيرت.. ويجب مراعاة فروق التوقيت بين جيل وجيل..

والناجحون يقرأون أنهم لصوص وأنهم غشاشون. ولكن هؤلاء الناجحين ما يزالون قوة قادرة على التأثير وتغيير مجرى الحياة - ارجع إلى الأفلام والمسلسلات كلها تتحدث عن التاجر الغني، الجاهل الغني.. القادر على أن يركب أحسن السيارات ويشتري أعلى الشقق على النيل، وتكون له الشاليهات الأنيقة في الاسكندرية أو في اليونان أو اسبانيا - والأفلام والمسلسلات تقول للشاب المتعلم: إن علمك لا ينفع ولا يشفع.. هل الشهادة تعادل الثلاجة والغسالة والفيديو؟ طبعاً لا.. إذن هناك من هو أقدر على الشراء.. إنه السمكري وتاجر الخردة والسمسار والحلاق والجزمجي.. وعلى البنت المتعلمة أن تفكر ألف مرة: أيهما أقدر على إسعادها بالمجوهرات والسيارات وإدخال أولادها أحسن المدارس ونقل أبويها من عشش الترجمان إلى الزمالك.. ليس زميلها المتعلم مثلها والذي عنده مثل علياً: من الحياة الشريفة معاً، والعمل معاً، وبناء البيت طوبة وطوبة وطفلاً طفلاً..

أي إذا كانت عندك شهادة أنفقت الدولة عليها وعليك مئات الألوف ففي استطاعتك أن تمسح بها حذاءك.. وإن وجدت ذلك صعباً فاشعل بها سيجارة لصاحب العمل الذي اشترط أن تعمل عنده، وأن تنسى كلمة الجامعة!

فما هو التعليم؟ ما قيمته؟ وما معنى أن تنفق الدولة الملايين على مئات الألوف؟

ثم إن الحياة خارج الجامعة تدوس كل ذلك وتعير الجامعي بأنه كذلك.. وترفع من شأن الأميين الأغنياء!

وإذا كان بين الأغنياء رجل مكافح فالشباب يقرأون أن هؤلاء الأغنياء لصوص. وإنهم سرقوا أقوات الشعب. ولكي يتحقق لهم ذلك فقد استعانوا بمئات الموظفين المتعلمين، بعد أن أغرقوهم في الرشاوى؟!

فالنجاح إذن جريمة.. والتفوق غش ـ والطلبة يعرفون، ونحن أيضاً، كيف يكون الغش في الامتحان كل سنة.. وكيف أن الأساتذة يساعدون الطلبة على الغش مرتين: مرة بالدروس الخصوصية.. ومرة ببيع الأسئلة والأجوبة ـ..

وقد اعترف أحد رؤساء الجامعات بأنه كان يمر بلجان الامتحان ويسمع الميكروفونات تملي على الطلبة الإجابة.. رئيس الجامعة سمع، والأساتذة سمعوا والطلبة؟! فإن لم يكن هذا تصريحاً بأن يحدث ذلك كل سنة وفي هذه

الجامعات والجامعات الأخرى، فهي جريمة أكبر وأشنع: أي السكوت على الجريمة والتهوين من شأنها والدعوة إليها، لأنه لا عقوبة على غش علني، فكيف يعاقب من يغش سراً؟!

والناس يتهامسون عن القضاة، الذين حاكمتهم وزارة العدل وفصلتهم، وعن وكلاء النيابة ورجال الأمن!

ورجال الدين.. أي رجال؟ وأي دين؟ ما الذي يقولونه للناس في التليفزيون والإذاعة وفي الصحف وما الذي ينفع الشباب من كل ذلك. إن كان المقصود هو شرح بلاغة القرآن الكريم، فعلى العين والرأس. أو فقه الإسلام، أو إضاءة الشريعة الإسلامية، كل ذلك عظيم. ولكننا في مصر لا نشكو من زيادة الكفرة والملحدين. ولا نشكو من الذين يشككون في الدين. وإنما نحن نرى شباباً قد تطرف أو تشدد أو تمسك أو «تحنبل» في تطبيق الشريعة الإسلامية. أي أنهم مؤمنون وزيادة. فهل نحن نعالج هذه الزيادة. ونريد أن نجعلهم مؤمنين فقط. وكيف نعرف الفرق بين المؤمنين «السادة» والمؤمنين «على الريحة» والمؤمنين «الزيادة».. كيف؟ إذا أطلق لحيته مثلاً؟ فاللحية عند الشيخ الأكبر جاد الحق وعند الأنبا شنودة والرئيس كاسترو والإرهابي كاهانا والدكتور جوهر عالم البحار.. والفتاة المحتشمة أو المحجبة أو الملثمة ـ ليس في ذلك خروج

على الدين أو الذوق ـ فإلى جانب أنها حرة تفعل بمظهرها ما تشاء، فمن الممكن أن نجد ذلك في كل دين. . وليس من الضروري أن تخفي الفتاة سكيناً تحت فستانها أو جلبابها.

ولكن ليس بين رجال الدين من يلتقي بالشبان ويسألهم عن مشاكلهم الحقيقية: هل هو الدين؟ هل هو الإسكان؟ هل هي الوظيفة؟ هل هي الاستقامة والفضيلة؟ هل هي الهجرة؟ هل هذا الجيل والذي يليه. . أو هل هي نهاية الحضارة الإسلامية كلها؟ وإذا كان الجيل السابق ضحية الجيل الذي قبله وهذا الجيل سوف يكون سفاح الأجيال التالية، فمن هو المتهم وكيف نحاسبه؟

وكل جلسة للشباب أو للشيوخ لها موضوع واحد: ما الحل؟ ما هو علاج كل هذه المشاكل التي تتفاقم؟ ليس التفاؤل بأن غداً سوف يكون أفضل، هو الحل فهذا الكلام من أجل إسكات للأفواه فلا تنطق، والعيون فلا ترى. وقطع للأيدي فلا تتحرك. . ولا الحل أن يقال أنهم المجرمون. . أي هذا الجيل والذي قبله. . فليكن. . فما هو الحل؟

إننا في مصر مشغولون بضرب المرضى وليس علاجهم. . فنحن نقول للمريض: أنت تعرف أن التدخين ضار بالصحة وأنه يبدد الطاقة والمال. وقلنا لك أن السمن

البلدي ضار بالكبد. . وقلنا لـك أن النشويـات هي المسؤولـة عن بدانتك وإصابتك بالسكر. . قلنا ألف مرة!

ثم يـطلب الأطبـاء إلى الممـرضـات ضـرب المـرضى وتعليقهم من شعورهم لأنهم ارتكبوا كل هذه الأخطاء.

وننسى أن المـطلوب الآن هـو العـلاج وكفى بـالمـرض عقـابـاً لهؤلاء المهملين والـلامبـالين والمتهـورين. . والمهم الآن: العلاج. . ما هو العلاج؟

أمـا العلاج فنحن نعـرفه. نعـرفه تمـاماً. . وليس في بلد في الدنيا مثل هذا العـدد من الأطباء وادعيـاء الطب، كـالذي في مصـر. . فنحن جميعاً أطبـاء وساسـة وقضـاة. . نفهم في كـل شيء ونشخص أي شيء، ونتـطوع للعـلاج ونشكـو في نفس الـوقت من الفهلـوة ـ أي من الـذين يتصـدون لكـل القضايا دون أن يشعروا بأي حرج وبأية مسؤولية! ـ .

إذن ليس المـرض ولا تشخيص المرض ولا الـرغبـة في العـلاج، ولا القـدرة على ذلـك. ولكن مـاذا؟ ولكن متى العلاج؟

ونقول جميعاً: الآن؟

ونتسـاءل كـأننـا نـريـد أن نجعـل المـوقف صعبـاً على أنفسنا: وأين؟

ويكون الرد: في كل بيت وكل مكتب وكل مدرسة وكل

مسجد وكنيسة وكل محكمة ووزارة!

ونتساءل شيوخاً وشباباً: كيف؟

والجواب الذي لا جواب غيره: بالأمر بالقوة.. بالقانون الذي لا دوران حوله، ولا ثغرات فيه..

ـ هل نعود إلى العنف؟

ـ إننا لم نعد.. وإنما نحن استأنفنا العلاج.. فلا مساومة على الدواء مع المريض.. ولا مساومة مع التلميذ على ضرورة الذهاب إلى المدرسة.. ولا مساومة مع الجندي على الدفاع عن الوطن.

ـ وكيف؟

ـ ليكن ولو مرة واحدة هكذا: كل من ألقى ورقة على الأرض يدفع خمسة جنيهات ابتداء من الساعة السابعة صباحاً.. ولا رجعة. ولا شفاعة ولا مناقشة ولا نكتة سخيفة في الصحف والمجلات.. تماماً كما أننا لا ننكت على الخدمة العسكرية وحكم القضاة والقضاء والمحاكم!

وأي سؤال عن ذلك هو نوع من التردد أو التشكيك في إمكان ذلك.. وأي سؤال هو نوع من عدم التصديق واستبعاد أن يكون أي شيء ممكناً.. انتهى!

لأن هذه الأسئلة هي التي عرفت في علم المنطق بأنها

أسئلة الإحراج لأنها تتضمن الإجابة مثلاً: إذا سألك واحد من الناس ألا تزال تضرب زوجتك؟.. فإذا قلت: نعم.. فمعنى ذلك أنت تضربها. وإن قلت: لا.. فمعنى ذلك أنك كنت تضربها ولم تعد تفعل الآن!

أو مثل الرجل الذي وقف أمام القاضي فسأله: هل تعترف بأنك ألقيت زوجتك من النافذة؟ فقال الرجل: يا سيدي القاضي لقد نسيت أننا انتقلنا إلى السكن في الدور الثاني!

أي أنه كان يلقي بها على الأرض وهو في الدور الأول، ثم يلقي بها وهو في الدور الثاني أيضاً!

ويوم يكون الاتفاق بيننا تماماً على المرض والعلاج وطرق العلاج وسرعة تنفيذها، تكون هذه هي البداية.. بداية التصحيح الشامل.. أو بداية الصحوة المؤكدة.

وحين قامت الثورة الفرنسية يوم ١٤ يوليو سنة ١٧٨٩ ذهب أحد الدوقات للملك لويس السادس عشر يقول له: مولاي لقد سقط سجن الباستيل في أيدي الغوغاء!

فقال الملك: إنه تمرد إذن!

فقال الدوق: بل هي الثورة يا مولاي!

وكل مشاكل مصر اليوم «باستيل» فإذا سقطت فهي الصحوة الكبرى!

فلماذا رجال الدين هم وحدهم الذين يجاهرون بالغضب والسخط على واقع الشباب في مصر.. وأين رجال السياسة والاقتصاد والاجتماع والتربية وعلم النفس والإسكان والأمن..

إن رجال الدين يحظون بما يحظى به الدين من عظيم الاحترام، فانفتحت لهم شاشة التليفزيون والصفحات والندوات.

وإقبال الشبان على مشاهدة الشاشة والصحف بالملايين. وليس ذلك نجاحاً لرجال الدين.. ولكن معناه أن هؤلاء الشبان لا يجدون النور إلا عند هؤلاء.. إنهم لا يجدون غيرهم من أطباء ومهندسي العلاقات الاجتماعية لكي يذهبوا إليهم..

ويقال أن رجلاً مخموراً راح يبحث عن مفتاح شقة في الشارع المظلم حتى وجد عمود النور فراح يدور حوله عندما ظهر رجل الأمن الذي سأله: عن أي شيء تبحث؟

فأجاب: عن المفتاح.

ـ وأين ضاع منك؟

ـ عند أول الشارع.

ـ فكيف تبحث عنه هنا؟

ـ في المكان الذي به نور!

فنحن لا نشكو من نقص في الدين. ولا نشكو من نقص في الإيمان. وتكون النتيجة أن يتضاعف عدد الذين يدينون ويتشددون ويرتبون أفكارهم وحدهم، لأن أحداً لا يناقشهم في مشاكلهم الأخرى؟ ثم نشكو من زيادة «المد» الديني في مصر. مع أن هذا المد الديني ليس إلا صدى أو رد فعل للمد الرسمي في التليفزيون والإذاعة والصحف. .

وهو تضخيم لجانب من جوانب مشاكل الشباب. . وتشويه لشكلها. . فهناك أطراف أخرى مسؤولة عن هموم الشباب وأزماتهم. . ولكن هذا هو المكان الذي يجب أن يبحثوا فيه عن المفتاح فالمكان مضيء. . إنهم يرون بالضبط ماذا يفعلون. . ولكن لا أمل في أن يصلوا إلى ما يريدون. . فالمفتاح في مكان آخر. . وتكون لهم سعادة زائفة: إنهم جادون في البحث عن شيء موجود في مكان آخر. . وهذا يدفعهم إلى الإيمان بالمعجزة المزيفة. . معجزة أن يجدوا المفتاح عند عمود النور، وليس في أول الشارع!!

حتى الماضي الذي جاء منه هذا الجيل القديم الحاكم القادر على رسم المستقبل لهذا الشباب، هذا الجيل غاضب أيضاً على الماضي الذي هو من صنعه أو إن لم يكن قد ساهم فيه فقد عايشه، وإن لم يكن قد عايشه فهو قد سكت عنه. . أي أنه ارتضاه ولم يفتح فمه. فلماذا لم

يفتح فمه. . ولماذا يغضب إذا كان هذا الجيل يتوهم أنه أفضل لأنه يفتح فمه ويسأل ويدين الجيل السابق. . حتى هذا الجيل القديم ساخط على ماضيه. .

فما الذي يقوله عن عرابي ومصطفى كامل وسعد زغلول وعبد الناصر والسادات. . وعن محمد نجيب والوصي على العرش رشاد مهنا وعن قادة حروب ٥٦ واليمن و٦٧ و٧٣. . وماذا قال الجنرالات المصريون عن الخيانة الوطنية وعن العمالة. . وماذا قال المدنيون عن العسكريين وما الذي أسكت العسكريين عن المدنيين الذين يمسحون بهم الأرض وبتاريخهم وكفاحهم. والعسكريون لا ينطقون؟! فمن الذي له حق الحكم على الحرب؟ من الذي له حق تاريخ ما كان وما سيكون؟.

إن أطول الناس لساناً في مصر وأعلاهم صوتاً، أقدرهم على أن يكذبوا. وأن يجعلوا الكذب حقيقة مقررة!

والنبي والولي وكل ما هو مقدس عندك أيها القارىء الشاب هل تصدق أن يقال لك: إنك انتصرت في حرب سنة ١٩٦٧ وانهزمت في حرب سنة ١٩٧٣. . أي عندما احتلت إسرائيل سيناء وسدت القناة واستولت على آبار البترول ومعها الجولان والقدس والضفة الغربية. هل يمكن أن يكون هذا انتصاراً. . وأصبح من أهل القناة مهجرون مشردون في عدد الفلسطينيين. . إن كان المقصود أنه

انتصار إسرائيل، فهذا صحيح بكل الموازيين والمكاييل.. ولكن حرب سنة ١٩٦٧ لم يكتب تاريخها بعد ولم نعرف حتى الآن من الذي أصدر قرار الانسحاب؟ ولم نحاسب بعد من المجرم الذي سحب قوات مصرية منهزمة في اليمن ودفع بها إلى النكسة في سيناء ١٩٦٧؟!

ويكفي هذا للشباب لكي يكفروا بالتاريخ العسكري والسياسي وبالتاريخ وبالكلمة أياً كان مصدرها وأياً كان هذا المصدر؟!

وأرجو أن يتسع وقتك أيها القارىء الشاب لتقارن بين هؤلاء الذين جلسوا إلى منصة الافتاء السياسي والعسكري وبين «العرافة» الإغريقية القديمة التي كانت تتعاطى المشروبات الروحية وربما عش الغراب وورق اللوتس والخشخاش لتكون في حالة من الشفافية والخفة لتقول ما بدالها عن مستقبل الأفراد والشعوب.. ويبدو أن السياح المصريين قد تركوا مصر إلى اليونان، وعوضتنا اليونان عن ذلك بإيفاد عدد من العرافات في كل مجالات الإصلاح الإنساني في مصر!

ولا نحن نعرف من الذي مات ومن الذي مات وما زال حياً. ومن الذي عاش وكأنه ما عاش.. فلا أحد يعرف الآن إن كان أحمد عرابي قد عاش أو مصطفى كامل أو سعد زغلول.. وماركس وكذلك عبد الناصر من حقه أن

يظل حياً يرزق - بضم الزين - وكذلك الشيخ حسن البنا والنحاس باشا.. وهؤلاء الموتى أقوى من الأحياء، ولا يزالون قادرين، في تراب قبورهم على تحريك الناس وجمعهم وشرذمتهم وإضافة عناصر جديدة للتعصب والتطرف!

حتى الموت لم يعد واضحاً عند الشباب.. وشرف الموت من أجل مصر ليس مؤكداً.. وهل من حق أحد أن يسأل من أجل أي شيء يموت! مثلاً عندما ذهب مائة ألف جندي إلى اليمن لم يتساءل أحد: كيف يموت المصريون في اليمن بلا قضية.. فلم تكن هذه الحرب إلا المحاولة الأخيرة لرد اعتبار للرئيس عبد الناصر عن طلاق مصر من سوريا - وسوريا كانت هي الحبيبة الخائنة للرئيس المصري.. وتمنى أن يستعيدها ولو بإعطاء نصف مصر إلى سوريا - حذف لها اسم مصر.. وحاول أن يخضع اليمن ويذلها.. ثم يزهو بها بعد ذلك.. لكي يؤكد للحبيبة الخائنة أنه ليس حريصاً على أن تتعدد زوجاته..

ولا كلمة صدق قيلت عن حرب اليمن وتساءل الشبان: كيف يشعر الرئيس عبد الناصر أن مصر «صغيرة عليه» وحاول أن يضم لها سوريا والعراق وليبيا واليمن والسودان، مع أن مصر بمشاكلها قد دوختنا جميعاً. إذن لم يكن شعب مصر هو الذي يعنيه، وإنما هي خريطة العالم العربي..

فيضيف مساحة إلى مساحة. . أرضاً إلى أرض. . أما سكان هذه الأرض فليس لهم وزن. . وهو بذلك يضاعف المشاكل ويكومها فوق دماغ الذين يجيئون من بعده. وقد حدث!

والرئيس محمد نجيب قالوا عنه أنه كان ستاراً ولم تكن له قيمة تاريخية ـ كيف؟ هذا ما قيل!

والرئيس عبد الناصر زعيم ثورة يوليو ومحقق أهدافها ومحرر عبيد الأرض من الإقطاع وفاتح أبواب السجون كما لم يحدث من قبل في تاريخ مصر ـ اسأل الأخوان المسلمين والشيوعيين في كل واحات مصر، والذي بدأ يغيب عن الوعي السياسي بعد الانفصال عن سوريا، وغاب تماماً بعد حرب سنة ١٩٦٧ حتى توفاه الله. .

والرئيس السادات الذي حقق لمصر من الإصلاحات العسكرية والسياسيةوالاجتماعية والدستورية ما لم يفعله أحد في تاريخ مصر، اغتيل بدعوى الخيانة لبلاده واستحق الاحتقار لأن أمه سودانية؟. . هكذا يدعون!!

فبالله علينا أين هو الرجل الوطني وأين هو البطل الأمين، ومن هو القدوة الحسنة لشباب هذا الجيل وجيل من بعده. .

وإذا كنا قد منعنا التجريف في الأرض الزراعية، فنحن لم نوقف هذا التجريف بين المؤرخين. . فهم يجرفون

أرض مصـر ويلقـون بـالـطين على الحـاضـر والمـاضي والمستقبل. . ويطالبون الشباب بـالصدق والنـزاهة والنـظافة - كيف لا نغسل أيدينا وكذلك أقلامنا وضمائـرنا قبـل أن نطالب الآخـرين بـأن الحـلال بين والحـرام بين - نحن الـذين نقـول ذلـك، وهم الذين لا يسمعـون ولا يـريـدون. . ولكننـا نصـر على أنْ نعيـد ونزيـد. . وهم يصرون على التثـاؤب والاتجـاه إلى ناحية أخرى. إن أحداً لا ينـظر إلينا: إن مـلايين الشباب يتفـادون النظر والسمـع والحـديث معنـا. . لقـد نـزل الستـار بيننـا، ورفعت الأقـلام وجفت الصحف. . فهـذه الكلمـات ليست لهـذه العيـون، وهـذه الأفـواه ليست لهـذه الآذان. . وذلـك الجيل ليس لهـذا الجيـل - فـلا نحن الإمـام ولا نحن القبلة - ولا حول ولا قوة إلا بالله.

إن البطالة والكسل
أحلى مذاقاً من العسل!!

كنت أتصور أن البلادة أو الصعلكة العقلية هي أن أجلس فعلاً وأشرب الشاي والقهوة وأضع الورق والقلم.. ولما أجدني غير قادر على التركيز. وإن الله لم يفتح بشيء من الكلام أو الرغبة في ذلك.. فإنني أقلب في الكتب الكثيرة التي أمامي وورائي وعلى الأرض.. وأنتقل كما أريد بين الفلك والحشرات والغرام والبيئة والمغامرات والسياسة والأدب والنقد والرحلات.. وأجد في ذلك راحة من التفكير المركز أو السير وفق القواعد الفكرية والنحوية.. وكانت هذه هي راحتي ومتعتي.. وهي أن أروض نفسي.. أو أمشي وراءها.. ومرة أجد نفسي مثل قطة تقفز من كتاب لكتاب.. ومرة أجدها فراشة تطير في كل اتجاه ولا تحط على شيء.. ومرة أجدها حصاناً نافراً.. لا يريد أن يهدأ.. ومرة أجدها حيواناً شرساً يضرب بأظافره ويمسك بأنيابه أي شيء.. فإذا لم يجد أحداً راح يمسكني من عنقي..

حتى وجدت هذا الكتاب الظريف الذي اشترك في

كتابته عدد من العلماء والأدباء والمؤرخين والرسامين وعنوانه: «ولا يهمك أفعل ما بدا لك».

وكنت قرأت قبل ذلك كتاب الزعيم السياسي تشرشل وعنوانه «الرسم: وقت لذيذ».. وقد مارس تشرشل الرسم أيضاً. فهو كاتب أديب. وقد حصل على جائزة نوبل في الأدب.. ولكنه وجد في الرسم راحته الكبرى من السياسة ومن التاريخ. وجعل يدعو الناس إلى البحث عن هواية. وتكون الهواية مهرباً من الاحتراف الأدبي والسياسي.. وهو لم يتقدم كثيراً في الرسم. ولكن لوحاته لها قيمة تاريخية. هذه اللوحات أهداها تشرشل إلى ايزنهاور وغيره من القادة.. وقد رسم لوحة كلب فيه ملامح ثعلب جريح. ولم يسعده الحظ أن يهديها إلى ثعلب الصحراء روميل!

وأسعد الناس من مارس حرفته وكأنه هاو.. أي لم يتزوج حرفته وإنما ظل عاشقاً لها.. أي ظل على علاقة حرة.. يقرب ويبعد متى شاء.. فالحرية: مسافات.. فالإنسان الحر هو الذي يستطيع أن يذهب بعيداً أو قريباً من أي شيء أو أي أحد.. ولكن السجن هو المحدود بالجدران والسلاسل.. وكذلك الزواج قيود، والعشق والحب مسافات.. والحرفة قيود والهواية مسافات.. وسعيد ذلك الذي يعرف المسافات في عمله وفي علاقاته الإنسانية.. والذي حين يضع قيوده يجعلها واسعة ويجعلها

طويلة.. ويجعلها مرحة.. ويخلعها متى شاء..

ومن الممكن أن تبتسم إذا قرأت هذا الكتاب. ففيه الكثير من الحقيقة، والمرح أيضاً.

○ **وأول نصيحة في هذا الكتاب هي: الزم بيتك!**

فإن الإنسانية تدين كثيراً للذين جلسوا في بيوتهم طويلاً. فلولا هذا البيت ما كانت البشرية. فالرجل اخترع الصيد. والمرأة اخترعت الزراعة. وهي التي أقامت البيت.. وفي البيت ولدت واحتضنت.. ولو كانت المرأة تضع أطفالها وهي تجري.. أو تتخلص من صغارها وتتركهم في البيت أو تحت الشجرة أو على الشاطيء لانقضت عليها الوحوش، ولانقرض الإنسان.. ولا يزال إنجاب طفل هو أعظم أعمال المرأة ـ حتى إذا لم تعتقد المرأة أن الولادة شيء هام، فالولادة هي أروع ما صنع الله عن طريق المرأة!

وحكايات أخرى كثيرة. مثلاً جيمس وات (١٧٣٦ ـ ١٨١٩) كان مريضاً في البيت، يعاني من الزكام الشديد.. وقد أغلق الباب والنافذة، وينهض من حين إلى حين يحاول أن يفهم ما الذي يجعل الهواء يصفر إذا دخل من ثقب الباب وما الذي يجعله يسكت إذا هو سد هذا الثقب.. حاول أن يفهم. ولم يستطع. وأدهشه أكثر أن يجد براد الشاي الذي يغلي به الماء يهتز ويكاد يقفز من فوق النار..

البراد يهتز بعنف والبخار يخرج من الناحية الأخرى. . ولما حاول سد فتحة البراد سقط الإناء من فوق النار ما المعنى؟

وجيمس وات مهندس مشغول بمشاكل أخرى يريد أن يحلها. ولكن البراد هو الذي هداه إلى القاطرة البخارية. . فإذا استطاع أن يجعل الماء يغلي، وجعل البخار يدفع عجلة بقوة، فإن هذه العجلة سوف تتحرك وتجر وراءها القطار. . فالبراد هو الأب الحقيقي لقطارات السكك الحديدية التي كانت بداية الثورة الصناعية في العالم كله. . كانت البشرية تمشي على رجليها، والآن أصبحت تجري على عجلات فوق قضبان حديدية. . وانطلقت بعد ذلك بلا بخار ولا قضبان في الهواء وفي الفضاء. .

ومخترع آخر كان يداعب أحد أطفاله حتى تعود زوجته من الكنيسة. . انكسرت دراجة الطفل فانشغل أبوه بإصلاحها. . إنه المهندس الإيرلندي جون دنلوب (١٨٤٠ ـ ١٩٢١) الذي اخترع العجلات المطاط. والذي حدث هو ان الابن الصغير يريد أن يلعب. وكان طفلاً مدللاً. وكانت دراجته تحدث دوياً وقد انكسرت. فما كان من الأب إلا أن لف حولها شريطاً من القماش. . ثم ضاعف القماش حول العجلات الثلاث. فلم يعد لها صوت. . هنا فقط جاءته فكرة: ولو كان ذلك من المطاط ولكل العجلات، لكانت أهدأ وأسرع أيضاً. .

○ **والنصيحة الثانية: الحقيقة قريبة جداً منك. أنظر حولك أولاً..**

فالعالم الإغريقي أرشميدس (٢٨٧ ـ ٢١٢ ق.م) كان حائراً في حل مشكلة كيف تعرف حجم أي شيء.. ما معنى أن تقول أن هذا صغير.. وهذا كبير.. وكيف تعرف أنه كبير.. وظلت هذه المشكلة تؤرقه ليلاً ونهاراً. وفي يوم ذهب لكي يستريح من هذا الصداع العلمي، قرر أن يأخذ حماماً ساخناً. وملأ الحوض بالماء الساخن.. ونزل فيه.. ولاحظ أنه عندما نزل فيه، خرج الماء من الحوض.. وتساءل: ما معنى ذلك؟ وأجاب: إن الماء الذي خرج من الحوض يعادل تماماً حجم الجسم..

وخرج من الحمام عارياً يجري في الشوارع وهو يردد عبارته التاريخية المشهورة: وجدتها.. وجدتها.. أويوركا.. أويوركا!

وبدأ يكرر التجربة على الأوعية الصغيرة والأكواب. يلقي فيها بقطع من الرخام فيرتفع مستوى الماء. هذا الارتفاع هو حجم المواد التي وضعت في الإناء.. وبدأ تخطيط الزجاج وترقيمه لمعرفة حجم الأجسام!

أما نيوتن أعظم العقول التي أبدعها الله في كل العصور (١٦٤٢ ـ ١٧٢٧) فقد ظهرت عبقريته الفذة في سن صغيرة

جـداً. وقد اختـارته الحكمـة الإلهية لحـل مشاكـل كثيـرة في حـركة الكـون. . في النجوم والـذرات والشعـاعـات وقـوانين الجـاذبية. . ثم إنـه اختـرع علمـاً من أولـه لآخـره: حسـاب التفـاضـل والتكـامـل. ولأنـه كـان رجـلاً خجـولاً، ولا يحب الإعلان عن نفسه، فقد اكتشف هذا العـالم فيلسوف ألمـاني هـو ليبنتس (١٦٤٦ ـ ١٧١٦). ولكن أحـدهمـا لا يعـرف الآخر. .

ولمـا كـان نيـوتن في السـادسـة والعشـرين من عمـره اكتشف قـوانين الجـاذبيـة الأرضيـة كـان ممـدداً على الأرض تحت إحدى الأشجار وفجأة سقطت تفـاحة إلى جـواره. ومن ملايين السنين يتساقط التفاح. ولكن هذه التفـاحة كـانت مثل دقـات المسرح، انفتـح بعدهـا الستار على حقيقـة الجـاذبيـة الأرضيـة. . وبعـد تلك اللحظـة عكف نيـوتن على فهم هـذا الذي حدث. .

وبعقليـة جبارة خـارقة اهتـدى نيوتن إلى أسبـاب سقـوط التفـاحة: إنهـا جاذبيـة الأرض. . وعرف أيضـاً أسباب المـد والجزر: إنها جاذبية القمر. .

○ والنصيحة الثالثـة: أن تحب أمك وأن تـظل على هذه العاطفة مدى الحياة. .

فقـد لاحظ الترزي الفـرنسي تيمـونييـه أن والـدتـه تتعب

كثيراً في ترقيع الملابس وأن نظرها قد ضعف وأن الأبرة كثيراً ما نفذت في يدها وفي أصابعها. فاخترع لها «الكستبان». . ولكن ظل نظر أمه يضعف. ولا تريد أن تتوقف عن مساعدة ابنها. . هنا فقط قرر أن يجد حلاً. ولكنه لم يدرس الهندسة ولا تخصص في الميكانيكا. . فوضع قطعة من الجلد تحت الملابس. . ثم أتى بأبرة طويلة لكي تراها أمه بوضوح. . ثم فكر في شيء آخر. أن تتحرك الأبرة داخلة وخارجة بصورة آلية. . ونجح في ذلك. وكانت هذه هي أول ماكينة خياطة بدائية. ولكنها أراحت أمه وعينيها. ولم تعد الدماء تسيل من يديها. .

هذه الماكينة هي التي طورها بعد ذلك المخترع الأمريكي إسحاق سنجر سنة ١٨٤٥. .

○ والنصيحة الرابعة: لا تنزعج إذا حدث خطأ. فرب ضارة نافعة. .

فرجل واحد عن غير قصد استطاع أن يخرج لنا شيئين هامين جداً ومختلفين تماماً.

كان هربرت سمولنج الألماني شاباً كسولاً بليداً. . وكان يساعد والده في صناعة المتفجرات التي يلهو بها الأطفال. .

وكانت عنده مشكلة أن النار في المدفأة تنطفىء كثيراً.

لأن الخشب لا يزال أخضرا. وإنه لذلك يجب أن ينهض ويبحث عن مصدر للنار عند الجيران.. وفجأة لاحظ عندما حاول أن ينظف المنضدة من مادة الكبريت التي سقطت عليها أن اشتعلت.. وكانت هذه هي بداية إشعال الكبريت عن طريق الاحتكاك!

وظل يلعب بالنار طول الوقت.. وظل يفكر كيف يمكن الاستفادة من ذلك.. وأين يضع مادة أخرى ليحتك بها الكبريت. ووضعها على العلبة..

وانشغل بذلك حتى فوجىء بأن وعاء اللبن الذي وضعه على النار، قد تبخر تماماً تاركاً وراءه كتلة من العجين الأبيض. وراح يتأمل هذا العجين.. حتى جف.. وتركه حتى تحول العجين إلى بودره.. وكانت هذه أول مرة نعرف فيها اللبن البودرة!

مرة أخرى عندما كان المخترع الفرنسي بندكتوس جالساً في سريره يتقلب يشكو من الأرق.. حاول أن ينام لم يستطع.. وكأن من حين إلى حين يمد يده ليعرف كم الساعة.. وفي إحدى المرات ارتطمت يده بإحدى الزجاجات فسقطت على الأرض وتحطمت.. ولم يكد يرى الزجاجة حتى غرق في تفكير عميق.. فالزجاجة انكسرت تماماً ولكنها ظلت متماسكة محتفظة بشكلها تماماً. كيف؟

فقد كان قد ملأها بمحلول له قوام صمغي. . هذا المحلول هو الذي أمسك شظايا الزجاج من الداخل فانكسرت وظلت على شكلها. هنا ولد اختراع الزجاج المأمون الذي في سياراتنا. فالزجاج مهما تحطم فشظاياه لا تتناثر على وجوه الناس. . انظر إلى السرطان الذي يصيب الزجاج، فإنه يتحطم تماماً. ولكن ذرة واحدة لا تقفز إلى عين أحد!

مرة ثالثة عندما ذهب المهندس جلبرت أرتمان إلى مصنعه، أحزنه جداً أن يجد الأفران التي وضع بها الورق لم تفلح في جعل الورق ناعماً لامعاً. ومعنى ذلك أنه يجب أن يتخلص من كمية كبيرة من هذا الورق. ولكنه لم يفعل. فترك الورق في مكانه وعاد إلى البيت حزيناً لا يأكل ولا يشرب ولا ينام. وإنما يدور بين غرف البيت حائراً. وأشار إلى زوجته وأولاده أن يتركوه وحده. . وتركوا له البيت. وفجأة ذهب إلى المصنع ليلاً. ومد يده إلى الورق محاولاً أن يجد له فائدة. . فلاحظ أن الورق يمتص الحبر بسرعة. . هنا ظهرت إلى الوجود فكرة الورق النشاف!

○ والنصيحة الخامسة: كل شيء له فائدة، حتى الأشياء التي تبدو بلا فائدة. ولكننا لا نعطي لأنفسنا وقتاً كافياً للتفكير. .

فالعالم العظيم فلمنج (١٨٨١ ـ ١٩٥٥) كان مشغولاً

جداً بالبحث عن مضاد حيوي لقتل البكتريا دون تحطيم للخلايا. . وتحت ضغط احتياجات الحرب العالمية الثانية اكتشف مادة البنسلين. وكان إنتاجها بالجملة. ولكنه أتقنها وطورها بعد ذلك. كيف؟

كان من عادة سيرة الكسندر فلمنج أنه عندما يصحو من نومه يظل يعمل بلا طعام حتى ينبهه أحد إلى ذلك. . واتفق مع أحد مساعديه إذا جاء الطعام أن يدق له جرساً أو يلقي بورقة من تحت الباب. . أو أن يضع له الطعام أمام الباب على الأرض حتى يصطدم به. . فيتذكر أنه من الضروري أن يأكل. ولم تنفع كل هذه المحاولات فهو لا يسمع الدقات على الباب ولا يقرأ الورق ويتفادى أن يدوس الأطباق. . ويمضي في بحثه وكان يوم السبت مساء أعدوا له الطعام، ونبهوه إلى أن الأحد إجازة وأنه سوف يبقى وحده. ولسبب ليس واضحاً تنبه فلمنج إلى وجود الطعام. بل إلى وجود شيء أخضر في الطعام. . عفونة. . هذه العفونة هي التي هدته إلى اختراع المضاد الحيوي القاتل للبكتيريا.

فلو غسل فلمنج هذه الأطباق لتأخرت البشرية في الاستفادة من المضاد الحيوي عشرات السنين. . وكان متعته بعد ذلك أن يرى العفن على كل الأطباق. . وأن يعلق لوحة لأول طبق فتح له علم الحرب على البكتيريا!

○ **النصيحة السادسة: لا بد من حل!**

كـان ذلك في سنـة ١٨٠٠ وكانت قـوات نابليـون تزحف على شمال إيطاليا وأحـس نابوليون بـالجوع الشـديد. وطلب طعاماً. وكان لا بـد من إعداد الـطعام فـوراً. . وكان نـابليون قـد صحـا من نـومه بعـد منتصف الليـل. . ولم يكن لـدى الـطاهي ما يقـدمه لـلأمبـراطـور. . فتسلل في الليل إلى أحد البيـوت المجاورة وأيقظ أهلهـا. . واعتذر. وعـرض المشكلة بسـرعة. فـأشاروا إلى دجـاجـة صغيـرة. وثـلاث حبـات من الطماطم وبعض الثوم وست بيضات. .

وطلب الطاهي من صاحبة البيت أن تعد لـه طعامـاً وطنياً يناسب أعظم الرجال. وبسـرعة سلقت الـدجاجـة في صلصة الـطمـاطم والثـوم. . ثـم كسـرت البيض وفصلت البياض عن الصفـار. وضربت البيـاض وغـطت بـه الـدجـاجـة وأدخلتهـا النـار. فكـان غـلالـة رقيقـة حـول الـدجـاجــة. وقـدمـوهـا لـلأمبراطـور. وأعجبه هـذا الطعـام. وطلب أن يكون طعـامه الوحيد ما دام بعيداً عن فرنسا!

وكـانت هذه هي بـداية اكتشـاف «المـارنـج» أي بيـاض البيض المضروب والمستخدم الآن في كثير من الحلويات!

وعنـدما كـانت قوات نـابليون تحـاصر مـدينة عكـا سنـة ١٧٩٨ أحـرقت البيـوت وهـدمتهـا على رؤوس القـوات التي

قـاومت بعنف. ولكن أكبـر خسـارة للجنـود: أن تحـطمت الشيش والنـارجيلة.. ولم يعد أحـد قادراً على أن يتكيف.. هنا فقط وجدوا حـلاً.. لقد كـانوا يستخـدمون ورقـاً حساسـاً رفيعـاً كانـوا يضعونـه في فوهـة المدافـع ويشعلون فيها النـار وتمتد النار إلى البارود فينطلق خارج المدفع..

هـذا الورق هـو الذي استخـدمـوه في «لف» الطبـاق.. فولدت السيجارة المعروفة الآن!

○ **النصيحة السابعة: لا تسخر من خـرافات الشعـوب. فهذه الخرافات هي التي أصبحت بعد ذلك حقائق كبرى..**

فكـل الـطب الشعبي البـدائي ثبت علميـاً أنـه صحيـح تماماً. فالطبول هي بداية موسيقى الجـاز، وهي بدايـة الزار، والعلاج النفسي بالموسيقى والرقص.. والـذي تفعله القبائـل البدائية من الـرقص حتى النوم أو حتى المـوت، هو مـا يفعله الشباب الآن في كل الدنيا..

واستخـدام الكي بـالنـار، قـد تـطور إلى استخـدام الصـدمات الكهـربائيـة.. وليست الأبر الصينيـة إلا نوعـاً من ذلك..

وفي يوم أعلنت مصلحة البـريد في بـريطانيـا أنها تخسـر كثيراً جداً بسبب تقـطيع طـوابع البـريد.. فكـان من الصعب على موظفي البريـد أن يقطعـوا أو يفصلوا طوابع البـريد دون

خسارة. فهل عند أحد فكرة جديدة غير استخدام المسطرة وسحب طوابع البريد من تحتها لفصلها بعضها عن بعض.. أو استخدام الدقة الفائقة في فصلها واحداً واحداً..

موظف في السفارة البريطانية في القاهرة وجد الحل.. وكان قد تزوج فتاة مصرية من المنصورة من عائلة أبو النور.. الفتاة اسمها جمالات.. والزوج اسمه جورج ماكنيل.

ولما أسلم أصبح اسمه المهدي عبدالله الأمين.

ولم يكد يقرأ هذا الإعلان والمكافأة السخية حتى انشغل به ولم تكن لديه فكرة! وإنما توقف عند هذا الإعلان، واندهش هو نفسه من انشغاله. وحكى هذا الانشغال لجمالات.. وضحكا..

ومرض المهدي عبدالله. وقرر أن يترك القاهرة وأن يعود إلى بيت حماته في المنصورة. وارتدى الجلباب. وفوجىء في الصباح برائحة البخور تملأ البيت.. وطشت امتلأ بالخشب المشتعل وطلبت إليه حماته أن يخطو فوق هذه النار، بينما هي تقرأ له بعض الأدعية. فقد اعتقدت حماته أن الجيران والأقارب حسدوه، وحسدوا الأسرة على هذا الشاب الوسيم الطيب..

وفعل المهدي ما طلبته حماته..

وفجأة صرخ المهدي: وجدتها.. وجدتها.. كسبنا العشرة آلاف جنيه.. وجدتها!

ونهض من السرير وارتدى ملابسه. وهمس في أذن زوجته بكلمة. وخرج وسافر إلى القاهرة. وفي السفارة بعث بالخطاب التاريخي إلى مصلحة البريد.. وبعد أيام جاءت العشرة آلاف جنيه مع الشكر لأنه وفر على خزانة الدولة مئات الألوف سنوياً!

وعاد إلى المنصورة ومعه الفلوس وليفسر لزوجته وحماته ماذا حدث..

فعندما كانت حماته «ترقيه» من عيون الأقارب والجيران كانت تمسك عروسة من ورق، وتثقبها بالأبرة وهي تقول: من عين فلانة.. ومن عين من رآك ولم يصل على النبي.. ومن عين فلانة!

هذا هو الاختراع: تثقيب طوابع البريد.. وبذلك يمكن فصلها بسهولة بدلاً من استخدام الموسى أو السكين أو الأصابع، فتمزق الأوراق ولا تصلح للاستعمال!

ولا يزال التعبير العربي القديم صحيحاً. التعبير يقول: كأن على رؤوسهم الطير.. أي أنهم ساكنون جامدون، حتى وقعت الطير على رؤوسهم آمنة تماماً. وكذلك الأفكار لا تجيء ولا تهبط إلا إذا كان لنا سكون وجمود الأشجار

والتماثيل.

وفي صدر هذا الكتاب جاءت هذه العبارة للفيلسوف الفرنسي جان جاك روسو (١٧١٢ ـ ١٧٧٨): أحب أن أكون كسولاً بعض الوقت.. فقد ولدت كسولاً.. لا أعمل أي شيء وإن عملت فلا أكمل ما بدأت.. أروح وأجيء، وأغير أي شيء مطيعاً لكل ما يطرأ على بالي.. أتابع ذبابة في جو الغرفة هنا وهناك.. وأتركها وانظر من النافذة.. ثم انظر إلى النافذة نفسها.. ثم إلى أصابعي.. ثم إلى المرآة.. إلى صورتي.. أي شيء.. أي قرار.. أو انعدام القرار.. أن أكون مطيعاً وطبيعياً أن أكون هكذا بليداً كسولاً.. وأنا أدين إلى هذه البلادة بكل أفكاري التي تدعو إلى العمل والحيوية والثورة!

ويقول العالم العظيم باستور (١٨٢٢ ـ ١٨٩٥):.. لا أعرف بالضبط ما الذي أصاب «دودة القز» فتوقفت عن إفراز خيوط الحرير.. لا بد أن يكون هناك سبب ما.. أتيت بدودة ووضعتها أمامي.. وجدتها عليلة عاجزة.. أدهشني ذلك.. ولم أكن أعرف أن ملايين الديدان كذلك.. وجربت مادة كنت مشغولاً بتركيبها فوضعتها على ورقة توت.. وأعطيتها لهذه الدودة.. وانشغلت عنها وفي الصباح وجدتها قد نشطت وأفرزت حريراً.. ورويت ما حدث لأحد الأصدقاء. فصرخ وقال: إنك أعدت إلى فرنسا ملايين

الفرنكات وفي هذه اللحظة!

ولم يكن باستور يعرف أن وباء قد اجتاح دودة القز..

○ وهذه هي الإجابة عن النصيحة الثامنة والأخيرة: لا تقصد أن تفعل شيئاً عظيماً، سوف تقفز العظمة من بين أصابعك دون أن تدري!

الذين معهم رخصة لحمل سلاح ينطلق في الاتجاه الغلط!

في باب الحوادث في إحدى الصحف الالمانية أن شاباً من أندونيسيا حاول الانتحار وكذلك عروسه. ولكنهم أنقذوه في آخر لحظة. والخبر كما ترى ليس هاماً، فمئات الألوف ينجحون كل سنة في أن يقتلوا أنفسهم. ولكن إذا عرفنا أن سبب الانتحار هو أن مؤتمر القمة بين أمريكا وروسيا لم ينجح، كان للخبر معنى مختلف. وإذا عرفنا أن هذا الشاب غني وكذلك عروسه زادت دهشتنا. وتساءلنا: وما علاقته بنجاح أو فشل ريجان وجورباتشوف؟

وعندما تنزل عصا على دماغ واحد أسود في جنوب إفريقيا، يضرب عن الطعام طلبة في السوربون.. ويقتلع القضبان الحديدية عمال في بولندا.. ويجدها ألوف الشبان في أمريكا مناسبة لتناول المزيد من المخدرات احتجاجاً على الإدارة!

والقصة النموذجية لهذا المعنى هي قصة الأديب النمساوي أرتور اشنتسلر الذي روى لنا أن جماعة كانوا يتسلقون جبلاً.. وكانوا يجدون فراشة صغيرة أمامهم..

وكلما ادركوها طردوها ليعرفوا إن كانت قادرة على الحياة في القمم الباردة. . وانطلقت الفراشة وحدها ودخلت نافذة القصر الملكي، ووقفت على أنف طفل رضيع ففزع الطفل ومات. . هذا الطفل هو الوارث الوحيد لعرش هذه الدولة. وترتب على وفاته تغيير تام في سياق التتابع نحو العرش ـ إنها فراشة قد طردها شبان وطاردوها، فغيرت التاريخ!

فما أكثر الفراشات والحشرات التي غيرت وجه التاريخ كله ـ الأوبئة في أوروبا أكلت ملايين الناس والسبب هو الحشرات والحيوانات التي تنقل الميكروبات!

نصف الكرة الأرضية من الأطفال والشباب ـ وهم أكثر الناس حساسية وطموحاً وحيوية وتمرداً على الأجيال السابقة، وأشدهم رغبة في أن يتسلموا الحكم ليديروا الكرة الأرضية أهدأ وأجمل.

ولكن الأحداث منذ بداية هذا القرن لم تمنح أحداً الهدوء والثقة بالنفس أو بالغير. فإذا اضطربت أيدينا على القيادة، فلأن الأرض تحت أقدامنا لم تسكن، والهواء حولنا قد تلوث، والرؤية غير واضحة. . ولذلك انتقلنا من تعب إلى عذاب ومن عذاب إلى أزمة ومن أزمة إلى حرب، ووقف إطلاق النار وإطلاق النار في كل الاتجاهات باسم الصليب والهلال والمطرقة. وتعددت وتبدلت الأسماء ولكن

من المؤكد أن أناساً يقتلون أناساً، ويصدمون شباباً ويحيرون أطفالاً.

فمنذ بداية القرن اجتازت الإنسانية ثماني مراحل:

١ ـ الهدوء الذي يسبق العاصفة (١٩٠٠ ـ ١٩١٣).

٢ ـ والعاصفة التي لا معنى لها حين أشعلت الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ ـ ١٩١٨).

٣ ـ والسلام المستعار (١٩١٩ ـ ١٩٣٢).

٤ ـ وكل الطرق التي تؤدي إلى الحرب مرة ثانية (١٩٣٣ ـ ١٩٣٩).

٥ ـ العالم كله يحارب (١٩٤٠ ـ ١٩٤٥).

٦ ـ البحث عن الاستقرار (١٩٤٦ ـ ١٩٦٢).

٧ ـ أكثر عشر سنوات مضطربة في التاريخ (١٩٦٣ ـ ١٩٧٣).

أما المرحلة الحالية والثامنة فهي سنوات القلق (١٩٧٤ ـ . . .).

وكل هذه المراحل تهز وتهد وتشد الناس من رموش عيونهم وتحرق أعصابهم وتلوي قرارهم.. والنتيجة إن لم

تكن تعرفها بوضوح فاجلس إلى أي شاب واسأله عن المواصلات والشقة والخلاص والهجرة.

وفي سنة ١٩٧٦، وهي السنة التي صدرت فيها مجلة أكتوبر أي بعد مائة عام من صدور جريدة «الأهرام» ماذا حدث عالمياً ولا بد أن يكون له أثر محلي ونفسي واجتماعي:

ففي هذه السنة مات ماوتسي تونج وشوان لاي وسقطت رئيسة الأرجنتين إيزابيلا بيرون الزوجة الثانية للرئيس الأرجنتيني.

وحاكم الرئيس نميري ألوف المواطنين وأعدم وقتل وسجن لتآمرهم على قلب الأوضاع الفاسدة، بتشجيع من روسيا وليبيا.

وبعد عشرين عاماً من الحروب وهزيمة أمريكا العسكرية، اتحد شمال وجنوب فيتنام.

ولأول مرة في تاريخ الحكم الاشتراكي في السويد يتجه الشعب إلى انتخاب أحزاب اليمين.

وبلغ عدد المتظاهرين من طلبة جنوب إفريقيا عشرين ألفاً ضد حكومة التفرقة العنصرية وقتلت الحكومة مائتين وسجنت ألفين.

وفي مصر ألغيت معاهدة الصداقة السوفيتية ووقعنا بروتوكولاً عسكرياً مع الصين، ورفعت أمريكا الحظر عن بيع السلاح لمصر.

وأعلن لبنان وقف إطلاق النار للمرة الرابعة والعشرين.

وسقط زعيم الأحرار في بريطانيا جيرمي ثورب بتهمة الشذوذ الجنسي ـ وكان من ألمع السياسيين وأكثرهم ثقافة.

ودول عدم الانحياز (٨٥ دولة) طالبت بحظر بيع البترول لفرنسا وإسرائيل، لبيعهما أسلحة لجنوب إفريقيا.

أما لجان الكونجرس الأمريكي فاتهمت شاه إيران بأنه يبدد أموال الشعب ـ اشترى أسلحة بعشرين ألف مليون دولار.. يكدسها ولا يعرف كيف يستخدمها. ولكنه أصر على الشراء وإلا فقدت أمريكا أكبر صديق لها في الشرق الأوسط.

وكانت نجمة الدورة الأولمبية فتاة رومانية (١٤ سنة) اسمها نادية كومانيتشي احرزت كل الدرجات في الجمباز.

استخدمت روسيا لأول مرة أكبر مرصد فوق جبل بوستوخوف.. قطر العدسة ٢٣٧ بوصة، وذلك لارتياد الفضاء الخارجي.

أما سفن الفضاء الأمريكية فقد بعثت صوراً من كوكب المريخ وانتهت خرافة أن على المريخ حياة من أي نوع .

طالب اثنان من الأطباء الأمريكان بضرورة تشجيع الرجال على البكاء ـ وقالا إن مشكلة زعماء العالم الذين خربوا الدنيا أنهم لم يعرفوا البكاء وهم أطفال : لينين وستالين وموسوليني وهتلر وديافليسرا وعيدي أمين وبوكاسا . ولو عرفوا البكاء لكانت أعصابهم أهدأ وأحقادهم على البشرية أخف . . ولكن مفهوم الرجولة الخاطىء هو الذي جرد الطفل والشاب من حقه في أن يبكي . وتركوا البكاء للمرأة الأهدأ والأصح والأطول عمراً والأبعد عن إدارة العلاقات الإنسانية والكوارث والحروب !

والناس الذين هم في منتصف العمر قد عايشوا أو تعذبوا بهذه الفترات الأليمة من القرن العشرين . .

والأصغر سناً عرفوا ثلاث مراحل منها على الأقل ـ وهي من أتعس سنوات العمر . ولذلك فهم معذورون تماماً بضيقهم بأنفسهم ودنياهم . .

واختلفت وسائل التعبير عن هذا العناء النفسي من قارة إلى قارة . .

ففي الستينات وجدنا الشباب في بريطانيا تنفرج أزمته النفسية بالرقص والموسيقى ويلتف حول الخنافس ـ موسيقى

جديدة وغناء أكثر أملاً . . ثم أنها حركة استقلالية عن الاستعمار الأمريكي للرقص والغناء في العالم . . وفي الوقت نفسه ظهرت موضة «الميني جيب» وهي أيضاً حركة استقلالية عن الاستعمار الفرنسي للأناقة والشياكة . .

وفي الأدب ظهر «الأدباء الساخطون» في الرواية والمسرح . .

ثم ظهر الاحتجاج بدون أدب ولا فن: شباب الهيبي أو الصخور المتحركة . . إنهم يطيلون شعورهم ولحاهم وأظافرهم ويعيشون بعيداً عن المدن أو ينامون في الحدائق . . لا يتعرضون لأحد بأذى . . ساخطون لأنهم تعبوا من السلطة السياسية والدينية . . ويحتجون على ذلك . .

وظهرت في أوروبا وأمريكا وآسيا أشكال وألوان لهذا الاحتجاج الصامت السلبي . . ولم يفكروا في هدم الكنائس . ومراكز الأحزاب والجامعات، ولكن امتنعوا عن الذهاب . . وأغلقوا عليهم الأبواب وعكفوا على المخدرات والجنس . . أي حذفوا أنفسهم من كشف الأحياء . ومسحوا أرقام بطاقاتهم الشخصية . . وأعلنوا وفاتهم حتى لا تحشدهم الدولة في جيوش خارج الحدود تحارب بلا قضية!

وفجأة انفتحت فجوة واسعة بين الأجيال . .

جيل الأب وجيل الأبناء . .

وهذه هي الفجوة البيولوجية ـ أي الفجوة القائمة على الفارق في السن. . أي على التتابع الزمني فقط وإن كان من الممكن أن يتعايش الأب والابن في كل القضايا السياسية والاقتصادية ولا يختلفان.

أما الجيل الثقافي أي الاجتماعي السياسي، فهو الذي يضم مجموعة من الناس يتفقون في الرأي والرؤية أو في انعدام الرؤية واضطراب الرأي. .

وتقع بعض الأحداث من حين إلى حين تؤدي إلى توحيد الرأي والرؤية. وهذه الأحداث لا بد أن تكون جادة لها مذاق الأزمة وطعم المأساة. كإضراب الطلبة في جامعات فرنسا. . أو كثورة الشباب على حكومة جنوب إفريقيا. . أو كالنكسة العسكرية في مصر. .

وهذا هو «جيل الأزمة» ـ أي هذه النوعية من الشباب الذي وحدتهم أزمة. مثل أزمة «التضامن» في بولندا بين العمال الشيوعيين والعمال المسيحيين ـ كلهم ضد الحكومة العسكرية.

وقد اختار أسلوب التعبير عن الأزمات وخيبة الأمل في النظام والإدارة في أمريكا وبريطانيا: مجالات الفن والرقص والأدب والهروب من الخدمة العسكرية. . وتعاطي المخدرات. .

ولكن في الشرق العربي الذي عصفت به الحروب ووقف إطلاق النار والأزمات الاقتصادية والضباب الفكري وبرج بابل الذي ينفتح في مراكز الأحزاب السياسية، اتخذ غضب الشباب سبيلاً دينياً. . ووضع نصف الشعب في كل البلاد العربية الإسلامية مشاكل الدنيا كلها تحت المسوح الدينية. . أي أن سبب كل هذه المشاكل هو نقص الإيمان، وعلاج هذه المشاكل هو الإيمان نفسه ـ نوع خاص من الإيمان يختلف عن الإيمان النظامي ـ الإيمان الذي تفرضه وتحميه النظم القائمة. . أو المؤسسات الرسمية: الإذاعة والتليفزيون والمجلات والصحف والكتب المدرسية. .

وفي معارضة التربص الديني أو تحفز الشباب لغرض مفهوم ديني، نشطت كل أجهزة الدولة. . ولكن رجال الدين أسقطوا الشاه في إيران. . واغتالوا السادات. . وتاريخ الحلول الدينية بالقوة، هو كل تاريخ البشرية. . فكل الحروب لها طعم ديني ابتداء من قابيل الذي قتل أخاه هابيل لأن الله تقبل القربان الذي قدمه هابيل ـ في رأي التوراة!

نحن أولاد قابيل الفلاح القاتل. وأولاد هابيل الراعي الشهيد!

ومن أجل تحقيق الأمن والاستقرار ضد هؤلاء الشبان المتمردين في العالم، كان السخط عليهم جاهزاً لدينا.

وكـان الـرفض لمـطالبهم ومـواقفهم وآمـالهم، هـو السـلاح الوحيد الذي نستخدمه.

ونسينـا أننـا كنـا شبـابـاً مثلهم منـدفعين متهـورين وبـلا مسؤولـية. ولـو عدنـا إلى شبابنـا فلن نفعـل إلا الـذي فعلوه. وسوف نسمع بأذن واحدة لما يقولـه الأب، وننظر بعين واحـدة لمـا تقـولـه الأم. ونـديـر ظهـورنـا لكـل مـدرس وشيـخ وعسكـري.. إيمانـاً منا بـأنه لا ثقـة في أي إنسان قـد تجاوز الثـلاثين، وإنـه لا عـلاج إلا بـالقضـاء على الأجيـال التي سبقتنـا.. وإلا بالهجـرة من البلاد، فـلا حياة لنـا في بيت لا يحترمنا ولا نحترمه، وبين شعب نشعر فيه بالغربة..

وكـان الفيلسوف العـظيم أفلاطـون هو أول من قـال: إن بـداية التمـرد عنـد الشبـاب هي عنـدمـا يجـد أمـه وأبـاه يتشاجران. ويجد أمه سليـطة اللسان. ويجـد أباه متسـامحاً. هنا يفقد احترامه لأبيه.

ويقول أفلاطون أيضاً: وعندما تقـول الأم لابنها، أريـدك خيـراً من أبيـك.. فـأبـوك نمـوذج لنقص المـال وضعف الرجولة، وخيبة الأمل، هنا يفقـد الابن احترامـه لأمه أيضـاً. ولن يطيق النظر إليهما.. والحياة معهما. فقد انهـارت المثل العليا والقيم والقوة والحكمة.

ويحـاول الشـاب أن يبحث عن البـديـل عنهمـا بين الصديقات والأصدقاء.

وتتوالى حلقات الفشل. .

والفيلسوف العظيم أرسطو هو الذي قال: إن الشباب لأنهم مثاليون يريدون الحق والعدل والخير، فهم يثورون لذلك. . ولا تهمهم الفلوس.

إذن فهو الدين وليس الاقتصاد يحرك الشباب. ولذلك كانوا أكثر نبلاً من آبائهم. . وفي العدد الأول من هذه المجلة ـ طال عمرها ونجاحها المتواصل ـ كتبت عن أزمة الشباب وشباب الأزمة. وعن الذي نتهم والذي نحكم له بالبراءة. لا أحد بريء. فنحن شركاء فيما حدث، بالفعل، أو بالامتناع عن الفعل، أو بالسكوت عن ذلك.

وأهم ما يجب علينا هو: أن نفهم الشباب بالاقتراب والحوار، ومزيد من الحوار، فلا هم على خطأ تماماً، ولا نحن على صواب دائم، فهناك قدر معقول ومقبول من الخطأ.

وإذا كان الشبان يتهمون الأكبر سناً بالطغيان: أي بفرض الرأي بالقوة، فهم يحاولون ذلك أيضاً: وإذا كان الشبان لا يحترمون رأي الأكبر سناً، فكذلك الأكبر سناً لا يحترم أوهام الشباب وأحلامه العاصفة.

وليس أفضل من أن أنقل نصيحة عميد المؤرخين في العصر الحديث: أرنولد توينبي من كتابه «البقاء» ـ وهو

مجموعة محاورات في اليابان مع أحد الشبان المثقفين.

إنه ينصح الشبان بأن يظلوا شباباً. وأن يعبروا عن جيلهم. ولا يفقدوا حيويتهم ويبددوا طاقاتهم في اللهو واللعب. فالدور التاريخي ثقيل. والإنجاز صعب. ولقد ماتت شعوب كثيرة عندما فرضت الشيخوخة على شبابها، وعندما ارتضى الشباب ذلك.

وأن يعرفوا الرحمة. . كما أنهم يطلبون الرحمة من الأبوين ومن السلطة والإدارة.

فإنهم أيضاً يجب أن يكونوا رحماء في مواجهة هذه المؤسسات التي اكتسبت القوة من تجاربها وما قدمت من أعمال جليلة للشعوب.

وإذا كان الشباب يطلبون من السلطة أن تتفاهم معهم، وأن تعطيهم مكاناً على مقاعدة الإدارة، فلماذا يرفضون الإدارة كلها ويطالبون بطرد وإعدام الذين هم أكبر سناً. يجب أن يعرفوا التسامح مع الغير، ليتسامح الغير معهم.

ويضرب أرنولد توينبي مثلاً بالزعيم الهندي غاندي. . إنه استطاع أن يطرد الاحتلال البريطاني من الهند. لم يستخدم العنف ولا التعصب ولا ملأ قلوب الناس بالكراهية. . ولكن بهدوء. . فهو بدلاً من أن يهدم بيتاً من البيوت يمنع عنه الماء والطعام والخدم. . وبدلاً من أن

يشتري الملح الذي كانت تحتكره بريطانيا، يصنع لنفسه ملحاً. وبدلاً من أن يشتري الأقمشة الانجليزية، يجعل لكل مواطن مغزلاً في بيته.. وفي إحدى المرات لاحظ غاندي أن أتباعه قد ارتفعت نبرتهم في الكلام وامتلأت أيديهم بالسلاح يريدون الانتقام من الانجليز. فأغضبه ذلك. وأضرب عن الطعام. فقد أحس أن أتباعه قد خانوه وتمردوا على طاعته.. وقال عبارته المشهورة: ليس بالحقد يموت العدو، بل نموت به نحن!!

لقد طلب من أتباعه أن يكون إيمانهم عميقاً بقضيتهم، وأن يكون إيمانهم أعمق بالمقاومة السلبية بلا عنف.. بلا دم.. بلا غضب!

وآخر ما يطلبه توينبي من شباب العالم هو: النظام.. أي احترام القانون. وكان النظام موجوداً في كل العصور. ولم تنجح كل محاولات فرض الفوضى على الشعوب.. فمن طبيعة العقل أن يفرز القانون. فهو غير قادر على أن يعبر أو يفهم إلا ما كان مضبوطاً منطقياً. ويذكر توينبي حادثين في التاريخ عرفت الشعوب فيهما الفوضى: جزيرة ايسلاند بعد أن استولت عليها النرويج، ظلت في حالة من الفوضى مائتي سنة! ومنطقة في شمال غربي باكستان، عرفت الفوضى خمسين عاماً، حتى جاءها رجل فرض عليها النظام بالحديد والنار والدم فكانت أكثر هدوءاً وإنتاجاً.

ويقول توينبي: حتى هذه الأوضاع التي لا تعجب الشباب وقد وصلت إلى ما هي عليه بالنظام. . وإذا أراد الشباب أن يجعلوها أفضل فبالنظام أيضاً. . وليس بالفوضى!

وفي إحدى محاضرات فيلسوف الشباب الالماني الأصل هربرت مركوزة في برلين سأله واحد من الطلبة: إننا لم نستفد شيئاً مما تقوله لنا. . لا قلت لنا ماذا ولا كيف ولا متى نضرب ضربتنا ونخلص الإنسانية من هذه الشرور؟.

وضحك الفيلسوف الأمريكي مركوزة قائلاً: كيف تريدني أن أتقدم إليك بخطة، وأنا أعلم أنك ترفضها مقدماً. . ثم كيف أدلك على طريقة للتخلص مني ومن جيلي الأكثر علماً وتجربة. . ألا ترى أن موقفك ساذج: تريدني أن أفكر لك في قتلي. . وأنت لا تفكر في شيء مطلقاً؟!

ثم سكت مركوزة والتفت إلى ألوف الطلبة يقول لهم: وهذا عيب جديد. . فأنتم تنتظرون أن نقتل لكم أنفسنا، بينما نحن الذين نعرف حقدكم علينا لم نتوقف عن التفكير والعمل والدفاع عن أنفسنا، ثم توفير طعامكم وشرابكم وحريتكم.

وأحزنه جداً أن صاحب هذا السؤال قد أطلق على نفسه الرصاص.

ومط الفيلسوف شفتيه وهز كتفيه وجمع أوراقه حزيناً قائلاً: حتى عندما تطلقون الرصاص تخطئون الهدف.. لقد أعطيناكم رخصة لحمل السلاح.. ولكنكم لم تتعلموا كيف وعلى من تطلقون الرصاص!

ولماذا السلاح؟

ولماذا الخلاص بالرصاص؟!

أين الحوار الذي ينشده الشباب.. وأين التسامح.. وأين القانون والأصول والقواعد التي هي مفردات العلم الحديث يا أبناء العصر الحديث!

وأحسن ما قيل هو الذي أعلنه الأديب الأمريكي إيلي ويسل الفائز بجائزة نوبل للسلام: يجب أن نعطي الشباب سلاحاً.. والسلاح هو الكلمات.. الحب.. والاحترام والتفاهم، حتى يكون السلام بين الشعوب.. بين الطبقات.. بين الأجيال.. فلا يكون حقد.. ولا يؤدي الحقد إلى التعصب، والتعصب إلى الاحتقار المتبادل.. إلى التعالي.. إلى التنافر.. إلى الحرب.. إلى الرغبة في الانتقام إلى مالا نهاية!

إذا كان هؤلاء هم . .
الدكاترة . .
فما اسم هذا الدواء؟!

هذه الحكاية يرويها الفيلسوف العظيم أفلاطون: هبطت الأرواح من السماء، ليدخل كل منها جسماً إنسانياً، ومن هذا الجسم تعاود الروح نشاطها . . فأرواح الشعراء جعلتهم ينظمون، وأرواح الموسيقيين جعلتهم يغنون ويرقصون. وفجأة هبطت روح عوليس بطل الالياذة، فلم تجد جسماً مناسباً. وغضب وقرر العودة إلى السماء. ولكن صوتاً قال له قف عندك . . بل أنت الوحيد الذي نحتاج إليه . . ففي استطاعتك أن تدخل أي جسم . . وأي عدد من الأجسام. فالذي نحتاج إليه هو الإنسان العادي، الذي يؤدي أعمالاً عادية . . والذي هو بالملايين!

ونحن في عصر الإنسان العادي . . رجل الشارع . . الأغلبية الصامتة . . والشعوب التي تؤمن بالمعجزة تنتظرها، وتوقف حياتها وتفكيرها وتطورها انتظاراً لهذه المعجزة.

والشعوب التي تؤمن بأنها هي المعجزة، فإنها تعمل من أجل أن تكون قوة. وأن تكون هذه القوة واعية. وأن تكون مبدعة. وهي لا تتوقع أن تهبط عليها المعجزة من

السماء، وإنما أن تتولد بين أصابعها، كما تتولد الطاقة من مساقط المياه، أو اندفاع الرياح، أو امتصاص أشعة الشمس.

وأسهل على الشعوب أن تنتظر، وأصعب أن تحقق هي المعجزة.. إنهم في جبال سوريا يضعون حماراً ليكون جاهزاً عندما يهبط المهدي المنتظر.. وقد مات مئات الحمير ولم يجيء الذي يهدي الناس. ولذلك فقد كدس الناس كل همومهم وشرور الإنسانية حتى يجيء الهادي المهدي إلى سواء السبيل!

والشعوب التي تحتاج إلى معجزات قد أعدت لذلك عدداً هائلاً من الحمير ـ لأن ضعفها وتفككها وفسادها يحتاج إلى ألوف من ذلك المصلح المعجزة!

وفي مواجهة الواقع المعقد، وتحت ضغط الضعف واللامبالاة، يؤمن الناس بالمعجزة ـ أي بشيء خارق لقواعد الطبيعة والمنطق يظهر فجأة ويصلح الكون من أوله لآخره، دون تدخل من الإنسان.

استغفر الله العظيم، فقد انتهى زمن المعجزات ـ فلا نبي بعد الرسول عليه الصلاة والسلام.

والذين يؤمنون بهذه المعجزة كافرون دون أن يدروا.. ولكنهم يفضلون أن يتهموا بالكفر، على أن يتهموا بالبلادة

والكسل عن عمل شيء من أجل إصلاح الواقع في حياتهم الخاصة والعامة.

ولكن ما الذي يجعل الإنسان لا يساهم بشيء، أو لا يبالي أو هو يعادي المجتمع ويغضب عليه، أو يهرب منه؟

لا بد أن يكون السبب هو إحساسه بالعجز أمامه. بالعجز عن فهم الواقع. ولذلك فهو لا يدري بالضبط ما الذي يمكن عمله. وهل هو وحده الذي يجب أن يعمل بينما يتفرج الآخرون.. وهل يستطيع واحد أن ينقذ الملايين.. هل يستطيع الذي يلقي بملعقة سكر في البحر الأحمر، أن يغير مذاقه، حتى لو فعل ذلك مليون مرة.

فما الذي يجعل أكثر الناس لا يعملون؟

لا بد أنه شعور باليأس. أي بعجزهم عن إصلاح الخلل الاجتماعي والبلبلة السياسية والفوضى التربوية والهذيان الفني والضياع العربي.

وهذا الشعور باليأس سببه: أنهم حاولوا وفشلوا، أو أنهم اعترفوا بالفشل دون محاولة، لأنه لا جدوى من المحاولة. لماذا؟ لأنهم لا يفهمون. لا يفهمون ماذا؟ لا يفهمون ما هذا الذي أصاب مصر وأصاب العالم العربي كله. فأنت لا تعرف بالضبط ما هذا الذي نشكو منه في مصر. إننا نشكو أنفسنا لأنفسنا. ونلومها ونعذبها ونحط من قدرها ونشمت فيها.

فنحن أولاً ننكر هذا الواقع، ونضيق به.

ولـذلـك فنحن إمـــا هـاربــون منـه، أو لا مبــالـون، أو متربصون للعدوان عليه . . قليلون جـداً الذين يـرون أن هناك أملاً. وإن هذا الأمـل ليس في هذا الجيـل. لأن هذا الجيـل الـذي عايش الكـوارث العسكريـة والنكبات السيـاسيـة، قـد تجاوز عمره الافتراضي. وإن الأمل في أجيـال قادمـة. ولكن حتى يحين مـوعـد الأجيـال المقبلة، لا بـد من عمـل شيء، يجعـل مهمتهـا سهلة. فـالأمـانـة تحتم علينـا أن نعمـل حتى ذلك اليوم.

إن الجنرال الفرنسي فـوش عندمـا علم أن أحد الضبـاط يحـاكم جنديـاً بتهمة أن الخـوف أصابـه في أحـد المعـارك، استدعي الضابط والجنـدي معاً وقـال لهما: ليس شجـاعاً من لا يعرف الخوف!

وليس مخلصـاً من لا يعرف الغضب والسخط، والتـطلع إلى ما وراء الغد.

ولكن ما الذي يجعلنا لا نتعامـل مع الـواقع المصـري أو العربي؟

عنـــدمـا لا نجــد «وسيلة» للتفـــاهـم. . والكلمـــات هي الـوسيلة. فإذا فقـدت الكلمـات معنـاهـا. . فقـدنـا الـوسيلة الـوحيدة للتعبيـر ـ أي عبور المعـاني مني إليـك، ومنـك إلى

الآخرين. فالكلمة هي وسيلة المواصلات، فإذا لم نتفق على المعنى الواحد، لم تعد الكلمة وسيلة، وبذلك تسقط الجسور كلها بين الناس. وينعزل الناس.. ويتمزق المجتمع.. ونحن لم نعد نثق بالكلمة تقال أو تكتب.

وهكذا يكون الواقع، وكأنه غير موجود.. وكل ما تقول هو ضوضاء.. وكل ما تقرأه هو بقع سوداء أو نكش فراخ.. فلم تعد اللغة واحدة، ولا معاني الكلمات واحدة.. ولذلك كان من الطبيعي أن يتشرذم الناس حول لغة خاصة.. أو منطق مختلف. لأنهم رفضوا المنطق العام. وكفروا بالنظريات الرسمية.

وفي ضباب المدن الأوروبية تجد المشاة والسيارات تطلق أصواتاً وأضواء حتى لا يصطدم بها أحد.. أي كل صاحب صوت وصاحب ضوء يقول: أنا هنا.. احترس أن تصطدم.

أي أنه يؤكد ذاته في مواجهة الضياع واللامعنى واللاهدف.

وهذا ما يحدث في بلادنا وعالمنا العربي. فالأصوات المختلفة تؤكد أنها موجودة. وأنه أفضل أن يكون الإنسان موجوداً «محدوداً»، من ألا يكون له وجود.. وأن يكون بارزاً، ليتميز عن الآخرين.. ولذلك طالت اللحى.. وظهرت أزياء الرهبان.. والمعنى: أن هناك أناساً لهم رأي

ولهم صوتٌ ولهم ملامح واضحة ـ وأنهم لذلك مختلفون عن الذين لا لون ولا صوت لهم.

وفي التاريخ الإسلامي والإغريقي قصتان لهما معنى واحد.. يقال أن الإمام الشافعي كان يلقي درساً في أحد المساجد، وقد التف الناس حوله يتساءلون وكان يجيب. كلهم سألوه إلا واحد. قد تهيبه الإمام الشافعي فلم يمد رجله التي انثنت تحته. وفجأة سأله هذا الشخص سؤالاً سخيفاً. فقال الشافعي: الآن يستطيع الشافعي أن يمد رجله!

فقد عرف الرجل عندما تكلم! وسقراط قد وجد واحداً من حواريه لا يسأل.

فقال له: تكلم حتى أراك، وكل هذه الصيحات الدينية والسياسية في مصر والعالم العربي، إنما هم أناس يتكلمون حتى نراهم.. وحتى نعرفهم.. لأنهم رفضوا أن يموتوا ضباباً وسط الضباب. وإذا كانت الفنون مرآة للواقع. فما هذا الواقع الذي يصوره المسرح المصري والأغاني المصرية.. إذا كانت المسارح نوعاً من الهذيان يتخلله الهجوم علي السلطة، ويكون الهجوم على السلطة دليلاً على حرية الرأي، ولكن ما دلالة الهذيان؟. وما دلالة الأفلام التي تدور كلها في غرز الحشيش.. ويكون الكلام هلوسة

أيضـاً. معناه: السخـرية من الـواقع، والسخـرية من المنطق، والاستخفاف بإمكان الإصلاح.

أي أن نقـد الـدولـة، هـو نـوع من الاستـدراك، يـريـد المؤلف أن يقـول أنـه نسي أن يجعـل للمسـرحيـة أو الفيلم معنى إيجابياً فشتم أجهزة الدولـة التي تطالبـه بذلـك. ومعناه أيضـاً: الهـروب من مـواجهـة الـواقـع واليـأس من إمكـان الاتصـال به والتعـامل معـه.. ولذلـك ركب المؤلف والممثل والمتفـرج سحابـة زرقاء هي بسـاط الريـح الأسـطوري ـ لأن الواقع أيضاً أصبح أسطورة.. خرافة ولا وجود لها!

ومن حين إلى حين تـظهر أغنيـة فيهـا الكثيـر من الفـزع على مصـر وأرض مصـر وشعب مصـر. وتنـدهش لهـذه المعـاني. فما الـذي أصاب مصـر وما الـذي سوف يصيبهـا؟ وهـل ضاعت أرضهـا وسمـاؤهـا.. أم أن مؤلف الأغنيـة هـو الآخر حشاش نـام ورأى في نومـه أن مصر ابتلعتهـا الأرض، ولمـا صحا وجـدهـا على مـا هي عليـه.. ولكن الملحن قـد لحن الأغنية وهو نائم أيضاً.. فالأغاني هي نـوع من تخريف النائمين الذين لا يـريدون أن يفيقـوا، حتى لا يغيروا كلمـات الأغنية!

وتندهش لشيء آخر: إننـا لا نذكـر مصر أو لا نتـذكرهـا إلا عنـدما نلعب كـرة القـدم. فـإذا انتصـرنـا: فـالمصـريـون «اهمه».. وإذا انكسرنا فعين قد أصابتنا ـ خرافة أخرى!

وهذا الذي تسميه في مصر: التطرف الديني والسياسي ما هو؟

فالتطرف معناه أن تعتنق وجهة نظر، وأن ترى أنها وحدها الصحيحة وكل ما عداها خطأ، وإنك وحدك الذي يجب أن تفرض هذه النظرية على الناس بالقوة. فإذا لم تستطع فالمجتمع كله كافر بك، ولذلك يجب أن يلقى ما يستحقه الكفرة؟

والتطرف هو التعصب الشديد. وهو من علامات ضيق الأفق. ومن مظاهر انحلال الشعوب.. فالشعوب التي تحترم كل الآراء وتشجع على تعدد النظريات، هي الشعوب الحرة الناضجة. والشعوب التي تطبق النظرية الواحدة، وتقفل باب الاجتهاد، هي شعوب مصابة بعمى الألوان، وهي شعوب اختارت الذل والهوان ـ أي اختارت الحاكم الطاغية الذي يفرض عليها زياً عقلياً موحداً.

وفي مصر وفي العالم العربي أشكال وألوان من التطرف. وله أسباب. ولكن هذه الأسباب لم يدرسها أي بلد عربي. لأن هذه البلاد العربية ليست لديها شجاعة المواجهة ـ مواجهة النفس ـ وإنما لديها قدرة فريدة على الهروب من النفس. واتهام الآخرين وتبرئة الذات!

لم نسأل أنفسنا إن كان التطرف الديني سببه: العناء

الاقتصادي، والخلل الاجتماعي، والبلبلة السياسية، واليأس من الغد؟.

أو هل التطرف في الشارع هو رد فعل للتطرف الرسمي ـ أي الجرعة الدينية الهائلة من الإذاعة والتليفزيون والصحف والمجلات.

وهل صحيح أن الذي ينقصنا هو تعاليم الدين أو هو الإيمان؟

إنني أؤمن بأن الذي ينقصنا في مصر ليس الأمن والأمان ـ وإنما قبل ذلك ينقصنا: الأمانة!

والأمانة فضيلة أخلاقية. والأخلاق من أهم أركان الدين. لأن الدين وسيلة لتحقيق الأخلاقيات العامة: الأمانة والصدق والشجاعة والتضحية.

فالأمين لا يكذب ولا يسرق ولا يخون ولا ينافق ولا يمكن شراؤه ولا بيعه. هذا هو الذي ينقصنا في مصر: ما الذي يجعل البائع يغش في الميزان؟ ما الذي يجعل الموظف يعوق مسيرة العمل؟ ما الذي يخرق القانون؟ ما الذي يجعلك قادراً على شراء الذمم ـ أنت والذي تشتريه، لست أميناً.

كيف تفسر أن تجد زلطة في علبة فول، وأن تجد

العبوة الدوائية ناقصة . . حاميها حراميها؟ ما الذي يجعل قاضيها قاضياً عليها؟

إنه انعدام الأمانة بين الناس.

ما الذي يجعلك آمناً على نفسك وولدك وبيتك وأرضك - إن هناك أناساً أمناء. وما الذي يجعل أناساً أمناء - إن الأقوياء أمناء أيضاً . . أي أن الذين يملكون القوة حماة للناس، حراس على القيم الأخلاقية.

في التاريخ الحديث يذكرون دائماً ما حدث بين روزفلت وتشرشل في الحرب العالمية الثانية - لقد فوجىء تشرشل بالرئيس الأمريكي يقول له: في التليفون آسف لا بد أن اكتفي بهذا القدر، حتى لا تزيد المكالمة على ثلاث دقائق!

وكان الأمريكان، توفيراً للطاقة والوقت، قد طلبوا من الناس ألا يطيلوا الحديث في التليفون عن ثلاث دقائق!

ويذكرون في التاريخ أيضاً صورة للنفاق المهلك. فعندما حملت ماري انطوانيت زوجة لويس السادس عشر، انتشرت الموضة بين السيدات: فستان الحامل. فكان أصحاب محلات الأزياء يكتبون على الفستان: للحامل في أربعة شهور. . في ستة شهور. . في تسعة شهور!.

مثل هذا النفاق هو الذي أودى بالملكة وزوجها وأشعل

الثورة الفرنسية! . ولكن يبدو أننا في مصر قد انتهينا إلى أن مشاكلنا هي: الرغيف والصرف الصحي! ولذلك كان هذا العدد الهائل من علماء الاقتصاد والتجارة في كل وزارة. ومعنى ذلك أن التطرف الديني: ظاهرة اقتصادية. . وأن الهذيان المسرحي والسينمائي والغنائي أيضاً!

ومع الاهتمام البالغ برجال الاقتصاد، هناك اهتمام مواز لذلك بوزراء الداخلية ـ أي بجهاز الأمن، حرصاً على سلامة البلاد من عناصر «الشغب» أو القلق أو إثارة الطبقات بعضها على بعض.

والتطرف السياسي في مصر: يدل على حرية الرأي، ويدلنا أيضاً على الطريق الذي قد يؤدي إلى إلغاء الحرية أيضاً. . فأحزاب المعارضة حرة في كل ما تقول وتصول وتجول. ولكن ارتفاع النبرة والتجريح الشخصي، إنما هو استعداء للتطرف الرسمي رداً على المعارضة وردعاً لها ـ وهي خسارة على مصر!

وفي مواجهة المباريات اللفظية في الصحف لا يملك المواطن إلا الهرب من أن يكون حكماً بين الطرفين. ولذلك يتجه إلى الصحف والإذاعات الأجنبية. فيعطي أذنه لمن ليس أميناً على مصر ومستقبلها، ما دام المصريون أقسى على بلادهم وأنفسهم من أعدائها!

والضحيـة الـذبيحـة: المـواطن العــادي. . الـذي هــو بالملايين!

أرجـو أن تتخيـل كثيـراً مثلي هـذه الفــزورة: مبـاراة في استاد القاهـرة بين فريقين: أحـدهما أحـد عشر لاعباً والثاني أربعون. وهناك خمسة حكام. ومن حق كـل متفرج أن ينـزل إلى الملعب ويسدد هدفاً يحتسبـه الحكـام وأن في الملعب عشـر كـرات يلعبــون بهــا. . ألا تــرى أن المتفــرجين إذا تسـاءلوا: مـا اسم هذه اللعبـة، إن معهم حق! لمـاذا؟ لأنهم لا يعـرفون قـواعد هـذه اللعبة! وأرجـو أن تتخيل مثـلاً آخر: مريض يلتف حول سريره: عاطف صدقي والشيـخ الشعراوي والكفـراوي وأحمد هيكـل والكابتن لطيف وزكي بدر وهـاشم فؤاد وسيد مكاوي.

وكل واحد من هؤلاء يعلن بأعلى صوتـه: علاجـه عندي وحدي! وكلهم يصرخون في نفس واحد.

ألا تـرى أن المـريض على حق إذا ســد أذنيـه. . أو إذا امتنــع عن ابتـلاع الــدواء. . أو أراح نفسـه بــإلقـائهــا من النافذة. . أو انتحـر بأن استجـاب لمطالب كـل هؤلاء الأطباء معاً؟!

المشكلة ماذا؟

المشكلة: لقـد تعـددت وجهـات النـظر. فلكــل طبيب

تشخيص. وكل واحد مؤمن إيماناً مطلقاً بأنه الوحيد الشافي المعافي!

إن أجدادنا قد سبقونا إلى معرفة الداء ومعرفة الثمن ـ أو التضحية. فاهتدوا إلى إلقاء أجمل الفتيات في حضن النيل لكي يفيض. وفاض. وكانت (عروس النيل) فداء للشعب كله!

واليهود في التوراة اهدوا بنتهم استير للملك اهشوروش الذي لا تحبه ولا تطيقه، انقاذاً لشعبها من الهلاك.

والشعب البولندي ذهب إلى السيدة الجميلة: ماريا فلفسكا وركعوا عند قدميها يطلبون إليها أن تكون عشيقة لنابليون، كما فعلت استير في التوراة، انقاذاً للشعب من انتقام نابليون!

لقد عرفوا الثمن حين اكتشفوا الداء ـ فكانت التضحية!

ولكن ما اسم هذا الداء، وما اسم هذا الدواء، علاجاً لأوجاع مصر الاقتصادية والسياسية والأخلاقية.. وتثبيتاً لإيمان الشباب بأنفسهم وبلادهم ومستقبلهم؟

هذا ما لم يعرفه بعد أحد من هؤلاء الأطباء

ولأننا لم نعرف اسم الداء ولا الدواء، فنحن في حيرة من أمرنا.. من أمر أنفسنا، والناس حولنا، والأصدقاء والأعداء.

فالدنيا تغيرت تماماً بعد السلام بين مصر وإسرائيل، وبعد ظهور الخوميني في إيران.

وفي الشرق الأوسط كان هناك رجلان يتوقعان تغييراً هائلاً في الأرض تحتنا والنظم حولنا: السادات وموشي ديان.

قال لي السادات: إنه سوف يعيش ليرى ذلك.. وقال لي موشي ديان: إنه على يقين من اقتراب ساعة التغيير. ومات الرجلان قبل أن يريا الذي نراه ونخاف منه في العالم العربي: فوضى لبنان وسخافة حرب العراق وإيران.. وفزع دول الخليج.. واستنزاف كل النزاعات لأموال البترول، وخلخلة النظم في كل الدول.. وتوقع الكارثة، الكوارث بين لحظة وأخرى. ودوخة الأغنياء بين معسكرات الفقراء، من يساعدون ضد من ولصالح من وسلامة من.

وفي هذا الطوفان من المخاوف وانتظار ما هو أسوأ يصدق علينا قوله تعالى على لسان نوح عليه السلام: «لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم..»

مرة أخرى إما أن نؤمن بأنفسنا وإما أن نؤمن بالمعجزة تجيء من غيرها.

إما أن ننتظر شيئاً من السماء يهبط علينا، ونترك ما في أيدينا، وإما ألا نترك ما في أيدينا قبل أن نضاعفه ونطوره

ونبني به مستقبل الأيام . . ونكون نحن المعجزة!

ولو كان الأمر مثل «العدس» الذي تحدث عنه الفيلسوف الإغريقي ذيوجانس لهان الأمر كثيراً جداً، لقد وجدوه يشرب عدساً. فقالوا له: لو عرفت ذلك الساحر الجالس عند قمة الجبل، ما أكلت هذا الطعام الحقير.

فقال الفيلسوف: بل لو عرفتم مذاق العدس اللذيذ، ما ترددتم على هذا الساحر!

ولكن أفضل من أن نتعلق بخرافات السحرة والعرافين والنصابين، أن نعرف ما في أيدينا . . ما في قدراتنا . . ما فعلته دول أخرى مثلنا فتقدمتنا طويلاً وعريضاً وعميقاً. إن هذه الدول استطعمت ما تجد، لأنه أضمن من الذي لا تجد.

فالعدس الذي أجده خير ألف مرة من الديك الرومي الذي يعدني به المؤمنون بالسحر والخرافة . . ثم إنني لست على يقين من العثور عليه.

والمعنى: أننا إذا نحن أنكرنا الواقع، أنكرنا . . وإذا اغمضنا عيوننا عنه، أعدمنا.

شرط واحد لكل نجاح ولا ثاني له: الأمانة!

شيء في داخلك: لا تحب أن تعرفه!!

لقد اعتدنا أن نضرب كفاً بكف ونقول: إنها علامات القيامة.. إنها نهاية العالم..

أما الذي جعلنا نتصور أن العالم قارب النهاية فهي الأحداث التي تقع في الدنيا.. وكلها ضد الأخلاق وضد الدين والعادات والتقاليد. أي أن الذي نراه هو قمة الشر ونهاية الأخلاق. وليس بعد النهاية إلا قيام القيامة. فلم يعد في الدنيا خير ولا حب ولا وفاء ولا إخلاص ولا صدق ولا وطنية ولا تضحية. والأدلة على ذلك ألف ألف في كل بيت وكل مدينة.

يبدأ هذا الفساد عندما يفاجأ الآباء بأن أبناءهم لا يذكرون لهم فضلاً. ولا عندهم لأي شيء.. فلا يكاد يدور حوار بين الأب وابنه حتى يجد الابن يقول له: ولماذا جئتم بنا إلى هذه الدنيا.. إذا كانت غلطة، فلا بد أن نعاقبكم على ذلك.. أو ليست غلطتنا على كل حال!

ومثل هذه العلاقة بين الابن وأبيه، علاقة التلميذ

بالمدرس، والشعب بالحاكم. . ولذلك فمهما فعل الأب، فلن يلقى شكراً، ومهما فعل الحاكم، فلا فضل له. . ومهما نصح المدرس فلا أحد يستمع إليه، وإذا استمع فلن يصدقه، وإذا صدقه فلن يطيعه، وإذا أطاعه فخوفاً!

وهناك نوعان من القيامة:

قيامة شخصية وقيامة عامة. أما القيامة الشخصية فهي عندما يموت أي إنسان. فقد انتهت دنياه. . ودفن وحان موعد حسابه. .

وهناك قيامة العالم كله. وقد وصفها القرآن الكريم بقوله: «يوم تضع كل ذات حمل حملها، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى». .

وانتظار قيام القيامة والخوف منها، ومقدماتها وعلاماتها قد امتلأت بها الكتب القديمة. . وفي التوراة والأناجيل أيضاً. . وكانوا يتوقعون أن تقوم القيامة في نهاية كل مائة سنة. . ثم في نهاية كل خمسمائة. . ثم في نهاية كل ألف. . وفي الكتب المقدسة: أسفار النبوءات والرؤى. . والأنبياء يتوقعون كيف تكون القيامة، وما شروطها. . وماذا سوف يحدث للناس قبل وبعد القيامة. . ومن هم الناس الذين سوف يعجلون بها. .

وقد ظهرت نبوءات كثيرة قبل وبعد ميلاد الاسكندر

الأكبر (٣٥٦ ـ ٣٢٣ ق.م) وتوقعت هذه الكتب أن يقوم الإسكندر بحماية الحضارة الأوروبية ضد البرابرة البدائيين، وسوف يقيم سوراً يفصل بين أوروبا وآسيا. بين النور والجهل، والعدل والظلم، والمستقبل المشرق والماضي المظلم.. ورأت هذه الكتب أن الإسكندر الأكبر هو آخر وميض من الهداية السماوية للبشر، وبعد ذلك سوف تقوم القيامة.

وظهرت نصوص في العصور الوسطى تؤكد حرباً بين المسيحيين والمسلمين والمغول. وإن هذه الحرب هي بداية النهاية.. لماذا؟ لأن فساد الشعوب في العالم كله، يجب أن ينتهي مع العالم كله. ولا بد أن يجيء خلق جديد يسكن هذه الأرض التي أفسدها الإنسان بالطمع والجشع..

وظهرت أسطورة «نور الدين» سنة ١١٨٧ الذي تنبأ بظهور أحد الملوك المسيحيين: طويل القامة نحيف سريع الكلمات والطلقات لا يأكل اللحم ولا يتزوج وهو الذي يعيد مدينة القدس إلى الكنيسة..

وأثناء الحرب الصليبية الخامسة (١٢١٧ ـ ١٢٢١) ظهرت «نصوص دمياط» النصوص كانت باللغة العربية ثم ترجمت إلى اللغة اللاتينية.. فبعد أن بلغ الصليبيون دمياط، ظهر هذا الكتاب العجيب الذي يتحدث عن نهاية العالم بعد الانتصار الصليبي العظيم في دمياط وبعد الهزيمة

الفادحة أيضاً. يقول الكتاب: هذه هي آخر فرصة. فأنتم لا تستحقون النصر الذي أعطاكم الله.. وليس بعد الهزيمة إلا العقاب العظيم. استعدوا للموت أيها الخائفون.. استعدوا للتراب أيتها الحشرات التي تدب على التراب.. عودوا إلى الأرض إلى الأبد!

ثم ظهرت نصوص تتنبأ بظهور رجل آخر نحيف طويل لا يأكل اللحم ولا السمك ولا البيض يهدم القدس على من فيها، ويحرق الصلبان في الليالي الباردة!

هذا الرجل هو المسيح الدجال ـ هو عدو المسيح يقوم بتقويض مملكة الرب في الأرض وفي النفوس..

وعندما اكتشف خريتسوف كولمبوس العالم الجديد، وجد رجال الدين في ذلك بركة من السماء وتصديقاً لما ورد في كتب الرؤى والنبوءات في التوراة والإنجيل. وإن الله قد فتح للمسيحيين عالماً جديداً. وإن هذه هي البركة العظمى التي حلت بالعالم وإن الذهب الذي سوف يحمله كولمبوس مثل الذهب الذي استولى عليه الملك سليمان فصنع منه الدروع والسهام من معاركه. وإن المسيحيين سوف يعيدون بناء جبل صهيون من الذهب الخالص، كما وعدت السماء.

وبعد أن عاد كولمبوس من رحلته الرابعة والأخيرة إلى أمريكا (١٥٠٢ ـ ١٥٠٤) اشترك في تأليف كتاب عن النبوءات مع أحد الرهبان. في هذا الكتاب أعاد الاثنان

تفسير النبوءات أو «تفصيلها» على ما قام به كولمبوس في أمريكا. . فرحلاته وما لقي من عذاب قد جاء في الكتب المقدسة. .

بل أن الراهب قد وصف كولمبوس بأنه قديس. وإنه سوف يلقى عذاب القديسين. . وهذا ما حدث.

وانتقلت النبوءات بنهاية العالم من أيدي رجال الدين إلى أيدي رجال العلم. فسوف تكون النهاية ذرية ـ بأن تنفجر قنبلة واحدة، وتنفجر بعدها كل الذرات وينتهي العالم. .

أو بغلطة من الرئيس الأمريكي أو الرئيس السوفيتي، بعدها تبدأ حرب تنتهي بدمار العالم. . أو باقتراب الشمس من الأرض، فتحرقها. .

أو بابتعادها عن الأرض فيغطيها الجليد وتنعدم الحياة. . أو بأن يصطدم نجم شارد فيسحق الأرض والكواكب الأخرى والشمس. .

وقد حدث في التاريخ الديني أن احترقت مدينتا سودوم وعموره ـ أحرقهما الله. ولكن علماء الفضاء يقولون: إن الذي حدث هو انفجار نووي في إحدى سفن الفضاء التي ارتطمت بالأرض. وكانت من نتائج الاصطدام، هذا التجويف الذي نعرفه باسم البحر الميت.

ويقال أيضاً: إنه الطوفان..

وهذا الطوفان كان نتيجة اقتراب أحد الكواكب في مسارها بالقرب من الأرض فسحب المياه إلى أعلى، وأغرقت الأرض ومن عليها..

ومعنى كل ذلك أن الإنسان في خياله، يرى أن له أهمية خاصة على الأرض وفي هذا الكون، وأن الفساد والانحلال الذي يتفشى في الأرض يغضب السماء. ولا بد أن يلقى عقاباً على ذلك.. أما بظهور أناس يعاقبون الإنسان، بعد أن تعبوا في هدايته.. وإما بالقضاء النهائي عليه..

وفي الأديان القديمة: ظهر المسيخ الدجال، وهو شخص يدعي كذباً أنه نبي.. أو أنه جاء ليهدي الناس.. أو يعطيهم آخر فرصة.. ثم يخدعهم ويعجل بنهايتهم..

أو يجيء المهدي المنتظر.. الذي ينتظره الدروز فوق جبال سوريا ولبنان وإيران..

أو المهدي المنتظر أو «الإمام الغائب» عند الشيعة «ليملأ الأرض عدلاً بعد أن امتلأت ظلماً».. وهذا المهدي المنتظر سوف يكون بداية النهاية للعالم. بعده تقوم القيامة!

كل ذلك يراه الإنسان ويتخيله، لأن الناس جميعاً قد فسدوا وانحرفوا عن المبادىء الأخلاقية.. وإن الله أراد بهم

ولهم خيراً، ولكنهم أسرفوا على أنفسهم في الكذب والغش والخداع والملذات، واختاروا الدنيا على الآخرة. فمن العدل أن يلقوا عقابهم. وأن يكون العقاب نهائياً. . أي نهاية للحياة والإنسان على الأرض والأرض أيضاً!

وهذا التفسير الديني، ليس إلا وجهاً هاماً من وجوه هذا الشر الذي نراه في الدنيا. .

ولكن هناك وجوهاً أخرى.

فما الذي نراه في هذه الدنيا؟

الكذب مثلاً. فالإنسان لا يكذب إلا خائفاً. أو من أجل مصلحة أفضل. . إذن هي الأسباب النفسية.

والسرقة مثلاً. لا يسرق الإنسان إلا جائعاً. فأنت لا تطلب من الجائع أن يكون أميناً وألا يكون حاقداً ولا حاسداً ولا جشعاً ولا قاتلاً.

فهي الأسباب الاقتصادية.

وهي مناسبة عظيمة لكي نجمع عدداً من الشعراء والمفكرين الرومانسيين ليبكوا معاً على الإنسان القديم الذي امتلأ قلبه بالحب والحنان والرحمة. . يوم كان الإنسان والكلب يقتسمان اللقمة. أو كان يعطيها للكلب احتراماً له. . أو يوم كان العاشق يبكي عند قدمي المحبوبة دون أمل في أن يراها. وإذا رآها مات ـ لأنه قد حقق كل معنى في الحياة ومبرر وجوده في هذه الدنيا. فما ولد الإنسان إلا

لكي يحب فإذا أحب مات. . والحياة عبادة دائمة: الأب يعبد الله والابن يعبد الأب. . والأرض تقدس السماء. . والنبات يقدس المطر والحيوان يقدس الشجر. والإنسان يشكر الله على ما أعطاه. فالوجود سجود الكل من أجل الكل!

كان ذلك فيما مضى. وجاء من بعد هؤلاء الناس، أناس آخرون ينامون وعيونهم مفتوحة. ويضعون أيديهم، لا على قلوبهم، ولكن على مسدساتهم. . ويعبدون أوثاناً من الذهب. فحياتهم بيع وشراء، هات وخذ. . فكل شيء في دنياهم من أجل الخبز والقبلات.

أو بعبارة أخرى. كل شيء يبدأ ويستمر بالمصلحة. . بالمنفعة.

وأكبر دليل على صدق ذلك أن الناس يكرهون مثل هذه العبارة. لأنها عبارة فاضحة لأعماقهم التي يبذلون جهداً عظيماً في إخفائها والتستر عليها ـ تماماً كما يكره إنسان أن يرى جراحاً يفتح بطن أحد. . فما الذي نراه في أحشاء أحد. هذه التلافيف الهلامية وهذه المخلفات القذرة المتعفنة ـ فمصارين أية جاموسة مثل مصارين أجمل الجميلات. ولكن نحن نفضل أن نرى تدويرة البطن ونحافة الخصر وانسياب القوام ـ وهو الغشاء الخارجي ـ ولا نحب أن نرى ما تحته. . مع أن الذي تحت الجلد هو الحقيقة

الكريهة.. ونحن نكره.. من يصارحنا بهذه الحقيقة، لأننا نعرفها ولا نحب أن نتذكرها!

ولذلك كان فيلسوف السفالة الاجتماعية والسياسية أعظم المفكرين في كل العصور: مكيافيللي!

وقد لا يذكر واحد اسم أي فيلسوف أو أديب أو شاعر في القرون الخمسة الماضية، ولكن مكيافيللي هو أشهر الأسماء التي عاشت في الفكر الإنساني مئات السنين، وتزداد كل يوم لمعاناً وبريقاً ـ مثل لمعان السيوف والخناجر والقنابل والصواعق..

وفي زماننا يفكر الناس تماماً كما قال مكيافيللي. ويمشون على هداه دون أن يعرفوه. لأنه اهتدى إلى أعماق الإنسان. ووجد الإنسان حيواناً كذاباً سافلاً مخادعاً جشعاً.

أو أن الإنسان في كل زمان ومكان هو: أناني جشع انتهازي. وفي هذه الكلمات الثلاث لخص مكيافللي سلوك الحاكم والمحكوم، المتعلم والجاهل، المؤمن والكافر.

فالإنسان لا يفكر إلا في نفسه.. ولا يشبع من الشرب والأكل واللذة والفلوس.

من أجل المصلحة يقتل أباه وأخاه. ويجب ألا نلومه إن فعل ذلك. فلو ارتدينا ملابسه وعشنا في ظروفه، فلن نفعل إلا ما فعله..

ويقول أيضاً: من الممكن أن يبدو عمل بشعاً. ممكن. ولكن المهم ما هي نتيجة هذا العمل البشع. فالإنسان قد يقتل أخاه. وهذه جريمة. ولكن إذا أدى ذلك إلى راحة كل الناس، فليست جريمة. وإنما الجريمة أن تقتل إنساناً بلا فائدة. وفي التاريخ القديم أن رومولوس قد قتل أخاه ريموس، الذي أقام مدينة روما، وفي القتل إدانة له، ولكن النتيجة الباهرة تكريم للقاتل العظيم الذي أنقذ الإنسانية من شرور أخيه!

وهو ينصح كل إنسان أن يفكر مرتين:

هل تفضل أن تكون محبوباً؟

هل تفضل أن تكون مهيباً؟

إن الذي يريد أن يكون محبوباً يجب أن يكون قريباً من الناس. يجب أن يشجع الناس على أن يقتربوا منه أكثر. فإذا اقتربوا منه رأوه صغيراً ورأوه ضعيفاً. فكانوا على استعداد للانقضاض عليه.. ولكنه الذي يفضل أن يكون مخيفاً، هو الذي يبعد عن الناس، هو الذي يجعلهم يحتارون في فهمه وفي نفس الوقت لا يعرفون الطريق إليه..

والناس على استعداد لإيذاء الإنسان المحبوب، أكثر من إيذائهم للإنسان المخيف.

أما الحل عند ميكافيللي فهو أن تتظاهر بأنك تحب الناس، ولكن في نفس الوقت أن تكون على حذر منهم.. وأن تتربص بهم قبل أن يتربصوا بك.. فلا أمان لأحد مع أحد من الناس!

ويجب أن تتظاهر بأنك رجل أخلاق ومبادىء رقيق عاشق ولهان، وأنت كاذب تماماً، فليس أسهل من خداع الناس. ومن الأفضل أن تتظاهر بأنك رجل متدين مؤمن.. لا يفوتك فرض.. فلا يزال الدين ساحراً عظيماً لكل الناس. كل الأقوياء والحكام كاذبون. ومن كذبهم: إنهم جيمعاً يتظاهرون بالإيمان العميق، بل أكثر من ذلك يتظاهرون بأنهم أنبياء أو أنصاف آلهة.. وإنهم يلقون عناية خاصة من السماء.. وإن هذه العناية من أجل الشعب..

وإن كان يرى أن الدين هو الذي فرق بين الناس في كل العصور. وإنه سبب كل الحروب. وإن الكهنة والرهبان هم الذين جعلوا الناس يكرهون الدين. لأنهم كاذبون غشاشون!

ويلتفت مكيافيللي إلى الحاكم وإلى الأب فيرى أن الشعب الجاهل أفضل من الشعب المتعلم ـ وكذلك الأولاد والزوجات الجاهلات. ويضرب لذلك مثلاً: إن النحات إذا أراد أن يصنع تمثالاً، فأسهل له أن يختار قطعة حجر من الجبل، وأن يسويها كما يشاء، على أن يختار تمثالاً قديماً

ويعيد تشكيله.. ولذلك كان سكان الجبال، أبسط من سكان الوديان.. وسكان الريف أيسر من سكان المدن..

ويطلب مكيافيللي من الناس ألا يذهبوا إلى بطون الكتب في تفسير ما يحدث في هذه الدنيا.. فالذي يحدث لك شخصياً يحدث لكل الناس، وكل الدول.

ألا تجد أن الذي يحتاج إلى شيء منك يكون رقيقاً ناعماً خجولاً.. ألا تراه يتردد عليك كثيراً.. ألا تلاحظ أنه يحدثك عن عقلك ومكانك وأناقتك وعن حب الناس لك.. لماذا؟ لأنه يريد منك شيئاً. فإذا حصل على هذا الشيء، اختفى، واختفت أيضاً عينه وأذناه.. فلم يعد يرى لك جمالاً ولم يعد يسمع لك حكمة.. ولا سمع أحداً يتحدث عنك.. بل إنه هو من الممكن أن يلتقي بك، فلا يمد يده.. كأنه لا يراك.. أو كأنه رآك ولا يحب أن يتذكر أنك أعطيته أو أنك ساعدته.. وأسرع الناس إيذاء لك، هو الذي ساعدته أو أعطيته.. فهو يضيق بك، فلم يعد لديه أمل فيك أو عندك.. ويرى في وجودك، شيئاً لا ضرورة ولا معنى.. كأنك حجر في طريقة إلا إذا لمحت من بعيد أنك تستطيع أن تعطيه شيئاً، هنا سوف ترى العجب.. سوف ترى إنساناً جديداً يحدثك عن أعظم مخلوقات الله: الذي هو أنت. أما السبب في هذه الصفات الجنديدة التي خلعها عليك فوراً، فأنت تعرفها!

وهـذا الحـادث الصغيـر نمـوذج لكـل العـلاقـات بين الناس، والمجتمعات والدول . .

فكل الذي بين الناس: مصالح لا أكثر ولا أقل . .

وكل العلاقات والفضائل والرذائـل الإنسانيـة قائمـة على المصلحة . . على المنفعة الشخصيـة . . ونحن نغالط أنفسنـا عنـدمـا نسمي هـذه العـلاقـات بـأسمـاء كثيـرة مثـل: الحب والتضحية والشجاعة والشهامة والوطنية والقوميـة والخير العـام والخير الخاص . . والمحبة والسلام . .

فـالحب ليس إلا تعبيراً مهـذباً عن رغبـة غير مهـذبـة . . فالذي يحبك يريد شيئاً منك . .

والـذي يكرهـك، لأنـه لم يعـد يـريـدك . . أو أنـه أخـذ الذي أراد . .

والغيرة هي الخوف على ضياع المصلحة أو المنفعة . .

والشجاعة هي الوقوف دفاعاً عن المصلحة . .

والتضحية هي ترك القليل من أجل الكثير . .

والندم، أسف على الذي ضاع .

والتوبة: اعتذار عن سوء تقدير المصلحة .

صـورة بشعة . تمـامـاً مثـل أحشـاء إنسـان بـطنـه مفتـوح وينزف دماً وتفوح منه روائح كريهة . . ولكنها الحقيقة!

وليس هذا بطن الناس الآخرين، وإنما هو بطنك أيضاً . .

أرجو أن تستحضر كل هذه المعاني والاجتهادات السابقة وأنت تعيد النظر إلى الواقع الدولي الآن ـ أي واقع كل الشعوب دينياً واجتماعياً واقتصادياً وسياسياً، وهي كلها تضغط على الإنسان. . على الفرد. الأب والأم والابن. . وتهز كل شيء في يديه وفي عينيه وفي أذنيه وخطواته اليوم وغداً . .

ما اسم هذا الذي يحدث في لبنان بين كل الأديان، والطوائف والألوان والمذاهب . .

والذي يحدث في إيران والعراق، بين الفرس والعرب، والمسلمين السنيين والشيعة. . ثم كيف تقف إسرائيل مع سوريا وليبيا وأمريكا مع إيران، وتقف مصر والأردن مع العراق. . وتقف كل دول الخليج حائرة بين العراق وإيران، أو مع الدولتين، وفي نفس الوقت يتمنيان نهاية الحرب بالقضاء على الطرفين. . ولا قضاء على الطرفين إلا بأن تطول الحرب، ولن تطول إلا إذا لقي الطرفان سلاحاً وثمناً لهذا السلاح من دول الخليج .

والحرب بين المسيحيين في إيرلندا، بين البروتستانت والكاثوليك. .

والحرب في أفغانستان مع السوفيت بين المسلمين والملحدين. . ليس هو الدين وحده؟ ولا العنصرية؟ ولا المذهبية؟ ولا هي الفلوس؟ ولا هو الفقر؟

والذين يشعلون النار في لبنان هم تجار السلاح الذين يدفعون كثيراً جداً لشيوخ القبائل اللبنانية عمولة مع بيع السلاح. . ويبعثرون أموال الدول العربية الغنية الخائفة من الدول الفقيرة. .

فهي تجارة وعمولات ـ لا مبدأ ولا دين ولا خلق. . وليس غريباً أن يظهر في كل الساحات تاجر السلاح العربي عدنان خاشقجي فهو الذي باع السلاح الأمريكي إلى إيران على يدي إسرائيل مقابل عمولة طبعاً. فأمريكا أعطت السلاح لإسرائيل لتشحنه إلى إيران. ولكن إسرائيل كانت «تغش» في السلاح، فأعادته إيران إلى إسرائيل. . وعمولة السلاح الأمريكي أودعت في أحد البنوك السويسرية وتم تحويلها إلى المقاومة ضد حكومة نيكاراجوا. . أما الذي قام بتحويل العمولة فهو سلطان بروناي ـ أحد ملوك البترول!

ومرت الأسلحة من زائير إلى إيران. . وفي نفس الوقت باعت بريطانيا أسلحة إلى إيران. . وإلى ليبيا أيضاً!

يمكن أن تتوقف عن القراءة، إذا كانت قد أصابتك

دوخلا فكرية. فالذي حدث أخيراً يحدث كل يوم. ولكن الصحف في بيروت هي التي بادرت بفضيحة ما حدث ـ وقد جاءتها المعلومات من إيران. وانفجرت الصحف الأمريكية تطالب بشنق الرئيس الأمريكي والذي حوله. وسوف ينجو الرئيس، ويسقط الذين حوله.

ولكن لماذا؟

فقط لأن السياسية الأمريكية قد انكشفت. وما دامت قد انكشفت فلا بد من تفسير ما حدث. لماذا؟ حتى لا يبدو الرئيس الأمريكي كذاباً، والشعب الأمريكي غشاشاً. إذ كيف تهاجم أمريكا الإرهاب الدولي، وتعطي هذا السلاح فدية لإيران لكي تفرج عن الرهائن من أيدي الشيعة في بيروت. وهذا هو السبب الحقيقي. أما الأسباب التي يذكرها الرئيس الأمريكي دفاعاً عن نفسه وغيره، فكذب. والشعب الأمريكي لا يضايقه أن يكذب الرئيس ولا أن تكذب الدولة. وإنما يضايقه أن العالم كله قد عرف ذلك. فالسياسة لا علاقة لها بالأخلاق التي كنا نجدها في ظهر الكراريس: لا تكذب.. لا تسرق.. لا تعبد إلهاً آخر غير الله.. إلخ.

وليس من المنطق، طبعاً أن تقطع أمريكا صلتها بإيران.. وتتركها فريسة للسوفيت.. ومن وراء ذلك كل دول الخليج، دول البترول، ولذلك فهي سوف تساعد إيران

بفلوسها! وبفلوس العرب. لا شك في ذلك!

وأمريكا التي ضربت ليبيا لأنها تساند الإرهاب، قد وافقت على أن بريطانيا تبيع لها السلاح؟

وبين الدول الكبرى لا أخلاق.. ولا دين. وإنما مصالح. ففي حرب بريطانيا ضد الأرجنتين، لتسترد جزر فوكلاند، أغرقت الصواريخ الفرنسية الأسطول البريطاني. ولم تحتج بريطانيا على ذلك. فكلتا الدولتين تبيعان السلاح. وليس بين الدولتين تطابق في السياسة وإنما هما يتلاقيان في قضايا. ويختلفان في قضايا أخرى ـ وهما حليفتان رغم ذلك!

أليس غريباً أن نجد أن تاجر السلاح العربي خاشقجي وتاجر السلاح الإسرائيلي غرودي، يحاولان إقناع إسرائيل ببيع السلاح للعراق؟!

وكنت أول من نشر في الصحف العالمية أن خاشقجي هو الذي دبر لقاء شارون والرئيس السابق جعفر نميري في نيروبي من أجل ترحيل الفلاشا (يهود أثيوبيا) عبر الأراضي والأجواء السودانية.

ويوم التقيت بالفريق سوار الذهب في الخرطوم ورويت لقاء نميري وشارون فاندهش الرجل.. وأقسم أنه يسمع ذلك لأول مرة..

ويوم رويت ذلك لصديقي د. علي شمو وزير الثقافة أيام نميري، أقسم هو الآخر أنه لم يسمع عن ذلك.. ولا سمع عن ترحيل الفلاشا عبر السودان.

وامتلأت صحف مصر والعالم العربي والعالم بإعلانات وبيانات لعدنان خاشقجي يؤكد ولاءه للملك فهد وللسعودية وللسياسة العربية المعادية لإسرائيل. وإنه لا شأن له بالسياسة. وإنه لا يمكن أن يرتكب مثل هذه الجريمة!

وارتكبها. ولم تكن جريمة. وإنما هي صفقة لواحد من تجار الحروب والدماء ـ أكبر واحد في العالم كله!

وجاءني الزميل سيد نصار يتوسط بيني وبين المرحومة سميرة خاشقجي التي أرادت أن توضح موقف أخيها.. وإن كانت هي تفضل أن ألتقي به في جنيف فإذا وافقت بعث لي طائرة خاصة. ولديه المستندات التي تؤكد سلامة موقفه.

وموقفه سليم تماماً. فهو تاجر مائة في المائة. ولا يهمه أين يذهب السلاح وأين يستقر الرصاص. كل ما يهمه هو أن تذهب هذه العمولة ـ عمولته ونصيب الزعماء والرؤساء فيها!

ولا عدنان خاشقجي ولا غيره استثناء في قاعدة التجارة والبيع والشراء. وإنما كل التجار كذلك. وكل الرؤساء مثل

ريجان، أو من الواجب أن يكونوا كذلك.. وكل الشعوب مثل أمريكا، إذا اتيحت لها الفرصة..

فكل شيء: بيع وشراء.. هات فلوساً وخذ سلاحاً، هات صفقة وخذ عمولة..

فإذا كان هذا الذي حدث ما زال يدهشك، فأنت رجل أخلاقي ويريحك التفسير الديني لكل ذلك. ويسعدني أن تقوم القيامة.

وإذا لم يضايقك ذلك فأنت إما إنسان واقعي جداً، أو إنسان يائس من الإنسان.. فالسياسة هي: فن السفالة الأنيقة..

ومن السياسة أن تسرف في استخدام كلمات: الإنسانية والخير والحب والسلام والمودة والوفاء.

ومن السياسة أيضاً أن تدعي أنك من المؤمنين بذلك..

وإذا لم تضع صورة مكيافيللي في بيتك أو أمامك، فمن المؤكد أنها في قلبك ـ وحتى تكون مخلصاً في إعجابك بهذا الرجل فأسرف جداً في استخدام كلمة القلب، مع أن الذي تقصده هو المعدة..

وإذا كنت في حاجة إلى كلمة تحتفظ بها لنفسك

وتجاهر بـاحتقارهـا فهي: لا صداقـة دائمة ولا عـدواة دائمة، ولكن مصالح دائمة!

من ٦٨ إلى ٨٦ :
ثلاث نظريات
في التعليم

○ **أنت حر : تعيش . . تموت!**
○ **أنت حر : تعيش . . تعيش أفضل!**
○ **لست حراً : يجب أن تعيش أفضل!**

● في العالم ٢٩٠٠ مليون شاب دون العشرين. من بينهم مليون طالب جامعي في فرنسا.

والشباب أكثر الناس حساسية وأنبلهم غضباً. وأسرعهم حرصاً على التغيير، ودعوة إلى العدل والحق والدفاع عن آمال الآخرين.

ولذلك وصف المؤرخون «فورة» الشباب في سنة ١٩٦٨ بأنها «صحوة مثالية». فلم يكن لشباب الجامعات مطلب خاص. وإنما كانوا يرددون بصوت منطقي وفي حوار فلسفي متاعب العمال والفلاحين في بلادهم.

وقد ظهر أكثر من ٨٥٠ كتاباً عن أحداث ١٩٦٨ ـ إحصائية لليونسكو . .

قال فيلسوف الشباب الأمريكي الألماني الأصل هربرت مركوزة: عندما تخطىء السماوات يقوم الشباب بتصحيح ذلك. وقد جاءت الفرصة فينبغي ألا تضيع!!.

قال الفيلسوف ريمون آرون: بل هذا هو الهذيان الجماعي.. والتخريف المثقف. إنني أفضل مذبحة بين النمور والفيلة واضحة المعالم واضحة الضحايا على هذا الصخب الطلابي، أياً كانت ملابسهم ولغاتهم وعيونهم الزرقاء وشعورهم الشقراء.

قالت الأديبة الوجودية سيمون دي بوفوار: إننا نطالب الشباب بأن يكونوا رجالاً، فلماذا إذا حاولوا ذلك ونجحوا نتهمهم بالوحشية أو بأنهم قردة، بينما ندعوهم أن يكونوا بشراً. إن الذي فعله الطلبة يثبت لنا أمرين: إنهم جادون فيما فعلوا، وإننا نحن الأكبر سناً كاذبون. ولذلك نحن نريد أن نسكت الشباب.. لأن سكوتهم معناه سكوتهم عن فضيحتنا مرتين: مرة أمامهم ومرة أمام أنفسنا!.

الذي حدث في فرنسا في مايو ١٩٦٨ قد حدث أيضاً في كل العواصم الأوروبية والأمريكية والآسيوية. ولأسباب مختلفة.

فبعد أن انتهت الحرب العالمية الثانية ـ أي بعد انهيار آمال الشعوب في زعمائها وجيوشها. وبعد أن انهدمت

الحضارة الإنسانية على رأس الإنسان، وبعد أن أطلت آماله من تحت الأنقاض: مهيضة ذليلة مثله، انتفض الإنسان يثأر لكرامته. ويعوض ما فات. ويفرح بأنه ما يزال حياً ـ مات خمسون مليوناً في أوروبا وحدها، وهو ما يزال حياً. . فجأة امتلأ الإنسان حباً للحياة ولنفسه أيضاً. والتفت الإنسان إلى مباهج الدنيا. واستغرقته الملذات، هرباً من الماضي الأليم والواقع الجديد، وخوفاً متجدداً من المستقبل. ولذلك كان لا بد أن يجيء أناس يحملون العصا ويضربون بشدة حتى ينهض النائمون والغارقون في الملذات ويبنوا أوروبا الحديثة واليابان الشابة وأمريكا العظمى.

وفي ألمانيا تزاحم الشعب الألماني يشاهد مسرحية للأديب الأمريكي ثورنتون وايلدر اسمها «نفدنا بجلدنا» ـ ولكن الألمان جعلوا عنوانها: مكتوب لنا أن نعيش مرة أخرى!.

وكان المعنى واضحاً: إنهم أحياء لم يموتوا في النار أو في الجليد أو تحت الأنقاض!.

وأحست أوروبا أن السلام هو الحياة. وأن الحياة انتصرت. وعلى الرغم من وجود جيوش كثيرة، فإنها في حالة وقف إطلاق النار.

أما الشعور العام عند كل الشباب في ذلك الوقت: فهو الاحتقار للأجيال الأكبر سناً. فهذه الأجيال هي التي أشعلت النار، وفرضت الدمار على الأبرياء ـ وكان الأكبر سناً يتوقعون الامتنان لهم لأنهم الذين وهبوا الحياة لهؤلاء الشبان وهم الذين يرصفون الشارع ويزرعون الحقل ويعيدون بناء المصانع ـ أي أنهم الذين يبنون مستقبل الأجيال الجديدة.

ولكن هؤلاء الشباب الذين انزعجوا وازعجوا السلطات في سنة ١٩٦٨ لم يكونوا حشاشين ولا بلطجية. وإنما هم شباب متعلم. قلقان قرفان من الكلام يسمعه ويقرأه ولا يصدقه.

وكانت آمال الشباب في أوروبا وآسيا وأمريكا واحدة:

أن تكون لهم علاقة سوية بالجنس الآخر.

أن يبني شخصيته مستقلة عن والديه.

وأن يجد له مكاناً محترماً في المجتمع.. ويكفي أن ننظر إلى القضايا التي هزت الشباب في العالم في ذلك الوقت لنعرف أن ثورته كانت من أجل غيره. ولم تكن من أجله هو ـ كما حدث في سنة ١٩٨٦.

ففي جامعات بلجيكا كان غضب الشباب على طغيان اللغة الفرنسية على اللغة الوطنية ـ أي تضخم الفالون على الفلمنج.. وهي قضية شعبية وليست جامعية فقط.

وقد أدت ثورة الشباب إلى سقوط الحكومة وحل البرلمان وتناثر زجاجات مولوتوف في الجامعة وخارجها. . وقد أدت هذه الثورة إلى تحقيق مطالب الشباب!.

وفي أسبانيا طالب الشبان بانتخابات حرة لاتحادات الجامعة. ثم طالبوا بالحريات العامة. واتهموا الصحافة كلها بأنها دكتاتورية ـ أو أنها ظل الدكتاتور فرانكو ـ وأن الصحفيين كلاب ينبحون من يقترب من قصر الرياسة. ولكن الرئيس فرانكو لم يجبهم إلى مطالبهم. لأنه رفض الحريات العامة، فكيف يوافق على الحريات الخاصة.

أما الشعب فلم يساند الشباب. لأن آثار الحرب العالمية لم تختف بعد: فدخانها ما يزال في العيون وانفجاراتها في الآذان، وضحاياها في السجون.

وفي إيطاليا طالب الشباب بأن تكون الجامعات شيئاً أكثر من تفريخ الكتاكيت ـ أن يكون لها دور إيجابي وأن تتقدم الشعب، وأن تسبقه إلى آماله. . وإلى التضحية بكل شيء من أجل كرامة الإنسان.

وقد أحس الإيطاليون أن الجامعة تقوم بدور خطير هو عزل الشباب عن الواقع، وذلك عن طريق إغرائهم بالدروس والكتب والهموم. . ولذلك طالبوا بأن يكون للجامعة دور قيادي. .

وفي النرويج قرر الطلبة أن ينشغلوا بقضايا الشعوب الأخرى.. فالشاب أي شاب، هو مواطن عالمي شديد الحساسية. ولذلك يجب أن نسحب الغطاء من فوقه واللقمة من فمه وأن يفكر فوراً في مشاكل المواطنين الآخرين في أمريكا وفيتنام.

وأن يتمرد على كل شيء حديث.. لأن الحديث الموضة المودرن قد أفسد ذوقه وأبعده تماماً عن زميله وشقيقه في الإنسانية: الأسود والأصفر!.

وفي بريطانيا اتخذت المظاهرات مذاقاً عالمياً.. كل مشاكل دول الكومنولث: الاستعمار والتفرقة العنصرية والهجرة والتصنيع والتأميم.

أما في فرنسا فقد كانت الأسباب غريبة. كانت مجرد عود كبريت أشعل حريقاً فرنسياً أوروبياً عالمياً. فقد أقامت فرنسا جامعة أنيقة من الزجاج والصلب في إحدى المناطق الفقيرة على مدى عشرين كيلومتراً من باريس بين أكواخ العمال الجزائريين. إنها جامعة استفزازية. فلما جاء وزير التعليم يفتتح حماماً فخماً للسباحة. اقترب منه شاب ألماني يقول: لماذا حذفت المشاكل الجنسية عند الطلاب من التقرير الأخير الذي نشرته ووزعته.

فالتفت الوزير يقول للطالب الأجنبي: إن الذي لا

يعرف كيف يحل مشاكله الجنسية، من الأفضل أن يلقي بنفسه في حمام السباحة!

أمسكه الطالب في ذراعه يقول له: أنت ديكتاتور!

واعتقله البوليس وأخرجه ـ وحاول ترحيله إلى بلاده. وهنا ثار الطلبة. . وبسرعة كونوا «حركة ٢٢ مارس». واحتشدوا في مدرجات الجامعة ومعاملها يطالبون بإطلاق سراح هذا الطالب الألماني. . فأغلقت الحكومة بعض الكليات. فانتقل الغضب إلى جامعة السوربون. وأغلقت الجامعة يوم ٤ مايو سنة ٦٨. فهاجم الطلبة السيارات والدكاكين والأبواب والنوافذ. وأشعلوا النار في الأشجار.

وتعلقت اللافتات والشعارات تقول: إن تمنعونا هذا ممنوع. . أيها الشباب انسوا جميعاً ما تعلمتم وتعالوا نحلم. .

وانضم العمال إلى الطلبة ودعوا إلى إسقاط النظام الرأسمالي. . إسقاط ديجول. . ورفع الأجور. . وكان عدد العمال عشرة ملايين. . والمصانع التي أغلقت ٢٠٠. . وخرج المهندسون والمدرسون والمحامون والأطباء.

واستجابت الحكومة إلى مطالب العمال. وعادوا إلى مصانعهم. واتهمهم الطلبة بالخيانة والعمالة.

وذهب ديجول.. وانتصر العمال وفشل الطلبة وعادوا إلى الدراسة!

وفي فيينا عاصمة النمسا دعا الطلبة إلى محاضرة عامة ومناقشة كبرى. واحتشد الشباب. وعلى إيقاع النشيد الوطني وقف بعضهم يتبول ويتبرز على المسرح ويمارسون الجنس عراة ـ احتقاراً للنظام والجامعة ودعوة إلى إسقاط كل شيء بما في ذلك الذوق والأخلاق والدين. تحت شعارات تقول: اذهبوا إلى الكنيسة وافعلوا مثلنا!.

ولكن الشعب النمساوي قد ضاق بهذا الأسلوب القذر. ولم يؤيد الآباء أبناءهم، ولا المدرسون تلامذتهم، ولا العمال هؤلاء المثقفين. فكانت حركة الطلاب إهانة لأنفسهم.. ولذلك عندما انفتحت النوافذ وخرجت الروائح، ذهب أثرهم أيضاً!.

وكانت أمريكا أسبق إلى بحث أسباب التخلف الجامعي.. أي أسباب تقدم اليابان والمانيا.. فطلبت أمريكا إلى علمائها أن يبحثوا. فوجدوا أن التعليم هو السبب. أي أن برامج التعليم الأمريكية لا ترقى إلى مستوى التعليم الألماني والياباني. ولا بد من التغيير.

وأهم ما حدث في أمريكا ذلك التقرير الذي كتبه عدد من العلماء بعنوان «أمة في خطر». الأمة هي أمريكا.

والخطر هو انحطاط مستوى الطالب والمدرس والمعامل والبرامج والحل: هو الارتفاع بها جميعاً.

فالطالب معلوماته قليلة. ولا يعرف لغة أجنبية. مشغول بالحب والجنس. ويقضي معظم الوقت في الكافتريا والملاعب. وهو يجمع المعلومات كما يجمع اللحم والطماطم والبطاطس في سندوتش واحد: أي قطعة من هذا وقطعة من ذاك ويهضمها وهو يلعب وهو يرقص وهو يعانق ويقبل.. فهذا جيل الكافتريا أو جيل السندوتش.. ولا بد أن يقضي الطالب معظم الوقت في المدرج أو في المعمل.

ولكن لماذا لا يفعل ذلك؟

لأن المواد الدراسية سخيفة جافة. ولماذا هي جافة؟ لأن الجامعات لا تدفع أجراً كافياً للأستاذ. فالأستاذ ساخط على نفسه وعلى التدريس وعلى الجامعة وعلى الطلبة أيضاً.

والأستاذ كذلك لأنه أيضاً ليس مؤهلاً علمياً لهذا المستوى الرفيع.

ومن أهم أسباب تخلف الدراسة والدارسين أولياء الأمور.

فهم في حالة غياب دائم، ثم يطلبون من أولادهم أن يكونوا في حالة حضور دائم.. فالأبوان يعملان ولا يلتقيان.

فليس عندهم وقت للأسرة. وإذا التقيا مع الأولاد فهي الصدفة، أو المرض أو حادث قومي ولذلك فالأولاد يعيشون في غياب الأب والأم، وغياب السلطة الجامعية. فالإصلاح الجامعي يبدأ في البيت. أو ينتقل من البيت إلى الشارع إلى الكافتريا إلى الملعب إلى المدرج إلى المعمل. وينتقل من الجامعة إلى الشارع إلى البيت إلى كل وسائل الإعلام.. إلى اللحاق بالسباق الهائل الذي بدأته اليابان فأغرقت أسواق الدنيا بصناعاتها المتطورة الرخيصة. فإصلاح التعليم الجامعي، هو استدراك لما فات أمريكا في تذليل الشباب وتمييع العلاقات بين الجنسين، وإهمالهم ليكونوا ضحايا المخدرات والمهلوسات.. وأدعياء النبوة والألوهية من الزنوج والكوريين!.

وقد حاولت أمريكا هذا الإصلاح في جامعاتها الأهلية والجامعات المدعومة من المؤسسات الصناعية والتجارية والخيرية..

ولكن الذي تستطيعه أمريكا، لا تقدر عليه دول أخرى.

فرنسا مثلاً وأخيراً..

فقد تقدمت حكومة جاك شيراك بإصلاح للتعليم الجامعي، ولنفس الأسباب الأمريكية. أملاً في إتاحة الفرصة للنابهين والمبدعين. وقد رفض الطلبة ذلك،

وكذلك الملايين من آبائهم وأمهاتهم. وانتصر الطلبة ـ وكان انتصارهم خسارة على العلم والفن والصناعة. ولكنهم انتصروا.

فالحكومة الفرنسية قررت أن تفتح الجامعة لكل الناس بشرط. والشرط هو درجات التفوق. أي على الجامعات أن تختار الطلبة الذين يستحقون التعليم وليس كل من هب في الهواء، ودب على الأرض.

وثار الطلبة وقالوا: إذن هي جامعات الصفوة.. وليس جامعات كل الناس!

وطلبت الحكومة في قرارها الإصلاحي الجديد: أن يدفع الطلبة بعض المصروفات الرمزية.

وثار الطلبة قائلين: إنهم الأغنياء الذين تعلمهم الدولة، أما الفقراء فلا مكان لهم.. إذن هو حكم الأغنياء ضد الفقراء.

وأمام المظاهرات والحرائق هددت الحكومة باستدعاء البرلمان وعرض هذا القانون عليه مرة أخرى.

وهددت الحكومة بأن تطلب إلى البرلمان إعادة النظر في قوانين الهجرة والمهاجرين. فقد ثار الطلبة لأن البوليس قتل طالباً جزائرياً.

وانتهزت الأحزاب السياسية المتصارعة على السلطة هذه الفرصة الذهبية وأعلن الزعماء المعارضون تأييدهم للطلبة ضد الحكومة، التي واجهت أول صدمة فقد جاءت إلى الحكم من تسعة شهور.

حتى الرئيس ميتران، وهو محدود النفوذ والسلطات أعلن أنه اتصل برئيس الوزراء شيراك.. وأنه طلب مرة ومرة.. وهدده إن لم يعدل عن موقفه فسوف يذهب إلى الشعب ويكشف أسرار الموقف ويجاهر بتأييده له..

وظهر جاك شيراك في صورة عدو الشعب.

وبسرعة قال الزعماء: حتى لو كانت الملاعق التي في أيدينا طويلة جداً، فإنه لا يصح أن نأكل مع الشيطان!

إن هذا الجيل مختلف تماماً عن جيل سنة ١٩٦٨. فهذا الجيل يثور من أجل مطالبه هو. يريد عملاً. يخاف من البطالة المفروضة على الذين يتعلمون في الجامعات المجانية. بينما الذين يتعلمون في الجامعات رفيعة المستوى، فوظائفهم مضمونة فهم في فرنسا لا يسألون عن المؤهل، ولكن يسألون عن اسم الجامعة التي أعطته. فهناك جامعات عالية القدر عند الناس.

ولذلك فهذه الجامعات بطلابها الثمانين ألفاً، لا مشكلة لها. ولم تشترك في المظاهرات فكل شيء مضمون: اليوم

وغداً والوظيفة والمركز المرموق في الحياة العامة.

وكان من نتيجة فتح أبواب الجامعات على الآخر لأي طالب حاصل على الثانوية العامة: أن تكدس الطلبة وتزاحموا واتسعت المسافة بينهم وبين الأساتذة.. ولم تستطع الجامعة أن تيسر لهم الوسائل التعليمية والخدمات. ولذلك انحط مستوى التعليم والأداء.

ولذلك كان لا بد من «انتقاء» الطلبة وتحديدهم.. وامتحانهم مرة أخرى عند القبول.

وعلى الرغم من أنه لا خلاف بين كل المدارس التربوية والمذاهب السياسية على انخفاض مستوى التعليم، فإن الحكومة الفرنسية قد فشلت في مواجهة الطلبة وآبائهم. أما السبب فهو أن الحكومة لم تحسن عرض قضيتها ولم تنجح في إقناع الملايين بذلك. فأولياء أمور الطلبة يرون أن الحكومة قد ألغت أهم حقوق الإنسان: تكافؤ الفرص.. وأنها تدخلت لتعطي للطلبة فرصاً أكبر من طلبة آخرين.

فالمشروع سليم، ولكن عرضه لم يكن سليماً ولا أسلوبه مقنعاً، ولا وقته مناسباً. فالظروف كانت تحتاج إلى مثل هذا القانون، ولكن الظروف أيضاً قد قتلته!

ولم تحل مشكلة التخلف العلمي النظري والعملي في فرنسا ـ وإنما تأجلت إلى نهاية القرن.. وهكذا تكون فرنسا

قد أخرجت نفسها من السباق الجنوني بين أوروبا وأمريكا واليابان!

وربما كانت إيطاليا هي الدولة الوحيدة التي لا تطلب من الطالب أن يدفع رسماً للدخول. فالدخول بلا قيد ولا شروط.

وفي بريطانيا يكون دخول الجامعة حسب الدرجات.

وفي أمريكا لكل جامعة شروطها الخاصة.

أما في اليابان فالجامعات متشددة ولا بد من امتحان للقبول في الجامعات.

وفي فرنسا لا بد من المؤهل الجامعي لأية وظيفة.

وفي بريطانيا تفضل بعض الجامعات العظيمة الاحترام مع المؤهل الجامعي.. وكذلك إيطاليا.

وفي اليابان لا بد من مستوى رفيع للتخرج في الجامعة، وكل جامعاتها رفيعة المستوى.

وفي فرنسا تتقاضى الجامعات مصاريف رمزية.

وفي إيطاليا لا بد من المصاريف التي تتزايد مع نوعية الكليات العملية. وكذلك أمريكا واليابان والكليات العملية تتقاضى مصاريف متزايدة من عام إلى عام.

والمقارنة مستمرة بين جامعات اليابان والجامعات

الأمريكية والأوروبية.

فكل طالب ياباني على يقين من أنه سوف يجد عملاً. وهو يعرف المكان. وإنه سوف يبقى في هذا المكان حتى الموت، أي أن الطالب الياباني قد تحدد مستقبله عندما دخل الجامعة وربما قبل ذلك. فهو سوف يعمل في المكان الذي عمل فيه أبوه وجده وسوف يعمل فيه أبناؤه من بعده.. فإن كان يعمل في شركة لإنتاج الراديوهات فهذه الراديوهات موجودة في البيت بكل أنواعها وتاريخها وتطويرها.. وهو يلعب بها صغيراً، ويفكها كبيراً ويطورها بعد ذلك.. فهو مشغول بها منذ ولادته. هي حددت مستقبله، وهو الذي سوف يغير لها مستقبلها ويغزو بها العالم.

أحد الشبان اليابانيين قال لي: إذا رزقت بأربعة أطفال فأنا أعرف الحروف الأولى من أسمائهم.. سوف تكون س.. و.. ن.. ي..

ـ قلت: لا أفهم.

قال: إن هذه الحروف هي اسم الشركة التي سأعمل بها مدى الحياة وأولادي من بعدي!

والعامل الياباني ـ الجامعي وغير الجامعي ـ غير قابل للفصل ـ مستقر تماماً.

ولـذلك كـانت هذه القـدرة على الابداع. . لا خـوف لا قلق على حاضره ولا مستقبله.

أذكـر أنني دخلت أحد مصـانع اليـابـان فسمعت كـلامـاً عجيباً. قال لي أحد المرافقين: عندنا إضراب اليوم!.

ولمـا دخلت المصنـع وجـــدت العمـال يعملون دون أن يشعـروا بوجـودنا. . فـأيـديهم وعيـونهم وعقـولهم في حـالـة استغـراق تام. . وسـألت المرافق: ولكنهم يعملون فـأين هـو الإضراب!

ـ قال: العمال أعلنوا أن لديهم «رغبـة» في الإضراب. . ولذلك نحن نناقشهم ونتفق على ألا يكون هناك إضراب.

أي أن الإضراب هو نـوع من التهديـد، ولم يحدث مـرة واحـدة في المائـة عام المـاضية. . أي أنـه تهديـد برفـع اليد والصـوت فقط.. وبسرعـة تلتقي وجهات النـظر. . وفي جميع الأحوال لا يوجـد أي سبب من أي نوع ـ فيمـا عدا المـوت ـ يجعـل عامـل يتوقـف عن الأداء والعـطاء ـ وهـما كلمتـان لهـما شعبية عظيمة وفي مصر، ليست لهما معنى!

ولا عنـد العامـل اليابـاني مشكلة سكن ولا مشكلة زواج ولا سياحة ـ كل ذلك يتولاه المصنع أو الشركة.

فالعامل الياباني متفرغ تماماً لعلمه وعمله.

وكلها مزايا لا نظير لها عند أكثر عمال العالم!

وعلى ذلك فسوف ينشغل طلبة الجامعات وخريجوها في فرنسا والعالم بكل هذه المشاكل الحيوية الهامة. . بينما اليابانيون قد انتهوا من حلها، وبذلك أصبح العامل متفرغاً تماماً للإنتاج والإبداع!.

اتذكر أنني كنت أزور ألمانيا في سنة ١٩٥٠. وكنت مبهوراً بالتقدم الهائل في الصناعة والتجارة. ولكن الألمان كانوا في غاية التعاسة. لماذا؟ لأنهم خائفون على حضارتهم من الاستخفاف الأمريكي. . أي من الحياة الأمريكية التي بهرت الشباب فالشباب الألماني يرتدون الجينز ويمضغون اللبان ويرقصون معظم الوقت وأقل احتراماً لآبائهم. . فكثير من الألمان إذا جلس مد ساقيه في وجه والديه أو الضيوف. . وأكثر من ذلك فإن الحانات الألمانية القديمة قد أصبحت أمريكية. . فالأضواء باهرة. . والمناضد الطويلة قد أصبحت صغيرة دائرية. . وبدلاً من أن يجلس المئات معاً يضحكون ويشربون ويرقصون في جو ألماني تقليدي تناثروا عشرات وعشرينات حول الموائد الصغيرة في جو أمريكي بغيض!

ثم أن الفتيات الألمانيات يفضلن الزوج الأمريكي الذي يخطفها ويهرب بعيداً عن الوطن.

كما أن العلماء الألمان قد قرروا الهجرة إلى أمريكا ـ ألا يكفي ما استولى عليهم الأمريكان من أسرار ومعلومات ومصانع ومئات العلماء الذين طوروا صناعات الصواريخ وسفن الفضاء والأسلحة النووية والكيماوية؟!.

وبعيداً عن هذه المناقشات والخلافات والصراعات الأوروبية الأمريكية، مضت اليابان في تطوير أدوات الحياة والعلم والعمل.

والعالم كله الآن تتنازعه نظريتان: إحداهما صينية والأخرى يابانية.

النظرية الصينية تقول: دع الزهور من كل لون تتفتح.. أي يجب إتاحة الفرصة لكل إنسان مع حرية النمو وحرية التعايش معاً. وحذف كل المعوقات، سوف تظهر الموهبة العظيمة. ولا يستطيع أحد أن يحجب الموهبة.

وهذا ما يحرص عليه الطلبة في فرنسا.. فتح الأبواب والنوافذ ورصف الطرق.. وكل إنسان عليه أن يثبت قدرته وشطارته. وأن يمشي على قدميه، ويعتمد على ذراعيه.. حتى النهاية.. فهذه هي الحرية بكل معانيها.

أما النظرية اليابانية: فهي لا تترك كل شيء للظروف والصدفة. فنحن نعرف كل الزهور.. ألوانها وأعمارها وأشكالها وجمالها ومدى احتياجاتها. ولذلك يجب أن نختار

الـزهور ونختـار التربـة والظروف المنـاسبـة لازدهـارهـا. وأن ننقلهـا من الحقـول إلى البيـوت الـزجـاجيـة ومن البيـوت الزجاجية إلى الحديقـة.. فنحن يجب أن نحدد بـالضبط من البداية ماذا نريد. ولماذا؟

فـالشبـاب مثـل هـذه الـزهـور يجب أن تنمـو ولكن وفق المواصفات التي نريدها.. والتي تعلمناهـا من التجربـة ومن التاريخ.

فنحن لا نتـرك للزهـور تكتب تـاريخنـا.. وإنمـا نحن الـذين نكتب لهـا تـاريخهـا معتمـدين على تجـاربنـا وواقعنـا واحتياجاتنا!

فـإذا لم تكن النظريـة اليابـانية واضحـة النجـاح فسـوف يتضاعف نجاحها بقدر تزايد فشل النظريـة الأخرى في فـرنسا وفي مصر أيضاً!.

فهناك إذن ثلاث نظريات.

النظرية الفرنسية والصينية والمصرية في مسايـرة الظروف التي شعارها: أنت حر.. تعيش.. تموت.

النـظرية الأمـريكيـة في التحكم في الـظروف وشعـارهـا أنت حر.. تعيش.. وتعيش أفضل!

والنـظرية اليابانيـة في خلق الظروف.. والتي شعـارها: لست حراً في أن تعيش أفضل!

وقد حاولت فرنسا أن تأخذ بالنظرية الأمريكية.. ويستحيل عليها تطبيق النظرية اليابانية، لأن أحداً لا يستطيعها إلا اليابانيين أنفسهم.

وأنا أقول لك منذ الآن ما الذي سوف نفكر فيه جميعاً.. في النظرية اليابانية؟!.

ومجرد التفكير في ذلك يدل على أننا خرافيون حشاشون.. ويدل أكثر من ذلك على أننا نطلب المستحيل لكي نعجز عن تحقيقه؟ فيزداد لدينا الشعور بالأسى والحزن على أنفسنا ـ فكأننا ارتضينا الحزن لأننا اخترنا اليأس من كل علاج!

الأرض:
مشكلة
وهي الحل أيضاً!

هات أصبعك أضعها على مشكلة مصر: عدد السكان والأرض المزروعة.

السكان يتزايدون والأرض تتناقص..

ونحن نخطىء في معالجة هاتين القضيتين..

لأننا نطلب من الناس أن يتوقفوا عن إنجاب الأطفال باستخدام الأقراص والعوازل، مع أن الصين ألف مليون نسمة، والهند ٨٠٠ مليون نسمة، وأمريكا ٣٠٠ مليون، وروسيا كذلك، وهم لا يجدون هذا التزايد مشكلة. بل مزيداً من الأيدي العاملة والطاقات المنتجة. ولكن غلطتنا في مصر: أننا نطلب إلى الناس أن يتوقفوا عن الإنجاب، لأننا قررنا ألا نوفر لهم عملاً أو طعاماً، وعندما طلبنا من الناس ذلك هددناهم بتناقص الأرض المزروعة ـ وتناقص كل الموارد. تماماً كما تقيم وليمة لعشرة أشخاص وتخشى أن يجيء عشرون، فتتمنى من الله أن ينزل بهم الأتوبيس في النيل! فبدلاً من أن تعرف بالضبط عدد الضيوف وأن

تحتاط بمزيد من الطعام، فإنك تحتفظ بكميات الطعام كما هي، وتدعو الله أن يقصف أعمار الضيوف!!:

ثم إن وسائل دعوة الناس إلى الكف عن التزايد ليست مقنعة. فالفلاح له وجهة نظر أخرى. لأن أولاده «أدوات» إنتاج.. فالطفل في التاسعة يتقاضى خمسة جنيهات يومياً.. وإذا بلغ العاشرة يتقاضى سبعة.. وإذا صار في العشرين، فأضعاف ذلك في الزراعة والفنادق وأضعاف ذلك إذا سافر إلى العراق والأردن. ثم إن احتياجات الفلاح الآن قد اختلفت، فهو فلاح فيديو. عنده تليفزيون ملون وثلاجة وفيديو. وهو لذلك يظل ساهراً طوال الليل حتى يرى كل البرامج والأفلام. ويصحو من نومه متأخراً. ليذهب إلى الحقل - إن ذهب - متأخراً جداً. ولا بد أن يتعاطى الشاي عدة مرات لكي يفيق من المخدرات قبل أن يضرب الفأس في الأرض. فهو مهدود الحيل، ولكنه يتقاضى الأجر الذي يريده.

وبسبب هذه الاحتياجات فإنه يهاجر إلى بلاد أخرى.. وبعد سنوات يعود ليبني بيتاً ويشتري سيارة ويستأجر عمالاً لزراعة الأرض. ولم يعد يأكل من أرضه. إنه يذهب إلى المدينة يشتري الرغيف والطماطم والفاكهة. ولذلك هجر الأرض.. فضعفت التربة والمحصول - لم يعد فلاحاً!

وأيام الحكم العثماني وأسرة محمد علي كانت الشتيمة

أن يقال لإنسان: إنه فلاح. . أي ليس تركياً ولا إنجليزياً.

وهذا واضح في المسرحيات والأفلام في نهاية الحكم الملكي. .

فصار من أحلام الفلاحين أن يكون أولادهم أفندية موظفين، ومن آمال الأفندية أن يكونوا حكاماً في خدمة الحكام. .

وفي ظل الاحتلال البريطاني تأكد لدينا أننا فلاحون، ويجب أن نبقى كذلك. . نزرع القطن الذي يشتريه الإنجليز لمصانعهم ثم يبيعونه لنا قماشاً. نحن نزرع وهم يكسبون. هذا هو قدرنا، ومن الواجب أن نظل كذلك. فأن تكون فلاحاً، هذه هي إرادة الله. وأن تتمرد على الأرض وعلى أن تكون عبداً لها، هذا كفر بنعمة الله. فالفقير يجب أن يظل فقيراً، والغني غنياً. . والفلاح منكسر الظهر والكرامة، ويبقى الإنجليزي واقفاً كرباجه في يده وفلوسنا في جيبه، ثم يبقى الوضع على ما هو عليه: هو سيدنا ونحن عبيد الأرض ـ إلى الأبد! . .

وفي عهد الرئيس عبد الناصر كان الاهتمام بالصناعات الثقيلة، وتفتيت الملكية الزراعية وإضعافها. . حتى السد العالي، كان من أجل المصانع أولاً، والأرض ثانياً. .

وفي عهد الرئيس السادات كان الاهتمام بالأرض

المـزروعـة وزيـادتهـا، مـع استمـرار ضعف التـربـة، وبنـاء المسـاكن على الأرض المـزروعـة، وفي نفس الـوقت إقـامـة المدن في الصحراء مع الاهتمام بالانفتاح التجاري. .

وأصبـح أمل الفـلاح أن يكون عـاملاً، وأمـل العامـل أن يكـون موظفـاً، وأمل المـوظف أن يكـون تـاجـراً. فكـانت الرشوة وتبادل الطين وتلطيخ سمعة وشرف الجميع. .

وقد ضعف إنتاج كل الناس: الفـلاح والموظف والعـامل والتاجر. لقد عرفوا جميعاً سوء الظن بأنفسهم وغيرهـم!

وإذا كـان هناك أمـل في مستقبل مصـر فهو الأرض. ولا شيء إلا الأرض. فهي المورد الوحيد الذي يمكن زيـادته. . فالصحارى حولنا صـالحة للزراعـة. والماء يجـري من تحتها أنهاراً.

ومـا لم نغير من نمط الحيـاة الريفيـة في الري والـزراعة والتصنيـع والميكنة، فـلا أمل هنـاك. فما نـزال نروي أرضنـا «بـالغمر» ـ أي أن الفـدان الذي يحتـاج إلى مائـة متر مكعب من الماء، فإننا نرويـه بألف وألفين. . وهـو بالضبط مـا نعمله في بيـوتنا. فنحن نغسـل أيدينـا، كما نـروي الأرض، نفتـح الحنفية على آخرها وقتاً طويلاً ونتـركها. فـإذا كنا نحتـاج إلى ليتر واحد من الماء، فإننا نبدد صفيحة كاملة!

إننـا نبـدد مليـار متـر مكعب من مـاء الشـرب سنــوياً.

وإسرائيل تستخدم مليار متر مكعب لري كل أراضيها، وتصدر ما يعادل مليار دولار سنوياً، ونحن نصدر واحداً على عشرة من ذلك؟!

ولا بد أن نستخدم الري بالتنقيط والرش. لا مفر. تطويراً لأنفسنا، واقتصاداً في الماء. ومن المضحك حقاً أن تقرأ أن مصر تفكر في «تحلية» مياه البحر للشرب والري. وعندنا هذا النيل العظيم الذي أهدانا الدلتا والوادي على جانبيه. فمصر هبة النيل ـ عبارة قالها من ٢٥ قرناً عبقري التاريخ: هيرودوت!.

وهو أول من قال إن الفلاح المصري أقل الناس مجهوداً في زراعة الأرض. فالماء متوافر والتربة خصبة. وهو يلقي البذور ويقوم الهواء والشمس بتجفيف التربة. ثم يأتي بالخنازير فتدوس البذور. ويظل الفلاح في حالة انتظار لما تجود به الأرض..

وهو ما قاله عمرو بن العاص عندما جاء إلى مصر: إنهم يبذرون الحب، ويرجون الثمار من الرب!..

كما ترى وتعرف: منتهى التواكل!

ولذلك اتسع الوقت لدى المصريين ليملأوا فراغهم بقضايا خرافية ـ تماماً كما نفعل الآن حين نتساءل إن كنا فراعنة أو عرباً أو مصريين عرباً أو إن كان من الأفضل أن

نقفل الباب علينا، ونعكف على مصريتنا وحل مشاكلنا، بدلاً من إغراق أنفسنا في مشاكل الآخرين، أو إن كان من الواجب أن نفتح الأحضان لكل من هب في الهواء، ودب على الأرض، من المحيط إلى الخليج ونعيش مصريين ونموت عرباً أو نموت مصريين ليعيشوا عرباً . .

وقد لاحظ هيرودوت أنه أيام الملك بسماتيك دارت مناقشة بين الكهنة المصريين: هل الفراعنة أقدم شعب في التاريخ أو أن هناك شعوباً أخرى؟. ولم يهتدوا إلى حل. ولكن الملك بسماتيك وجد الحل العلمي . . فقد أتى بطفلين وجبسهما في كوخ. وكلف أحد الرعاة بأن يسقيهما لبن الماعز. ويقال أنه كلف كاهنتين قطع لساناهما حتى لا يتعلم الطفلان منهما كلمة واحدة . . وبعد سنتين ذهب إليهما الراعي، فأسرعا إليه يقولان : بيكوس . . بيكوس! . .

وهنا جمع الملك كهنة مصر . . وسألهم إن كانوا يعرفون هذه الكلمة. واهتدى الكهنة إلى أن هذه الكلمة في لغة شعب آخر . . هذا الشعب إذن أقدم من المصريين! . .

وأقفل باب المناقشة في هذه القضية! . .

يقول هيرودوت: ولا بد أن المصريين كانوا يعيشون في مكان ما قبل تكوين النيل لهذه الدلتا . . فهم إذن أقدم الشعوب على أرضهم. وهذا يكفي لحسم قضية لا يصح أن تشغلهم وقتاً طويلاً! . .

ولكنهـا تشغلنا نحن الفـلاحين الهـاربين من الأرض إلى المـدن: لأننا مـا نزال نقـول إن حضارتنـا عمرهـا سبعة آلاف سنة.. وإننا الذين بنينا الهـرم وأقمنا الـدولة، والحقيقـة أنهم هم الذين فعلوا ذلك وزيـادة أما نحن الأحيـاء فلم نساهم في شيء من ذلك!..

إن عبقرية هيرودوت الذي هـو «أبو التـاريخ» قـد نفذت إلى أعماق المصريين الكسالى، الذين يشغلون أنفسهم بكـل شيء إلا زراعـة الأرض وتحسين التـربـة وتـوفيـر الـطعـام لأعدادهم المتزايدة!!

انظر إلى الصحراء الغربية، مساحتها ثمـانية مـلايين كيلو متر مربـع، تزحف على أرضنـا الزراعيـة. والأرض الزراعيـة تتـراجـع أمـامهـا، وأمـام الإهمـال والجفـاف والتجـريف والمسـاكن.. وهـذه هي ظـاهـرة «التصحـر» - أي زحف الصحراء، وانسحابنا أمامها..

لا حـل لكـل مشـاكـل مصـر إلا في الأرض وبـالأرض. ولـذلك يجب أن نتجـه إليها بكـل ملايننـا الخمسين والستين وكليـاتنا العمليـة، ولا يهم أن نغلق بعض الكليات النـظرية، فـلا ضرورة لهـذه الأعداد الهـائلة من «المتكلمين» الـذين لا يحـركون إلا ألسنتهم، أمـا أيديهم ففي جيـوبهم، أو ينامـون على المكاتب!..

ويجب ألا نعاقب كل إنسان تسول لـه نفسه، أن يصلح أرضاً. وألا نبيع الصحراء بالمتر كأرض المباني. . كأننا في هولندا، حيث يبيعون الأرض بالشبر، فالأرض ضيقة، والزيادة الوحيدة الممكنة هي أن يجففوا البحر. . ومع ذلك يزحفون ويتراجع البحر. وهم يحسدوننا على النعمة التي نرفل بها، نعمة الأرض الواسعة والماء تحتها والشمس فوقها، ونحن نتثاءب أمامها! . .

إن الحكايات التي نسمعها كثيرة جداً عن عشرات من الناس يحاولون الإصلاح والزراعة، ولكن المشاكل والعقد والمستحيلات تطاردهم حتى يتركوا مصر ويردوا الأموال لأصحابها. .

أتمنى أن يوزع أحد من الناس هذه القصة على وزارات الزراعة والإسكان والتعمير والمجتمعات الجديدة: إن مصرياً ذهب إلى اليونان يشتري أرضاً يقيم عليها استديو إذاعياً وسينمائياً. . حكى هذه الأمنية لسائق التاكسي. وفي الصباح جاءه وزير السياحة يشكره على أنه اختار اليونان، ويشكر صديقه سائق التاكسي الذي أبلغه ذلك. .

قال له المصري: ما هي الشروط؟

قال الوزير: لا شروط!

قال المصري: لا شروط؟!

قال الوزير: أنت صاحب الأمر والنهي.. أنت على حق دائماً.. أنت سيد الموقف.. تريد متراً.. تريد مليون متر.. تريد جزيرة.. كل شيء في بلادنا قابل للبيع..

قال المصري (مندهشاً): كيف؟ لا أفهم!

قال الوزير: لأنك إذا اشتريت أرضاً، فسوف تبقى الأرض على خريطة بلادنا.. إذا أنفقت عليها، استفدنا عمالاً وموظفين.. وإذا تركتها، بقيت الأرض عندنا.. فلا خسارة علينا مطلقاً!..

أما نحن فالأجنبي يمثل الاستعمار.. بل إن المصري إذا فكر في أن يصلح مائة ألف فدان أو مليون فدان، فزعنا لذلك ورحنا ننظر إليه على أنه أجنبي.. مستعمر.. مغتصب.. لماذا؟! هل لأننا لا نريد لأحد أن ينجح فنظهر أمامه فاشلين.. هل نجاح أي مصري يحرج كل الوزارات التي لا تستطيع أن تنافسه؟.

فهل استعانة المصري الناجح بأموال وخبرات أجنبية يعد استعماراً، وغزواً فكرياً، وتسللاً عقائدياً، وعمالة للمخابرات؟!.

لقد انتهى عصر الاستعمار بتواجد القوات الأجنبية على أرضنا.. لقد ظهرت أشكال وألوان من الاستعمار لا تحتاج إلى أن يجيء الأجنبي على أرضك.. وإنما هو يدخل

بفلوسه وخبرته.. واحتياجك المستمر إليه، واعتمادك الكامل عليه. المصيبة أننا جميعاً نعرف.. والمأساة أننا لا نريد لأحد أن يعمل، حتى لا يبدو نشيطاً ونحن كسالى، حتى لا يبدو هو متمرداً على قدره كفقير سوف يكون غنياً!..

فما لم نجعل الأرض من حق كل الناس، ووسيلتنا الوحيدة لتغيير العدسات التي نضعها على عيوننا حين ننظر لأنفسنا وغيرنا ومسيرتنا ومستقبلنا، فالأمل ضعيف جداً في أن يكون لنا الحق في حياة كريمة!..

ففي القرن الثامن عشر في فرنسا ظهر فرنسوا كيناي (١٦٩٢ ـ ١٧٧٤).. وكان طبيباً للملك لويس الخامس عشر. ولكنه دخل التاريخ كفيلسوف له نظرية تقول: إن الأرض هي مصدر الحياة. وكل الذين يعملون في الأرض هم وحدهم المنتجون. أما غيرهم فهم الطفيليون. فالأصل هو القمح. ولكن الذي ينقل القمح ويتاجر فيه متطفل على الأرض. حتى الذي يصنع الرغيف والجاتوه ويأكله، كل هؤلاء يعيشون على عرق الفلاح. يجب أن نعود إلى الأرض فلاحين منتجين إيجابيين!..

ويكفي أن نلقي نظرة على الأطقم الوزارية لنجد أكثر الوزراء تجاراً، أقصد أساتذة في التجارة والمحاسبة.. وأقلهم زراعيون. وهذا معناه أننا في العصر التجاري، أي

في عصر الأفندية الذين يشجعون على الدراسة النظرية وعلى البعد عن الأرض وعلى الهجرة من الريف إلى المدن ومن المدن إلى الخارج! . .

ولن يعتدل الميزان إلا إذا كان عدد وزراء الزراعة أربعة أو خمسة: واحد للزراعة وواحد للفاكهة واحد للإصلاح وواحد لمكافحة الآفات وواحد للصحارى . .

وكان سعد زغلول باشا يصف الفلاحين والعمال بأصحاب الجلاليب الزرقاء، في مواجهة أصحاب القمصان البيضاء . . وانتهى عصر الجلاليب والطربوش معاً. والفلاح يرتدي الآن البنطلون والبوت، ويعلق الراديو في قرن الماعز، أو في مقدمة التراكتور، لا يهم الزي، ولكن الذي يهم هو «الزي العقلي» للفلاح . . الذي يجب أن يظل فلاحاً متطوراً، ارتدى ملابس الأفندي حريصاً على أن يعمل وأن ينتج ويكون نظيفاً.

وفي الثورة الفرنسية كانوا يسمون الفلاحين باسم «سان كيلوت» أي الذين لا «كيلوت» لهم . . والكيلوت هو السروال الذي كان يرتديه أبناء الإقطاع عندما يركبون الخيول . . فالذين لا «كيلوت» لهم لا خيول عندهم ولا أرض، أي الفلاحون والفقراء . . فلا يهم ما يرتديه الفلاح سواء كان يركب حماراً أو حصاناً أو جراراً. المهم هو الذي في رأسه وفي الفلسفة الرسمية للدولة! . .

ولا أقول إن الأرض المزروعة قد زادت كثيراً على ما كانت عليه أيام الخديو إسماعيل، أي من حوالي مائة عام ـ ولكنها قد زادت.. ونحن حريصون على أن نقيم بيوتنا على جثث النباتات والأشجار. فالذي نزرعه تدفنه البيوت. لماذا لم نفلح في إقناع أنفسنا ألا نفعل ذلك؟ ـ لأننا نريد أن ندفع الفلاح دفعاً إلى ترك الأرض، وترك الزراعة والتكدس في المدن. ثم الاستعانة بالوزراء التجاريين والمحاسبين، خبراء القروض والفوائد على الديون وفترات السماح وتأجيل الكوارث بدلاً من حلها، وذلك من أجل إغراق مصر مرتين: مرة في الديون ومرة تحت الرمال الزاحفة من كل اتجاه!..

فنحن الآن لا نملك الأرض، وإنما الأرض هي التي تملكنا.. وهي التي تجرجرنا وراءها إلى الجوع والبطالة واليأس وتكفير مصر والهجرة منها.

أرجو أن ننظر عبر الحدود إلى إسرائيل حيث الشعوب اليهودية تتكلم مائة لغة ولها مائة حزب سياسي وديني ومن كل لون، والتي لم تكن تعرف العسكرية، فلا جيش لها، لأنها بلا دولة، ولم تكن تمارس الزراعة لأنها بلا أرض. أما الآن فقد تفوقوا في الحرب والزراعة معاً.. لماذا؟ بالعلم والإيمان..

أما الإيمان فعندنا منه الكثير، أما العلم فليس عندنا منه

إلا القليل جداً. لا تقل لي: والجامعات؟.. لا تقل لي: «المصريين أهمه».. لأنك إذا قلت لي ذلك فسوف أسألك: أين هم هؤلاء المصريون.. أرجو أن تدلني على الذين يعملون وعلى الذين يشجعونهم على ترويض الصحراء..

شيء غريب في مصر حقاً: إننا نطالب «بتعقيم» المصريين والتربة أيضاً، حتى لا يزيد الناس واحداً والأرض المزروعة شبراً. ثم نسمي ذلك خطة أولى وثانية. إننا نسمي الأشياء بغير أسمائها، ونتكلم إلى شعب آخر غير المصريين.. أما الشيء المؤكد فهو المزيد من «التصحر» الزراعي والعقلي والاجتماعي والديني تمهيداً لماركس أو الخوميني أو الاثنين معاً ـ ملايين القذافي!..

بغير الأرض: لا نرضى!

نشرت «الأهرام» مقالاً لأستاذ جامعي يقول إنه رأى وسمع زميلاً له أمسك الميكروفون وراح يملي الإجابة على الطلبة. انتهى الخبر.

ولكن أحداً لم يسائل الأستاذ الذي كتب، والأستاذ الذي أمسك الميكروفون. ولا أحد تساءل عن معنى النجاح والرسوب.. ولا عن هذا التمزيق لصفوف الطلبة: طلبة يغشون وعلى يقين من النجاح.. وطلبة يذاكرون ولا أمل عندهم في النجاح.. وطلبة دفعوا دم القلب للدروس الخصوصية.. أما معاني الشرف والصدق والأمانة والأمل والمستقبل، فهي كأس المر التي يتعاطاها أولياء الأمور والذين ما يزال عندهم أمل في إصلاح الحال في مصر..

إذن فالغش مقبول، والكذب مشروع، والسرقة واجب، والابتزاز طريق، والاحتيال أمل، والرشوة ضرورة، وشراء الهدف وطنية..

فمن هذا الذي يجرؤ على أن يحدث الصغار عن أي

مبدأ أخلاقي؟ . . ومن الذي يستطيع أن ينظر في عيونهم؟ وإذا كان الصغار لا يصدقون الكبار، والكبار لا يصدقون أنفسهم. فنحن جميعاً نكذب. أليس هذا نوعاً من الكفر العام؟ الرفض العام؟ السخط العام؟

طبيعي أن يقلق الشباب: يرفضون الواقع، ينكرون الناس. لا يتعاونون، ولا يؤمنون بشيء أو بأحد. فهم إذن يرفضون الغير، يرفضون أنفسهم أيضاً.

ويصبح المستحيل هو أن نصالحهم على الناس وعلى أنفسهم قبل ذلك. . فكيف بالله يمكن عمل أي شيء، إذا كنت أنت في حالة خصام مع نفسك، قرف منها، احتقار لها. .

إذا قرأ الشاب الصحف وجد أن كل شيء سيىء، فهل مصر والناس بهذه الدرجة من السوء؟

لا بد وأنها كذلك، وإلا فكيف يصمها الصحفيون والكتاب الوطنيون بكل هذه الصفات؟ إذن فهي كذلك.

وإذا كان هذا حال البلد، وحال كتاب البلد، فما الحل؟ أو من الذي يبحث عن الحل؟ إذا كان الكتاب يحفرون أرض مصر ليصنعوا طيناً يلطخون به كل شيء وكل أحد. . فمن الذي سوف يغسل وجهها. . من الذي سوف يجلوها ويضيء بها ويضيء لها ويزفها أملاً إلى شبابها

والمستقبل؟ من ـ إن لم يكن أبناؤها؟ وما دام أبناؤها لا يفعلون شيئاً، إذن فمصر لا أمل فيها. وإذا كانت هذه هي النتيجة فلماذا تطلب من الشباب أن يعمل وأن يؤمن وأن يكون إيجابياً إذا انكسرت له ذراع، فعنده واحدة ثانية، وإذا فقئت له عين، أكمل طريقه بالعين الأخرى.. من الذين يقول ذلك؟ وإذا قال فمن الذي يصدقه؟ وإذا صدقه فلماذا لا يفعل الآخرون؟

مثلاً: هل جمال عبد الناصر ليس زعيماً؟ هل لم يغير وجه مصر والشرق الأوسط؟ هل لم يجعل العالم العربي يعيش أياماً من السعادة والعزة والكبرياء؟

بل هو زعيم واستطاع أن يغير وأن يبدل وأن يضع مصر وشعوباً أخرى على الطريق الثوري الصحيح.. لا جدال في ذلك. ولكن زعامته كانت فادحة الثمن. فقد عرفنا به وعلى يديه أكثر الهزائم مرارة في اليمن وفي قناة السويس ونكسة ٦٧ التي هي عار وشنار حتى اليوم. ومن أجل أن ينفرد بكل الأرقام القياسية في الإنجازات ملأ السجون والمعتقلات وغرف التعذيب بعشرات الألوف من الإخوان المسلمين والإخوان الماركسيين!

هل أنور السادات يستحق أن يموت كما لو كان خائناً لمصر؟ وهو الذي حرر مصر من الاحتلال السوفيتي، ومن مخلفات عبد الناصر في مراكز السلطة، وانتصر في حرب

أكتوبر وأعاد فتح قناة السويس، وأعاد سيناء بلا حرب، وحقق نموذجاً للسلام مع إسرائيل ووضع الدستور الدائم، وأطلق المعارضة بأحزابها وصحفها والتأمينات الاجتماعية ومعاش السادات والانفتاح الاقتصادي وجعل مصر دولة محترمة في العالم كله، وأكثر الدول احتراماً للكلمة..

وفي عهد جمال عبد الناصر لم يكن يجرؤ أحد أن يذكر تاريخ مصر القديم.. فالتاريخ قد بدأ بعبد الناصر وانتهى به أيضاً: فلا عرابي ولا مصطفى كامل ولا سعد زغلول ولا النحاس. لم يكن أحد يذكرهم. حتى تفضل جمال عبد الناصر على شعب مصر فسمح بذكر هذه الأسماء. بل إن كتباً صدرت في مصر لم يرد فيها اسم: إسرائيل والعدوان الثلاثي والنكسة ـ كأنها جميعاً لم تقع ويحطم لها قلب وعقل مصر!

ويوم وقع الاعتداء على جمال عبد الناصر في الإسكندرية صرخ بأعلى صوته يمحو ماضي وحاضر ومستقبل مصر قال: أنا الذي علمتكم الكرامة.. أنا الذي علمتكم العزة!

أي قبل ذلك لم تعرف مصر كرامة ولا عزة.. وإذا كان قد أشاع العزة والكرامة بعض الوقت فإنه قد حصدها وسحقها في حرب اليمن، وفي العدوان الثلاثي، وفي انفصال سوريا، ونكسة يونيو، ونكبة مصر الاقتصادية

والسياسية بعد ذلك!

وكنا نشير إلى مصر قبل الثورة بأنها العهد الأسود البغيض. أما ما بعدها فهو العهد الأبيض الحبيب. ويكفي أن نلقي نظرة على كيف يعيش أولاد الملك فاروق وأولاد الزعيم عبد الناصر. أما أولاد الزعيم الخالد فهم أصحاب ملايين ولهم طائرات خاصة. من أين لهم هذا؟ بل كثير عليهم هذا. أما بنات الملك فاروق أولاد العهد الأسود البغيض فهن يعملن جرسونات في مطاعم سويسرا. أو في المستشفيات. مثلاً: كيف تعيش الملكة السابقة فريدة.. وقد أحبها الشعب، لشخصها وليس لكراهية الناس لزوجها الملك فاروق. إنها تعيش على مرتب سفرجي في المعادي.. وفي استطاعة أي واحد أن يحصي عدد البلوزات والجوبات التي ترتديها هذه المواطنة المصرية النظيفة ـ وكانت على قمة العهد الأسود البغيض!

وقد عرفت الثورات نوعاً من السخط على الماضي، بعض الماضي وليس كل الماضي. فالثورة الفرنسية غيرت أسماء الشهور وجعلت التقويم يبدأ بها.. ثم عدلت عن ذلك..

والثورة الروسية أكلت رجالها.. فكل زعيم يجيء يمحو الزعيم الذي قبله.. فستالين مسح من الوجود تروتسكي. وخروتشيف أزال تماثيل واسم ستالين من

الميـادين والكتب. وجـاء بـرجنيف فمحق خـروتشيف وجعله يموت في إحدى الحدائق وهو يصـطاد العصافيـر والفراشـات لأحفـاده، ولم يدفنـوه مع العـظماء في الكـرملين، وإنمـا في مقابر الفقراء التابعـة لوزارة الأوقـاف. . وجاء انـدروبوف ومن بعده جوربـاتشوف يسحبـان ستائـر من الظلال والنسيـان على بـرجنيف. . والـذي فعله الـرئيس عبـد النـاصـر، استمـرار للعادات الفرعونية القديمة. فقـد كان من عـادة فراعين مصـر أن يمسحوا آثار أسلافهم. . فهم يقطعون الرقبـة أو يجدعـون الأنف أو يفقـأون العين. . حتى إذا بعث الملك يوم القيـامـة كان بلا رأس ولا عين ولا أنف. . ولا مجد ولا أبهة!

فما الذي يفعله الشبان؟

إنهم يهجرون الواقع ويهاجرون إلى الخيال. فـالواقـع لا يفهمـونـه، وإذا فهمـوه أنكـروه. ولـذلـك أداروا وجـوههم ورؤوسهم وقلوبهم وعقـولهم وأيديهم إلى النـاحيـة الأخـرى. إذن فلقـد أحسـوا بـالغـربـة. إنهم غـربـاء في بـلادهم. ولا تسمح لهم بالدخول والإقامة والتـوطن. هم رفضوا بـلادهم، وبلادهم رفضتهم أيضاً.

وبعضهم قـرر الهجـرة إلى عـوالم أخـرى: المخـدرات والجنات الزائفة والإدمان أي الغياب المستمر عن الوعي. .

أو إلى التـطرف الديني والسيـاسي والتربص بـالمجتمع. فالمجتمع ما دام كافراً بهم، فهو كـافر. وهم لا يعيشـون في

هـذا المجتمـع الكـافـر. ومـا دام المجتمـع لا يصـالحهم بـالـذوق، إذن فـلا بـد أن يفـرضـوا عليـه الصلح بـالقـوة. والتطرف الديني الـذي يقوم على تكفيـر كل النـاس والابتعاد عنهم ـ أي التكفير والهجرة ليس إلا رد فعـل. والفعل هـو أن المجتمـع قـد ضلل هؤلاء الشبـان وأهملهم. وتـركهم في غياهب اللامبالاة..

أو الهجـرة إلى التاريخ القديم.. إلى العصـور الذهبيـة للمجتمع المصري والعربي والإسلامي.. أيـام زمان.. أيـام كان كل شيء طيبـاً جميلاً.. أيـام الخير الكثيـر والسلام مـع النفس ومـع النـاس ومـع الله.. تلك الأيـام التي لن تعـود. ولكي تعـود لا بد أن نعيـد الماضي كله كمـا كان. ولن يعـود المـاضي إلا بـاتبـاع كتـاب الله.. الكتـاب الـواحـد والنبي الـواحـد والإلـه الـواحـد. وبغيـر ذلـك لا أمـل في الـدنيـا والآخرة!

أو الهجـرة إلى بلاد أخـرى. وقد تكـون الحياة في هـذه البـلاد الجديـدة أقسى من الحياة في مصـر. ولكن المهـاجـر لم يعد يقارن. إنـه اختار أي مكـان إلا مصر، وأي عمـل إلا البكـاء على مصـر. فيكـون الشـاب مـدلـلاً في بلده، ولكنـه يـرتضي مسح البـلاط في أي بلد آخـر.. إذن فهـو اختـار أن يعمـل ويكون محترماً، على أن يضـع ساقـاً على ساق، ولا يعبأ به أحد.. إن حياة كثير من المهاجـرين شاقـة. لا شكوى

منها ما دام الناس جميعاً يعملون. وفي النهاية يساوي بينهم القانون. ثم إنهم يعرفون لهم طريقاً وهدفاً.. ويعرفون مستقبل أولادهم.. فإن اتسع الوقت وامتد العمر عادوا سياحاً إلى مصر - فهي الأم وهي الوطن!

والحيوانات والطيور تهاجر من البرد إلى الدفء، بغريزة حب البقاء. بل إن أضعف الحشرات كالفراشات مثلاً.. تطير ألوف الأميال شهوراً لتعيش أياماً في مناطق أدفأ ثم تعود تحملها الرياح والأمواج إلى أوطانها الأصلية. ولا أحد يعرف كيف تتم هجرة هذه الكائنات في طريق واحد لم تغيره من ألوف السنين.. هل تهتدي بالشمس.. بالنجوم.. بجاذبية الأرض.. بملوحة الهواء هل في رؤوسها عقول ألكترونية.. هل هي مادة أوكسيد الحديد الممغنط في أعصابها؟ لا أحد يعرف. ولكن من المؤكد أن الهجرة غريزة الحيوان والإنسان أيضاً!

أما الذين قرروا البقاء في مصر، دون أن يهاجروا وهم فيها، أي دون أن يهجروها وأن ينقطعوا عنها فماذا تقدم لهم؟

أن نشجعهم على المقاومة قليلاً. أن يقاوموا اللامبالاة.. واليأس والقرف وأن يديروا وجوههم ناحيتنا، وأن تنحني رؤوسهم ليروا الأرض تحت أقدامهم. فمنها خرجنا وعليها عشنا وبها تقدمنا.. وإليها نعود..

إن أستاذنا العظيم الفيلسوف سقراط أمسك فأراً في يده، فعضه الفأر وهرب. قال سقراط: لو قاوم الإنسان قليلاً مثل هذا الفأر، لنال حريته في النهاية!

إذن فالمطلوب هو أن تكون لنا مقاومة فأر اعتقلته الظروف حتى شلت حركته..

فما الذي نقدمه للشباب؟

الأرض.. لا شيء غير الأرض.. يجب أن ندفع الشباب إلى طرق مرصوفة. وأهداف معروفة. وخير عظيم: أرض مصر نعطيها له بلا ثمن.. ويملكها هو وأولاده، ونساعده على أن يستغل الثروة والخير تحت قدميه.. والشيء الوحيد الكبير في بلادنا هو: أرض مصر..

ثلاثة أشياء تزداد في مصر: الناس والديون والأرض المزروعة.. أما الناس فسوف يتزايدون، ونحن نحاول أن نجعل الزيادة معقولة.. أما الديون فنحن نحاول أن نفي بها على المدى الطويل. أما الأرض المزروعة فيجب أن تتسع وأن تتخذ اللون الأخضر: لون النبات.. واللون الأزرق: مياه القنوات.. واللون الذهبي: سنابل القمح.. واللون الأصفر: البرتقال.. واللون الأسود: الظلال تحت الأشجار.. وبريق الماس: المصابيح الكهربية في الشارع والمصنع والمزرعة والبيت..

لا أمـل: إلا الأرض.. وفي هـذه الأرض وعليهـا ومن أجلها يجب أن تثبت الأقدام. كما نلقي بالبـذور في الأرض وننتظر نموها.. كذلـك يجب أن نزرع الشبـاب في الأرض. وننتـظر زهور الأمـل، وثمـار المستقبـل.. وتكـاثـر الأصحـاء السعداء في بلادنا..

وقـد ناديت في هـذا المكـان ولن أكف عن تـوجيه كـل سيـاسة مصـر واقتصـادهـا إلى فـلاحـة الأرض وإلى أن يعـود المصـريون فـلاحين قد استنـارت عقـولهم، وتعلمت أيـديهم كيف تقـود الجـرار وكيف تـديـر المصـانـع بـالعقـول الالكتـرونيـة.. إن لم نكن نعـرف مـاذا فعلت البـرازيـل والمكسيك وفرنسـا وإيطاليـا، وما فعلتـه إسرائيـل في الأرض الضيقة والموارد القليلة، فمن الواجب أن نعرف. وأن تكـون نصف جـامعاتنـا كليات لخـدمة الأرض المـزروعـة والمـوارد الصحـراوية والغـابـات والبسـاتين والميـاه الجـوفيـة والـطاقـة الشمسيـة وتطويـع الصحراء وتـربية وتنميـة الأسماك ـ كـل ما في الأرض وهـو خيـر كثيـر جـداً، من أجـل الفـلاحين ذوي البنـطلونات والنـظارت. والفـلاحـات ذوات الجـوب والبلوزة والأطفال الذين يتسلون «بالأتاري»..

فـإذا استقروا، استقـرت أفكارهم وتـأكدت عـلاقـاتهم، واتضـح طريقهم، وأضـاءت أهدافهم.. وعـاد إليهم إيمانهم بـأنفسهم ومستقبلهم ودينهم. وعقـدنـا صلحـاً مـع أنفسهم،

وغيـرهم . . وتعـانقت الأرض والسمـاء . واحتشـد الهـاربـون والمهجرون والمهاجرون والكافرون والرافضـون واللامنتمـون في صعيد واحد : أرض مصر . .

فـإذا حـدث كـل ذلـك ، وجب أن نصحح المفهـومـات الخاطئة عن الفـلاح المصري : فنحن نقـول إنه متـواكل . أي يعتمد على غيره . . فـإذا كان الغيـر هو الأرض ، فليكن . وإن الفلاح لا يريد أن يهاجر لأنه محاصر شـرقاً بـالبحر الأحمـر ، وغـرباً بـالصحـراء ، وجنـوبـاً بـالشـلالات ، وشمـالاً بـالبحـر الأبيض . . ومحاصر في الـوادي الضيق بالـرمال . فـإذا كانت الـرغبـة في الاستقـرار والثبـات ومـد الجـذور في الأعمـاق ، بسبب امتلاكه للأرض . فليكن . فهذا بالضبط ما نريد . .

وســوف ينظر الفـلاح الجديـد إلى تاريخـه كله بالفخـر : فعـرابي باشـا فلاح ، وسعـد زغلول فلاح أزهـري ، ومصطفى كامل ابن الطبقة الوسطى ، وعبد الناصر من الطبقـة الوسـطى والسادات فلاح وحسني مبارك فلاح .

فمصـر هبة النيـل ـ أي النيل هـو الذي أهـداها لنـا ، بما قـدم من مـاء وفيـر وخصـوبـة دائمـة . ومصـر الجـديـدة هبـة المصريين لأنفسهم . . زرعوها بالعلم وطوروها بالتكنولـوجيا ، ودافعـوا عنهـا بـالحب . وآمنـوا بهـا ، لأنهم آمنـوا بـأنفسهم وبـالـوطن وبـالخيـر لا تسقط من السمـاء ، وإنمـا تخـرج من

الأرض بأيديهم وعلى أيـديهم وفي نور عيـونهم تتراقص على دقات قلوبهم، وبحساب من عقولهم . .

وشعارنا: بغير الأرض لا نرضى!

الزراعة
كنز لا يفنى!

إذا نظرت إلى الناس حولك واندهشت: من يكون هؤلاء؟.. إذا نظرت إلى والديك إلى أخوتك إلى جارك إلى زميلك.. إلى وجهك في المرآة، إلى يدك ورحت تتابع ذراعك حتى كتفك. كأنك تتطلع إلى واحد آخر غيرك.. فمعنى ذلك أنك تشعر بالغربة في دنياك.. وإذا أنت اندهشت لما تسمع من الكلام، ولما تقرأ ولما تقول ـ فأنت إذن غريب.

والذي تسمع لا يدخل دماغك، والذي تقوله لا يريح ضميرك، فلا عينك استراحت إلى ما رأت، ولا أذنك ولا أنفك ولا لسانك.. وكل شيء يدخل معدتك بسرعة يخرج منها ومن عينيك وأذنك وعقلك وقلبك ويدك ـ إن كل حواسك ترفض، وتلفظ.. و «ترجع».

وإذا ذهبت إلى عملك فأنت غير راض عن مقعدك، عن مكتبك، عن جارك، عن رئيسك.. ومئات الملايين مثلك في هذه الدنيا، وملايين مثلك في مصر ـ فهل أنت على خطأ والناس كلهم على صواب؟.

لا أنت على خطأ. ولا هم على صواب. ولكن هناك خطأ ما بينك وبين الناس، وبينك وبين نفسك.

فما الذي تعلمت؟.

إن الذي تعلمته قد تبخر من رأسك، وما تبقى لا يساعدك على أن تعيش، وإذا ساعدك على أن تتكلم وتتألم لم يساعدك على أن تعمل. وإذا عملت، فالذي تعمله لا يقنعك.. ولا يساعدك على أن تتعايش وتتوافق.. إذن فالذي تعلمته شيء غريب عنك.

ثم ما الذي تعلمه؟

إن كنت عاملاً يدوياً، فإن العمل نفسه هو الذي عزلك.. رفضك.. فأنت تعمل الكثير وتنتج الكثير وتتقاضى القليل. فأنت لا تساوي ما تعمله.. بل أنت لا تساوي. أنت قطعة غيار يمكن الاستغناء عنها.. بل إن الأجهزة الحديثة تتطور بحيث تستغني عنك.. فالآلة تطردك.. تنبذك.. كما أن الأسرة والمجتمع والدولة والحياة كلها تتكاتف ضدك.

أنت تتفرج على التلفزيون عندما يقول لك: أجب عن هذا السؤال بمنتهى الصراحة والصدق.. إذا كنت أباً وعندك ابنة جامعية وجاءها شابان أحدهما جامعي مثلها فقير، والثاني «صنايعي» غني. فأيهما تعطي ابنتك؟

المسلسلات والواقع والجيران وأنت وزوجتك تؤكدون جميعاً: بل يستحقها الشاب الغني الذي يقدم لها الشقة والثلاجة والتلفزيون والسيارة ويضمن لأولادها حياة أفضل. أما الشاب الجامعي الغلبان فله رب اسمه الكريم.. وليدق أبواباً أخرى في مدينة أخرى!.

وأنت هذا الشاب المرفوض..

طبعاً يغضبك ذلك ويحزنك على الذي تعلمت والذي كنت تحلم به، وتسحقك خيبة أمل والديك اللذين أنفقا المال والدم وأنفاس الحياة ودعاء الفجر، من أجل أن تكون شيئاً، لهما ولنفسك..

إذن فمصر كلها لا تريدك. ولا أنت تريدها!.

والشاعر كذاب وعبيط يقبل الهوان عندما قال:

بلادي وإن جارت عليّ عزيزة
وأهلي وإن ضنوا عليّ كرام!

بل بلادي ما دامت قد جارت فهي جائرة، وما دام أهلي قد ضنوا فهم بخلاء.. والحياة في أي مكان آخر أفضل. إذن فأنت تريد أن تهاجر من بلادك. أو تهجرها وأنت فيها، وتلتفت إلى المجتمع وتلعن الزمان والمكان!.

فما الحل؟.

هناك أكثر من حل . .

فإن كنت سيارة مفككة تآكلت تروسها و «نعمت» مساميرها فلا بد من إدخالك الورشة . . المستشفى . . ليعاد ربط وضبط وإحلال وإبدال . . أو لا بد من المستشفى لعلاج الخلل في أجهزة الهضم والدم والتنفس . . تنشيط أو فرملة الغدد . .

أو تلتحق بالخدمة العسكرية . . فالجيش تأديب وتهذيب وإصلاح . . فالذي لم يعلمه أبوه يعلمه الجيش والسجون . والذي لم يعرف النظام، والذي لم يعرف التضحية والذي لم يشكر الله على نعمة المخدة والمرتبة والكوب الزجاجي والكسل في الفراش والذي يعتمد على الغير في كل شيء، علاجه الوحيد : الجيش . . فلن يجد شيئاً من كل ذلك . ثم يكون في صحة جيدة وأعصاب هادئة وعضلات قوية . .

ولما سئل أحد العلماء الألمان عن سر عبقرية الشعب الألماني قال : بسيطة . . مررنا على الثكنات قبل دخولنا الجامعة ! .

أي أنه الانضباط والعلم . والعلم انضباط والانضباط علم وكلاهما إنكار للذات .

ولكني أرى حلاً وحيداً فريداً لمشاعر الغربة والاغتراب والضياع . . للهجرة من مصر والهجرة داخل مصر . .

الحل هو أن تملأ عيون الشباب وأيديهم: تراباً.. تراب مصر..

عندنا الصحاري يجب أن نوزعها على الشباب بملاليم.. وإذا كنا نعطي الخريج الجامعي عشرة أفدنة مستصلحة فيجب أن نعطيه أضعافاً أرضاً صحراوية. وأن نيسر له الزراعة والإصلاح والإقامة وامتلاك كل ما صنعت يداه.. فتكون الأرض هي العرض!.

هل نتكلم بصراحة؟ نعم. بمنتهى الصراحة: ليس صحيحاً ما يقال رسمياً من أن الأرض الزراعية قد زادت فداناً واحداً عما كانت عليه أيام الخديو إسماعيل أي من مائة سنة.. والله العظيم أقول الحق. ولا شيء إلا الحق: بل نقصت نصف مليون فدان! لماذا؟ لأننا أقمنا البيوت وشققنا الشوارع على جثث الأشجار والنباتات. هذه هي الحقيقة التي نخجل من ذكرها. ولكنها الحقيقة التي تفضح أعمق أعماق الروح المصرية المدمرة: التي تكره المزروعات وتكره أجمل صور الحياة.. كأنه مكتوب علينا نحن المصريين أن نقتل أنفسنا.

بإعدام الأشجار وتقليل فرص العمل وتكفير الشباب بحياتهم ومستقبلهم على أرضهم.. وكأنه مكتوب علينا أن تظل الأهرامات: أكبر مقابر للتاريخ.. مع أن هذه الأهرامات هي أروع وأعظم ما ابتدع الإنسان من هندسة معمارية

فلكية ـ وهذا ما يقوله اليابانيون الـذين جاءوا أخيـراً يكتشفون الجـديد في عـظمة الفـراعنة. ولكننـا نرى الأهـرامات دليـلاً على أن الفـراعنـة كـانـوا طغـاة. سخـروا عشـرين ألفـاً من الفـلاحين والعمال في قـطع الأحجار وسحبهـا ورفعهـا وبنـاء الهـرم، وقـد أطعمهم الملوك البصـل والتـرمس.. وننسى أن الذي حدث معجـزة لكل العصـور. كأننـا أردنا بهـذا المعنى أن نحتقـر العمل. أن نـرفض العمـل. وأن نقـول إنهـا دليـل على السخـرة، ولذلـك فنحن لا نريـد أن نعمـل.. لأن كـل عمل سخرة!.

ثم قلنا نفس الشيء عن حفر قناة السويس. فالفرنسيـون سخرونا حتى المـوت لفتح قنـاة لهم.. والحقيقة أن القنـاةلنا في أرضنا.. وسوف تبقى لنا.

وقيـل أيضاً عن السـد العالي، إنهم الأمـريكان ألقـوا بنا في أحضان الروس الذين سخرونا في حفر قنـاة أخرى للنيـل أخـطر من قناة السـويس، وأخرجنـا من الأرض ترابـاً أكبر من الهـدم، ووضعنـا في الأرض حجـارة أكبـر من الأهـرامـات الثلاثة. فالسد العالي: أحدث صور السخرة!.

فكـل شيء عظيم أقمنـاه وصمناه بـأنـه قـائم على القهـر والذل والظلم؛ فنحن إذن ننتهز كل فـرصة لنكفـر بالعمـل.. والعمال أيضاً!.

فليكن. ولكن من لا يعمل يموت. فلا بد أن نعمل حتى لا نموت. وليس يكفي أن نعيش ولكن أن نعيش أكرم وأفضل وأطول وأسعد.. وأن تمتد الحياة في أجيالنا المتلاحقة إلى ما شاء الله.. وأن نرى اليوم أحسن من الأمس والغد أفضل من الاثنين..

كيف؟

بالأرض وعلى الأرض.. وفي الأرض.. ولا شيء غير الأرض..

لقد أسعدني أنني تلقيت بحثاً للدكتور صلاح الزغبي أستاذ المجتمع الريفي بزراعة الإسكندرية ورئيس وحدة المجتمعات الصحراوية في مركز تنمية الصحراء بالجامعة الأمريكية بالقاهرة.. موضوع البحث:

قضية الانتماء وعلاقتها بتنمية الصحراء في مصر. فما هو الانتماء؟

هو أن تشعر بأنك «من» هذا البلد «ضمن» أفراده الذين يعيشون على أرضه ومن العمل فيه، وأن يكون «لك» دور في مسار الحياة وأن «تملك» ما صنعت يداك وأن تكون قادراً على «زيادة» ما تملك وأنت في «أمان» تام.. فلا أحد يوقف نموك ويختصر عملك ولا أحد يعوق نشاطك، لا أنت ولا أولادك اليوم وغداً ـ هذه العبارة من عندي.

أما ما يقوله الدكتور صلاح الزغبي في معنى الانتماء فهو:

١ ـ إحساس الفرد بالأمان من خلال إمكانية توفير المقومات الأساسية للحياة في المسكن والمأكل والعمل.

٢ ـ امتلاك الأرض التي يزرعها وأن يكون له حق المساهمة في المشروعات المختلفة.. لأن الانتماء يدفعه للمشاركة، والمشاركة تقوي الانتماء.. وليس المقصود بالمشاركة أن يحصل على وظيفة حكومية، كالخريجين الذين تعينهم الدولة. وإنما أن نفتح مجالات مختلفة للعمل الحر للشباب. فيشترك في بناء المجتمعات الجديدة.

وأن تكون للشباب فرصة المساهمة في اتخاذ القرار في كل ما يتعلق بحياته وعمله ومستقبله، وأن يتأكد لدى الشباب شعور بأن الدولة تساعده.. تحترمه.. تيسر له.. لا أن تكون عقبة أو مطباً في طريقه. فلا يكون مثل الفأر في مصيدة اللوائح والروتين..

ولا شك في أن المجتمعات الصحراوية الجديدة هي أروع فرص العمل لملايين الشباب الضال المضلل.

ولا سبيل لشحن القدرات المعطلة إلا بالتدريب على حياة الصحراء وتنمية الصحراء والتوافق مع البيئة النباتية والحيوانية.. والحفاظ على التوازن بين قوى الأرض

والحيوان والنبات والإنسان . .

ولا بد أن يشترك الشباب بالملايين في تنمية الموارد الطبيعية المتوافرة في صحارينا . .

ولا بد من الهجرة المنظمة من المجتمعات القديمة إلى المجتمعات الجديدة. ولكي تتم الهجرة بشكل منظم، هناك مراحل ثلاث:

١ ـ إنشاء الطرق والمرافق العامة بمشاركة الشباب.

٢ ـ استزراع الأرض والمحاصيل المناسبة للبيئة ـ يشارك فيها الشباب.

٣ ـ الاستيطان: وهي مرحلة تهجير الأهالي من المجتمعات القديمة . . وهي عملية اقتصادية اجتماعية. ولا بد من اختيار المستوطنين القادرين على التكيف والتوافق مع الحياة والاستمرار في الأرض الجديدة . .

وقد كانت الدولة تقوم بالمرحلتين الأولى والثانية. ولكنها الآن لا تستطيع بسبب الضائقة الاقتصادية. فليكن . . عندنا ملايين الشباب يجب أن يشاركوا وأن يعملوا لدنياهم الجديدة بشرط أن تكون «دنياهم» ملكاً لهم . . وهكذا نغرسهم في أرضهم المملوكة لهم، هذا هو الانتماء الحقيقي العملي العضوي الزراعي الحيواني الاقتصادي الشبابي المستقبلي.

إن الدول الشيوعية التي فرضت الملكية العامة على مئات الملايين، وجعلت الناس مثل كل الناس: فقراء لا يملكون.. مسامير في جهاز الدولة الحديدية.. هذه الدول كان لها ما أرادت.. فقد سخرت الناس بالكرباج إلى زرع الأرض وحلب الأبقار وحمل السلاح دفاعاً عن الأرض التي لا يملكها أحد.. وإلى نسف الجبال، وشق الترع، وتجفيف المستنقعات. كل ذلك بالأمر المباشر تماماً كما يحدث في السجون: فالسجناء يقطعون الصخر ويصنعون أثاث العرايس.. ويزرعون ويحصدون - كل ذلك بالكرباج.. بالطاعة والذل والهوان. فالعمل عقوبة. وحرمانهم من ثمرة ما يعملون هو تغليظ للعقوبة. وكذلك الحال في كل الدول الشيوعية.

ولكن.. عادت الدول الشيوعية ترد للإنسان حقه الطبيعي.. غريزة البقاء.. غريزة الامتلاك.. غريزة الخصوصية.. فكما أن له زوجة خاصة، وابناً خاصاً، وسريراً خاصاً.. وردت له انسانيته في أن يملك الأرض والسيارة والزوجة والولد، والحق في أن يحلم أحلامه الخاصة.

ونحن إن لم نكن فلاحين، فنحن ريفيون.. عشنا على الأرض ومن أجلها.. وعندما قررنا أن نهرب هربنا منها، ولكن إليها.. فإذا نحن قررنا العودة فإلى الأرض التي

يجب أن نعمل فيها وأن نعرق وأن نتعب فوقها، وأن نستريح في ظلها وأن نعيش على أرزها وقمحها وبرتقالها وأسماكها. . أن نكون للأرض، فتكون الأرض لنا. .

لا حل إلا في رحاب الصحاري. . إلا في ترويضها. . في اخضرارها . . في جناتها في قنواتها.

وعندما فشل الرئيس كارتر في أن يكون رئيساً لبلاده فترة ثانية أعلن سعادته بالعودة إلى الأرض. . فهو من أكبر زارعي «الفول السوداني» في أمريكا. . ويوم فشل سحب خصومه السوداني من المطاعم والبارات ووضعوا الفستق. وكان ذلك لليلة واحدة، وبعدها عادوا إلى السوداني يشترونه من مزارع الرئيس كارتر. الذي يسعده في كل مناسبة، أن يعلن أنه فلاح أوفدته القرية لبضع سنوات ليرأس الفلاحين والعمال والمثقفين والجنود في أمريكا كلها ثم يعود بعد ذلك إلى حقول السوداني.

ويوم يذهب الشباب إلى المجتمعات الجديدة بتأييد وتشجيع واحترام وفرحة الدولة وكل الناس، فسوف تعتدل أسعار الأرض الزراعية وأرض البناء والخضراوات والفاكهة وكل ما ينتجه الحقل والحديقة والمزارع السمكية. لماذا؟! لأن الشباب قد أضافوا الملايين من الأفدنة المزروعة، فتضاعف إنتاجها من البقول والخضراوات والفواكه والطيور والأسماك، فانخفضت الأسعار. .

فإذا كانت مصر القديمة: هبة النيل فإن مصر الجديدة هبة الشباب.

وليس صحيحاً أن شباب مصر فاشل. ولكن الصحيح أنه شباب يائس.

وهو يائس لأن أحداً لم يقل له بشجاعة ما هو الصح وما هو الخطأ.

شباب ممزق لا لأنه أحب الضياع، ولكن لأن أحداً لم يدله على الطريق المستقيم.. ونحن الأكبر سناً ظلمنا الشباب وجنينا عليه.. فلما اختار الشباب أي شيء، أية وسيلة أي هدف، أية وجهة أي شيخ، أي إمام، اتهمنا الشباب بالتخريب والتآمر والتطرف.. فأفكاره شبورة، وعواطفه خماسين، وصلواته حفلات زار؟!

والحقيقة أننا نحن المتطرفون.. فقد تطرفنا في الإهمال، فتطرف الشباب في التربص.. تطرفنا في الظلم، فتطرف الشباب في الرفض..

تطرفنا في الكلام الفارغ، فتطرف الشباب في سد أذنيه بأصابعه وبالقطن وبالطين.. ثم نلوم الشباب ولا نلوم أنفسنا.

فإن أردنا إصلاح حال الشباب، وحالنا أيضاً فلنتقدم له بالحل العملي الملموس الذي يثبت الدنيا في عينيه وأذنيه

وفي يديه وتحت قدميه. . ويصالح عقله على قلبه، حاضره على مستقبله، هو على والديه وعلى المجتمع. الحل هو:

الأرض نهديها إليه، ونهديه إليها. . ونوفر له الطريق والماء والمواصلات والقروض والخبرات. . ونقول: شبيك لبيك. . أرضك بين يديك. . مستقبل مصر وراحة الأسرة وسعادة الجميع!

فهناك نوعان من الكنوز:

كنوز في جوف الأرض: المناجم والبترول. .

وكنوز فوق الأرض: الزراعة التي هي كنز لا يفنى!

ولكن كنز الكنوز: الشباب!

إذا أردنا الاستقرار فلنعط الشباب أرضاً!

من أربعين عاماً ذهبت مع الفنانين الكبيرين حسين بيكار وعبد السلام الشريف إلى «عزبة النخل» لنشتري أرضاً. المتر بثلاثة قروش. وكنت أتمنى أن أقف على أرض صلبة. وأعلق عليها لافتة وعلى اللافتة مكتوب: هذه الأرض ملك لأنيس منصور. هذه هي الأرض التي حدثنا عنها العالم الإغريقي أرشميدس. قال: أعطني قطعة أرض خارج الكرة الأرضية وأنا أحرك لك الكون. كيف؟ لم يقل لنا. لأننا لم نسأل. فقد بهرتنا فكرة أن تكون للإنسان أرض. لا يشاركه فيها أحد. وليس مهماً ما الذي نصنعه بهذه الأرض.. إنها موطىء لقدمي والسلام!

ولم أكن جاداً في أن أملك شيئاً. فأنا لا أريد أن أملك شيئاً. إنما فقط أن أحقق لنفسي نوعاً من الاستقرار في مستهل حياتي الفكرية. ونسيت أن الاستقرار يبدأ من الداخل ويفيض على الخارج. وليس العكس!

فأنا واحد من المثاليين اليائسين: فقد تمنيت أن أعيش في مجتمع شيوعي. لا يملك فيه الإنسان أي شيء. كل

الناس سواء. لا غني ولا فقير. وأن يكون الإنسان حراً يفكر ويدبر ويصحو وينام كما يريد. ووجدت أن هذا هو المستحيل. فالمجتمعات الشيوعية مجتمعات آلية.. والناس تعساء. لأنه من الطبيعي الغريزي أن يملك الإنسان عشاً وأرضاً وزوجة وولداً ـ انظر إلى الطيور وهي تتقاتل على «البيئة» ـ أي على الأرض التي تتغذى منها وتعيش عليها هي وصغارها.. انظر إلى الوحوش في الغابات.. كلها تتقاتل من أجل الطعام والسيطرة ـ طعام الأطفال وحمايتها!

وتصورت أن حياة «الكيبوتس» الإسرائيلي هي أحدث أنواع «الشيوعيات» الصغيرة. فكل شيء متوافر لكل إنسان: يعمل ويأكل ويشرب ولا يفكر إلا في العمل والإنتاج. وأكلت وشربت في الكيبوتس الإسرائيلي وجلست إلى الأديب الإسرائيلي الكبير «أموس عوز» ـ ربما كان هو أكثر الناس حيوية وعمقاً. هو شخصياً. ولكن الناس تعساء. الحياة جافة خشنة. فالناس آلات حزينة. وحريتهم محدودة. وأصبحت حريتهم الآن هي في أن يفروا من هذه المستوطنات أو القرى المعزولة من بهجة الدنيا ومغامرات الحياة. فالإنسان يحب من حين إلى حين أن يعود بدائياً شرساً متمرداً.. ولو أدى ذلك إلى أن يفقد الطعام والشراب والعمل!

وكنت ولا أزال أرى أن الذي أملكه يملكني: تملك

الأرض تحملها على رأسك. . تملك البيت يوجعك مسمار يدقه ساكن في الحائط، تغرقك قطرات الماء إذا تسربت من المستأجر. . تذوب عرقاً إذا رأيت حريقاً مشتعلاً في أول الشارع؟!

ثم أيقنت بمرور الوقت أنني انتسب إلى نوع من ديدان الورق ـ التي تأكل الكتب وتشرب الحبر، ومحكوم عليها بالأفكار الشاقة المؤبدة. فمهما طلبت الحرية فأنا سجين، ومهما نشدت الراحة فأنا شقي، ومهما استقرت الأرض تحت قدمي، فأنا بركان فوقها. ورضيت بقدري ـ ولا حيلة لي في ذلك: .

ولكن الناس الأكثر اتصالاً بالأرض يملكونها فيزرعونها، فهم الذي حملوا حضارة الإنسان على أكتافهم وهم الذين دفعونا إلى الأمام!

وقد رأيت ذلك في مساحات صغيرة من الأرض في سيناء في مواجهة مدينة الإسماعيلية. . إنهم الشباب الجامعي. خرج يبني مصر الجديدة. خرج يترجم الرمال إلى أرض خصبة، ويضع أذنه على الأرض يستمع إلى سيمفونية النبات والزهور والثمار والتراكتورات. فما الذي لديه؟ شباب وإرادة وصبر!

وقبل أن أصف لك ما رأيت، دعني أنقل لك ما قاله

أبو التاريخ الحديث أرنولد توينبي في كتاب له بعنوان «الإنسانية وأمنا الأرض» فهذا المؤرخ العظيم سوف يصف لك عناصر الحضارة المصرية القديمة، والحديثة في هذه العبارات البليغة الحكيمة. يقول:

«إن مصر هبة النيل كما قال المؤرخ الإغريقي هيرودوت. وظلت مصر هبة النيل إلى أن أقام المصريون خزان أسوان سنة ١٩٠٢. وبعد ذلك أصبحت مصر هبة الخزان. فقد استطاع المصري القديم أن يحول المستنقعات التي خلقها الفيضان، إلى جنات قد صنعها الطمى. وأعظم إنجازات المصريين القدماء: إقامة حكومة مركزية لإدارة شؤون مصر من الشلال الأول حتى البحر الأبيض. وقد استمتعت مصر بالاستقرار السياسي، فيما عدا فترات قليلة أدت إلى التفكك الإداري. وقد ساعد على هذا الاستقرار الإداري والسياسي تلك المواصلات الداخلية الرائعة التي لا نظير لها في كل الحضارات القديمة.. ثم تأكد هذا الاستقرار بعد اختراع السكك الحديدية منذ ١٥٠ عاماً. وبسبب وجود السلطة في أيدي حكام ممتازين توافرت المواد الأولية الضرورية لحياة الإنسان. فاستطاع المصريون تهذيب النيل وترويض المستنقعات والأحراش، فكانت لمصر هذه الوفرة في الإنتاج الزراعي.. وكان المصريون حريصين أيضاً على جعل الحياة بعد الموت أهدأ

أو أهنأ من الحياة الدنيا. ولما كانت الحياة بعد الموت أطول، كان اهتمامهم بالمقابر أكثر من حرصبهم على البيوت.

ولما كان الحجر متوافراً، نهضت صناعة البيوت والأهرامات والمعابد.. ولما كانت العمارة هي السيطرة على الحجر صار النحت هو السيطرة على العمارة فكانت النقوش والتماثيل.. ولما كانت الأخشاب قريبة من مصر في قبرص ولبنان، فقد تطورت صناعة السفن؛ ولا تزال مراكب الشمس رمزاً باقياً لأستاذية المصريين على الخشب، كما أن الأهرامات والتماثيل أكبر دليل على عظمة المصريين وسيطرتهم على صناعة الحجر».

ويقول فيلسوف فرنسا أندريه مالرو: عرف المصريون القدماء الخلود، عندما عرفوا الحجر!

فأساس الحضارة إذن هو: الماء والمواصلات والطمى والاستقرار والإدارة الحكيمة وإرادة الإنسان.

أرجو أن تحتفظ بهذه المعاني إذا ذهبت إلى سيناء لترى الشباب المصري يصلح الصحراء ويضع قطرة الماء في كل ذرة رمل، ثم يجمع بين الذرات على حضانة بذرة واحدة وينتظر عاماً بعد عام. فالأرض ملك الشباب. والزراعة من صنعه. والحاصل في جيبه وجيب أولاده معه

ومن بعده . .

لقد رأينا الأهرامات ألوف السنين. ولكننا لم نعرف ما هي حتى جاء العالم الفرنسي «شامبوليون» الذي اكتشف حجر رشيد، وفي الحجر وجد لغة الفراعنة . . فهو الذي اكتشف لنا الأهرامات التي نراها ولا ندريها!

وكانت سيناء وسوف تبقى لنا. ولكن هل كان من الضروري أن تحتلها إسرائيل لنعرف أهميتها؟ كان لا بد أن نرى ما الذي أقاموه فيها من المستوطنات والحدائق الصغيرة لنعرف ما معنى الأرض ـ مع أننا فلاحون من ألوف السنين . . صحيح أننا أقمنا مديرية التحرير وغيرها من المديريات التي هي إصلاح للأرض الصحراوية. ونجحت مديرية التحرير بتكاليف باهظة. فليكن. ولكن التجربة رغم كل المعوقات والانحرافات، أصبحت مثلاً ناجحاً لما نستطيع أن نفعله أفضل وأرخص . . ولكننا لم نعرف الزراعات الصغيرة . . لم نعرف هذه «المستوطنات» المصرية لمساحة من الأرض تقام عليها بيوت وتتدفق فيها الحياة من الموتورات وتمشي فيها عروق وشرايين من المطاط تدفع فيها المياه والمبيدات والمخصبات معاً ـ لقد تعلمنا ذلك من إسرائيل. وإذا نظرت إلى الأنابيب فسوف تجد عليها كلمات عبرية!! . . عبرية . . إنجليزية . . فرنسية . . روسية. لا يهم. المهم أننا نشتري عناصر التجربة. وقد عرفنا بالقرب

من مديرية التحرير مزرعة آلية روسية ـ هدية لنا، وقد رأينا الخبراء السوفيت، كيف يزرعون الصحراء، تحت أقدامنا وأمام أعيننا، أما الباقي فعلينا.. فنضيف إليها ألوف ومئات ألوف الأفدنة الزراعية والبستانية والحيوانية.. وفي صحراء سيناء وفي مزارع الشباب، هذه الأنابيب لري الأرض بالتنقيط.. وبالرش.. ولتغطية النبات بالبلاستيك لتحتفظ لها بالدفء في ليالي الصحاري الباردة.. كل تجارب الشعوب الأخرى التي تقدمتنا في صناعة الزراعة، نلمسها من أول لحظة في سيناء..

سألت: هل تكسب؟

ـ الآن؟ نعم.

ـ هل تزرع أرضاً جديدة؟..

ـ أتمنى أن أضيف إلى الثلاثة عشر فداناً التي اشتريتها من الدولة، مثل هذه المساحة وأكثر. فقد عرفنا سر الأرض والزراعة والنجاح والمكسب.. ولكن..

ولكن هناك بعض الصعوبات التي تخلقها البيروقراطية المصرية العريقة.. فلا يكاد تجد أحداً يصلح أرضاً، حتى تحتشد كل القوانين واللوائح لخراب بيت هذا المصلح.. مع أننا يجب أن نعطي الأرض للشباب بملاليم.. وأن نوجههم علمياً واقتصادياً. أما الباقي فهم قادرون عليه. وقد

استطاعوا في أماكن كثيرة من سيناء ومن الوادي.

وقد كنت أتخيل وأحلم بأن يزرع الشباب في أرض يملكها، ونتركه ونعود إليه، لنرى ماذا فعل. كنت أحلم بذلك اليوم. ثم قررت أن أرى أحلامي. ووجدتها قريبة سهلة. فأرض مصر كلها صالحة للزراعة. هذه حقيقة علمية. وفي استطاعتك أن تنظر إلى الطريق من القاهرة إلى الإسكندرية. ومن القاهرة إلى الإسماعيلية.. الشجر يخرج من الرمل ويفلق الصخر. وكل ما ينقصها هو الماء. وعندنا الماء. ومن الممكن أن يكون الماء أوفر إذا استخدمنا أسلوباً آخر في الري ـ بدلاً من إغراق الأرض، فإننا نقوم «بتنقيط» الماء في عيونها.. وإذا نحن أيضاً منعنا الفلاح من النوم في بيته وترك الماء يتدفق في الأرض وفي المصارف ـ كل الفلاحين يغرقون أرضهم ليلاً!

وإذا نحن أيضاً ركبنا جلدة للحنفية ـ إذن لوفرنا ملياراً من الامتار المكعبة من مياه الشرب التي تتكلف مئات الملايين لتنقيتها وضخها في الحنفيات وفي المجاري براً أو بحراً..

وقد التقيت بعدد من أصحاب الأرض الزراعية وجلسنا نأكل الطماطم اللامعة الضخمة والخيار المقرمش. قلت: أين تسكن؟

ـ في الإسماعيلية. . كلنا نسكن في الإسماعيلية. ومن العدل أن نوجه الشكر للمحافظ عبد المنعم عمارة فلولاه. . ما كان. . وما كان. .

ـ والأسرة أين؟.

ـ مؤقتاً في الإسماعيلية. أتمنى أن نعيش على رأس الأرض. ولكن الكهرباء لم تصلنا بعد. . لقد امتدت إلى كل القرى حولنا. . إلا هنا. . لماذا؟ هل هو موقف خاص؟ ولكن من ماذا؟ إننا جميعاً شباب يزرع ويضيف إلى مصرنا الغالية مساحات من الإنتاج والإرادة والحضارة. . ونحن جميعاً مساحات من الأمل الأخضر لكل الذين فقدوا الأمل في الغد. . نحن هنا نصنع الغد بأيدينا وتحت أعيننا وبعقولنا. .

ـ قل لي من أين أنت؟.

ـ أنا كنت قد قررت أن أطفش من هذا البلد. . ووجدت حولي ألوفاً مثلي. . فلا أحد يقول لنا شيئاً. . ولا أحد يمد لنا جسراً، كالجسور التي عبرت عليها قواتنا المنتصرة من أشواك العار إلى أكاليل الغار. . ولذلك يجب أن نعبر مرة أخرى وأسرع. . أن نعبر إلى سيناء الواسعة الشائعة التي أخفت كنوزها تحت رمالها. . ومن أعظم كنوز سيناء: الأمل. . الأمل في أن نبقى وأن نملك وأن نستقر

وأن نكسب وأن تستمر مصر أقدر في الاعتماد على نفسها. . نحن أغنياء بأرضنا ومائنا وشمسنا وهوائنا وشبابنا. . صدقني. . إنني قد آمنت أخيراً جداً. . لقد كنت كافراً بكل شيء وكل أحد. . ولكن هذه الأرض قد ردت كل الذي فقدت. . أتمنى أن يسمعني المسؤولون عن الإصلاح والاستصلاح والاستزراع والزراعة والتعمير والإسكان إنهم يجب أن يكونوا أكثر مرونة وأكثر شجاعة. . ولكن هذا «التكويش» على الأرض وكأنها سوف تهرب خارج مصر. . وكأننا قوات احتلال. . ولو كان الأمر بيدي، لأعطيت الأرض خارج سيناء لألوف الشركات الأجنبية تزرع وترصف وتدق الطلمبات وترفع الماء وتنفق مئات الملايين. . وسوف تبقى الأرض في مصر. لن يحملها أحد معه خارج بلادنا. . ولكن هذا الخوف وهذا الجبن وسوء الفهم وسوء الظن، هو الذي أوقف نمونا الإصلاحي. . وأوقف تطور إنتاجنا. . وهو أيضاً الذي حزم أمتعة الشباب وطردهم من مصر!.

الله. . الله.. كأنه محمد عبد الوهاب قد أمسك العود لأم كلثوم وحوله كوروس من فايزة أحمد وعبد الحليم حافظ وفيروز وقد جلسنا على شاطىء القناة وتدلت أقدامنا في الماء وأمامنا ألوف السفن محملة بضائع داخلة وخارجة من مصر. . أما هذه العيون اللامعة بعيداً فهي ملايين الطيور

سمعت الموسيقى والغناء فهبطت إلى الأرض مفتونة بموسيقى الحياة والأمل والرخاء والسعادة! .

إن أساطير الإغريق قد حدثتنا عن الفتى أورفيوس الذي كان ينفخ في الناي فكانت الطيور تترك أوكارها والأسماك تترك أنهارها وتمشي وراءه مسحورة مبهورة بآيات السحر تخرج من شفتيه: جمالاً وسعادة وفتنة للعالمين! .

وقد عرفنا سيناء الآن . . لم نكن نعرفها بعد حرب ٤٨ و٥٦ و٦٧ . . اكتشفنا أن لنا أرضاً بعد ٧٣ . . وإن هذه الأرض خالية وأنه يمكننا أن نملأها بالناس، وأن نزرع وأن نخفف تكدس الوادي وأن نهدي الشباب، نهديه لها ونهديها له .

ومن أجمل ما قرأت في «الإلياذة» ملحمة شاعر الإغريق .هوميروس أن البطل «عوليس» عندما طلبوا إليه أن يشترك في حرب طروادة ليسترد الحسناء «هيلين» التي خطفوها. رفض . .فعادوا إليه فرفض. فتكاثروا عليه. فوجدوه قد ربط حصاناً وثوراً في المحراث. وراح يحرث في البحر. ويبذر الملح بدلاً من القمح. فظنوه مجنوناً. فعادوا إليه ووضعوا ابنه أمام المحراث، فتفادى أن يقتله فعرفوا أنه اختار الزراعة على القتل. اختار السلام على الحرب. وأروع صور السلام على الأرض: الزراعة . .

فنحن لا نزرع الأرض، ولكننا نحن نستصلح الشباب.. نغرس فيه الأمل والإرادة والصبر والتصميم.. نقضي على أفكاره البور، قبل أن يقضي هو على الأرض البور.. نزرعه هو، قبل أن نزرع به الأرض، وأن يزرع هو الأرض!.

إن كان الهدف هو مستقبل مصر فالشباب هو الوسيلة والغاية!.

والشباب ليس في حاجة إلى أن يدعي الجنون، فلا حرب هناك.. ولا أن ندعي نحن الجنون، فنحن لا نحارب الشباب.. ونحن لا نريد خراب مصر، فنبذرها بأملاح اليأس واللامبالاة..

قل لي ماذا تعمل في أرض مصر؟ أقل لك من أنت أيها الشاب؟!

الأمل في أجيال أكثر حباً للحياة

أصبحت الدنيا مثل كفك : تستطيع أن ترى أولها وآخرها . . وأن تتنبأ أيضاً بما سوف يحدث فيها من أمطار وبرد ورعد . . وبالزلازل والبراكين وبما تحدثه البقع الشمسية من ارتباك في المواصلات اللاسلكية . . وأصبحنا نعرف عدد الأقمار الصناعية حول الأرض وحول الكواكب الأخرى . . والآن تحتشد الأقمار الروسية والأمريكية استعداداً لحرب النجوم . . ويمكن التنبؤ بمنتهى الدقة أين يقع حطام هذه الأقمار . . بل ويمكن توجيهها لتسقط في البحر أو البر . .

وتجيء إلينا الأسماك المسمومة من اليابان .

والزيت السام من أسبانيا .

والبودرة المشعة من ألمانيا .

والانفلونزا من الفلبين ، مروراً بالهند ،

ونزولاً في الكويت ، وصعوداً إلى لبنان ، وهبوطاً في تركيا وصولاً إلى القاهرة فأكون أول واحد يعطس في مصر ـ

وآخر واحد أيضاً .

والحشيش يزرعونه في سوريا ويهربونه إلى لبنان إلى تركيا إلى مصر . . أو من سوريا إلى اسرائيل إلى سيناء إلى البحر الأحمر إلى القاهرة . . والكوكايين يجيء من نيجيريا إلى الجزائر وتونس إلى تشاد ثم إلى مصر .

والنسكافيه وبودرة اللبن تبعث بها الدول الأوروبية مساعدة لضحايا الجفاف في السودان ، وتدخل مصر عن طريق بحيرة السد إلى أسوان إلى السوبر ماركت في الجيزة . .

والانفجار الذي حدث في المفاعل النووي في روسيا ولم تشأ روسيا ان تعلن عن هذا الحادث المروع . ولكن اجهزة الرصد الامريكية وأقمار التجسس هي التي صورته كما سجلته الأقمار الصناعية . وأذاعت النبأ . ولكن روسيا لم تعلن إلا بعد أيام من ذلك . وأما الذي حدث في روسيا فور الانفجار فمعروف علمياً : اصابة ملايين الروس اصابة مباشرة . وموت عشرين مليوناً على الاقل هذا العام والاعوام القادمة . لا شك في ذلك . . وتسمم التربة والبذور والثمار . لا شك في ذلك . ويوم نشر السوفيت صوراً للعلماء الروس يدرسون آثار هذا الحدث وفي موقع الحادث ، كان هؤلاء الناس الذين رأيناهم موتى لا شك في

ذلـك ـ أي سوف يمـوتون قـريباً . ولكن روسيـا ضحت بهذا العـدد من العلماء من أجـل تهدئـة مئات المـلايين في روسيا والدول الاوروبية .

والحادث قضاء وقدر . أي ليس من فعل احد .

وحتى لو أعلن السوفيت عن الحادث بعد وقـوعه بلحـظة واحدة ، أو بألف لحظة فقد تـأكد الضـرر لمئات المـلايين . لا شـك في ذلك . وكـان الـواجب الاخـلاقي هـو لفت نـظر الدول الأخرى لتحتـاط . ولكن الروس من رأيهم أنـه لا نجاة لأي أحـد في دائـرة الخـطر . والـذي مـات فـوراً والـذي لـم يمت قد اصيب بالضربة القـاضية هـذا العام أو هـذا القرن ، أو سـوف يصاب أولاده واحفـاده في القرن القـادم . ولـذلـك فسـرعة الاعـلان أو التباطؤ في ذلـك يستـويـان . فـالمصيبـة وقعت والسلام .

وقد أدت الانفجارات النووية تحت الأرض وتحت المـاء وفي الهـواء إلى ارتبـاك الأحـوال الجـويـة . . وإلى سقـوط التراب الذري في بلاد أخرى .

ولا بد أن تكون الأمراض الكثيرة التي ظهـرت في الدنيـا بسبب هذا الخلل الذي أصاب خلايا الجسم الانساني بفعـل الاشعاع الذري .

وعلماء البيئة يصـرخون منـذ الثورة الصنـاعية في أوروبـا

ما أثر الأدخنة والفحم والزيت على صحة الانسان . . وكنا نفزع عندما نقرأ ان الانجليز ينظفون مداخن البيوت والمصانع بالقاء الدجاج في هذه المداخن . . فالدجاج يضرب الهباب بجناحيه فيسقط الهباب العالق في المداخن ويموت الدجاج . . ثم لجأوا إلى استخدام الأطفال الصغار . فهم أكثر وعياً وأقدر على رؤية الهباب . . والاطفال ضحايا العصر الصناعي الميكانيكي . وصدرت القوانين تحرم هذه الوحشية !

ولكن الخطر الآن أصبح أوسع . . فالدخان ينتقل من دولة إلى دولة ومن قارة إلى قارة . . فدخان المصانع في المانيا يدفعه الهواء ليسقط في السويد والنرويج . . وينزل المطر حامضياً ، فيقتل الغابات والطيور والحشرات والأسماك في البحر . . بل يذهب هذا الدخان عبر الأطلنطي فيهبط في كندا !

ويحاول العلماء أن يجدوا حلاً لدخان المصانع وتحويله إلى شيء آخر . وقد حولوا جانباً منه ، أما الباقي فيتجه ومعه الغازات السامة إلى شمال أوروبا بعد ان يكون قد ارتد إلى النباتات والغابات في البلاد التي جاء منها !

ويوم أعلنت العالمة الامريكية رايشل كارسون في كتابها الرائع المروع «المستنقع الهاديء» أن المبيدات الحشرية قد

قضت على الطيور والفراشات الجميلة في الحقول فسكت الحقل والحديقة والمستنقع ، فزع العالم كله . . وتصور الناس من أربعين عاماً أن هذه العالمة التي كانت مثل كروان جميل أصبحت مثل بومة تنعق على خراب أمريكا وأوروبا ولم يستمع إليها احد . . اما صوتها اليوم فيعتبر صوتاً جميلاً إذا قورن بأصوات مئات الألوف من العلماء الذين يعرضون من أجل مزيد من القوة على هذه الأرض ـ فلن يعيش الانسان طويلاً ، وإن عاش فسوف يكون مشوه الجسم والوظائف والعقل والنفس أيضاً !

أما آخر أنواع الفزع الذي اكتشفه العلماء فهو أن في الغلاف الهوائي حول الأرض فتحات . . هذه الفتحات قد سببتها الغازات السامة التي تصدرها المصانع . . وهذه الفتحات سمحت بدخول الأشعة الكونية إلى الأرض . . وهي أشعة سامة . وقد اكتشفوا هذه الفتحات فوق القارة الجليدية الجنوبية . . وسوف تؤدي الأشعة الكونية وأشعة الشمس إلى إذابة الجليد وإلى أن تطفح المحيطات . . وقد تغرق الأرض فيحدث الطوفان الثاني ـ بعد طوفان نوح ـ ولا ندري إن كان سيظهر بيننا نوح آخر ينقذ الانسانية من أجل استئناف حياة أفضل؟!

ثم إن ظهور الأطباق الطائرة من حين إلى حين ، ثم عودتها في الشهور الأخيرة ليجدد الأمل في أن تتصل بنا

كائنات من حضارات أخرى . . لعلها تساعدنا بما احرزت من علم أعظم ، على حل مشاكلنا .

فالعلماء يؤكدون لنا أنه توجد في هذه «المجرة» ـ أي مجموعة النجوم الهائلة التي تبلغ الف مليون نجمة من بينها الشمس التي هي نجمة تدور حولها الأرض ـ أن هناك مئات الألوف من الحضارات مثل حضارتنا على الأرض . ولكن المسافة بيننا بألوف السنين الضوئية . فإذا أمكن لأحد من أبناء هذه الحضارة أن يصل إلينا ، فمعنى ذلك أنهم حققوا تطوراً علمياً هائلاً . . إذ كيف يقطعون ملايين ملايين ملايين الكيلو مترات لكي يقتربوا من الأرض لحظات ثم يعودون عبر ملايين ملايين ملايين الكيلو مترات . فما الذي استفادوه من هذه الرحلة؟ ماذا رأوا؟ ماذا اخذوا؟ .

صدرت أربعة كتب عن « الأطباق الطائرة .. واحد من هذا الكتب استغرق من مؤلفه أربعين عاماً درس فيه كل حوادث الأطباق الطائرة .. والتقى بكل الأحياء الذين حدثونا عن الذى رأوه .. والذى احسوا به فى أجسامهم .. السيدات يقلن أنهن ولدن أطفالاً بعد عملية تلقيح صناعى . والرجال يقولون بأن الذين هبطوا من الأطباق الطائرة قد حقنوهم فى رؤوسهم أو فى ظهورهم .. وبعضهم قال أنهم اختطفوا اطفالاً .. ثم هربوا بها إلى الفضاء الخارجى .. فهل يا ترى هذه الكرة الأرضية

حظيرة لتحسين السلالات الانسانية هى هى مزرعة دواجن .. هل هى معمل فضائى ضخم تقوم فيه كائنات أعظم عقلاً بتجارب علينا .. هل هذه الكائنات أحست أخيراً اننا نلعب بالذرة .. وإن هذه الذرة سوف تجعلنا نهلك أنفسنا ونفسد تجاربهم كما حدث فى تشرنوبل ! ؟

هل هذه الكائنات تساعد الدول العظمى على تطوير الأسلحة النووية وبذلك لا تنفرد امريكا بالاسلحة النووية وإنما يساعدون روسيا وبريطانيا وفرنسا . . وبذلك تكون ترسانة الاسلحة النووية متكافئة . . هنا وهناك . . وبسبب هذا التكافؤ أو التعادل النووي لا تفكر دولة في ضرب الأخرى . . فنحن إذن نعيش بسبب تعادل الردع النووي عند روسيا وأمريكا . . وهكذا أمكن لسكان الكواكب الأخرى تحييد السلاح النووي لتعيش حيوانات المعمل الذي هو الكرة ارضية .

وإن كنا نعرف تماماً من الذي سوف يبقى على سطح الأرض اذا اصيبت أمريكا وروسيا بالجنون فانطلقت الرؤوس النووية عبر المحطات لإبادة سكان الأرض . . لن يبقى على هذه الأرض إلا الخنازير ـ فهي أطول عمراً وأقل تأثراً بالاشعاع النووي . فأمريكا عندما قامت بتجاربها النووية فوق جزيرة بكيبي ـ بالباء الخفيفة ـ وضعت كل أنواع الحيوان والنبات والطيور والمعادن في مهب الاشعاع

النووي ـ ماتت كل الحيوانات إلا الخنازير !

ويقال ان الامريكان اخترعوا «قنبلة ذرية نظيفة» كان قد أعلن عنها ايزنهاور . . ويقال أن الامريكان استخدموها في فيتنام . ويقال أن اسرائيل استخدمتها صباح ٥ يونيو سنة ١٩٦٧ . وان هذه القنبلة النظيفة هي التي حطمت طائراتنا على الأرض . وقالت اسرائيل أنها استخدمت صواريخ اطلقت عليها اسم «الرؤوس الباحثة» أي أن هذه الصواريخ تنطلق من الجو وتصيب الطائرات وليس الهياكل الخشبية التي وضعناها في المطارات .

أي أن اسرائيل وأمريكا معاً قد استخدمتا قنابل ذرية صغيرة «مستأنسة» . . تصيب الهدف ولا يكون لها اشعاع بعيد المدى . . أي أنه اشعاع ضيق النطاق يصيب الاهداف ولا يصيب الذين اطلقوها علينا .

ولكن لم يثبت هذا الخيال العلمي . . وبنو اسرائيل حريصون دائماً على أن يتحدثوا عن أنفسهم على أنهم أعظم وأذكى خلق الله . . وأنهم استطاعوا ما لم يستطع أحد . . وأنهم إذا القوا علينا قنابلهم الذرية في لحظة يأس من النجاة من الأغلبية العربية في المنطقة ، فلن يصيبهم اشعاعها ورمادها النووي ؟

وحتى إذا لم يثبت ذلك علمياً فلديهم إيمان عميق بأنه

من الممكن أن يحدث . . فالتوراة تحدثنا عن النبي يوشع الذي وقفت من أجله الشمس وأجلت غروبها حتى ينتصر !

وتاريخ الطبري يحدثنا عن موسى عليه السلام الذي طلب من الله أن يؤخر له طلوع الفجر حتى يعثر على قبر يوسف عليه السلام ليحمل رفاته إلى الأرض المقدسة ، كما أوصى إخوته بذلك . . وتأخر شروق الشمس من أجل موسى ويوسف عليهما السلام !

ولذلك فالعقل يقول لنا : إنه من الصعب إن لم يكن من المستحيل أن تستخدم إسرائيل قنابلها الذرية ـ ولكنها يجب ان تكون في حالة استعداد واستنفار فلا أحد يعرف متى ستكون الحرب القادمة مع العرب وإن كانت هذه الحرب لم تتوقف منذ قيام دولة اسرائيل على أرض فلسطين ، فأتعس الناس في هذه الدنيا هم الشعوب اليهودية في اسرائيل . لا عرفوا السلام ولا عرفوا الأمان ولا افلحوا في أن يكون لهم صديق . . ولا هم قادرون على أن يتعايشوا مع الشعب الفلسطيني في اسرائيل أو في الضفة . لأن قضية فلسطين مؤجلة . . لم تجد حلاً . وما لم يكن لشعب فلسطين «كيان مستقل» فلا سلام في هذه المنطقة . . واليهود يخافون من السلام أيضاً . . يخافون إن «أعطوا» الا يتوقف عطاؤهم . . يخافون إن انسحبوا من أرض يحتلونها ، أن ينسحبوا من كل أرض وأن يحاربوا

على أرض اسرائيل . . فهم حتى الآن مثل امريكا لم يحاربوا على أرضهم بعد ، فهم في خوف من الحرب التي لم تنته ، وهم في خوف من السلام الذي بدا مع مصر ويستعجلون مصر أن تعطي مزيداً من السلام والتطبيع والأمان والروابط بين الشعبين : المصري والاسرائيلي !

وإن كانت «التوراة» تسعفهم بالحل النهائي : أن يلقوا القنابل الذرية وتقوم اسرائيل بدور شمشون الجبار الذي يسمى نفسه أيضاً «أعمى مدينة غزة» فيهدم المعبد على نفسه وعلى أعدائه !

وما كنا نراه مستحيلاً أصبح ممكناً صعباً . ولكن ممكن . فالشعوب اليهودية قد تعبت من التعبئة العامة والحرب المستمرة ، والشعوب العربية قد تعبت أيضاً من التذبذب والتردد بين الحرب وبين وقف اطلاق النار . . وقد ورثت عن حالة التردد : حالة اللامبالاة . . اليأس . . الغياب . . الضياع . .

وكما انِ اسرائيل قد اضاعت جيلاً فقد أضعنا نحن أيضاً جيلاً .

ولا بد أن تجيء أجيال أخرى أقل تشدداً وأكثر رغبة في التعايش وأكثر حرصاً على الحياة والسلام . . وسوف نصبح «أضحوكة» في كتب المستقبل : كيف ذبحنا انفسنا

بلا قضية وكيف صلينا في غير مسجد ، واتجهنا إلى غير قبلة . . وكيف أننا بالغنا في مخاوفنا ، وأسرفنا في تحقير أنفسنا وعجزنا عن رؤية الحل الذي يحرص عليه كل الأطراف وأن نعيش حياتنا على أرضنا وتحت سماء الله . . وكيف أننا كنا «العوبة» في اصابع الدول العظمى التي تريد أن تبيع لنا السلاح وأن تظل الحرب دائرة لننفق اموالنا على الموت ، ونقترض من الدول العظمى لكي نعيش . . وهكذا نركع للدول العظمى مرتين : مرة لكي نموت ومرة لكي نعيش . .

فلسنا إلا زبائن للسلاح والطعام ـ زبائن يجب أن نعيش ونموت لكي تدور مصانعها فتعيش الشعوب الأوروبية والامريكية في رخاء ونبقى نحن تحت خط الجوع والامان !

وكلها حقائق أدركناها متأخرين .

ولكن الأجيال القادمة سوف تكون أفضل وأبسط وأشجع وأكثر حرصاً على الحياة . فقد رأوا فينا وبنا ومعنا كل الذين لا يحبون في هذه الدنيا وسوف يكون هلاك جيلنا مصدر سعادة لاجيال بعدنا . وسوف لا نحظى من أبناء المستقبل بكلمة واحدة للترحم علينا فلا رحمنا أنفسنا ولا رحماهم !

١ ـ كل أنواع المواصلات . . ولكن القطار أمتع !

كان مثلي الأعلى وأنا صغير أحد أقاربي : ناظر مدرسة أبي حمص الابتدائية . . رشيق أنيق يضع منظاراً غليظاً : يقف له المدرسون والسعاة والتلامذة يفسحون له طريقاً صامتاً . . وآباؤنا وأمهاتنا يفخمون ويضخمون اسمه : عبد الحافظ بك . . له شارب هتلر وأصابع جراح ونظره حلاق إلى قفا كل واحد منا . . لا أعرف ما الذي يراه هناك . . هل هو يبحث عن الياقة النظيفة . . أو يتأكد إن كانت الحلاقة جديدة . . أو يبحث عن مكان لأصابعه الشمعية الحادة .

واكتشفت أنه ليس هو الذي اتطلع إليه . وإنما إلى أولاده . . فهم يجيئون قبل جرس الحصة بلحظات . . وحتى إذا تأخروا خمس دقائق أو أكثر فإن المدرسين لا يقولون لهم شيئاً . . بل يداعبونهم ويضحكون معهم . . لقد رأيت أحد المدرسين ينفض لهم المقاعد . . ونحن ننظر إلى وجوههم اللامعة . . ولا بد أن وجوهنا أيضاً كذلك ، فنحن جميعاً صغار ، ولكن لم يلتفت أحد إلى وجوهنا . . ثم أن الساعي يحمل لهم الشنطة والسندوتشات . . ولا أحد من

المدرسين يسألهم عن شيء وحتى إذا سأل فإنه يساعدهم على الإجابة. أو يقولون لهم المثل الذي يتكرر في كل حصة.. ولا نعرف معناه: باب النجار مخلع ـ أي أنهم اخطأوا. أو: وابن الوز عوام ـ إن أصابوا وهم عادة لا يصيبون ولا يخطئون فلا أحد يسألهم..

فما الذي بهرني وأخذني ورفع صدري ونزل تطلعاً إليهم.. ليست البدلة المكوية ولا الجزمة اللامعة.. ولا حب المدرسين والتلامذة والسعادة وكل الناس في الشارع.. ومن النوافذ ينادون: ياتوتو ـ لفتحي ـ يا حمادة لأحمد يا ميمي لمحمد.

ولم أعرف إلا فيما بعد أنني أحسدهم على شيء لا يخطر على بال أحد سواي أنهم يسكنون وراء المدرسة.. يسمعون الجرس ويجيئون.. ينسون الكتب والأقلام ويذهبون لإحضارها أو يبعثون بالساعي.. وتعاكسهم الفتيات في مدرسة البنات المجاورة.

أما أنا فالمسافة كبيرة بين البيت والمدرسة..

فالبيت في عزبة د. عبد الحي البرعي ابن خال والدي والطبيب الغني الذي كان يعمل والدي ناظراً لعزبته ومصلحاً لأرضه الواسعة.. ولا بد من ركوب الحمار ذهاباً وإياباً.. أركب في المقدمة وأخي الأصغر يمسك بي. وكثيراً ما

أمسكنا نحن الاثنان ببعضنا البعض عندما يغلبنا النوم، فيقع أحدنا. . أو نحن معاً. . كل يوم، صيفاً وشتاء. وفي هذه الرحلة من البيت إلى المدرسة تولدت كل مخاوف الطفولة: اللصوص والكلاب والذئاب والعفاريت ومالا نهاية له من الأشباح والأصوات التي نتوهمها ولا نجرؤ على أن نحكيها لأحد. . فلا أمل في تغيير هذا الواقع. .

وفي إحدى المرات استوقفنا رجل مريض وطلب إلينا أن نحمله معنا إلى المدينة. . ودون تفكير تركنا له الحمار وسرنا وراءه. وكان لا بد أن نذهب إلى المدرسة. . وضاع الحمار. . وتعلمنا، بعد علقة ساخنة ألا ننخدع بكذب اللصوص!

ومن قرية ميت طريف كنا نركب قطار الدلتا ـ قطار الخطوط الضيقة ـ إلى السنبلاوين وكان القطار من ثلاث عربات. والمسافة قصيرة. وكانت عندنا مشكلة يومية. فبدلاً من أن «نقطع» تذكرتين كنا نكتفي بتذكرة واحدة ويسألنا الكمساري: لا بد من تذكرتين. . في المرة القادمة، سوف يبقى واحد منكما أو تنزلان وتعودان على الأقدام.

وتجيء المرة التالية ونقدم له تذكرة واحدة ويسأل: من أبوكما؟

ويرد الزملاء. ويقول الكمساري: هذا الرجل الطيب. .

سماح هذه المرة ولكن أخشى أن يجيء المفتش فيرغمكما على الدفع أو النزول.

وأحياناً يجد الكمساري أحدنا، أما الثاني فيكون في آخر القطار. فيقول: أعرف. أين الثاني؟!

ويضحك. ولكننا لم نكن نضحك. فهي ليست نكتة.. وإنما هي حيلة مكررة. وهو يصر على تذكرة لكل واحد منا، ووالدتي تصر على نصف تذكرة لكل منا. ولم نفلح في إقناع الطرفين.. وتتكرر القصة كل يوم.

وفي إحدى المرات قفزنا نحن الاثنان من القطار. فقد رأينا المفتش، وقد لف ذراعه اليمنى.. فظننا أنه ضرب أحداً غيرنا، وأنه من الممكن أن يربط ذراعه اليسرى بعد أن يضربنا نحن الاثنين!

ثم قطعنا تذكرتين.. وبعدها.. كنا نجلس في القطار نأكل السندوتشات ونقرأ في الكتب، دون خوف وكانت عندنا مشكلة لم يفلح والدي في علاجها. ولا أحد. لقد كان أخي الأصغر لا يكاد يصل إلى المدرسة حتى يبدأ في البكاء، يريد العودة.. فاهتدى ناظر المدرسة وكان من أقاربي إلى أن يطلب من زملائه في الفصل ـ وأنا واحد منهم أن نغني له: ياما حلو يا عزت ـ وكان هذا اسم الدلع.

أما نكتة المدرسة كل يوم فهي أن نقوم نحن بالغناء

وهو أيضاً!

وكان العذاب اليومي أن يصر هو على أن يكون معه القرش ـ ثمن التذكرة ـ وأن يضيع منه.. وأن نعود على أقدامنا!

ولم يكن هذا هو كل العذاب المدرسي.. بل كان والدي يتنقل بين الوظائف الزراعية لا أعرف السبب. فلا يكاد يستقر في بلد، حتى ينتقل إلى آخر. لماذا؟ ويسبق هذا الانتقال أن يجيء والدي الذي يمكث معنا يومين أو ثلاثة ثم يبدأ جمع أدوات البيت والملابس وحمل الكتب والأقلام في أيدينا وجيوبنا.. والتخلص من الطيور.. فيما عدا «الديك الهندي» الخاص بوالدي. إنه نوع من الديوك الشرسة. يعمل والدي على جعل منقاره وأظافره حادة.. فهو يشترك به في معارك الديوك.. وتجيء سيارة ويجلس والدي في المقدمة والديك على ركبتيه ونحن في المؤخرة. وعلى ظهر السيارة حقائبنا وعلى ساقي وأخي ووالدتي ساعة الحائط. إنها مثل تابوت صغير يموت فيه الزمن.. دقيقة دقيقة وساعة ساعة.. ومن نافذة السيارة كنت أرى التراب يعلو وتظهر فيه عيون مخيفة. كنت أغمض لها عيني ويغلبني النوم من شدة الخوف..

وأصبحت عادة عندنا حين نرى والدنا يجيء ويجلس بيننا يوماً أو يومين أن نجمع الكتب.. وكثيراً ما لاحظ

والـدي وأنـا نـائم إلى جـواره وفي حضنـه أن الكتب تحت المخـدة والدمـوع على عيني . . ويوقـظني فأقفـز من السريـر انتزع الكتب من تحت المخدة ومن بين المراتب.

فيؤكد لي : إننا باقون!

ولم نسافر نهاراً قط . .

فـالليل والسفـر والخوف والقلق والفـزع قد ولـدت معاً. وعاشت معاً . .

(٢)

ووجدت متعة في الـوقوف إلى جـوار عسكري المـرور. إنه يستوقف كل السيارات. ويلتقط أرقـامها. . ويبقى هـو في مكـانـه والسيـارات تـروح وتجيء. لا شيء يهـزه لا شيء يقلقـه. راسخ. كـأنه جبـل. كأنـه المـدينـة أمـا التـاكسيـات والسيـارات الملاكي والنقـل من كـل لـون ومـاركـة فتقف لـه بـاحترام . . وتقـدمت خطوة فكنت أطلب إليـه أن أسجـل أنـا الأرقـام أثناء أدائـه للصلاة أو ذهـابه إلى المسجـد . . وكـانت متعتي أن أمـارس هذا الاستقـرار، وأن تـذهب السيـارات في كل اتجاه بغيري من الناس!

وتخيلت وأنا طفل أن عسكـري المرور هـو أعظم إنسـان في العـالم ـ لا يهتز . . لا ينفعـل . . يبقى في مهب السيارات عالياً شامخاً.

وكنت إذا وجدت سيارة يتم إصلاحها، أدخلها وأجلس إلى عجلة القيادة وأنزل وأطلع والسيارات لا تتحرك. لم تعد رؤية السيارة تدفعني إلى أن ألملم ملابسي وكراريسي وانتظر وانتظر الشمس حتى تغيب لأتوارى في ظلام الليل. ليطلع النهار في بلد آخر وأواجه عيوناً أخرى تسأل: من أين؟

فأقول ما حفظته عن أمي: نحن هنا في زيارة لبعض أقاربنا.

ـ ومن أين؟

ـ من المنصورة. .

ـ وماذا يعمل والدك؟

ـ مأمور.

وعندما يفاجأ التلامذة بأنني لم أعد إلى بلدتي، وأن والدي ليس مأموراً هنا يتساءلون ولماذا أنتم في ناحية والوالد في ناحية أخرى.

ـ لأن خالتي مريضة.

ويصدق التلاميذ أو لا يصدقون. وننشغل بالدراسة وقبل نهاية العام تجيء السيارة مع الليل تذهب إلى حيث لا نعرف. .

فأنا على سفر دائم. .

ولكنه ليس سفراً وإنما هو نوع من «التسفير» أو «الترحيل» كأنني شحنة. . شنطة تنتقل من مكان إلى مكان. . لا أعرف من الذي ينقلها. ولا لماذا؟

وظهرت عندي رغبة غريبة في طفولتي: أن أترك المدرسة سراً ليلاً. . وانضم إلى جماعات الغجر.

ولا أعرف ما الذي أعجبني في حياتهم. أو في ملابسهم أو في عملهم. أو في الأطفال في مثل سني. لا بد أن الذي أعجبني أنهم يقيمون في خيام. . نهاراً جهاراً. . فلا أحد يسألهم من أين جاءوا ولا متى يرحلون. ولكن معروف عند كل الناس أنهم سوف يرحلون. وإن خيامهم يسهل حملها على ظهور الحمير. وفي عز الظهر يخرجون الرجال يركبون ومعهم الأطفال. . والأمهات يمشين وراءهم. . وإنهم أسرة. . قبيلة. . قوة ولم أعرف بوضوح إن كان الذي يتحرك في أعماقي هو أن أهرب عندهم. أو أهرب معهم. . أو أنني أهرب من عيون التلاميذ الصغار التي تسأل كثيراً. ولا أجد ردودي عليهم مقنعة لأحد أو إن كان إحساسي الدائم هو أنني مختلف عن التلاميذ فكلهم من بلدة واحدة. . عاشوا وسوف يعيشون فيها حتى الموت. . بيوتهم إلى جوار المدرسة. وآباؤهم معروفون. . لهم دكاكين ولهم فدادين. . وكلهم أقارب. . ولا أحد منهم

يسأل أحداً من أين جاء ولا متى سيرحل. . إن جذورهم عميقة في الأرض والمدينة وبين الناس. . أما أنا فمثل نبات يقتلعونه من مدينة ويشتلونه في مدينة أخرى ليقتلعوه ليزرعوه. فلا جذور لي. . ويجب ألا تكون. .

تمنيت في ذلك الوقت شيئاً واحداً. . أن أعود إلى البيت مع واحد من زملائي ألف ذراعي حوله وهو أيضاً ونتكلم ونضحك. . أو نتوقف في الطريق ونعود متأخرين إلى البيت، فلا يحاسبني أحد. . لأنه من الطبيعي أن يتحدث التلاميذ أثناء العودة. . يتكلمون أو يلعبون أو يشترون بعض الحلوى، أو يتناول أحدهم الغداء في بيت الآخر. . ولكن لا أكاد أتأخر دقيقة حتى تسألني أمي: وأين كنت؟

وليس من المفروض أن أتأخر. . لأي سبب. لا مبرر. . ولا عذر مقبولاً. فأمي لا تريد أن تقلق علي، فالقلق الذي لديها كثير. . ثم أنها لا تستطيع أن تخرج تبحث عني. فلا أحد يعرفها ويعرفني، حتى إذا أرادت أن تسأل.

ودون تفكير مني. أفلحت في أن تكون لي علاقات على جانبي الطريق من المدرسة إلى البيت. . بأن أتوقف هنا. وأتحدث. . وأن أقول للناس من أنا. . وأن أنقل بعض الأحداث. . وأروي بعض الحكايات عن زملاء في المدرسة. وأجعل نفسي موضوعاً للحديث. فعرفني

الناس.. وفوجئت بآباء بعض التلامذة يدقون بابنا يسألونني عن زملائي وكنت أقول. حتى إذا تأخرت لأي سبب، وقلقت أمي، وخرجت من البيت، فسوف تجد من تسأله عني.. ولم يحدث أن تأخرت، ولا خرجت أمي.

وكرهت السفر والتسفير والترحيل.. وكتبت قصة تمنيت فيها أن أكون «شجرة» تنمو وتكبر وتموت في مكانها. ولكني كرهت حياة الأشجار، والحياة معها، والريف.. وكرهت أن يكون الإنسان هكذا قلقاً ضائعاً. وكرهت أيضاً ألا يكون بلا خوف ولا قلق. وأن يبقى حيث هو. يهتز ولا يتحرك، ينمو ولا يتطور، في القرية والمدن الصغيرة يعرفه كل الناس، ويكره ذلك.

وأسعدتني القاهرة: ضياع في الزحام. لا أحد يعرف أحداً، ولا يدري به إن عرفه.

(٣)

وتمنيت أن أسافر - أنا الذي اختار المكان خارج مصر. أن أذهب سيراً على الأقدام إلى مكان.. إلى السودان.. إلى ليبيا.. المهم أن يكون السفر عملاً إرادياً. وأن انتقل إلى مكان لا أعرف أحداً. ولا يعرفني أحد. لا يهم ما الذي أفعله هناك. وإنما أن أشعر أنني غريب في بلد آخر.. وليس غريباً في بلده وبين أهله..

وسمعت في الخمسينات عن رحلات إلى بلاد قريبة: اليونان.. قبرص.. وكلما وجدت أحداً قد سافر إلى الخارج حاولت أن اقترب منه.. أن أعرف ما الذي يظهر عليه من آثار السفر.. وكيف سافر.. وكم يحتاج من المال؟

وكتبت بعد تخرجي في الجامعة أحلم بمغامرات كثيرة.. كلها مغامرات فلسفية ـ لا واقع لها. وكان ذلك من أثر الفلسفة الألمانية.. ومن قراءة القصص الخرافية والبطولات الملحمية.. فقد لاحظ بعض الزملاء أنني أدق الأرض عند المشي. فسألني: لماذا؟ ولم أعرف جواباً عن ذلك. وعدلت عن دق الأرض..

وسألني مدرس اللغة الألمانية: لماذا تشد عنقك إلى أعلى هكذا.. ألا يوجعك؟

ولم أكن أعرف أنني أفعل. وعدلت عن ذلك. ولكن لماذا؟ لا بد أنها الفلسفة الألمانية التي تجعل القارىء يتوهم أنه بطل في ملحمة أسطورية.. وأنه يمشي على الأرض ويعيش بين الناس مؤقتاً. فسوف تجيء مركبة اسطورية تنقله إلى حيث الحياة مع آلهة الإغريق وأنصاف الآلهة والفلاسفة في مكان فوق.. في السماء أو فوق جبال الأوليمب..

وفي يوم سعيد جداً سألني الصديق سليم رزق الله، وكان يعمل في شركة شل: تسافر إلى أوروبا؟

فقلت: أتمنى. كيف؟ وبكم؟.

قال: المطلوب مائة وخمسون جنيهاً..

رحلة بالطائرة إلى اليونان وإيطاليا وسويسرا وفرنسا وبريطانيا والسويد ـ ولمدة شهر!

ذهبت إلى الأستاذ كامل الشناوي. وكنت قد انتقلت إلى العمل في جريدة «الأهرام»، بعد أن أغلقت «الجريدة المسائية».

ولم يفكر كامل الشناوي كثيراً. وإنما بذكائه الفذ، وقلبه الكبير، واستعداده الدائم لأن يرعى الشباب حوله. قال لي: انتظرني دقيقة واحدة!

وعاد بعد دقائق ليقول لي: مبروك تستطيع أن تسافر!

ففي ذلك الوقت كنت أترجم كتاباً عن «روميل: ثعلب الصحراء» وفرغت منه. ولم أتقاض مكافأة. ولا خطر على بالي ذلك. ولكن كامل الشناوي أقنع الأستاذ شميل العضو المنتدب لجريدة الأهرام بدفع هذه المكافأة!

وكانت نقطة التحول في حياتي..

اتسعت الدنيا وترامت أطرافها وتنوعت ملذاتها..

وتحطمت القوقعة التي عشت فيها.. وتراجع الخوف وذاب القلق.. ولم أعد غريباً لا في بلدي ولا في البلاد الغريبة.. واتجهت أحلامي وآمالي إلى الخارج، أسافر إليه، وأعيش فيه وبه وله.. وأعايش أحداثه الفكرية والأدبية والفنية.. واعتدت السفر. وأصبح السفر متعة.. إجازة صيفية.. فرأيت استوكهلم قبل أن أرى الاسكندرية ورأيت باريس قبل أن أرى دمياط، ورأيت لندن، قبل الزقازيق.. وسألتني سويسرية ألمانية إيطالية الأصل لها أقارب في مصر: إن كان عندي مانع في أن نتزوج ونعيش معاً على الحلوة والمرة..

وأحسست أن المسافة بينها وبيني قد اتسعت بعدد هذه الدول التي انحدرت منها. ثم تضاءلت هي فلم أعد أراها أو أسمعها.. فقد تحولت إلى ذرات.. إلى فقاقيع في كأس شمبانيا في يد أحد آلهة الإغريق.. ولم أقل شيئاً واكتفيت بهذه الرغبة التي هي تحية عظيمة.. ودليل على التغيير الهائل الذي طرأ على صورتي في أوروبا!

وإذا كنت عندما ركبت الحمار، لم ألاحظ الحقول والترع والطيور عندما ركبت قطار الدلتا، فكذلك وسائل المواصلات الحديثة إلى أوروبا ذهاباً وإياباً.. بل وجدت أن عدم خوفي منها نوع من رفض الخوف نفسه.

وتنقلت بكل أنواع المواصلات بحراً وبراً وجواً.. رحلة

اليوم والمائة يوم . .

فأول طائرة ركبتها كانت تابعة لشركة طيران اسمها «اير جيبوتي» «استأجرتها شركة شل لنسافر بها . . الطائرة لها محركان» وكانوا يستخدمونها في نقل الحيوانات من السودان إلى الحبشة والعكس. ولا بد أنهم غسلوها بالماء والصابون وكنسوها أيضاً قبل أن نركبها. وكانت المقاعد على جانبي الطائرة، كأنها أتوبيس . . وكنا نجلس على الجانبين . . وبعضنا يلعب الكوتشينة على الأرض . . وفجأة حزموا المضيفة الأمريكية وراحت ترقص وتترنح . وفجأة وجدنا قائد الطائرة يخرج علينا في حالة غضب. وتختفي المضيفة في كابينة القيادة. وتعلو الطائرة وتهبط . . وتعلو وتهبط . . حتى تساقطنا جميعاً من الدوخة. ولما توقفت الطائرة في مطار أثينا . لم يستطع واحد منا أن يهبط الدرج . .

أما تفسير ذلك فهو أن بعض الأشقياء من معتادي السفر قد أعطى المضيفة سيجارة حشيش . . فلما استدعاها كابتن الطائرة ذهبت إليه على وحده ونص ترقص وتغني : لا والنبي يا أبدو ـ يا عبده!

(٤)

وأول مرة سافرت بالبحر كان على ظهر الباخرة الإيطالية : اسبيريا . . كنا ثلاثين من كبار فناني مصر

التشكيليين الآن ـ وأقمنا في خيام على ظهر الباخرة وكانت الباخرة خالية الغرف. . فما كان من البحارة إلا أن أخلوا لنا الغرف بعض الوقت. . ليلاً فقط . فإذا طلع النهار ، أكملنا نومنا على ظهر الباخرة . فإذا طلع الفجر يجب أن نصحو بسرعة. لأنهم يجب أن يغسلوا ظهر السفينة. . وأفضل لنا أن ننام طول النهار أو نصحو ليلاً. وأن نحاول أن نتسلل إلى الدرجة الأولى نشهد الجمال والرفاهية والحفلات الراقصة ـ من بعيد لبعيد. . وأن نكون على استعداد دائم للطرد إذا ظهر القبطان وضيوفه ـ حدث ذلك كثيراً!

(٥)

أما الباخرة التي ليس لها ظهر ننام عليه فهي فرنسية اسمها «الماريشال جوفر». . فالدرجة الثالثة في بطنها. أي عندما ننام فيها، فإننا نكون على عمق عدة أمتار تحت سطح الماء. وبطن السفينة يشبه بطن أي إنسان. . خانق والروائح كريهة. وأسوأ ما فيها رائحة الجبن المثلثات ـ لقد ظللت لا أطيق رائحته سنوات. وكنا نجلس في بطن الباخرة طوال الوقت نأكل طعامنا الذي أتينا به من مصر. فإذا فرغنا خرجنا إلى السطح نشم هواء نقياً. وظهرت فكرة عند بعض الركاب أن نطلب إلى قبطان السفينة أن يسمح لنا بتناول الشاي أو القهوة مع بقية خلق الله ـ فنحن صحفيون.

ووافق القبطان. .

وكان بين الركاب الذين يتحركون في بطن السفينة كأنه مغص واحد من عائلة أباظة، يشبه الملك فاروق تماماً ـ وكان فاروق قد انخلع من مصر.

وكنا نقول: إنه أخوه الأصغر. . وأحياناً نقول هو توأم الملك. ولكنه مختلف معه في السياسة. ولذلك خرج أخوه وبقي هو بعد أن تعهد بألا يطالب بعرش مصر. .

وكان الناس يسألون: ويركب في الدرجة الثالثة. . أين أمواله؟!

ـ إنه شعبي. . متواضع!

ـ معقول!

ـ طبعاً معقول. لقد كان على خلاف مع أخيه قبل الثورة لأنه أعطى أرضه وأمواله للفلاحين. . كما فعل أديب روسيا تولستوي!

ـ إنه إنسان عظيم. . ولم نسمع عنه. . لم نقرأ كلمة واحدة. .

وذهبنا لقبطان الباخرة ننقل إليه رغبة الأخ المنشق عن الملك فاروق والموالي لثورة مصر، وأحد عشاق الثورة الفرنسية. هناء جاء الفرج: احترمنا القبطان. وسمح لنا

بالكثير. ولم نشأ أن نخبر شبيه الملك فاروق، فكان يأكل طعامه وشرابه في بطن السفينة. . ونحن باسمه نأكل ونشرب وتنفتح لنا الحواجز بين الدرجات ونصعد إلى سطح السفينة، ونتفرج على المخلوقات الناعمة الجميلة المرفهة من ركاب الدرجة الأولى!

(٦)

لقد اعتدت على التهجم على الطائرات دون خوف ودون نظر إلى ماركتها. لا خوف. مات الخوف. فقد انفجر بركان في جزر هاواي. وكان ساكناً مئات السنين. وارتفعت الطائرة ذات المحرك الواحد. . ودارت حول وهج البركان. الذي كان بحيرة من النار. . عين عفريت أطلت من تحت المحيط الهادىء. والطائرة تدور والنار تلسعنا في داخلها ونتصبب عرقاً. وتركها الكابتن تدور وحدها حول البركان ليلتقط صوراً فريدة. .

وعندما هبطت الطائرة في المطار. . وجدنا رذاذ الحمم البركانية قد نفذ من جناحي الطائرة على مدى مليمترات من خزانا الوقود ـ هذه الميمترات هي التي أطالت في أعمارنا!

(٧)

كانت رحلة سرية مع الدكتور بطرس غالي وزير الخارجية. . الطائرة ماركة ميستير صغيرة. . اتجهنا إلى

الخرطوم. لم نكد نصل إلى سماء أسوان حتى قيل لنا أن مطار الخرطوم مغلق. أغلق فجأة. ويقال أنها عاصفة رملية. ويقال انقلاب عسكري.. لا أحد يرد على التساؤلات من كل الطائرات.

أصدر د. بطرس غالي أمره للطيار أن يتجه إلى أديس أبابا. وفوق مطار أديس أبابا.. ظللنا ندور وندور. فلم يتلق الطيار أمراً بالهبوط. ولا بد أن يكون الأمر من الرئيس مانجيستو. وقالوا: إنهم لا يعرفون مكانه.

والطائرة تدول حول المطار. وقرر د. بطرس غالي أنه إذا لم يتلق أمراً بالهبوط فسوف تهبط الطائرة اضطرارياً لتتزود بالوقود. ولم يتلق أمراً بالهبوط. وهبطت الطائرة.

واتجهت الطائرة بعد ذلك إلى نيروبي. وقابلنا الرئيس موي.

ورأى الرئيس موي أن نتسجيب لدعاء وزير الخارجية ونتناول معه الغداء، أو الشاي، وفجأة وجدنا طائرة صغيرة. وركبنا ساعات. ونزلنا. ورأينا بعض الناس يقفون عند المطار. بالقرب من سور المطار. يرفعون أيديهم لتحية الوزير. وتناولنا الشاي، وعدنا إلى العاصمة نيروبي - أما سبب هذه الرحلة التي استغرقت خمس ساعات ذهاباً وإياباً، لنبقى نصف ساعة في المطار، فهو أن الوزير قد

رشح نفسه في الانتخابات. وكل يوم يستدرج ضيوف الدولة ليراهم الناخبون ـ ليؤكد لهم أنه إلى هذه الدرجة هو رجل عالمي!

ولكني رأيت بحيرة فكتوريا.. ومنابع نهر النيل ـ أقصى المنابع!

(٨)

وأقصر رحلة كانت من القاهرة والكونغو في ٤٨ ساعة.. فعندما اشتركت مصر في قوات الطوارىء الدولية لحماية ثورة لومومبا في الكونغو، سافرت قوات مصرية بقيادة اللواء الشاذلي في طائرات حربية أمريكية. طائرات عملاقة خشنة. ركبت الطائرة بين الجنود المصريين الذين يحملون القنابل والمدافع وصور الرئيس جمال عبد الناصر.. لم أجد إلا مكاناً في سيارة جيب.. السيارة اتجهت إلى مؤخرة الطائرات..

السيارة باردة جداً، والطائرة أكثر برودة. ولما تعطلت أجهزة التكييف، عادت إلى مطار القاهرة. ثم ارتفعت إلى الجو، وقد زادت درجة الحرارة في داخل الطائرة. فارتدت الطائرة إلى مطار القاهرة لإصلاح أجهزة التكييف. وهبطت في الخرطوم. ثم في أحد مطارات الكونغو. إنه صغير. نظيف. لا أحد فيه. إلا بعض القوات المغربية..

وكنت أتندر بأنني جئت في سيارة جيب ـ كانت لها سرعة الطائرة ولكن كانت تمشي في عكس اتجاه الطائرة. كيف؟ فزورة. وكنت أشرح . .

ولكن فيما بعد ظهرت فزورة أغرب: رائد فضاء اسمه «سحيموند يان» من ألماني الشرقية، وكان واحداً من طاقم سفينة الفضاء السوفيتية «ساليوت» وقد ركب دراجة في داخل السفينة وراح يحرك ساقيه حول العالم بلا توقف ـ عشرات المرات ـ دون أن تغير الدراجة موقعها!

وأقصر رحلة بين القاهرة إلى بئر سبع في إسرائيل، والعودة في نفس اليوم.

(٩)

أما أطول رحلة قمت بها فكانت حول العالم سنة ١٩٥٩. استغرقت ٢٢٨ يوماً. وتكلفت أقل من ألف جنيه. . أطول وأرخص رحلة قام بها أي إنسان: إلى الهند والتبت وسيلان وسنغافورة وأندونيسيا وجزيرة بالي واستراليا والفلبين وهونج كونج واليابان وجزر هاواي وأمريكا وإيطاليا!

وأقصر رحلة حول العالم هي التي قمت بها في العام الماضي من القاهرة إلى استراليا إلى نيوزيلندا إلى أمريكا إلى مصر في ٢٨ يوماً!

ولا أجد متعة في ركوب الطائرة ولا البواخر ـ فأنت لا

تـرى منها شيئاً ـ ثم أنني لست على عجـل. . ففي الـطائـرة كـأنك في قـذيفـة. أو حتى صـاروخ. أقفلوا البـاب عليـك. وانطلقوا بك إلى فوق. وعليـك أن تستسلم للنوم أو الانتـظار الـطويل الممـل. . ولذلـك تتبارى شـركات الـطيـران في أن يجعلوك تنسى مـا أصـابـك. . يعـرضـون عليـك الأفـلام. . ويشغلونك بالطعام يقدمونه قطعة قطعة. . فتـظل تأكـل وتتفرج حتى تهبط الطائرة.

ولذلك يفضـل المسافـرون الشركـات الأكثر تفنناً وقدرة على تسليتـك فتنسى أنك مـربوط إلى مقعـد، المقعـد يتعلق فوق السحاب بسرعة ألف كيلو أو ألفين. .

ومهما كانت الطائرة سريعة، ومهما كانت مرتفعة فـسوف تجيء لحـظات تهتز فيهـا. . إنها تمشي بـالهواء فـوق الهـواء وضـد الهواء. . وفي الجـو، كما في الأرض مـطبات، ولكن سرعة الـطائرات تجعلهـا تعبر المـطب دون أن تهبط أو توقـع قلبك في رجليك!

وفي الباخرة لا شيء تراه. . فالبحـر في كل الاتجـاهات كالفضاء حول الطائـرة. لا معالم. . ويحـدث في البـاخـرة ما يحـدث في الطائـرات: دور للسينما أو مـلاعب للكـرة. . أو مـطاعم. . أو نوم طـويل. . أو استـرخاء على الفـراش بسبب أمواج البحر. . دوار البحر. .

ولكن المتعة الحقيقية هي القطارات.. أروع متع السفر هي أن تركب قطاراً بين العواصم الأوروبية.. إنني أعذر الجنرال برودينو الموسيقار الروسي الذي كان يعرف مواعيد القطارات.. واحداً واحداً.. ويقول هذا تأخر.. هذا تقدم عن موعده.

وقد حدث أن سمع صفير أحد القطارات فأدهشه أن القطار قد جاء قبل موعده بخمس دقائق فانطلق يسأل عن السبب.. ونسي أن يرتدي البنطلون!

إنني أحب محطات السكك الحديدية.. أحب شكل القطار. متربعاً على الشريط الحديدي.. ضخماً فخماً.. راسخاً. يخرج منه الدخان كأنه يفكر. أحب محطات السكك الحديدية.. كأنها محطات الحياة.. كل واحد له وجهة له هدف.. الدنيا محطات.. والحياة قطار.. هذا يركب وهذا يهبط. وهذا يلحق به وهذا يفوته.. ويتساقط الناس ويتزاحمون والقطار ماض في طريقه إلى هدفه..

وعلى الأرصفة يتجه الناس.. كل شيء يعمله الناس له اتجاه.. انظر إلى الرؤوس.. إلى العيون.. إلى خطواتهم.. إلى قفزاتهم داخل وخارج القطار. انظر إلى داخل العربات.. كل واحد له مقعد.. كل واحد اتخذ مكاناً وبدأ يقرأ.. أو بدأ يفكر.. أو يتطلع من النافذة.. أويلوح للناس.. انظر إلى الناس يودع بعضهم بعضاً:

ودعا . . بل إلى اللقاء . . قريباً . . غداً أحدثك . . بل اليوم. لا تنس ماما . . لا تنس طفلنا العزيز. لا تغب هذه المرة . . أتمنى لك التوفيق . . كفى عد إلى زوجتك . .

والورود في الأيدي . . والدموع في العيون . . وكلمات الوداع طويلة . . وقصيرة . . شاعرية . . ميكانيكية . . كلمات الوداع كأنها تقول: في ستين داهية . . أو كأنها لا وداع فأنت في القلب . . فأنت أنا، وكيف أودع نفسي يا نفسي ! .

وفي القطار غرف صغيرة . . فجأة تجد نفسك مع أربعة . . ستة . . رجال ونساء وأطفال . . ويصبحون فجأة أسرة . . ويدور الحديث بين شعوب مختلفة . . والهموم واحدة . . والمتاعب في الدنيا هي هي . . والإحساس بالرغبة في السلام وفي الحب واحدة . .

تقول: من أين؟

ـ من إيطاليا .

ـ وأنت؟

ـ من مصر .

ـ وأنت؟

ـ من ألمانيا .

ـ وأنت؟

ـ من اليابان.

ـ والطفل؟

ـ من استراليا..

ـ هل يسافر وحده؟

ـ نعم. ولكن أمه قد أعدت له كل شيء. وطلبت من كل الناس أن يساعدوه. وكلنا نساعده. وسوف ينام في المقعد الذي تجلس فيه أنت.. لأنه بعيد عن الباب.. ممكن؟

ـ طبعاً. وبكل سرور..

ويتسابق الركاب في العناية بالطفل. ويتحدثون همساً. ويتحركون لمساً. ويستمدون سعادتهم من راحته!

لا أنسى يوماً كاد قلبي يقفز من صدري. لم أكن أعرف معنى هذا التعبير. كان القطار مسافراً من مرسيليا إلى باريس. وكانت هذه هي المرة الأولى التي أرى فيها باريس.. فقبل باريس بمسافة طويلة كانت اللافتات على الجانبين تقول: أنت على مسافة عشرة كيلو مترات من باريس.. تسعة ـ ثمانية.. كيلو متر واحد.. أنت في باريس!

أين أنت يا قلبي.. أصبحت أنا من أولي لأخري قلباً

يدق.. يدقني.. أصبحت نبضاً.. بل خيل إلي أن القطار كله يهتز.. الدنيا كلها.. حتى توهمت في لحظة غريبة أنني عندما نظرت إلى الأشجار في الطريق إلى باريس، وجدتها تلف أغصانها بعضها حول بعض.. حتى الأشجار في عناق أبدي.. وهذه الطيور ليست إلا قبلات هائمة بين الأرض والسماء!

لا أنسى ليلتين أمضيتهما في القطار بين تارانتو في أقصى جنوب إيطاليا وبين فيينا. بين الجبال والوديان والغابات والأنفاق.. في جنوب إيطاليا يوجد الصعايدة الإيطاليون.. الوجوه مصرية واللهجة صعيدية: الزعيق والطبل والزمر والغناء.. ثم أنك فجأة طرف في كل مشاكل حياتهم وفجأة تجد من يسألك: وأنت ما رأيك!

وتكون نائماً أو تقرأ في صحيفة أو تتأمل. ولكنه لا يتصور أنك قد سمعت كل هذه المناقشات ولم يكن لك رأي!

فتتساءل: ولكني لم أتابع ما تقولون..

ـ لم تتابع؟.. إذن نحكي لك الحكاية من أولها..

وتدور مناقشة عنيفة بين الأطراف كلها.. ويخيل إليك أن واحداً منهم سوف يلقي بالآخر من النافذة بمساعدتك. وتفاجأ بأن كل الذي أمامك هو مشادة كلامية فقط. مهما

تعالت الأصوات وتشابكت الأيدي . .

قالت لي إحدى السيدات: الحكاية كما سمعت سيادتك ان ابنتنا هذه (وزغدتها في كتفها) قررت أن تعيش في روما وحدها. وأن تختار لنفسها العريس المناسب. واختارت طالباً في الجامعة في مثل سنها . . مفلساً تماماً. ولكنه وعدها بعد التخرج أن يستقيم وأن يكف عن معرفة الفتيات الأخريات وأن يجد لها عملاً. وهو يريدها أن تقيم معه . . أنا موافقة ولكن والدها يعترض . . فقد عشت معه قبل الزواج أربع سنوات شربت فيها المر حتى أقنعته بالزواج . . (وراحت تزغده(الآن تنام؟! إنه دائماً ينام إذا كان لا يعرف ما يقول . . أصح يا حمار . . أما ابنتهما فهي إيطالية مائة في المائة لوناً وجسماً وأسلوباً في الكلام وقد تراجعت في مقعدها لتكشف ساقيها. وأخرجت سيجارة وراحت تدخن . . ثم هدأت السيدة هي الأخرى . . ويبدو أن المناقشة قد استغرقت وقتاً طويلاً أرهقهم جميعاً . . وإنهم سوف ينامون فإذا صحوا استأنفوا المناقشة . . وناموا . .

وعرضوا قضيتهم ولم ينتظروا رأيي . . وهي قضية تقليدية بين أبناء الريف وأبناء المدينة . . أو أسلوب الريف وحياة المدينة . . وهي نموذج للبساطة الإيطالية . .

وبعد ساعة هبطوا في إحدى المحطات وكانت تحياتهم

حارة أما الابنة فقد قبلتني هنا.. وهنا.. وهنا ـ فنحن في سن واحدة.. وعلى الرصيف غمزت بعينها بما يدل على: سيبك منهم؟

ومن محطة نابلي ركب طراز آخر من الإيطاليين.. في أيديهم مجلات وشنط وكتب. وساد الهدوء. وفجأة ارتفع صوت واحد بالغناء.. الله.. صوت جميل جداً ـ والأغنية تقول: روحي.. روح قلبي.. يا بلبلاً في قفص الصدر.. روحي.. روح قلبي أنا البلبل في قفصك العاطفي.. في قلبك.. يا روح قلبي..

الله.. النبرة هادئة الصوت مليء حنون.. رذاذ موسيقى.. فقاقيع شمبانيا.. الله.. وسألني: عندك مانع؟

قلت: بل أرجو ألا يكون عندك أنت مانع في أن ترفع صوتك وتغني على راحتك..

ثم رافقته الحسناء التي كانت معه.. ثم غنت هي أيضاً.. مطر.. مطر.. مطر يا أسعد الأيام.. مطر.. مطر.. كلمة.. نظرة.. شعاع شمس من تحت المطر.. ابتسامة من وراء ضرس الأيام.. مطر.. مطر.. ما دام في السماء قمر.. ما دام في الليل هدوء.. وفي الصيف مطر.. وابتسامتك وأنت وأنا.. ما أسعد الأيام.. مطر مطر!

ونزلوا في محطة روما . .

ومن روما امتلأت العربة بسيدة وأطفال . .

وانتقلت إلى صالون آخر في القطار . . كانت أربع راهبات . . قلت: صباح الخير . .

ورددن التحية . .

ـ من أي البلاد أنتن؟

ـ من الشرق.

ـ من أي بلاد الشرق؟

ـ من مصر

ـ وأنت؟

ـ وأنا أيضاً.

وكان موضوعنا هو الأب الفيلسوف الفرنسي تيلار دي شاردان الذي كان مدرساً لعدد من الأدباء المصريين في المدارس الفرنسية . .

ثم تحدثنا عن مصر . . عن الجانب الأخلاقي هنا وهناك . . وعن بعض الفلاسفة المشتغلين بالدين من مثل: جاك ماريتان وجبريل مارسيل . .

واختلفنا حول الأديب الإيطالي جيوفاني بابيني . . لقد

ألف كتاباً يطلب فيه الرحمة للشيطان.

لأن رحمة الله تتسع لكل أحد.. فكيف تضيق بالشيطان؟ وثارت عليه الكنيسة. ومن الطبيعي أن يكون هذا رأي الراهبات الكاثوليك أيضاً.

ولم أجد الحديث مسلياً وقبل أن يصل القطار إلى أية محطة أخرى استأذنت وخرجت أبحث عن صالون آخر فيه ناس وفيه حياة.. ووجدت صالوناً من الرجال، ولكن امتلأ بالدخان.. وتقدمت ثم تراجعت فقال أحدهم: السجائر سوف نفتح النافذة.. تفضل.

وكان الحديث في السياسة والاقتصاد.. أسخف الأحاديث التي أوجعت رأسي.. ورحنا نتنقل بين مشاكل إيطاليا شمالاً وجنوباً وأوروبا واليابان وأمريكا. وكانوا يهاجمون واحداً منهم شيوعياً. وكان سليط اللسان. فإذا قال لي واحداً منهم تأدباً: وما رأيك أنت؟

فيرد الشيوعي: كيف يمكن أن يكون له رأي.. إذ كنا نتحدث عن سفالة العمدة الكاثوليكي في قريتنا التي لا يعرفها حتى الإيطاليون.. ولكن الكاثوليك جميعاً كذابون منافقون يريدون أن يضموك إليهم والسلام.. ولا أنت فاهم ولا أمل في أن تفهم ـ لا مؤاخذة... أعط كتاباً لثور.. لا مؤاخذة فمهما كان الخط واضحاً والأسلوب جميلاً كيف

يفهم.. مش معقول؟ فأقول: معقول!

فيرد الآخرون: معقول جداً إنك خنزير قليل الأدب..

ويضحكون: وأضحك..

فإذا اقتربنا من الحدود بين شمال إيطاليا وجنوب النمسا، فأنت مع خليط من الوجوه الجرمانية والملامح الإيطالية.. وهم يتكلمون الألمانية.. وهنا تختلف أساليب الناس. إنهم أكثر أدباً وصمتاً.

ولا يكاد الواحد يفعل شيئاً حتى يستأذن ويعتذر إن كان قد لمس ذراعك أو اقتربت جزمته من جزمتك..

ويجيء الهدوء.. ويكون الكلام همساً. فإذا استجبت لما يقولون. التف أي واحد منهم ليقول لك: أهلاً وسهلاً..

ويقدم لك نفسه: هانس.. وهذه زوجتي جرترود.. وأنت؟

وأقدم نفسي.

ـ من أي البلاد.

ـ مصر.

ـ ولكن لغتك الألمانية جيدة..

ـ أشكرك..

وفجأة تجد الرجل الذي نام إلى جوارك يصحو ويقول: ولكن لغته الإيطالية أفضل كثيراً!

ـ لأن الألمانية أصعب.

فيرد شبه النائم:

ـ لا.. لأن الإيطالية أجمل!

ولقد ركبت القطار الالكتروني الياباني بين طوكيو وطوبا.. إنه سريع خاطف.. لا أحبه.. لأنه يطير فوق الأرض.. وهذه السرعة تجعل الوديان مساحة خضراء.. تماماً كلون البحر من السفينة.. مساحة زرقاء ـ ومثل لون الفضاء من نافذة الطائرة.. مساحة زرقاء بيضاء.. رمادية.. لا شيء!

(١٠)

كانت عندي فكرة وخمسة من الأصدقاء من أربع جنسيات أن نتقدم بطلب للحكومة السوفيتية فتأذن لنا بأن نركب قطار سيبريا الشهير الذي يبدأ بموسكو وينتهي في الشرق عند مدينة «ناخودكا» المسافة عشرة آلاف كيلو متر و٩٧ محطة يقطعها القطار في ثمانية أيام وأربع ساعات و٤٥ دقيقة.

وظللت أحلم بهذا اليوم، بهذه الأيام. وأكدوا لنا أن الحكومة السوفيتية لن تجد اعتراضاً على ذلك..

ويلغنا أنه لا مانع. ولكن مات واحد منا.. فتشاءم بعضنا.. وانتهى هذا الأمل.. ولكن أتمنى أن أجدد الطلب وأن أسافر مع آخرين.. يا رب!

(١١)

أما وسيلة المواصلات المؤلمة حقاً فهي التي وجدتها في جبال الهملايا.. أما ركوب البغل أو الحصان، فشيء ممكن.. كلهم يفعلون ذلك في الطرق الجبلية الضيقة الملتوية..

ولكن الذي عذبني نفسياً هو: الريكشا..

إنها محفة لها عجلات يجرها إنسان. ولا توجد وسيلة أخرى. ويكون هذا الإنسان في مثل سن والدك وأحياناً جدك.. قصير القامة شاحب الوجه المجعد.. كسير العيني، ساقط الكتفين وحين تجلس في الريكشا يبدأ الرجل يسعل ويتنفس بصوت مرتفع.. وفي مناقشة مع أحد الصحفيين الهنود قال: إن السعال والتنفس بصوت مرتفع لا يدل على أنه مريض أو مرهق..

إنها لازمة عند الكبار والصغار.. وأما شحوب الوجه، فلأنه صيني الأصل.. أو من التبت..

فهذا هو لون البشرة وإذا لم استخدم الريكشا هذه فسوف يموت الرجل جوعاً أي لا بد أن استخدمها وأن

أتركه يسعل أو ينزف ـ منتهى القسوة!

وفي إحدى المرات قررت أن أنزل من الريكشا وأن أمشي إلى جواره على أن أدفع له الأجر في النهاية.. وسرت إلى جواره مسافة طويلة.. وعندما وصلت إلى قصر الدلاي لاما..

الأب المقدس لأهل التبت، رفض أن يتقاضى الأجر.. وحاولت.. ولكن وجدته يبصق على الأرض تحت قدمي.. وتضايقت ولكن قيل لي أن هذه الحركة معناها: أن تكون البركة والسلامة في طريقي.. معه أو من غيره!

(١٢)

وركبت طائرة الكونكورد التي سرعتها ٢٢٠٠ كيلو متر في الساعة.. من لندن إلى نيويورك، في ثلاث ساعات إلا ثلاث دقائق ونصف الدقيقة.. سريعة.. مرتفعة.. وبها ضوضاء كثيرة وضيقة.. ولا تكاد المضيفات تفرغ من تقديم الطعام حتى تكون الطائرة قد استعدت للهبوط ـ إنجاز علمي عظيم!

ولكن لست مستعجلاً إلى هذه الدرجة. ولا أنا أحسب الوقت بالدقيقة والثانية.. إنني لا أحسب وقتي بالساعات.. ولا حتى بالأيام فلست على عجل في أي شيء..

ولو كان هناك طريق بري بين لندن ونيويورك.. أو بين

لندن والقاهرة ما ترددت . . في أن أسلكه ذهاباً وإياباً!

ولا تـزال القـطارات هي أجمـل وأمتـع مـا اختـرع الإنسان . .

ولكن الإنسـان الـذي اختـرع الصـاروخ وسفن الفضـاء سـوف يجعـل كـل شيء حـولـه صـواريـخ . . وبـذلـك يلغي النوافذ . . والنظر منها . . والتأمل في جمـال الحقول والـوديان والغـابات والجبـال . . وهكذا يقضي على آخـر متع الانتقـال من مكان إلى مكان!

الحيوانات وحدها تعرف،
ولكننا لا نعرف أسباب الهجرة

ما معنى أن تنهض سيدة من «عز» النوم وتصرخ: ضرسي. ضرسي.. ويفزع كل الذين حولها.. هذا يفتح النافذة ليدخل الهواء النقي وضوء القمر.. وطفل صغير يتمسح فيها ويقبلها.. وهذه تغلي لها النعناع. ويذهب الألم. فهل هو ضوء القمر أو هي «بركة» الطفل أو هو النعناع المغلي.. أو أن يوم الجمعة فيه ساعة نحس هي التي أصابت السيدة في أسنانها.. وتذهب السيدة إلى الطبيب فلا يجد تسوساً في أسناسنها.. وكذلك الأشعة تكشف أنه لا يوجد مبرر لهذا الألم. إذن هو صداع جاء وذهب!

وبعد أيام تجيء رسالة من ابنها في كندا يحكي لها أنه الحمد لله كان عنده ضرس يوجعه. وخلعه واستراح. ويذكر أن ذلك قد حدث الساعة السادسة مساء أي ما يعادل منتصف الليلة في القاهرة. فكيف أحست الأم، على بعد ثلاثين ألف كيلومتر، وفي نفس اللحظة بأوجاع ابنها الذي لم يكن يفكر فيها، ولا كانت

وهي مستغرقة في النوم تفكر فيه؟!

وما هو التفسير العلمي لأن تفكر في فلان من الناس فتجده أمامك.. أو تجده يطلبك في التليفون أو تتلقى خطاباً منه.. أو ما معنى أن يقترب منك كلبك الصغير ثم ينبح دائماً قبل أن يدق جرس التليفون بلحظات.. وما معنى أن «تأكلك» يدك اليمنى، فيدق الباب فتجد ضيفاً لم تره منذ وقت طويل.. وما معنى أن «ترف» عينك اليسرى فيقع شيء يضايقك جداً بعد لحظات.. وما معنى أن تأكلك قدمك اليمنى فتذهب إلى بيت لم تدخله من قبل، ولا خطر لك على بال.. وما معنى أن تقفز أم من فراشها بسرعة وتنطلق كالصاروخ إلى الغرفة التي ينام فيها طفلها الصغير فتدركه قبل أن يقع من فوق السرير ـ كيف أحست بذلك؟

أو كيف تفسر أن طفلة صغيرة في الأسرة تكون أكثركم إحساساً بالأحداث قبل أن تقع.. فهي لا تكاد تقترب من طبق الملوخية حتى يقع عليها وتصرخ مع أنه ليس ساخناً.. ولكنها تقول: يا ساتر يا رب.. إن سيارة قد اصطدمت الآن بسيارة عند نهاية الشارع!.

ولأنكم قد اعتدتم على مثل هذه «التوقعات» يسرع أحدكم إلى نهاية الشارع ليجد الحادث كما رأته هذه الطفلة. كيف؟

رغم كل أبحاث علماء النفس، فإن أحداً ليس لديه أي تفسير علمي واحد. وإنما هناك اجتهادات.

من بين هذه الاجتهادات أن يقال أن هذه «القوى الخفية» الموجودة عند بعض الناس، كانت موجودة عند كل الناس فيما مضى.. فقد كان الإنسان قديماً يعتمد على مثل هذه القوى.. أو مثل هذه الغرائز.. أن يرى عن بعد وأن يسمع عن بعد.. وأن يشم الروائح وأن يتجه إلى الشمال والجنوب معتمداً على مراكز توجيه عميقة في داخله..

ولكن الإنسان عندما تطورت قواه العقلية الابداعية، لم يعد يعتمد على احساساته المباشرة.. إنه يعتمد على أدوات من اختراعه.. فهو بدلاً من أن يأكل بأصابعه يأكل بالشوكة والسكين.. وبدلاً من أن يرى بعينيه يعتمد على النظارات المقربة والمراصد.. وبدلاً من أن يزعق ينادي البعيد، فإنه يستخدم الميكروفون والتليفون الرادار. وبدلاً من أن يمشي على قدميه، فإنه يركب السيارة والطيارة والصاروخ ـ لقد اخترع الإنسان هذه «الأطراف» الصناعية، ولم يعد يعتمد على غرائزه أو قواه الخفية..

ولكن بعض الناس لديه مثل هذه القدرات الخارقة ـ إنها بقايا الإنسان الأول أو الحيوان الذي تطور فأصبح إنساناً..

وعلماء النفس يسمون هذه القوى الخفية أو القدرات الخارقة. عند بعض الناس إنها «إدراك خارج الحس». . هذه القدرات موجودة عند الحيوان. وهذا واضح في حياة الحيوان وانتقاله واهتدائه بعضه إلى بعض. .

ومعجزة «الهجرة» عند الحيوانات والحشرات والطيور والأسماك، ليس لها أي تفسير علمي حتى الآن. فالعلم الحديث يرصدها ويسجلها ويحللها. وعندما يحاول العلماء أن يفسروا، فإنهم لا يجدون حلاً واحداً مقنعاً. ويظل العلماء حائرين. أما هذه الحيوانات والحشرات، فإنها لا تخطىء طريقها الأزلي ذهاباً وإياباً بين الشمال والجنوب، بين الدفء والبرودة، بين الجفاف والاخضرار ـ من ملايين السنين!

وقد لاحظ الإنسان انتظام الهجرة التي تقوم بها الطيور. وفي التوراة في سفر أرمياء هذه الآية «وطائر اللقلق في السماوات يعرف ميعاده واليمامة والسنونو حفظت وقت مجيئها. .»

وفي سفر «الخروج» حديث عن هجرة الجراد إلى مصر: «الرب جلب على الأرض ريحاً شرقية، كل ذلك النهار، وكل ذلك الليل. ولما كان الصباح حملت الريح الشرقية الجراد. فصعد الجراد على كل أرض مصر رحل في جميع نجوع مصر. وغطى وجه كل الأرض حتى

أظلمت الأرض. وأكل جميع عشب الأرض وجميع ثمر الشجر حتى لم يبق شيء أخضر في الشجر ولا في عشب الحقل في كل أرض مصر».

والإنسان عندما ينظر حوله يجد أن هناك حركة جماعية هائلة على سطح الأرض. إنه نوع من انتشار الحيوانات على الأرض وفي الماء.. الحيوانات تتكاثر فيتزايد عددها، تنتشر بحثاً عن البيئة النباتية التي تساعدها على البقاء والاستمرار. فالحيوان في حاجة إلى الطعام على فترات منتظمة. ولذلك يجب أن يبحث عن الطعام والشراب في البيئات المختلفة، حيث الوفرة والدفء والضوء..

والحيتان الضخمة مثل الفراشات الصغيرة، تهاجر من مكان إلى مكان في أوقات محددة من كل سنة.. وإلى أماكن محددة على جانبي المحيط الأطلسي. ولا علاقة بحجم الحيوان أو قوته بهذه الهجرة ولا بطول المسافة.. فالجراد - مثلاً - يتحرك بمئات الملايين عبر القارات.. والحيتان تهاجر ألوف الأميال في المياه الباردة من أجل أن تحصل على بعض الأعشاب..

والفيل الحبشي يهرب إلى الجنوب في قطعان بالألوف، ومئات الأميال، بحثاً عن الأعشاب اللينة الطازجة.

ونجد الطيور تهاجر بالملايين إلى الجنوب الدافىء بحثاً عن العشب. وقد يجيء عليها عام أو عامان فلا تهاجر، فقد توافر لديها العشب. فلا داعي لأن تبحث عنه في أماكن أخرى، ما دامت تجده فوق رؤوسها وتحت أقدامها في مواطنها الأصلية..

والغزلان القطبية تتجه إلى الجنوب في قطعان كثيرة، وفي خطوط طويلة عبر الصحارى الجليدية..

أما الأبقار الإفريقية فإنها ترعى في نفس الأماكن حتى يتوافر لها الطعام. على مدار السنة. فهي لم تعد تهاجر.. وكذلك الأوز الكندي، لم يعد يهاجر إلى الشمال فهذه الهجرة لا تفيده فالطعام موفور والجو مقبول..

والطيور الأوروبية تهاجر إلى الجنوب.. إلى حيث نهر النيجر الإفريقي الذي عندما يفيض، يصنع أنواعاً من المستنقعات. هذه المستنقعات هي قوة جذب لهذه الطيور. فإذا انحسر الماء أو طرأ تغيير على الجو في أوروبا، سارعت الطيور إلى الشمال..

ولا تزال هجرة الأسماك عبر المحيط الأطلسي سراً من أسرار الكون.. بعض هذه الأسماك تبيض وتفقس في الدفء الأمريكي، ثم تعود الأسماك إلى الشواطىء الأوروبية.. من ملايين السنين. نفس الموعد. نفس الطريق..

أما ثعابين البحر، فهي أحد ألغاز الكون. إنها تنتقل من جانبي المحيط الأطلسي. وتسبح في أعماق المحيط المظلمة بعيدة تماماً عن الأسماك المفترسة لها. وتتكون من هذه الأسماك كتلة هائلة لها شكل يقاوم الماء ويقاوم المغناطيسية ويهتدي بضوء النجوم - كيف؟

أما هجرة الجمبري فهي معضلة علمية.. فكل واحدة تحمل في داخلها ذرة رمل.. ذرة واحدة.. بعض الجمبري يجعل هذه الذرة تتدلى منه وتقوم بدور التوازن ذهاباً وإياباً وعلواً وانخفاضاً في الماء.. ويقاوم الموج والتيارات الداخلية.. ويتكون من ملايين الجمبري درع هائلة تقاوم كل قوى الأمواج العاتية وجاذبية الأرض.. ولا يكاد تنعكس أشعة القمر على البحر حتى يستجيب الجمبري بألوف الملايين لهذا الضياء الباهر فوق السحاب ويطفوا على السطح - كيف؟

وأسماك السالمون تهاجر ألوف الأميال عبر المحيط، بحثاً عن المياه العذبة. وعند المياه العذبة وبسبب رائحتها يبيض السالمون ويتم تلقيح البيض.. عند مصاب الأنهار الأوروبية والأمريكية.. فالسالمون يعود إلى المكان الذي ولد فيه.. وتلتقي الإناث بالذكور ويتم فقس البيض وتلقيحه أيضاً..

وعلى الرغم من أن مئات الملايين من أسماك

السالمون تهلك في هذه الرحلة ذهاباً وإياباً، فإن السالمون لا يتوقف. . ويمضي ينفذ نداء الحياة مهما كان الثمن. الثمن وكيف يتحرك؟ وكيف يضبط مواعيد الهجرة؟ وكيف يضبط مسارها دون خطأ واحد؟

والسلاحف البحرية لا بد أن تضع على أرض بعض جزر المحيط الهادىء. في موعد محدد من كل سنة. الإناث تضع البيض. أما الذكور فتقف بعيداً عن الشاطىء في انتظار دورها ودورتها وبعد أن يفقس بيض السلاحف فإن السلاحف الصغيرة تكون هدفاً للطيور آكلة اللحوم أو تكون فريسة لسرطانات الماء. . ولكن السلاحف الصغيرة تتجه في زحف هائل إلى البحر. . ولتعاود مسيرتها إلى الجانب الآخر من المحيط. .

والنمل الأمريكي يزحف في خطوط طويلة عريضة. . فتتقدم قوات من النمل لهداية الملايين وإفراز رائحة على الأرض يلتزم بها النمل. . وعلى جناحي الجيوش الزاحفة نمل للحراسة فإذا اعترضت النمل عقبات فإنه يدور حولها أو يحفر نفقاً تحتها. ولكنه لا يتوقف عن الزحف السنوي. .

وكذلك «الفراشة الملكية» الأمريكية عندما تهاجر فإنها تتعلق بالأشجار في أعداد بالملايين. . فإذا طلعت الشمس طارت الفراشات الأمريكية متجهة إلى الجنوب. . إلى المكسيك. .

وصياح الأوز الكندي دليل على قدوم الربيع. . أو على قدوم الخريف فإذا جاءت اللحظة أو دقت الساعة الداخلية في دماغ كل طائر فإنه يلبي النداء بالألوف. . وتصعد الأوز إلى الجو. . متجهة إلى الأماكن الدافئة. ولها مسالك مدروسة ومعروفة وتصل إليها بمنتهى الدقة. بل لقد لاحظ العلماء أن هذا الأوز الذي يطير مئات الأميال يهبط في نفس الأماكن، وعلى نفس الشجرة. . لقد وضعوا حلقة من الألومنيوم في ساق إحدى الأوز ولاحظوا أنها في العام التالي جاءت إلى نفس المكان ونزلت على نفس الشجرة. . على نفس الغصن؟

تقول العالمة الأمريكية شارون اتكنستر في كتابها «كينيا» جينتي أنها لاحظت أن غراباً اعتاد أن يخطف ملابسها. وأفلحت في أن تمسك هذا الغراب وأن تربط في ساقيه خيطاً من السلك الذهبي الرقيق. ثم تركته. . وبعد ثلاث سنوات فوجئت بغراب يخطف بعض ملابسها. وأفلحت في أن تلقي شباكها عليه. وأمسكته. ووجدته نفس الغراب الذي هاجر من مدينة لندن لكي يصل إلى مدينة نيروبي عاصمة كينيا؟

وحكايات عجيبة تتكرر كل سنة ومن ملايين السنين على سطح الأرض وفي هوائها ومائها. .

إن هناك «دافعاً» قوياً نحو الهجرة من مكان إلى مكان.

فالهجرة غريزة. ومن غير هذه الهجرة تموت الحيوانات في البرد أو في الحر.. أو تموت من الجوع. فالغزلان الجليدية في وقت معين وفي طريق معين تبدأ هجرتها إلى الجنوب بأعداد هائلة وفي طرق واحدة. وشكل لا يتغير: الذكور الأقوياء في المقدمة.. يتبعها الإناث.. أما شباب الذكور فعلى جانبي الزحف تتولى حراسة القطيع الزاحف في إصرار وكأنه مشدود من أنفه إلى هدف واحدلا يتغير.. وبعض الغزلان تسقط في الطريق وتقفز من فوقها الغزلان الأخرى ولا تتوقف..

والأوز يعبر جبال الهملايا على ارتفاع ثلاثين ألف قدم. وعلى هذا الارتفاع يستحيل أن يعيش الإنسان، فالأوكسجين قليل. ولكن الأوز يمضي في عبور الهملايا الباردة متجهاً إلى الجنوب أو إلى الشمال.

والوطواط الأوروبي يهاجر مئات الأميال من أوروبا الوسطى إلى روسيا..

ويقول العلماء: إنها تهتدي بضوء النجوم.

صدق الله العظيم إذ يقول: «وبالنجم هم يهتدون».

أي أن الإنسان والحيوان يهتدي بضوء النجوم..

ويقال أن هذه الحيوانات تهتدي بالرائحة وبالرطوبة وبالملوحة. كيف تشم الطيور أو الحيوانات على مسافة

ألوف الأميال رائحة هذه الأماكن النائية . .

ويقال أن هذه الحيوانات تهتدي بجاذبية الأرض، ويقال بجاذبية القمر . ويقال بجاذبية الشمس . .

وقد قام العلماء بتجارب عديدة لامتحان هذه الملاحظات. فوضعوا الصفائح المغنطيسية على جانبي رأس حمام الزاجل، لكي يربكوه فلا يعود إلى المكان الذي اعتاد أن يذهب إليه. فلم تحدث هذه الصفائح شيئاً . . ويبقى السؤال كيف ينتقل الحمام الزاجل من قارة إلى قارة، فإذا به يطير ألوف الأميال، ويذهب إلى القارة الأخرى إلى المدينة الأخرى يهبط على ذراعك وأنت واقف في البلكونة بعد أن ابتعد عنك شهوراً وألوف الأميال؟

ألم يحدث أنك طردت كلباً أو قطاً عندك. وألقيت به عند أطراف إحدى المدن. وبعد أيام جاءك الكلب ونام على باب شقتك. كيف؟

لقد أجرى العلماء تجارب على الغراب الأوروبي الذي يهاجر من الشمال إلى الجنوب. وضعوه في حجرة من الخرسانة المسلحة. فارتبكت حركته. ثم نقلوه إلى غرفة سن الرصاص. فاختلت حركته. لأن هذا الطائر يتوازن مع قوات أخرى طاردة وجاذبة: أرضية وجوية وكونية . .

فهذه الحيوانات المهاجرة تعتمد على تغيرات تقع على

سطح الأرض بسبب أشعة الشمس وتعامدها على خط الاستواء أو مداري السرطان والجدي . .

أو تعتمد على درجة الملوحة والرطوبة؟

نحن لا نعرف كيف أن أسماكاً من نوع ولون وحجم معين تهاجر كل عام إلى جزيرة واحدة في المحيط الهادي، هذه الجزيرة ليس من السهل أن يهتدي إليها الإنسان. ولكن هذه الأسماك تعبر المحيط ولا تتوقف عند ألوف الجزر الصغيرة. . ولكن عند هذه الجزيرة بالذات وعلى جانب منها بالذات. لماذا؟

فقد لاحظ العالم الألماني أرنست تسلر في كتابه «الأحياء المجهولة في الأماكن المعلومة» أن نوعاً من السمك الذهبي الذي يبلغ طول الواحدة منه شبراً لا تبيض ولا تفقس إلا عند جزيرة بركانية تبعد عن جزر هاواي ألف كيلومتر إلى الشرق. . هذه الجزيرة قاحلة تماماً. وقد درس كل ظروفها الجوية والفلكية والكيميائية. ولكنه لم يهتد إلى شيء واحد يميزها على ألوف مثلها. ولذلك لم نعرف بعد، لماذا يختارها هذا النوع من السمك!

وهناك تعبير شائع في علم الحشرات يقول: مسار النحلة. فالنحلة تسير في خطوط مستقيمة. فتندفع وكأنها قذيفة من الزهور إلى الخلية بلا خطأ إلى مكان الزهور. ولا

تكاد تقف النحلة عند باب الخلية حتى تندفع بلا خطأ إلى مكان الزهور. ولا تكاد تفرغ من امتصاص الرحيق، وتتوقف لحظة واحدة حتى ترسم لها بوصلة سحرية مسارها إلى الخلية وهي ذهاباً وإياباً قذيفة موجهة. لا تخطىء أبداً. والنحلة تعتمد على الشمس، وعلى الخطوط والخرائط الضوئية التي ترسمها الأجهزة الخفية في رأسها. . ولذلك فالنحل لا يبرح خلاياه في أيام الضباب أو العواصف أو السحب الداكنة ـ لقد غابت الشمس، والنحل بعد الشمس لا يرى ولا يسمع!

والطيور عندما تهاجر فإنها تحمل وقودها معها ـ هذا الوقود هو المزيد من الدهن. فهي تخزن كميات كبيرة من الدهن، لتزود باحتراقه أثناء الرحلة. والطيور تعرف بالضبط الكمية التي تحتاجها. وعند نهاية الرحلة يكون الدهن الذي اختزنته في جسمها قد احترق إلا قليلاً. .

وبعض الطيور لا تتوقف في رحلاتها. تسافر ليلاً ونهاراً ثم تلقي نفسها على الماء. ثم تستأنف الطيران. وبعض الطيور لا تطير فوق الأرض. . وللطيور محطات معروفة عندما تتجه شمالاً أو جنوباً. .

عدد كبير من علماء الفضاء الأمريكان يعتمدون على إحساسات الطيور بالشحنات الكهربائية الموجودة في السحب. . أو بتغير المجال المغناطيسي في مناطق إطلاق

سفن الفضاء. ويعتمدون على حركة الحشرات في الصناديق المغناطيسية. فلديها جميعاً إحساسات دقيقة لكل تغير يطرأ على المنطقة.. أو على البيئة.. بل إنها أدق من الأجهزة الالكترونية. وقد سجل أحد العلماء «حواراً» بين نحلة وصرصار عن اقتراب عاصفة كهربائية. وقد حدث. وقد سبقت هذه الحشرات الضئيلة كل الأجهزة العلمية.. فالعالم الأمريكي جيمس اردنال عندما سألوه عن سبب التأجيل المستمر لإطلاق إحدى سفن الفضاء قال لقد كان الغراب مخموراً أمس..

فعنده غراب رمادي شديد الحساسية للتغيرات الجوية والعواصف والمد والجزر والزلازل؟!

وهجرة الأسماك والطيور أسهل وأسرع من هجرة الحيوانات البرية ـ فالطيران في الهواء والسباحة في الماء أسهل من المشي على أرض عبر الغابات والأحواش والمستنقعات وفي مواجهة الوحوش والصيادين..

وإذا كانت هذه الحيوانات تهاجر من مكان إلى آخر، بالغريزة، فإن الإنسان حيوان يهاجر ولكن بالعقل.. يهاجر فردياً أو جماعياً ولنفس الأسباب فهو يبحث عن الحياة الأفضل. وعن الرزق الأوفر..

وتكون هجرة الإنسان لأسباب اقتصادية واجتماعية وسياسية.

فالذي يهاجر من القرية إلى المدينة، لأن الحياة في المدينة أيسر. ولأنه في المدينة يجد العمل والطعام والمسكن والوظيفة. ولأنه يريد نمطاً آخر من الحياة. فالفلاح يهجر الأرض ليعمل موظفاً في أحد الفنادق أو المصانع.. ولأنه قرر أن يقلع الجلباب ويلبس البنطلون وأولاده أيضاً.

أو الفلاح يهاجر من مصر إلى العراق والأردن، ليعمل بأجر أكبر. فإذا تجمع له مبلغ من المال عاد يشتري أرضاً ويقيم بيتاً ويستخدم الميكنة في حرث وزراعة أرضه.. أو يعود إلى الفلاحة أو إلى العمل في المدينة..

فالهجرة هي قرار فردي حر اتخذه مواطن بسبب صعوبة الأوضاع الاقتصادية وانخفاض الأجور. وهذا يحدث في كل الدول المصدرة للعمالة ـ مصر ودول المغرب العربي وتركيا واليونان ويوغوسلافيا والبرتغال والهند وباكستان والفلبين وكوريا.

فعندما ظهر البترول في دول الخليج، اتجهت الهجرة إلى هذه البلاد. فقد احتاجت دول النفط إلى عمال وإلى خبرات أجنبية وإلى إعداد الكوادر الإدارية والفنية. ولذلك هاجر كثيرون من العرب إلى بلاد النفط.

وقد لوحظ أن ما يتقاضاه الأستاذ الجامعي المصري في

بلاد النفط في العام الواحد يعادل ما يتقاضاه في مصر طول عمره!

وفي الشرق دول بها مال وليس بها رجال، ودول بها رجال وليس بها مال. أو هناك بلاد العسر المالي واليسر السكاني - مثل مصر ودول المغرب - ودول اليسر المالي والعسر السكاني مثل كل دول الخليج. وهذه الفوارق في الدخول هي التي جعلت الهجرة أسلوباً لحياة الجميع. اعتادت عليها دول الخليج واعتادت عليه الدول العربية الأخرى والدول الإسلامية أيضاً مثل باكستان وإيران وأندونيسيا.

ومن أسخف ما قرأت لباحث مصري أن هذه الهجرة قد أدت إلى استقرار الأوضاع في مصر. فعدد من الكتاب الساخطين قد تركوا مصر خوفاً على حرياتهم، وذهبوا يبحثون عن «الثروة» وتركوا «الثورة» على الأوضاع في مصر.. وحصلوا على الثروة وتركوا الأوضاع في مصر جامدة خامدة. ولم يشأ أن يذكر لنا الباحث المصري اسم هذا العبقري الغاضب الذي خرج من مصر، وتركها تنعي من بناها، ولو عاد إلى مصر وعاش فيها لتغيرت الدنيا بسببه؟!

وفي حدود ما أعرف لا يوجد مثل هذا الكاتب الفذ الذي حرمنا من عظمته وعبقريته عندما اختار الكويت وطناً

ثانياً أو وطناً أول؟!.

فالمهاجرون المصريون بدلاً من أن يزعجوا الأوضاع في مصر ويقلبوها على دماغنا نحن الذين بقينا في بلادنا، على الحلوة والمرة والمرة أكثر، هاجروا.. فكانت هجرتهم لصالح الاستقرار المصري؟!

وقد زاد عدد الأجانب في دول الخليج، حتى أن بعض الدول قد وجدت نفسها أقلية. ولذلك بدأت تحمي نفسها، وتمنع التجنس، وتمنع المهاجرين أيضاً.

وفي أوروبا عندما حاولوا وقف هجرة المغاربة إلى فرنسا، والأتراك إلى ألمانيا، كان ذلك تهديداً لكثير من الصناعات والأعمال اليدوية..

واستراليا قد فتحت باب الهجرة للأوروبيين أول الأمر. وكانت سياستها بيضاء - أي أبوابها مفتوحة للبيض فقط. ولكن فوجئت بزحف سري من الصفر أيضاً. فتسلل الصينيون والهنود. فهم يقبلون أجوراً أقل - ولا يتمردون على الأوضاع - ولذلك فصاحب رأس المال حريص على الكسب الأكبر. ووجد في هؤلاء الصفر أنسب فئة يتعامل معها. فدخل الصفر إلى استراليا وأصبحوا أساساً لكثير من الصناعات والخدمات.

وفي سنة ١٩٥٩ في سيدني استمعت إلى عميد

المؤرخين توينبي ينصح شعب استراليا بأن يفتح أبوابه بالذوق، بدلاً من أن تنفتح بالقوة ـ قوة ألف مليون صيني و٨٠٠ مليون هندي و١٥٠ مليون أندونيسي و٦٠ مليون فلبيني.. وأعلن توينبي أنه ليس معقولاً أن تظل قارة استراليا جنة لعشرة ملايين فقط بينما يختنق ألوف الملايين في القارة الأخرى، وعيونهم على استراليا!

وهناك هجرات سياسية كالتي بين الهند وباكستان أو بين باكستان وأفغانستان بسبب الحروب بين هذه الدول، فقد هاجر ملايين من هنا إلى هناك، ولا بد أن يعودوا إلى أوطانهم. وعلى الحدود تتم هذه الهجرات عبر الحدود..

وفي مصر عرفنا هذه الهجرة في منطقة قناة السويس بسبب الحروب بين مصر وإسرائيل في ٥٦ و٦٧. ولا أحد يعرف معنى الحرب والخراب والدمار إلا شعب القناة. فهم وحدهم الذين عرفوا الموت والجوع والعطش وهو أن الهزيمة النفسية والنكسة العسكرية وهم وحدهم الذين عرفوا المخابىء وعرفوا الجوع والعطش والظلام وأن يكونوا أذلاء في أوطانهم.. وهم وحدهم الذين رأوا جثث القتلى المصريين، والذين رأوا هوان الأسرى المصريين..

بينما نحن في كل العواصم المصرية الأخرى، لم نشعر بالحرب لا دخولاً ولا خروجاً ولا سلاماً. فلم ينقطع عندنا الماء والكهرباء ولا سقط أحد الكباري.. ولا عرفنا

الخنادق. . فقد استمرت المطاعم والفنادق والأفراح والليالي الملاح وأضواء كباريهات شارع الهرم في كل وقت. وفي أيام الحرب ووقف إطلاق النار والهدنة، سمعنا عن الحرب، ولم نذقها. رأينا صور الخراب والدمار، ولم نسقط تحت الأنقاض. . ورأينا صور المهاجرين والمهجرين المصريين، ولم نكن منهم!

ولذلك فأهل الإسماعيلية والسويس وبورسعيد أحرص الناس على الحياة والبناء والتعمير والإصلاح والأمان والسلام. ولذلك كانوا أسرع الناس إلى البناء وإلى زراعة الأرض وصيانة الأشجار والخضرة. . وأشد الناس إيماناً بالوحدة الوطنية فقد وحد الموت بينهم. وهم يريدون الحياة معاً، فلا خلاف في الدين أو السياسة. ماتوا معاً أو كادوا، ويعيشون معاً ويحرصون على ذلك!

وعرف القرن العشرون أسوأ أنواع الهجرة وأقساها على النفس: طرد مليون فلسطيني من وطنه، وتشرد في كل الدول العربية. ثم عجز الفلسطينيين عن. . اتخاذ قرار واحد يعيدهم إلى أرضهم. لقد اختلفوا على ألف نظرية ورأي. فلا قدرة لهم على رأي أو رؤية. ولذلك بقيت القضية الفلسطينية بلا حل. . ولا يبدو أن لها حلاً قريباً. والسبب أن أفكارهم مثلهم مشتتة في كل أرض!

وبسبب حرب الخليج بين إيران والعراق، وما تدفعه

دول الخليج للطرفين لاستمرار القتال، وحتى لا تنصر واحدة على الأخرى، وتنفرد بدول الخليج، فإن هذه الدول قد اختصرت الكثير من مشروعاتها الاقتصادية ومشروعات التعمير والخدمات. . أي أنها استغنت عن كثير من الأيدي العاملة التي سوف تعود إلى أوطانها. وقد تؤدي عودتها إلى ارتباك في أوطانها ـ في مصر مثلاً.

وفي ليبيا يعيش مليون أو أكثر من المصريين يعملون بإخلاص. ولكن اضطراب الأوضاع السياسية في ليبيا تهددهم في أعمالهم وأرزاقهم. ويحاول المصريون العودة إلى بلادهم ولكن الحكومة تمنع تحويل مدخراتهم إلى مصر. . وقد خيرهم القذافي بين التجنس أو العودة إلى مصر. ولم يبق كثير من المصريين تنويراً واضحاً. ولذلك قرر بعضهم العودة إلى مصر. مع أن الدستور المصري يسمح بازدواج الجنسية. فقد كان من الممكن أن يتجنسوا وأن يبقوا وهم بذلك يخدمون أنفسهم وبلادهم. ولكن لم تكن سياستنا واضحة. فاختار المصريون البسطاء أن يعودوا إلى مصر. .

ولو كان الأمر بيدي لسمحت فوراً لكل المصريين في أي مكان أن يتجنسوا وأن يحتفظوا بالجنسية المصرية أيضاً. فلا خسارة عليهم ولا خوف. وهم وأولادهم وأحفادهم مصريون يحبون بلادهم ويسافرون إليها ويشترون بضائعها

ويعلمـون أولادهم فيها.. ويصـطافون على شـواطئهـا.. إن كـل الأمريكـان المهاجرين من أوروبا، يعـودون إلى أوطـانهـم الأم، حيث كـان أجـداد أجــدادهم، ثم إنهم أمـريكــان في جميع الأحوال..

وسيـاستنا في الهجـرة ليست واضحة المعـالم. ولـذلـك كـانت حيـرة المهـاجـرين، وإحسـاسهم بـأنهم ابتعــدوا عن مصر ـ ابتعدوا عن عينها، فابتعدوا عن قلبها أيضاً!

البحر خلفي والصديق أمامي
حكمة . . يجب أن تبقى!!

في القرآن الكريم: وجعل لكم من الجبال أكناناً . .

والكن والكنان: المكان الذي نختفي فيه ونتستر وراءه . . البيت.

وفي القرآن الكريم: «اللؤلؤ المكنون» و«أكننتم في أنفسكم» ـ أي أخفيتم في أنفسكم.

والكنانة: أي الجعبة . . أو الكيس الذي توضع فيه السهام والنبال . .

ومصر: كنانة الله، أي المكان الذي اختاره الله للمصريين يعيشون فيه آمنين. سعداء بذلك.

وهذه الكنانة لها جدران «حواجز أربعة»: البحر الأحمر شرقاً والصحراء الغربية والبحر الأبيض شمالاً والشلالات جنوباً . . وهذه المساحة الخضراء الضيقة على جانبي النيل هي التي نعيش عليها من ألوف السنين . . في حالة من الاستقرار والاستمرار والهدوء والصفاء. وهذا واضح في كل صور ونقوش أجدادنا من الفراعنة . . الهدوء الأبدي

والنظرات إلى بعيد. لا إلى شخص أو شيء.. وإنما إلى الأزل والأبد..

ولم تعرف التماثيل الفرعونية «إنسان العين» - أي الجزء من العين الذي يجعل النظرة محددة.. مركزة.. تلتفت إلى شيء أو إلى أحد.. تتابعه وتحلله. أي النظرة الجزئية.. وإنما نظراتهم نظرياتهم: شاملة فلسفية.. وصوفية.. فالمصريون في حالة دائمة من الرضا عن الدنيا وعن النفس وليس عندهم ما هو أجمل من بلادهم..

والأمثلة الشعبية قد احتفظت بهذا المعنى.. من ترك داره، قل مقداره.. أنت في دارك وأنا في داري.. أهلك لا تهلك.. والذي قال:

بلادي وإن جارت علي: عزيزة.

وأهلي وإن ضنوا علي: كرام.

لا بد أن يكون مصرياً أو أخذ هذا المعنى من المثل الفرعوني القديم: إن أغلقوا الباب ورائي انتظرت حتى يفتحوه اليوم أو بعد ألف يوم.. والشاعر الذي قال:

إن كنت مأكولاً فكن أنت أكلي.. إلخ.

لا بد أن يكون قد التقط هذا المعنى من نقش فرعوني أيام الملك اخناتون يقول: حتى لو أخرجتني من الماء وأكلتني فأنت أخي وابن أمي..

والمصـريون يؤمنـون بأن بـلادهم هي: مقبـرة الغـزاة. . كـل الجيـوش من الشمـال والشـرق والغـرب قـد داست بـلادهم. . ولكن هؤلاء الغـزاة أقـامـوا بعض الـوقت، ثم طردتهم مصر إلى حيث كـانوا. . واعتـاد المصريـون أن يبقوا على أرضهم. . كل الشعوب تروح وتجيء ويبقى المصريـون مثل أهرامهم ومثـل نيلهم وصحاريهم ووديـانهم. . والشعوب كلها طامعة في أرضهم وخيراتهم.

فكيف يتركون بلادهم لغيرهم. . إن الماء الذي يـأتي به النيـل يفيض عن حاجـاتهم. . والأرض من حولـه واسعـة. . ومهما زرعوا فـالذي ليس مـزروعاً كثيـر. . ومهما أخـذوا من أحجارها ورمالها فالباقي كثير. .

ومصـر جاء إليهـا يوسف عليـه السـلام. ويعقـوب عليـه السلام. . ومنها خرج موسى عليه السلام. . وجاءها المسيـح عليه السلام والرسول محمد عليه الصلاة والسلام أوصى بهـا خيراً. . ومنها خرجت رسالة التوحيد في صلوات اخناتـون. . وخـرجت وعـادت الجيـوش المنتصـرة. . ومنهـا قـامت الأهـرامات معجـزة كل العصـور. . وأجـدادنـا من الفـراعنـة تقدموا زمانهم في الطب والفلك والهندسة والعمارة.

ولـذلك كـان لدى المصـريين هذا الإيمـان بأنهم أحسن الناس وأكثرهم تقدماً. وإن الـدنيا كلهـا تجيء إليهم يتعلمون منهم ويتعجبـون لهم. . وكثيـرون يفضلون البقـاء فيهـا على

أرضها على نيلها على أطراف صحاريها.

ومهما أراد أحد أن يسيء إلى مصر وشعب مصر. فإن الله يحفظها ويحفظهم.. فهي كنانة الله.. أي حصن الله لأهل مصر..

ولذلك لم يجد المصريون ما يغريهم بأن يذهبوا إلى بلاد أخرى.. أو حتى ينتقلوا من قرية إلى قرية أو إلى مدينة أخرى وقد عرفت القرية المصرية كيف يتكدس الأولاد في بيت واحد.. تماماً كالنحل في الخلية الواحدة حول الملكة.. والبيت المصري الذي يقيم فيه كل أفراد الأسرة هو أقدم البيوت في التاريخ.. ولم ينكسر هذا البيت ليستقر كل شاب ببيت وأسرة إلا أخيراً جداً. ولو تركنا المصريين لظلوا هكذا متشابكين مكدسين حتى الموت..

ولا تزال البيوت المصرية في القرى والمدن متلاصقة.. الشوارع ضيقة والحواري خانقة حتى المدن الجديدة: ما تزال البيوت صغيرة والأبواب والنوافذ والشوارع، مع أنها مقامة في الصحراء ولقد ذهبت إلى مدينة العاشر من رمضان فأذهلنا أن عدداً كبيراً من السكان لا يستطيعون أن يدخلوا الأثاث من أبوابها، إنهم يرفعونها بالحبال لتدخل من البلكونة.. والسلالم ضيقة وملتوية كأنها سلالم في داخل مئذنة. شيء عجيب.

ومن النادر أن تجد أحداً قد أقام على مساحة من الأرض فاستغل الأرض فجعل الطرقات واسعة والأبواب والنوافذ. وإنما تجد البيت في جانب صغير من الأرض أما بقية الأرض فإنه لا يتركها حديقة.. وإنما يحاول أن يغطيها بمزيد من المباني التي تحجب الهواء والشمس ثم يشكو من ذلك مجلس الوزراء مثلاً!

ولذلك فنحن نقيم البيوت على الأرض المزروعة لكي تتلاصق البيوت في المدينة الواحدة.. بدلاً من أن نقيم البيوت على الأرض الصحراوية.. ولم نتجه إلى إقامة المدن في الصحاري إلا أخيراً جداً.. وقد دفعنا أموالاً طائلة لإغراء المصريين على الإقامة هناك بعيداً عن المدن. ولكن الشباب وحدهم هم الذين يتمردون على هذه المعاني القديمة الراسخة في أعماقنا: وهي أن نبقى معاً. وأن نتلاصق وأن يخنق بعضنا بعضاً.

ولكن الشباب سوف يقيمون المدن الصغيرة.. والقرى والمستوطنات الزراعية الصناعية في الصحاري شرقاً وغرباً وفي سيناء.. وهذه هي الخطوة الشابة التي ستفكك القرى المتلاحمة ـ بلا سبب وجيه ـ والبيوت المتخانقة ـ أي التي تخنق بعضها بعضاً.

ولذلك كان الشعور بالغربة أو الاغتراب عند المصريين هو أن يذهب الواحد بعيداً عن القرية أو عن المدينة.. فهو

غـريب عن البيت الـذي ولـد فيه غـريب عن الأسـرة عن القـرية.. ولـذلـك فنحن نـرى في الأفـلام القـديمـة أن الأم تدعو لابنها أن يرد الله غـربته أي يعيـده إليها من الاسكنـدرية إلى دمنهـور.. أو من دمنهـور إلى طنـطا.. وكـانـت الأم والأب والدموع في عيونهم يودعـون ابنهم الذي ذهب يـدرس في الأزهر.

ومن الصـور التي التفت إليهـا المؤرخـون الأجـانب أن المصريين ينقلون الزوجة والأولاد معهم على ظهور المـراكب الشـراعيـة.. أي أن المصـري لا يـريـد أن يعيش بعيـداً عن أسـرته. فهـو ينقلها معـه في كل مكـان.. حتى لو كـان هذا المكـان مـركبـاً في النيـل يحمله التيـار والهـواء من البحـر الأبيض إلى الشلالات.. وكذلك البائع الذي يسرح بالبـطيخ والخضراوات.. فإن أطفاله يركبون العربة أمـا زوجته فتمشي وراءه ـ هذه هي الأسرة معه في كل مكـان. وهذا واضـح في نقوش المقابر الفرعونية أيضاً.

وعنـدما زار روزفلت مصـر أهـداه أميـر الشعـراء شـوقي قصيـدتـه الجميلة عن «أنس الـوجـود» وشكـا لـه مـا يعـانيـه الشعب المصـري من الاحتـلال البـريـطاني، وطلب إليـه أن يـذكر عنـد أهله ما يـريده المصـريون من الحـرية واستعـادة الكرامة والعزة. وأهم ما في هـذه القصيدة وصفـه لقصر أنس الوجود الغارق في الماء. يقول:

أيها المنتحي بأسوان دارا
كالثريا تريد أن تنفضا
اخلع النعل واخفض الطرف واخشع
لا تحاول من أية الدهر غضا

قف بتلك القصور في اليم غرقي
ممسكاً بعضها من الذعر بعضا
كعذارى أخفين في الماء بضا سابحات به، وأبدين بضا مشرفات على الزوال، وكانت مشرفات على الكواكب نهضا شاب من حولها الزمان وشابت وشباب الفنون ما زال غضا.

وما قاله أمير الشعراء عن قصر أنس الوجود الذي يمسك بعضه ببعض من الخوف ينطبق على البيوت المصرية وسكان البيوت أيضاً: لا يتباعدون في البيت أو في القرية أو المدينة أو في مصر كلها.. إنهم مثل أنس الوجود غارقون.. وقد تعلقوا بعضهم ببعض.

ولكن أجدادنا الفراعنة لم يتحولوا إلى أشجار تموت واقفة على أرضها لا تتحرك لا يميناً ولا يساراً.. بل سافروا إلى الصومال وإلى الشام وتقدمت جيوشهم إلى آسيا وإفريقيا.

وفي مصر الحديثة تقدمت جيوش المصريين إلى أوروبا وإلى المكسيك أيضاً..

وعندما ذهبت إلى جنوب الهند في سنة ١٩٥٩ وجدت الصيادين في ولاية كيرالا يرتدون الزي الفرعوني القديم.. ووجدتهم يستخدمون كلمات فرعونية وقد تعب علماء اللغات في إرجاع هذه الكلمات إلى اللغات الهندية.. واقتنع بعضهم بأنها كلمات تركها البحارة المصريون.. من بين هذه الكلمات: هيلا.. ليصا.. وكثير من أعضاء الجسم الإنساني وأدوات الطعام..

وعندما سافرت إلى استراليا وجدت أن هناك بعض النقوش الفرعونية في مدينة برث.. إلى أقصى الجنوب الغربي من قارة استراليا؟!

والبحار النرويجي «ثور هايردال» عندما صنع السفينة «رع ١» و«رع ٢» بالقرب من الأهرام ومن أغصان البردى وانطلق بهذه السفينة من مدينة «اصفى» المغربية كان يجرب رحلة فرعونية قديمة. فهو يؤمن بأن الفراعنة هم أول الذين وصلوا إلى أمريكا وأن أعواد البردى قادرة على عبور المحيط. وقد حاول..

وعندما احتار المؤرخون في تفسير معجزة الأهرامات ـ كيف ظهرت على وجه الأرض مكتملة بلا مقدمات ـ وكيف أن المصريين قد تقدموا في كل العلوم والفنون مرة واحدة. تخيلوا أن بعض سكان الكواكب الأخرى قد هبطت إلى مصر، وعلموا المصريين هذه الفنون، ثم انسحبوا إلى

الفضـــاء الخـارجي . . أو أنهـم أخـــذوا بعض المصـريين في بعثـات علمية في الكـواكب البعيـدة عنـا مـلايين السنين، ثم أعـادوهم إلى الأرض. وأودعوا في الأهـرامات «سـر الكـون» كله ـ فكـأن الفراعنة قد انطلقوا إلى الفضاء الخارجي أيضاً.

وكانت التوراة قد حدثتنـا في سفر «حـزقيال» عن إحـدى سفن الفضـاء التي هبـطت بـالقـرب من بغــداد ورآهـا النبي حزقيال ووصفها بدقة مذهلة . .

ولكن الفـراعنـة سبقـوا إلى مـا وراء هـــذه المجمـوعــة الشمسيـة . . تعلموا ودرسـوا وجاءوا يـطبقون على أرضنـا مـا تعلموه هناك . . فوق . .

ولكن العلمـــاء المصـريين والمستشـــرقين يـذكـــرون أن المصـــريين لم يبـــرحـــوا هـــذه الأرض لكي يـــأتـــوا بهـــذه المعجزات، وإنما هي العبقرية المصرية.

بل لقد ذهب بعض العلماء إلى أن المسلات الفـرعونيـة ليست إلا صـورة لأنواع من الصـواريخ. غيـر أن وثـائق هـذه الصـواريخ قـد تآكلت أو أبـادهـا اللصـوص. . ولكن الكهنـة المصـريين لديهم معلومـات لـم يهتد إليهـا العلم الحديث إلا أخيراً جداً. . فقد شاهد المؤرخون القـدامى أن الكهنة كـانوا يلقون بالأعـواد الحديـدية في الهـواء فتظل معلقـة تمامـاً كما يتعلق رواد الفضـاء في داخـل السفينـــة. وهم يـطيـــرون في

داخل السفينة لأن السفينة تتحرك في منطقة انعدام الوزن - أي أن الكهنة قد حققوا انعدام الوزن بالقرب من سطح الأرض. وهذا ما لم يستطعه العلماء الأمريكان والروس إلا من أربعين عاماً. . في المعامل التي يدربون بها رواد الفضاء على الحياة في مدارات حول الأرض.

وهذا ما جعل بعض العلماء يستنتج أن الفراعنة قد تعلموا «فوق» أو أن أحداً من الذين فوق هبط «تحت» وعلمها للمصريين.

ولو كان المصريون قد مضوا في خط مستقيم. ينتقلون من قارة إلى قارة ومن هذا الكوكب إلى كواكب أخرى - لا نعرف كيف - لكننا الآن من سكان الكواكب الأخرى وراء الشمس بملايين السنين الضوئية.

ومما اهتدى إليه علماء الفضاء أخيراً أنهم وجدوا خريطة في متحف اسطنبول - طوب كابي - هذه الخريطة لواحد اسمه بيري ريس هذه الخريطة عبارة عن صورة من الجو للقطب الجنوبي هذه الخريطة اكتشفوها من ثلاثين عاماً. واهتدى العلماء في تفسيرها إلى أنها لا بد أن تكون قد التقطت من الجو من ثلاثين ألف سنة - لأن شكل القطب الجنوبي في هذه الخريطة يطابق تماماً ما كان عليه في ذلك الوقت - كيف؟

إذن لا بـد أن سفن الفضاء قـد ظهرت في ذلـك الـوقت والتقـطت هـذه الصـورة. وتـركتهـا منقـوشـة في مكـان مـا، تسجيلاً لهذه الـرحلة. . ثم نقلها قبـطان تركي وهـو لا يعرف ما هي. إلى أن اهتدى إليها علماء الفضاء.

ولكن الجديد الـذي اهتدى إليـه عالم الفضـاء الأمريكي كارل ساجان أنه لاحظ على الخريطة حروفاً فـرعونيـة. . كأن هـذه الحـروف هي تـوقيـع الـذي رسم الخـريـطة أو الـذي التقـطها. . أي الفـراعنة إمـا أنهم التقـطوا هـذه الصـورة من الفضـاء للقطب الجنـوبي. . وإمـا أن واحـداً قد احتفظ بهـذه الصورة في تركيا. . كيف؟

وعندما أرسل الأمريكان سفينة فضـاء تنطلق إلى مـا وراء المجمـوعة الشمسيـة وفيها صـور وأفلام وتسجيـلات صـوتيـة للغـات الأرض ومن بينهـا اللغـة العـربيـة، لكي يلفتـوا نـظر وسمـع سكـان الكـواكب الأخـرى إلى وجـودنـا نسي كـارل ساجان وزوجته أن يرسموا صوراً للأهرامات واللغةالفـرعونيـة لأنه يعتقد أن الفراعنة لا بد أن يكون لهم دخـل أو مشاركـة ما، في كل الأحداث القديمة في هـذه المنطقـة أو في الرحـلات الفضائية القديمة. كيف؟

من بين الـرسـائـل التي كـان يحـرص عليهـا الـرئيس السـادات مـا بعث بـه مـواطن مصـري في شيلي. يقـول أنـه رأى في إحدى القرى وجـوهاً فـرعونيـة تمامـاً وبعث بعدد من

الصور من بينها صورة لفلاحة كأنها نفرتيتي إن لم تكن هي.. ثم أرسل صورة لعدد من الفلاحين قد جلسوا أمام بيوتهم تماماً كما يجلس الفلاح المصري أسند ظهره للحائط وأسند ذراعه على عصا ثم هو ينظر إلى الأمام إلى لا شيء.. وبعث بعدد من الكلمات التي هي مصرية قديمة.. ووجدوا أنهم يبكون أربعين يوماً على الميت.. ويزورون قبره كل يوم خميس وليس كل يوم أحد..

وكان الرئيس السادات يقول ضاحكاً أن مناحم بيجين عندما رأى الهرم كاد يلقي بنفسه فوقه فقد ظن أن أجداده هم الذين بنوه.. حتى نبهوه إلى أن أجداده كانوا يبنون البيوت من الطين ولم يعرفوا الحجارة.. إن بيجين يرى أجداده في كل مكان.. وهذا المصري الطيب يرى أجداده في كل مكان ومعه حق. فالحضارة الفرعونية هي أرقى وأعمق ما بلغه الإنسان.

ثم أرسل إليه الرئيس السادات خطاباً يشكره ويهنئه على ما اهتدى إليه، وطلب إليه أن يواصل البحث وأن يبعث إليه.

وكان هذا المصري يريد أن يتلقى رداً من أحد العلماء المصريين يوضح له أو يشرح أو ينصحه بأن يمضي أو يتوقف.. فليس إلا هاوياً عاشقاً لبلاده.. والحب أعمى.. فقد تكون الحقيقة شيئاً آخر..

وقد حدث أيام مفاوضات كامب دافيد أن أرسل أحد اليهود الأمريكان بحثاً لمناحم بيجين يؤكد له أنه وجد على الضفة الغربية لنهر المسسبي آثاراً عبرية ـ لعله يطالب بالضفة الغربية لنهر المسسبي أيضاً؟

وفي أوراق الرئيس السادات ما بعث به المواطن المصري انطوان عبد المسيح كراكالا وزوجته ايثادوره أنهما اهتديا معاً: إلى أن الفراعنة وصلوا إلى جنوب شيلي . . فقد وجدا معاً عدداً من التماثيل الفرعونية لايزيس وأزوريس وأنهما على استعداد لأن يدفعا نفقات رحلة أي عالم مصري يجيء إلى هذه المنطقة ويرى بنفسه كيف أن أجدادنا قد وصلوا إلى أمريكا قبل كولمبوس بثلاثة آلاف سنة.

وكانت الحركة من القرية إلى المدينة العاصمة بطيئة ولكن بسرعة تكدس المصريون في المدينة ثم تكدسوا أكثر في العاصمة ففيها الإدارة والسلطة والمال والعمل والطعام والأمان.

ثم ارتدوا عن العاصمة إلى المدن الأخرى عندما وجدوا في هذه المدن ما يجدونه في العاصمة: العمل والمدرسة والمستشفى والطعام والأمان . .

وعندما انتقلت كل عناصر الحياة في المدن إلى الأماكن النائية من صحارى مصر انتقل إليها المصريون

أيضاً. . ولم يجدوا في ذلك نوعاً من المغامرة. . وإنما هو مثل انتقال الماء من المكان المرتفع إلى المكان المنخفض ومثل الذي تفعله الطيور والحيوانات: جرياً وراء الماء والطعام والدفء. . واستئناف الحياة العائلية المستقلة. .

ومن أكثر من ثلاثين عاماً ذهبت إلى وزير الداخلية أطلب إليه أن ينقل أحد جنود المرور من العمل في الجيزة إلى العمل في القاهرة ولا ألاحظ غرابة أو سخافة هذا الطلب ولكن تأثرت بوجهة نظر الجندي الذي يريد أن يكون قريباً من بيته وأولاده فقط عندما وجدت دهشة وزير الداخلية وأنا أعرض عليه «مأساة» هذا الجندي.

وكان هذا الحوار بيني وبين وزير الداخلية هو يقول: أنت عارف ما الذي تطلبه مني. . أنت بالذات تطلب مني أني أنقل جندياً شاباً يعمل في الجيزة ويركب كل المواصلات مجاناً. . ولا يبعد عن بيته سوى دقائق. . هل معقول أنت تطلب ذلك وأنت الذي تدعو للسفر والهجرة من مصر إلى أركان الدنيا!

فعلاً أصبت بالكسوف الشديد. . كيف أنني لم أفكر لحظة واحدة في حماقة هذا المطلب. وكيف أنني «شوال» عبأه هذا الجندي بالمخاوف والأوهام فقد خرجت دون تفكير إلى الوزير أعزز مثل هذا المطلب وأنقذني الوزير من حيرتي فوافق على نقله وخرجت شاكراً له ولاعناً لهذا البليد

الذي لا يريد أن ينتقل أو يهاجر من القاهرة إلى الجيزة. .

وبعد شهور جاءني هذا الجندي يبكي فعلاً، لقد قرر الوزير نقله إلى أسوان. فقد اكتشف إلى جانب سخافة الطلب، إنه كذاب فلا أسرة ولا زوجة ولا أولاد. . وإنما هو يسكن بمفرده. وعرفت أنه استدعاه إلى مكتبه وأخرجه في ربع هدومه. . وأمره بأن يسافر في نفس اليوم إلى أقصى الجنوب من مصر.

ولكنه واحد من الناس لا يريد أن يعمل بعيداً عن البيت وقد وجد له واحداً آخر مثقفاً يدعو إلى الرحلات والسفر والهجرة. . واستطاع أن يؤثر عليه فاندفع عاطفياً فتوسط لنقله من الضفة الغربية إلى الضفة الشرقية من النيل!!

وفي عصر النهضة أيام محمد علي سافر المصريون إلى الخارج يدرسون في فرنسا وفي تركيا واعتاد المصريون على توسيع «الكنانة» أي هذا البيت فأصبح الشريط الأخضر أكبر. وأصبح من آمال المصريين أن يذهبوا إلى ما وراء الصحراء الزرقاء: البحر الأبيض والأحمر. . وما وراء المحيطات الصفراء: الصحراء الكبرى غرباً وشرقاً. . وما وراء الجنادل الصخرية. في الجنوب. وتقدمت الجيوش عسكريين ومدرسين وأطباء وفلاحين. .

وتضاعفت البحوث العلمية إلى كل الدول الأوروبية والأمريكية.. وانفتحت الآمال على الغرب ولكن لم يقابل ذلك انفتاح على موارد مصر الحقيقية في الزراعة والمناجم وإقامة المدن الجديدة والانتشار في الأرض المصرية.

وجاءت هذه الهجرة الداخلية متأخرة جداً لقد كان المصريون في حاجة إلى مزيد من الكهرباء والماء النقي والمواصلات والمدارس والمستشفيات قبل أن يتمددوا ويتوسعوا ويقيموا مدناً جديدة وعائلات جديدة ولكن العائلات هذه المرة أصغر: زوج وزوجة واثنان أو ثلاثة من الأطفال فالمساكن لا تسمح بأكثر من ذلك والحالة المادية أيضاً.

فالمهندسون المعماريون هم أول من فرضوا تحديد الأسرة على المصريين: فالشقة الصغيرة الشعبية ذات الغرفتين هي التي جعلت كل أسرة تفكر في أن يكون أفرادها قليلين.. لأن تكاليف الشقة أكبر كثيراً أيضاً ثم أن الزوجة إذا كانت عاملة فهي لا تستطيع أن تدير بيتها وإنما في حاجة إلى خادمة والخادمة مكلفة إذن لا بد أن تعمل الزوجة بعض الوقت أو لا تعمل وتتفرغ للبيت والأولاد أو تكون هناك صناعات تقوم بدور الزوجة فتعد الطعام والشراب فإذا عادت الزوجة إلى البيت وضعته على النار ـ فلا عندها وقت ولا عندها خادمة. ولأنه لا توجد بيوت

للحضانة ترعى الطفل في غياب أمه العاملة تـأخرت الأم في إنجاب الأطفال.

فكـل هذه العـوامل مـع البعد عن العـاصمة حتمت على الأسـرة أن تظل صغيـرة أما إذا قـررت أن تكون كبيـرة فيجب ألا تعيش بعيداً عن العواصم ولكن عنـدما تـوافرت الكهـرباء والماء النقي والعلاج والأمن والمـواصلات لم يتـردد أحد في أن يعيش بعيداً ـ عن القرية والمدينـة والعاصمـة. . وكان من الـواجب على الـدولـة أن تـلاحق هـذا المـواطن بـالإذاعـة والتليفزيون والصحف حتى لا يشعـر بأنـه غريب في بـلاده أو غريب عنها. . أو مهاجر. .

أعـود إلى رسائـل المواطنين إلى الـرئيس السادات سنـة ١٩٧٨. كتب المـواطن د. عبـد السـلام شفيق الهـلالي من كنـدا يقول أنـه يقتـرح إقـامـة وزارة للمهـاجـرين منفصلة عن وزارة القـوى العاملة وإن كـانت مماثلة لهـا في عنايتهـا بكـل من يعمـل في الخارج أو يـريد أن يهـاجر بـل يجب عليها أن تشجع المصريين على العمل في الخارج والإقـامة لأن مصـر لا تستـطيـع أن تـطعم كـل هـذه الأعـداد الهـائلة ولا هـو من الضروري أن يفعل ذلك فهناك بـلاد قريبـة منا استـطاعت أن تحـل مشـاكلهـا عن طـريق تصـديـر فـائض العمـالـة إلى الخارج. . ولكن ـ يقول د. عبـد السلام الهـلالي ـ يجب ألا نصـدر إلى الخـارج مـا زاد عن حـاجـاتنـا بـل أن نصـدر من

العمال والفنيين ما يحتاج إليه. . لماذا لأن هذه النوعيات الممتازة مثل النوعيات الممتازة من الفاكهة والأقمشة التي نصدرها هي أحسن إعلان عن مصر. وهي تشجع الدول الأخرى على استيراد العمال المصريين.

ويقول: ويجب ألا نترك المصريين في الخارج دون معاونة ودون نصيحة. فهم رواد. وهم قدوة وهم فترينة مصرية متحركة، يجب أن تكون ممتازة حتى يتصور الناس أن المصريين كلهم هكذا. . إن واجبهم دعاية لمصر. .

والبحث الذي كتبه د. عبد السلام الهلالي في ٣٤ صفحة وهو لم يترك شيئاً لم يتناوله في إغراء الشبان بالسفر إلى الخارج وإغرائهم بالإقامة هناك بل وقطع صلتهم نهائياً بمصر. . وأن نقول لهم ما قاله طارق بن زياد: البحر خلفي والعدو أمامي.

مع أن العدو ليس أمامنا بل من الممكن أن يكون صديقاً بل يجب أن يكون صديقاً فنحن لم نذهب إلى الدول الأخرى غزاة. وإنما نحن نطلب الرزق الحلال بالعمل الشريف وإنما نغرس أعلاماً مصرية في أرض جديدة. . فنحن بالعقل والسلام والاجتهاد نوسع رقعة الأرض المصرية.

فليكن شعارنا جميعاً في أرض الغربة: البحر خلفي

والصديق أمامي. . وحتى البحر يجب أن يكون صديقاً فلا عداء مع أحد. . وإنما الحب والصداقة والخير قد وزعه الله على الأرض كثيراً وغزيراً. . والشرف لا يزال أقصر الطرق إلى النجاح والسعادة بعد ذلك.

وبعث الرئيس بخطاب د. الهلالي إلى تسع وزارات ـ واستقر في الملفات المكدسة أمام ووراء كل من ينظر إلى مستقبل مصر خارج مصر.

اثنان من اللوردات
وثلاثة مصريين
في استراليا؟!

نحن الثلاثة ركبنا الطائرة من جاكرتا، عاصمة أندونيسيا أما هي فمصرية من شبرا. لم يكن في حسابها أن تعيش في استراليا. وإنما هي التقت بشاب وسيم في أحد الأندية الرياضية. سألته: أنت مين؟ فقال لها: أنا ولا حاجة.. كما ترين شاب يحب الرياضة ويريد أن يكمل حياته جاداً. زوجاً وأباً وقدوة حسنة لأولاده بالضبط كما لم يفعل والدي.

ولا أقول أمي. لأن أمي تعذبت كثيراً جداً في تربيتي وفي انتشالي من أحضان والدي المخمور دائماً والذي يقذف أمي بكل ما يقع في يده.. وفي إحدى المرات كنت أنا في يده فألقاني على أمي فسال الدم منا نحن الاثنين.

وأنت مين؟

قالت: أريد أن أكون حاجة.. فأنا تخرجت في الجامعة.. ولم أر في حياتي إلا راهبات. في الصباح صلوات وفي المساء. والمعلومات الأساسية عندي أن كل الرجال وحوش.. وفي نفس الوقت كل الشعر والأدب والفن

غزل في الرجال. . وفي النهاية لا بد أن أقفل الباب ورائي على رجل أحبه. . ومعه وله وبسببه تكون كل الفضائل.

وقال لها: ما رأيك؟ فقالت: موافقة!

وكان لا بد أن يأخذها إلى استراليا لترى أمه المريضة. . فترى أنه أحسن الاختيار وأتى بواحدة من أحفاد الفراعنة: سمراء واسعة العينين نحيفة الأنف بارزة الشفتين. . نفرتيتي. أو كأنها!

أما هو فأشقر أزرق العينين، أحمر الشعر، أطول منها كثيراً وأعرض.

وفي استراليا وفي أحد المطاعم قال لها: بصراحة. كذبت عليك. لم تكن لي أم. . فأنا أيضاً لم أر في حياتي إلا الرهبان. . لم أعرف لي أباً ولا أماً!

وألقت بنفسها عليه والدموع في عينيها: يا حبيبي أنت أيضاً لقيط؟!

قابلتها ووجدتها هي وزوجها يعملان في نادي الجولف. ولهما ولدان: رمسيس وأيوب!

أما الثاني فهو شاب مصري كان يعمل على إحدى السفن اليونانية. أصله من بورسعيد. لأسباب غامضة وقصص متضاربة قرر أن يترك المدرسة وأن يعمل في البحار. . ومضت سنوات وتجمعت لديه أموال وآمال في أن

يكـون صيـاداً. . وأن يكـون صـاحب زوارق صيـد. . معلمـاً كبيـراً. وكان من عـادته إذا ضـاق بأحـد المراكب انتقـل إلى أخـرى. . وعـرف عـدداً من اللغـات ـ مـائـة كلمــة من كـل لغة. . وجاءت سفينة يونـانية اسمهـا «الكترا» تسلل إليهـا. . وفي الـطريق إلى استراليـا عـرف شـابـاً سـوريـاً أطلعـه على سـره. ولكن الشاب السـوري أبلغ أمـره إلى القبـطان. فقـرر حبسـه إلى أن يتم تسليمه إلى السلطات الاستـرالية. . وأفلح في أن يخرج من السجن وأن يتشاجـر مع السـوري وأن يفتح دماغه. وفي ميناء سيدني باستراليـا تلقفته السلطات ووضعتـه في السجن!

ولما وصلت إلى استراليا في أغسـطس سنة ١٩٥٩ كـان الشـاب المصـري عبـد الـواحـد إمـام (٢٧ سنـة) قـد بـدأ الشهـور الأولى من سجن السنـوات السبـع. . ولم أتمكن من رؤيتـه. حـاولت. ولمــا عـرفــوا أنني أريـد أن أعــرف فقط حكـايتـه، وجـدوا في ذلـك حب استـطلاع لا فـائــدة منـه. فرفضوا.

وكنت ثـالث المصريين في قـارة استراليـا. ولم يكن في نيتي أن أسافر إلى استراليا، وإن كنت قـد تمنيت ذلك. فقـد حـدث وأنا في أنـدونيسيا أن أصـدر الرئيس سـوكـارنـو قـراراً بتخفيض العملة. فأصبحت الورقة ذات المائـة تساوي عشـرة وذات الخمسين تسـاوي خمسة. فجـأة. وبمنتهى الصـراحـة

جلست على الأرض أمـد يـدي للسفيـر أن يسـاعـدني في الاتصـال بـالأستـاذ علي أمين في أخبـار اليـوم. لم استـطع. وأبـرقت لعلي أمين أطلب دعمـا مـالياً. فـأرسل مـائتي جنيـه استـرليني، بهـذا المبلغ أكملـت رحـلتي حـول الـعـالم. ووجدت أنني قريب من استراليا، فلمـاذا لا أسافـر. وازددت ثقة بنفسي. فـأنـا أول من سافـر إلى التبت وقابـل الـدلاي لامـا. . وأول من سـافـر إلى جـزيـرة سيـلان وكتبت عن العشرين عاماً التي أمضاها الزعيم أحمد عرابي في منفاه.

ونشرت الوثائق الرسمية لدخوله وخروجه والأطعمـة التي أدخلها إلى الجزيرة: الكعك والغريبة والقطايف والكنافة. .

وأنا أول كاتب أو صحفي يسافر إلى استـراليا، وأول من قـام برحلة حـول العالم. وكـانت رحلتي الأولى ٢٢٨ يومـاً، أمـا رحلتي الثانيـة حـول العـالم في سنـة ١٩٨٦ فكـانت ٢٨ يوماً!

وفي الـطائرة مـا بين مـدينـة دارون في شمـال استـراليـا ومـدينة سيـدني في الجنوب وقفت المضيفـة تسأل: إن كـان أحد يعرف اللغة اللبنانية.

فضحكت. ورفعت يـدي. وهي لا تعـرف أن الـلغـة اللبنانية هي العـربية. . وأشـارت إلى راكبة ارتـدت الملابس السوداء. وأحنت رأسها كـأنها مصـابة بمغص. واقتـربت منها

أسألها إن كانت تريد طعاماً أو شراباً. لأن المضيفة قد تعبت في أن تفهم منها شيئاً. ولم استطع أن أعرف ماذا تريد لأنها تتكلم اللهجة اللبنانية الخاطفة الحروف. والله أعلم ربما كانت الكلمة الوحيدة التي فهمتها هي كلمة «ليموناضة» ـ أي ليمونادة ـ عصير ليمون يعني.

وفي المطار وجدت أخاها ينتظرها. واقتربت منه. فوجدته لم ينس اللغة العربية. وإنه قد هاجر إلى استراليا واستدعى والديه وأخوته واحداً واحداً.. وهذه آخر الأخوات.. وضحكت على لهجتها. وسمعتها تقول له شيئاً. وطلبت أن يترجم ما الذي قالته فضحك أكثر. وقال: إنها مندهشة جداً كيف أنك لم تفهم أنها من بلدة زغرتة.. بلدة الرئيس فرنجية؟!

وفي اليوم التالي زرته في مطعم في إحدى عمارات شارع جورج الشهير في سيدني. ولم أعرف أخته هذه. لقد تغيرت وتدورت وتلونت. وسرحت شعرها ووضعت مريلة فوق الفستان الأبيض والأحمر ـ تصور أن هذا الأخ اللبناني قد استورد أخته من جبال لبنان لتعمل خادمة عنده أو عند غيره..

وهذا الشاب هو الذي فتح كل الأبواب اللبنانية أمامي في سيدني.. أبواب الأغنياء والقنصلية اللبنانية.. وحفلات الدبكة والأفراح والليالي الملاح. وفي إحدى الليالي تلقيت

مكالمة من أسرة «سكيف» أغنى أغنياء استراليا. وجدت واحداً يرحب بي وهو يقول: الأخ موريس حدثني عنك. سوف أبعث لك بابنتي وسيارتها. وأنا في انتظارك..

إنه قصر من القصور التي تطل على المحيط.. الحديقة واسعة.. والطيور في الأقفاص.. والحيوانات: الغزلان والزرافات والكانجرو.. وعدد كبير من السيارات أمام القصر.. أما الوجوه فلبنانية صميمة.. الشباب والسيدات والأطفال. وأكثرهم لا يعرف اللغة العربية.. أو يعرفها ولا يقرأها أو يكتبها.. الكبار في السن هم الذين احتفظوا بالقدرة على القراءة والكتابة والكتب والصحف العربية..

أما الذي فعله أبوه وكل الآباء من الرواد الأوائل المهاجرين فشيء واحد: كلهم جاءوا إلى هذه البلاد «باعة سريحة».. كل واحد لا يعرف اللغة ولا معلومات عنده عن البلاد.. وليس أسهل من أن يحمل البضاعة على ظهره ويلف على البيوت.. يدق الأبواب ويعرض البضاعة، وبما لديه من معلومات بسيطة عن الفلوس، يبيع ويشتري.. فهو ليس في حاجة إلى رخصة ولا إلى دكان ولا إلى رأسمال.. ولا لغة.. ثم أن التعامل مباشر مع البيت والشارع والناس..

أما أسباب هجرة السوريين واللبنانيين في أوائل هذا

القـرن فهي هرب من الجيش اللبنـاني. وهرب من السخـرة. ولما تنبه الأتراك إلى هجرة الشوام (سوريـا ولبنان وفلسـطين) منعـوهم. فكانـوا يسافـرون إلى مصر، ومن مصـر يهاجـرون إلى أمريكا واستراليا . .

وسـألته إن كـان أحد من المصـريين قد هـاجر إلى هـذه القارة. فقال إنه سمع عن رجـل اسمه سنـدوب منصور. . أو سندوب المنصوري وكان يسمي نفسه لورد ساندوب.

وأغلب الـظن أنـه من قــريــة سنــدوب القــريبــة من المنصـورة. وقد ساعـده على أن يعطي نفسـه لقب لـورد أنـه كان أشقر اللون ذهبي الشعر أخضر العينين.

وسمعت أن أحــداً لم يعـرف بــالضبط مـا الــذي كـان يعمله. فقد كان رجلاً أنيقاً. ظهـر بضع سنـوات، ولـم يتزوج ثم اختفى!

واللبنـانيون والسـوريون تعلمـوا أن يكـونـوا سـريحـة من اليهـود الذين هـاجـروا إلى هـذه البـلاد، ومن أبنـاء اليـونـان أيضاً.

وعـرفت فيما بعـد عنـدمـا ذهبت إلى الفلبين واحـداً من السوريين كان بائعاً سريحاً أيضـاً، يتنقل بـالأقمشة الـدمشقية والبروكار في زورق بين الجزر (سبعة آلاف جـزيرة) وأنـه ظل سنــوات لا يكـل ولا يمــل، ولمـا مــرض خلفتــه زوجتــه

وأولادها. ولما جمعت الزوجة مبلغاً كبيراً من المال اشترت قطعة أرض جرداء. وأقامت مصنعاً. ثم أهدت جزءاً من هذه الأرض للكنيسة فجاءت الكنيسة رصفتِ الشوارع وأضاءتها. فاتجهت الأيدي والأقدام والعيون إلى المصنع، وارتفع سعر الأرض. وكسبت هذه السيدة أضعاف ما دفعت!

وسمعت من آل سكيف أن والدهم عندما جاء إلى استراليا وقع في مطبات ومشاكل قانونية. فهو يجهل اللغة والقانون وعادات البلاد. ولكنه خرج من هذه المشاكل كالشعرة من العجين، لحسن نيته وطيبة قلبه ونظافة يده وحب الناس له.. ففي إحدى المرات وكان الجليد قد غطى الطرقات، دق باباً، ففتحت سيدة. فقالت له: ماذا تريد؟

فقال: نعم..

قالت: ماذا تريد؟

قال: موافق..

ثم وجد الدفء يملأ البيت، دخل وجلس أمام المدفأة. فعادت تقول له: إن زوجي ليس هنا. فقال لها: نعم.. نعم..

وبعد لحظات جاء زوجها فقالت له: رجل أجنبي لا

يفهم الانجليزية كلما قلت له شيئاً قال: نعم. . موافق. .
إنه هناك يجلس أمام المدفأة وكان يحمل شنطة على ظهره. . ودخل الزوج ووجد الرجل جالساً أما المدفأة. حاول أن يحدثه. لم يفهم الرجل. جلس الزوج إلى المائدة. وجلس الرجل أيضاً. . ومد يده إلى الطعام وهو يهز رأسه له شاكراً ممتناً. .

وبعد أن فرغوا من الطعام أشار أن يتبعه إلى إحدى الغرف لكي ينام فيها. ونام الرجل وفي الصباح سبق الجميع إلى المطبخ وغسل الأطباق والملاعق ومسح البلاط. وأعد لنفسه الشاي. وعندما رأى السيدة وبناتها قدم لهن عدداً من المناديل الحريرية المشغولة وهو يقول: شكراً لك يا سيدتي على استضافتي. فقد كان البرد قارساً أمس!

واندهشت السيدة تقول: ولكنك تتكلم الانكليزية اليوم.

قال: لو كنت تكلمت بالأمس. ما أدخلتموني بيتكم ولتجمدت من البرد أمام الباب! وعشرات من المغامرات والقصص حدثت لوالده وعمه وخالته ووالدته والأولاد والأحفاد ـ الرواد الأوائل من المهاجرين إلى استراليا!

وأخرج لي كتاباً ضخماً بخط اليد، لحكايات ومغامرات آل سكيف!

ولعلنا لا نزال نذكر أيام الوحدة مع سوريا، كيف امتلأت شوارع القاهرة بالبنات والأطفال البيض الشقر يبيعون الأمشاط والفلايات والمناديل وأمواس الحلاقة ـ كلهم من سوريا. بينما لم يظهر في سوريا مصري واحد يبيع اللب والسوداني ـ ولا واحد!

وقد فشلت الوحدة، ونجح مئات من التجار السوريين وهم الآن من أصحاب الملايين في مصر!

أذكر أنني ذهبت إلى سوق الحميدية في دمشق ووجدت مطعماً اسمه المصري وجلست والفول والطعمية والصلصة أمامي أسأل عن صاحب المحل. فجاء: شوارب وكرش أخضر.

العينين سوري مائة في المائة!

فالسوريون تجار من الدرجة الأولى ـ تجار في كل شيء وهم أكبر منافس لليهود في استراليا وفي أمريكا. وأذكر أنني كنت في الرياض وطلبت من د. عبد الحليم خدام مقابلة الرئيس حافظ الأسد. فذهب وعاد يعتذر. وسألت عن السبب فقال: أنت تعرف ماذا قلت عن السوريين!

وكنت قد كتبت حكاية عن د. هنري كيسنجر. يقول فيها أنه عندما كان يتنقل مكوكاً بين دمشق وتل أبيب غلبه

التعب فنام لحظات. ولما صحا، لم يعرف إن كان في دمشق أو في تل أبيب. . لأن اليهود والسوريين يتكلمون لغة واحدة!

فهم تجار، ولكننا فلاحون. .

ولذلك عندما يهاجر المصري فإنه يعمل موظفاً. جالساً مستقراً آمناً ـ طالباً للأمان.

أما السوري فهو بائع متنقل. أو تاجر عنده باعة متنقلون على استعداد دائم لأن يبيعوا الماء والظل في جهنم!

قال لي السيد جون سكيف أن عمه اختلف مع أحد الاستراليين. وتشاجرا. وأدخلوه السجن بضعة أيام. وسأل إن كان سيبقى في هذا السجن طويلاً. فقيل له: شهراً أو شهرين. فسأل: ألا يوجد سجن آخر؟ قيل له: بل سجون مختلفة.

سأل: وكيف الانتقال إلى واحد منها؟

قيل: إذا ضربت السجان على قفاه.

فهجم على السجان وضربه على خده وقفاه. فعاقبوه ونقلوه إلى سجن آخر. وسألوه: ولكن لماذا فعلت ذلك؟

قال: زهقت من الجلوس في سجن واحد!

وكان عمه هذا أول من أدخل بيع السندوتشات والحلوى داخل السجون!

ومنذ عام سنة ١٩٥٩ وأنا مرتبط عاطفياً باستراليا. لماذا؟ هل لأنها جديدة كلها.. هل لأن السفر إليها كان مغامرة. هل لأنني أول من سافر إليها كاتباً مصرياً أو صحفياً عربياً أو داعية لهجرة المصريين إليها؟ هل لأنني ساعدت ألوفاً ـ ألوف المصريين. وكانت مساعدتي بالتوجيه الشخصي وبالرسائل.. هل لأن كتابي «حول العالم في ٢٠٠ يوم» هو الصاروخ الذي تعلق به ألوف الشبان فسافروا ليروا.. وغامروا ليكسبوا.. وأقاموا قدوة حسنة لكل الشبان.. فاستراليا جديدة عليهم.. وهم جديدون عليها..

وفي مدينة سيدني سنة ١٩٥٩ ذهبت استمع إلى المحاضرة التي ألقاها عميد المؤرخين المعاصرين أرنولد توينبي. وفي هذه المحاضرة طلب إلى استراليا أن تلغي نهائياً سياستها البيضاء، أي التي تمنع الملونين من الهجرة إلى استراليا. وكانت استراليا قد اتخذت هذه السياسة سنة ١٩٠١. فقد هجم عليها الصفر والسود من كل القارات، بعد اكتشاف الذهب سنة ١٨٥٠.. فليس معقولاً أن تكون «القارة الجزيرة الاسترالية مسكناً لسبعة ملايين وفوقها اندونيسيا بها ١٨٠ مليوناً والهند ٨٠٠ مليون والصين ألف

مليون. . لابد أن تفتح الأبواب وإلا حطموا أبوابها جوعاً وغضباً.

ولما سمعت توينبي يقول ذلك، نظرت لا شعورياً إلى ظهر يدي. . إلى بطن يدي. . فوجدتها بيضاء. . وعندما أخرجت السيدة التي جواري مرآتها تسوي شعرها وجدتني اقترب منها لعلي أرى وجهي . . لست زنجياً ولا أنا أصفر. إذن من الممكن أن أهاجر إلى استراليا وملايين المصريين الذين هم سلالة العرب والأتراك والمماليك والفرنسيين - تماماً كالسوريين واللبنانيين والأوروبيين أيضاً!

وقد عدلت استراليا عن سياستها البيضاء نهائياً عندما لاحظت أن معدل النمو السكاني يساوي ١٪. . ففتحت الأبواب والنوافذ للأيدي العاملة الرخيصة التي تضاعف مكاسب أصحاب رؤوس الأموال. . ثم عادت فواربت الأبواب. . ثم أغلقته لتفتحه من حين إلى حين. .

واستراليا قارة مساحتها سبعة أمثال مساحة مصر أي حوال سبعة ملايين كيلو متر مربع. أكثرها أرض صحراوية جافة. أما المناطق المزروعة والغابات المليئة بالسكان فهي في الشرق والجنوب.

فاستراليا تدين بحضارتها لحيوان نعرفه، ولكنه لم يعد يلقى عظيم الاحترام الذي لقيه في هذه القارة: الجمل. .

ففي استـراليا نصف مليـون جمل. . ولا أرى مثـل هـذا العدد موجـوداً في أي بلد عربي. . والجمـل هو الـذي اجتاز القارة غرباً وشرقـاً وجنوبـاً وشمالاً. . فهـو وحده القـادر على احتمـال الجفاف ـ جفـاف الماء والعشب. ولـولا الجمـل مـا قـامت الحضارة الحـديثة. . فعلى ظهـره انتقـل البيت وقـطع الغيار وأنابيب الميـاه وأسلاك التليفـونات والتلغـرافات ـ وقـد دخـل هـذه القـارة من مـائـة عـام. . وأول من اكتشف هــذه القارة هو أعـظم رحالـة في التاريـخ جيمس كوك سنـة ١٧٧٠ شـاب شجـاع أول من رسم الخـرائط وهـو اكتشف الجــانب الشـرقي من القـارة وكـان مـع كـوك اثنـان من العلمــاء همـا اللذان اقتـرحا على الحكـومة البـريطانيـة نفي المجرمين إلى قارة باستراليا. ومـع «الأسطول الأول» سنـة ١٩٨٧ كانت أول شحنة من المجرمين وهي البداية الحقيقيـة للهجرة مئتي عـام تمـاماً وبلغ عـدد المجرمين الـذين نقلوا إلى استراليـا حوالي نصف مليـون. وأكثـرهم من أصـل إيـرلنـدي ـ ربـع سكــان استـراليا الآن من أصـل إيرلنـدي. وكان هـؤلاء المجـرمـون يعملون في زراعة الأرض ورصف الطرق ويعـاقبون بـالجلد. ولمـا بـدأ المستـوطنـون الجـدد يملكـون الأرض كـان هؤلاء المجـرمون يعملون مجـاناً. ثم صـدرت القوانين التي تحـرم استخدام السياط، عقاباً لهؤلاء المجرمين.

واستراليا قارة منعزلـة عن بقية القـارات. ولذلـك عاشت

عليها حيوانات غريبة عجيبة ليس لها نظير في القارات الأخرى. . وكذلك النباتات. .

ففيها السكان الذين يسمون «آب ـ أوريجين» ـ أي الذين كانوا من الأصل. . الذين كانوا الأوائل. . أي السكان الأصليون. وقد عاشوا على هذ الجزيرة من أربعين ألف سنة. . واستطاعوا أن يقاوموا عوامل الجفاف وقسوة الأرض. ولكنهم انقرضوا بالتدريج فلم يبق منهم الآن إلا ١٦٠ ألف نسمة فرقتهم اللغات واللهجات والقبائل ـ من ٢٠٠ إلى ٥٠٠ قبيلة. . وقد اختلطوا بالسكان الأوروبيين. ولهم مطالب. والدولة تشجع اندماجهم. وتعطيهم ما يطلبون من حق التعليم والتجارة والصناعة والزراعة. . ولكنها في نفس الوقت تريد أن تبقي عليهم بصورتهم هذه.

واستطاع العلماء أن يتعمقوا في تاريخ هؤلاء البدائيين. فاهتدوا إلى أساطيرهم التي هي حقيقتهم وواقعهم ـ ولا يوجد شعب بلا أساطير. تتغلب عليه أول الأمر، ثم يتغلب عليها بعد ذلك. . والشعب الذي ليست له أساطير ليس له تاريخ.

ومن أساطيرهم التي. عجبتني أنهم جاءوا من أرض الأحلام. . ومن زمن الأحلام. أي أنهم عاشوا في النوم. . وعاشوا في بلاد النوم. . وفي أثناء النوم يولد كل شيء. . فإذا نام الإنسان خرجت روحه ولم يبق إلا جسده. . والذي

لا يعـرف النـوم لا يعـرف الأحـلام، والـذي لا يعـرف كيف يحلم، لا يعـرف كيف يعيش. . والإنسان ـ عنـدهم ـ يحاول في دنيـاه أن ينقل إليهـا صورة الأحـلام ولا يـزال يقتـرب من أحلامه شيئاً فشيئاً، حتى إذا طـابق الواقـع الخيال، مـات. . أي لم تعد له روح، ولم يعد له جسد!

وأسـطورة أخرى تقـول: إن الإنسان لكي يصيـد حيوانـاً فإنه يظل يجري بين الأشجار وبين الصخور حتى يجـد قطعـة من العـظام. . ويظل يغسلهـا وينحتها. ويجعلهـا مدببـة على شكل سهم. . فإذا استطاع ذلك، فـإن الحيوان الـذي يريـده يكـون قـريبـاً من المـوت. . فـإذا أمسـك العـظام المـدببـة وصـوبها نحـو الحيوان واغمض عينـه وعاد إلى أحـلامـه ولـو لحظة واحدة، فإن الحيوان يكون قد مات.

فالمهم هو أن يعثر على قطعـة العظام، وأن يـدببها وأن يصوبها وأن يغض لحظة واحدة وهو يصوبها نحو الفريسة!

ومن أجمل الأسـاطير عنـدهم في تفسير أنهم ينقـرضون، وأنه كان في استـطاعتهم أن يملأوا جـزيرة استـراليا، ولكنهم فشلوا. لمـاذا؟ يقـولـون: حـاولنـا أن نكـون مثـل حيـوان الكـانجرو. . والنقـوش في الكهوف تؤكـد هذا المعنى. فقـد حـاولت الأمهات أن تحمـل صغارهـا في بطونهـا كمـا تفعـل أنثى الكانجرو. لم تستـطع الأمهات. ومـات الصغار. ألـوف الصغار. . ولكن الأمهات لم تستطع أن تحمل صغـارها على

ظهورهن كما تفعل أمهات الأسكيمو. فالاسكيمو في القطب الشمالي.. فكان من المستحيل أن يقلد الأم البدائية مالم تره من أمهات الأسكيمو..

ولكن المعنى موجود: وهو أن أنثى الكانجرو تضع مولودها صغيراً جداً في حجم إصبع اليد.. ثم يزحف الصغير وحده إلى أن يجد «الكيس» الذي سوف يعيش فيه عاماً والكيس في مقدمة بطن الأم، يجد فيه الوليد غدداً لبنية يمتصها. ويظل في كيس الأم يكبر ويكبر.. ويطل برأسه يأكل الأعشاب.. وقد تضع الأم بيضة أخرى.. وتظل هذه البيضة دون فقس حتى يكبر الصغير الأول. ومن الممكن أن يكون لدى الكانجرو ثلاثة من الصغار في وقت واحد.. واحد خرج من الكيس يجري وراء الأم.. وواحد في داخل الكيس يمتص اللبن ويأكل العشب والثالث على شكل بيضة ملقحة ولكنها لم تفقس بعد..

والحيوانات الكيسية ـ ذات الكيس ـ خمسون نوعاً في مقدمتها الكانجرو الرمادي والبني، والكانجرو الذي يتسلق الأشجار. وكلها تعيش على الأعشاب.. وهناك حيوان الكوالا وهو يعيش على النباتات ويتسلق الأشجار.

وأنواع أخرى لها شكل الفئران وشكل الأرانب وشكل الثعالب ـ وكلها كيسية وآكلة للحوم..

أما الكانجرو فهو إذا وقف على ساقيه الخلفيتين واستند

إلى ذيله الطويل القوي يبلغ المترين ارتفاعاً. وهو يجري بسرعة أقصاها سبعون كيلومتراً.. وفي لعبه مع صغاره يجري بسرعة العشرين كيلو متراً.. وهو يقف على رجليه الخلفيتين، ورجلاه الأماميتان مرفوعتان لا يلمسان الأرض.. وقد استطاع في ملايين السنين أن يكون رشيق القفز وأن تنسجم عضلاته وتتناسق مع هذه الحركة.. وأثناء الجري من الممكن أن يسقط الابن الصغير للأنثى.. دون أن تدري.. وفي بعض الأحيان عندما يكون الصغير كبيراً ولا يزال في الكيس فإنها تتخلص منه لتنجو بنفسها ـ هذا رأي.

ورأي آخر يقول أن الأم لا تتخلص من صغيرها، وإنما لأنه ثقيل ولأن عضلات الكيس قد أرهقت فترهلت فإنها لا تستطيع أن تمسك به، فيسقط على الرغم منها..

وفي كل قطعان الحيوان تتقدمها أقوى الذكور: تهدد وتخيف وتنذر وتجول اتجاه النجاة، ووراءها الإناث تحمل صغارها ضئيلة أو كبيرة. وفي حالة الجوع الشديد أو الجفاف تظل الأنثى تعتصر ألبانها لكي ينجو الصغير. فإذا لم يسعفها اللبن، اقترب الذكور يظللون على الصغير.. ثم يمد الذكور ألسنتهم لكي يرضعها الصغير.. وقد حدث كثيراً جداً أن وجد الباحثون ذكراً وأنثى قد ماتا من العطش والجوع بينما يقفز من داخل الأم الميتة كانجرو صغير في

غاية الحيوية والرشاقة ـ سبحان الله ـ لقد مات الأبوان معاً من أجل أن يهبا الحياة لمولود جديد!

هذه هي المعاني التي قصدت إليها أسطورة البدائيين: درس عميق في معنى الحياة والتضحية من أجل أن يبقى الصغار في أرض جديدة!

ومن أجمل ما يشاهده السائح في استراليا: جزيرة الكانجرو.. جنوب استراليا طولها ١٥٠ كيلومتراً وعرضها ٥٠ كيلومتراً.. وبها ما لا عدد له من الكانجرو وعجول البحر وأسود البحر وقد اكتشفت سنة ١٨٠٢.. وهي أروع متحف وملهى وجنة لهذه الحيوانات التي تنطلق على حريتها لا يقرضها أحد.. فقط السياح والعلماء.. ولذلك يلهو وسط الأطفال وهم آمنون ـ الحيوانات آمنة والناس أيضاً.

ومن أجمل الصور التي يلتقطها الباحثون أجيال الكانجرو: فتجد الأب والأم والجيل الذي يليهما والجيل الثالث والرابع. وقد وقفت معاً من أجل هذه الصورة التذكارية، دليلاً على الأسرة الواحدة المتماسكة. فإذا حاول كانجرو ليس من هذه السلالة، فإن الأب الأكبر يقترب منه ويرفسه برجليه الخلفيتين، فيبعد عن الصورة.. شيء عجيب أن يستطيع أب أوحد أن يفرز أولاده وأحفاده

وسط عشرات الألوف من الكانجرو المتشابهة اللون والرائحة والحجم والعمر!

ومعنى آخر: هوَ أن أبناء الحضارات القديمة ـ مثل المصريين ـ كالكانجرو يجلسون على تاريخهم ـ كما يجلس الكانجرو على ذيله.. فذيله يكاد يكون ساقه الثالثة.. وهو إذا جلس ارتفع وطال.. وكذلك أبناء الحضارة القديمة إذا استندوا إلى تاريخهم، ارتفعوا وعلوا وتعالوا كأنهم يجلسون على الهرم أو على إحدى المسلات الفرعونية.. والمصريون كالكانجرو أيضاً ينتقلون أسرة أسرة.. لا أحد يمشي وحده.. وهم في بلادهم كذلك.. نجد البائع السريح يحمل أولاده على العربة ومن ورائه زوجته.. أو تجد بائع الخيار أو البطيخ: يضع طفلاً على العربة وطفلاً آخر في داخل العربة. فالعربة لها جيب.. مثل جيب الكانجرو.. فطفل فوق وطفل تحت والثالث في يد الأم والرابع على كتفها والخامس في بطنها.. أسرة من الكانجرو.

ولذلك فإن مؤلفي أساطير البدائيين في استراليا كان حزنهم عظيماً لأنهم لم يفلحوا في أن يقلدوا الكانجرو ـ ولو فعلوا لعاشوا وسادوا..

وعلى الرغم من أن هذه قصة قديمة جداً في تاريخ هؤلاء البدائيين.. قصة فشل قديم، وإنهم لم يعودوا في

حاجة إلى تطبيقها الآن، فإننا نجدهم قد وضعوا أطفالهم على ظهورهم في جيوب تشبه جيوب أمهات الاسكيمو وأمهات الكانجرو.. إنهم يستدركون ما فاتهم.. أو كأنهم في حالة من الندم على ما فات، فهم حريصون على أن يتذكروا هذه الخيبة التاريخية.. مع أن المرأة الاسترالية تضع طفلها في عربة صغيرة تدفعها أمامها.. ولكن البدائيين الاستراليين مصممون على أن يحملوا أطفالهم كما كان من الواجب أن يفعلوا من عشرات ألوف السنين!!

ثم أعجبتني هذه القصة التي كتبها أكبر أدباء استراليا: آلان مارشال عن المصريين عنوانها: شبكة ـ العراف المصري الكبير ـ قصة رواها آلان مارشال إلى بروس باسكو في مستشفى هارلنجتون الخاص يومي الثلاثاء ١٥ فبراير والجمعة ٤ مارس سنة ١٩٨٣.. والقصة تقول: أنا اسمي شبكة.. جلست على مخدة أمام مدخل خيمة في يوم السوق وحولي خيام كثيرة للباعة من كل لون ونوع.. وأكثر الرواد من الفلاحين وتجار الماشية والفواكه. وقد ارتديت الكيمونو الياباني.. ولم يلاحظ الناس ما هي العلاقة بين أن يكون الإنسان مصرياً وأن يرتدي الملابس اليابانية.. وأمامي وقف المنادي الذي يعلن عني يقول: عراف مصري.. جاء لأول مرة.. وسوف يبقى يوماً واحداً.. تعالوا.. يا حظكم يا سعادتكم.. يوم واحد وبعده يعود إلى

الأهـرام وإلى أبـو الهـول. . تعـالى يـا جـدع. . تعـالي يـا عـروسة. . يـوم واحد. . تعـالوا تعـالوا. . العـراف المصري الكبيـر. . الـذي يعـرف الأخبـار، يكشف الأسـرار، يـزيـح الأستار. . يقول لـك من هي عروسـة المستقبل. . مـا اسمها مـا شكلها. . وإذا كنت متزوجاً يقـول لك إن كـانت ستعيش معـك أو تتـركـك. . ومن الـذي يشغلهـا ومن الـذي سـوف يشغلك أنت. . فرصة لا تعوض. . يوم واحد. . وبعده يعـود إلى حيث أتى. . جـاء سـراً وذهب سـراً. . وضـاعت عليـك الفرصة الذهبية. .

وتقـدمت سيدة ومعهـا طفـل واقتـربت مني وقـالت لي: أنت نصاب؟

ـ ولماذا يا سيدتي؟

ـ شكلك!

ـ اشمعنى.

ـ يفكرني بالقرد.

ـ وشكلك؟

ـ اشمعنى

ـ يفكرني بأمي الطيبة المؤمنة المحبة للحياة. .

ـ أنت نصاب.. ولو كنت جاداً اقرأ كف هذا الطفل الصغير..

ـ ولكن الأطفال ليس خطوط أيديهم واضحة.

ـ من قال ذلك يا نصاب يا كذاب.. إن الخطوط واضحة جداً.

ـ هذا صحيح.. ولكن المعاني التي أودعها الله سبحانه وتعالى ليست واضحة الآن.. إنها تتضح بعد عشر سنوات.. تعالي لي عند أبي الهول بعد عشر سنوات..

المنادي: ليلة واحدة.. وبعدها يعود إلى أبي الهول.. موعدكم هناك بعد عشر سنوات.. ولاحظت أن فتاة قادمة.. دفعت ثمن التذكرة وتقدمت نحوي. شابة حلوة. ولكن حزينة العينين.. وقد غطت وجهها بالمكياج الأبيض والأحمر.. وامتلأت أصابعها بالخواتم.. كأنها حملت معها كل ما يخصها، حتى لا تترك شيئاً في البيت.. ثم كانت وحدها.. لا صديق ولا خطيب ولا زوج.. قلت لها: أنت لماذا تتشاجرين مع والدتك! قالت: هذه هي مشكلة حياتي.

وإذا لم تقل كذلك.. وقالت مثلاً: أبداً.. لا أتشاجر مع أمي لأن أمي ماتت في هذه الحالة يجب أن أقول لها: هكذا.. إذن اقتربي منى لكي أرى الصورة أوضح..

اقتربي يا حلوة يا جميلة. . اقتربي. . ولكنها قالت ما كنت أتوقعه. ورحت ابني على هذا الاعتراف بقية التنبؤات. .

فقلت لها: أنا أعرف أن سبب الخناقة هو أنك لا تريدين البقاء في البيت. أعرف ذلك تماماً. فقالت: هذا صحيح!

إذن هي فتاة خرجت من البيت من الريف. وجاءت تعمل في المدينة. . والذين يستطيعون تشغيل الخادمات نوعان من الناس: الأطباء والمحامون. . ونظرت إلى وجهها وقلت: أنت حزينة. . قالت: نعم. . والدواء هو الداء. . والطبيب هو المرض. .

هنا تأكدت أنها تعمل عند طبيب. .

قلت: آه. . إن خطوطك تقول أنك تعملين عند طبيب. . وتحبين ابن هذا الطبيب. . ووالده غير موافق. . وهذا مصدر تعاستك.

ـ تماماً. . تماماً. . تماماً. . يا سيدنا. . يا أعظم عراف أنجبته مصر. . بالضبط.

ـ ولذلك لم يأت ابن الطبيب معك. . وهو لا يستطيع أن يجيء معك لأن والديه غير موافقين. . أنت تحبينه وهو أيضاً يحبك. . إذن أنت تركت القرية وجئت إلى المدينة حيث يدرس في الجامعة لكي تلتقيا دون أن يدري بكما

أحـد. . اسمعي يـا ابنتي . . لن تتـزوجي هـذا الشـاب . . سوف تتزوجين شاباً آخر . .

أما الذي اعتمدت عليه في إصـدار مثل هـذا الحكم فهو قانون «المتوسط الحسابي» . . القانون يقـول أن أكثر الفتيـات يتزوجن رجالاً لم يعرفهن فهي واحدة من هؤلاء . .

وقلت لهـا : أنت جميلة ولكن عيبـك أنـك تسـرفين في وضـع الأحمـر والأبيض . . وهـذا يسيء إلى سمعتـك . . خففي الـزينـة ينـظر إليـك النـاس بـاحتـرام . . خففي هـذا المـاكياج وسـوف يتقدم لـك من هو أفضـل وأغنى وأعقل . . صدقيني يا ابنتي . . هات يدك .

وقبلت يدها الدافئة . ومنحتها البركة التي أسعدتها!

وفي يوم ذهبت بملابسي العادية اشتـري بعض الطعـام . ولاحـظت أن النساء ينـظرن لي باحتـرام ويبتسمن . وكنت أرد الابتسام عندما تقدم مني شاب قائـلاً : أنت العراف المصـري الكبير .

ـ نعم .

ـ أنت الـذي نصحت فتـاة جميلة بـألا تـتـزوج ابن الطبيب!

ـ نعم

ـ أريد أن أعرف منك إن كان من الممكن أن أتزوجها .

ـ أنت حــر. . ولكـن أرى أنــك لسـت على يـقيـن من عــواطفـك. ولــو كنت على يقين مـا استشــرتني. . إذن لا تخطبها. . لا تتزوجها. . هات يدك. .

ونـظرت إلى يـده وقلت: سـوف تنجـح وتكـون طبيبـاً. والبـاقي أنت الذي سـوف تختاره. . ولـو تزوجت هـذه الفتاة الآن لخـطفتك منهـا أيـة ممـرضـة جميلة. . لا تتـزوجهـا يـا ولدي. . وسوف تكون سعيداً بعـد ذلك. . لا لا. . لن آخـذ منك فلوساً على هذه النصيحة. .

ولا أعرف ماذا حـدث له بعـد ذلك. . هـل أصبح طبيبـاً حقـاً؟ وهل نجـح؟ وهل عـادت إليـه الفتـاة؟ هـذا هـو أحـد عيــوب قــراءة الكف. . كلهــا قصص لم تـتم. . بــراويــز قصص. بـذور قصص. . بـدايـات مـلاحم ومن هــذا الجـو استمد مادة قصصي ومسـرحياتي كلهـا. . ثم إنك لن تتـوقف عن التفكير في مصائـر الناس. . ونبضـات قلوب الناس مـاذا فعلوا؟

ماذا جرى لهم؟ هل كانوا سعداء. . تعســاء. . أغنياء. . فقـراء. . فـالعـراف لا يعـرف. . فقط هـو على يقين من أنـه جالس على مخدة أمام خيمة ويـدعي أنه مصـري في ملابس يـابانيـة والناس مشغـولون بـآمـالهم ومتـاعبهم ومخـاوفهم ولا ينتبهون إلى هذه الصورة الشاذة لواحد مثلي. . إنهم غـارقون في همـومهم إنهم يجيئون أسـرى في خيط الأمل الحـريـريـة

إنهم يجيئون يرزحون تحت أثقال الحزن العميقة.. إن كلمة أقولها هي طوق نجاة.. هي حبل تدلى إلى بئر عميقة.. إنها سلالم يصعدونها إلى السماء يدقون أبواب الفرج.. إنهم مرضى يساقطون على صيدلية رخيصة كل زجاجها الكلمة الطيبة.. ما أرخص الدواء وأقسى الداء!

ويقول الأديب الاسترالي آلان مارشال: إنها قصة طبق الأصل من أول مصري خفيف الدم جاء إلى استراليا.. وجمع مالاً واختفى مع واحدة جاءت تسأله النصيحة فقال: نصيحتي لك.. وكل خطوطك تقول.. ليس لك إلا هذا الرجل..

ـ أي رجل؟

ـ الذي أمامك.. تزوجيه يا ابنتي..

وهو أول وآخر مصري أطلق على نفسه لقب اللورد كانجرو المصري!

عاش غريباً . .
نجح مجهولاً :
كل مهاجر مصري!

كلمة الحق لم تترك لي صديقاً ـ عبارة نسبوها إلى الإمام الشافعي. وهذه العبارة تجيء مثل كلمة «النهاية» في الأفلام التي موضوعها الندم على مصارحة الناس بما لا يحب الناس. وفي ذلك اليوم ندمت على الذي قلت. ولكن لم يمض وقت طويلة حتى صالحت نفسي على نفسي. وأيقنت أنني على حق. . أما صاحبي وزوجته وأولادهما فلم يكونوا كذلك. كانت زيارتي لهم مفاجأة. فوصلت في منتصف معركة بين الجميع وأحد الأبناء الذي قرر منفرداً أن يهاجر إلى استراليا. . مقتنعاً بما كتبت أنا عشرات المرات في مجلة «الجيل» التي كنت أرأس تحريرها سنة ١٩٦٠ . .

قال الأب: مبسوط؟! لا أحد من الأولاد يريد أن يبقى في مصر. . لا عندهم مشكلة تعليم ولا فلوس ولا أسرة ولا مستقبل.

قلت: وهل تتصور أن الذي قرر أن يأكل خارج البيت،

يشكـو من نقص الطعـام في البيت. . وأن الـذي يستحم في البحـر لا يجد المـاء في البيت. . إنها متعـة. . حريـة اختيار المكان الذي يستـريح إليـه. . فليس من الضروري أن تضيق مصـر بـأهلها لكي يـطفشـوا منهـا. . إنهم يخـرجـون وهم راضـون عنهـا، ويشتـاقـون إليهـا. . ولكنهم لا يعـودون. . ويجب ألا يعـودوا. . تمامـاً كمـا لا يعـود الشـاب إلى حضن وثدي أمه. . لقد كبر. . انفطم. . انتهى!

ـ إذن هذا هو الكلام الذي جعل الشبان يفضلون الحيـاة متسـولين في أي مكـان آخـر، على أن يعيشـوا معـززين مكرمين في بلادهم. .

قلت: حتى لـو اختـار أحـد الشبـان أن يمسـح البـلاط الذي يمسحه لـه عشرون خـادماً في مصـر، فليس لأنه يـريد أن يكـون خادمـاً، ولا لأنه نـادم على تشغيل الخـدم في بيتـه فهـو ينتقم من نفسه لـذلك. . وإنمـا السفر والعمـل اليـدوي جزء من حريتـه. . جزء من اختيـاره. . جزء من استقـلاله في الـرأي والرؤيـة. . إحدى صـور تـأكيـده لـذاتـه في مـواجهـة الناس؟ الأب والأم والمدرس. . أنت نسيت أنـك كنت شابـاً وأنك أيضاً فعلت نفس الشيء عندما سافرت إلى فرنسا. .

ـ يا أخي أنا سافرت أكمل تعليمي. .

ـ وهم أيضـاً يـكمـلون تعـليمـهم. . والـحيـاة أعـظم جـامعـة. . والـذي فـاتهم أن يتعلمـوه في مصـر. لمـاذا لا

يتعلمونه في استراليا وكندا؟

ولم اتنبه إلى بكاء الأم وغيظ الأخوة والأخوات من كل هذا الذي أقوله.. ولم أعرف كيف أتراجع، ولا كيف اتحفظ على العبارات القاطعة التي كتبتها والتي قلتها.. ولا كيف أنني شجعت شاباً «متمرداً» على والديه وأخوته..

فقلت: ما رأيك أنني سوف أهاجر من مصر.. مع أنه ليست لي مشكلة من أي نوع..

ـ معقول؟!

ـ معقول!

ـ والله أنني أجد عذراً لابني.. شاب مغامر.. أو يريد أن يغامر.. أن يجرب حظه.. أن يجد له صورة أفضل في مرايا أخرى.. ولكنك بعد أن اتخذت هذا الموقع من نفوس وعقول الشباب تريد أن تختفي في بلاد ولغة أخرى..

قلت: كان في نيتي أن أفعل ذلك ولكن بعد أن سمعتك تجد عذراً لابنك، اعتبرت هذا انتصاراً ولذلك فلن أهاجر..

وضحكنا.. ولكن الأثر الذي تركته عند الصديق وزوجته وأولاده ضايقني كثيراً. ولم تفلح الأيام في علاج هذا الجرح الذي لم يلتئم.. بل يتعاظم مع كل خطاب

يبعث به ابنهما من استراليا خلال العشرين عاماً الماضية!

وجعلت أفكر كثيراً في الجانب الآخر من قرار شاب أن يهاجر. هذا قراره. وليس من الضروري أن يكون جائعاً يبحث عن الطعام، ولا مريضاً ينشد الشفاء.. ولكنه شاب يريد أن يعرف.. أن يرتاد أرضاً جديدة، ويقلب وجهه في وجوه غريبة.. يريد أن يتحرر من لغته وعاداته وتقاليده.. فيكون مجهولاً وسط مجهولين.. يريد أن يرسم خريطة حياته.. شوارعها.. ميادينها.. أن يغلط في العنوان ويحاول أن يهتدي.. يريد أن يغرس علماً جديداً في أرض جديدة.. يريد أن يغترب.. ثم يقترب.. ويتقارب.. ويتأصل.. فيكونَ له جذور وفروع.. ويكون قريباً لأحد جديد.. ويبني مستقبل حياته على أعمدة من صنعه هو: الاسمنت والحديد والأعماق من جهوده الذاتية.. وبذلك يهرب من الجلوس على ركبتي والديه ومجتمعه حتى الموت..

ولم اتنبه إلى أن هناك أطرافاً أخرى، لها حق في مراجعة هذا القرار.. قرار أي شاب في أن يهاجر: أبوه وأمه واخوته وخطيبته أو زوجته أو أولاده.

وكان الرأي عندي: أنا قررت. أنا نفذت. وأنا سوف أحمل إناء على رأسي، ينكسر فوقه، ويسيل ماؤه أو دمه على جسمي.. فأنا الذي أتحمل النتيجة وحدي. صح..

ولكن مـا القـول في قلق الأب وبكـاء الأم؟ كـنت أرى أن واجبنا هو أن نجامل الأبوين فقط، وأن نعتذر لـلأخوة. فكـل إنسان حر في حياته: أن يسـافر.. أن يبقى.. وأمـا الوصـاية على الشـاب فهي دليـل على أن الأب يـريـد لابنـه أن يبقى طفـلاً.. لا يـريـده أن يكبـر. وهي مشكلة الأبـوين.. لا يريدان أن يفقدا وظيفة الأبوة والأمومـة!.. فهما يـريدانهـا أن تبقى بلا نهايـة: أي يظل الأب أبـاً دائماً، ويـظل الابن طفلاً دائماً ـ وهذه نظرة خاطئة.. ضد طبيعـة الأشياء. ومن طبيعـة الأشيـاء أن ينتهـي دور الأب ودور الأم، ليبـدأ دور الأبنـاء بعيداً مستقلاً مهماً كان فادح الثمن!

أمـا بقية العـلاقاتِ الإنسـانيـة فهي ظـاهـريـة.. المـودة والرقة. ولكن جوهرها: مصالح.. كل العـلاقات الإنسـانية: ظاهرها الحب وباطنها المنفعة. عبـارة جافـة قاسيـة عليك إن كنت صغيـراً. ولكن عندمـا تكبر سـوف تكتشف أن الحضارة الإنسـانية كلهـا هي محاولـة مستمرة لتـطوير صنـاعة الحـريـر الذي يغطي الشوك.. أو تطويـر لزراعـة وتهجين الورود التي تغـطي القنـابـل اليـدويـة ـ فـإن أدهشـك ذلـك، فـأنت إذن صغيـر.. أو أنت كبير لم تتعلم شيئـاً ممـا أصـابـك في هـذه الدنيا. ولذلك فالمهاجـرون اختاروا عـالمـاً جـديداً وعـلاقات جديدة صريحة.. فلا عشم لك عند أحد.. فـأنا تتـوقع كـل مـا في الدنيـا من شرور والنـاس كلهم كذلـك. فـالعـلاقـات

الإنسانية، مصالح متبادلة، منافع مؤكدة.. هات وخد..
وبعدها: يا جاري أنت في دارك وأنا في داري!

وكان من عادتي في ذلك الوقت أن أبعث بخطابات التوصية لصديقي وابن بلدي وزميل الدراسة د. عبد الكريم الشيخ، المقيم في مدينة كانبرا عاصمة استراليا. أما د. عبد الكريم الشيخ، فليس دكتوراً. وإنما هو أحد علماء الأزهر المثقفين. وهو الذي أطلق على نفسه لقب دكتور ـ وهي كلمة لاتينية معناها: الأكثر علماً.. ثم إنه قد غير اسمه إلى: كريم شايك.. بدلاً من عبد الكريم الشيخ. وتزوج هولندية.. واسترالية.. وطبيبة انجليزية. وهو يرى أن الزواج من انجليزية في دول الكومنولث هو القرار الصحيح.. لأنها بنت السادة الأكابر الذين اكتشفوا هذه القارة وحكموها ولا يزالون.. وعنده تسعة من البنين والبنات ـ سبعة من الانجليزية وحدها..

أما حكاية دكتور شايك فهي من نوادر المصريين في الخارج. فقد سافر من السويس على إحدى ناقلات البترول إلى إيران. وفي إيران جلس في أحد المساجد يعلم الناس اللغة العربية ويصحح لهم نطق وتلاوة القرآن الكريم.. وتزوج ابنه إمام المسجد ـ أو الرجل الذي يقوم بدور الإمام. (لأن الشيعة لا إمام لهم.. وإنما الإمام غائب. ولذلك فعند الصلاة يقف في الصف الأمامي وبين الناس

رجل يرفع صوته قليلاً . . وهـذا دليل على أنـه الإمام . . وفي مواجهته طفـل معه ميكـروفون يـردد بصوت مـرتفع مـا يقولـه هـذا الإمام) . . وبعـد خلافـات حادة مـع زوجته سـافـر على إحـدى ناقـلات البترول إلى استـراليا . . وهنـاك اتجه مبـاشرة يبحث عن الجالية السـورية . . وعمـل في التجارة . . وانتقـل من تجـارة الأقمشة والأحـذية إلى زراعـة الأرض . . وحصـل على دكتوراه في استنباط أجيال جديدة من البقول . . إلخ .

وقد روى كل ذلك وأكثر من خطابات طـويلة نشرتهـا في مجلة «الجيل» نمـوذجاً للشبـان المكافحين والنـاجحين بعـد ذلك . .

وكنت أبعث إليه كل الشبـان الراغبين في الهجـرة للعمل معه في مزارعه . . وذهب كثيرون . ونجحـوا وتزوجـوا بناتـه : واستقلوا عنـه . . وتجاورت المـزارع المصريـة . . وتضـاعفت خطابات التوصية . .

وتلقيت منه خطابـاً : أريد فتـاة تعمل سكـرتيرة وفي نفس الوقت تعلم بناتي اللغة العربية ومبادىء الإسلام .

ولم أفكـر لحظة في أن أبحث عن الفتـاة المناسبـة لـه . فلم أسمـع عن فتـاة قـررت أن تهـاجـر . صعب . . ولكن الصـدفة وحـدها هي التي جعلتني أطلب المـرحـومـة فـايـزة أحمـد ، وكانت في ذلـك الوقت تسكن في فنـدق متـواضـع ، وسط القـاهـرة قلت : هـل الفتـاة التي طلبت أن تتمـرن على

العمل الصحفي يمكنها أن تسافر إلى الخارج لتقوم بنفس العمل وأعمال أخرى. قالت فايزة أحمد: ممكن.. إنها موجودة أمامي وتستطيع أن تكلمها.. وسمعتها تقول لها: اقبلي.. سافري.. ربنا يريحك من كل الذين حولك! وجاءتني هذه الفتاة ومعها المذيعة فاطمة عمارة والتي كانت تلميذتي في الجامعة. وحاولت أن أشرح لها الصعوبات التي سوف تواجهها في الحياة بعيداً عن مصر.. وإن حظها الحسن هو الذي اختار لها أن تعمل مع د. كريم شايك.. وحكيت لها حكاية د. شايك.. وفوجئت بهذه الفتاة تبكي وتقول: الحمد لله.. إنه صاحب البيت الذي نسكن فيه.. وكانت منتهى أملي أن أعرف عنوانه ليساعدني في الهجرة.. الحمد لله.. هذه الفتاة قابلتها في العام الماضي في استراليا، كبرت وشاب شعرها أما اسمها فهو: نورا شايك.. لقد تزوجت أحد أبناء د. شايك! أما اسمها بالكامل فهو: نور الهدى نور الدين شايك!

وقد اخبرتني السيدة نورا شايك أنها ساعدت كل زميلات الدراسة على السفر إلى استراليا.. وتضحك السيدة نورا شايك التي أصبحت لغتها العربية مكسرة قليلاً وذات نبرة أجنبية وهي تقول: سوف نبني مصر جديدة في آخر الدنيا!

وفي أوائل سنة ١٩٦١ تلقيت خطاباً من د. عبد القادر

حـاتم يوصي بشـاب من أقاربـه ـ أن أساعـده على الهجـرة. الشـاب تخـرج في كليـة الهنـدسـة. . جـاء ومعـه خـطيبتـه المهندسة.

قـال الاثنان: قـرأنا كـل مـا كتبت عن السفـر والهجـرة. واتخذنا قراراً.

والتقينـا عدة مـرات. ولم أسمع عنهمـا شهـوراً، وفجـأة ظهر الشاب ومعه تسعة آخرون قال: اتفقنـا على خطة علميـة للهجـرة. عملنا «جمعيـة» ـ أي جمعنا مبلغـاً من المال يكفي لسفـر أي واحـد منـا والإقـامـة شهـرين. ونختـار واحـداً منـا بالقرعة. فإذا سافر كتب إلينا، وحول مبلغـاً من المال يسـاعد الذي يليه على السفر وهكذا حتى نسافر جميعاً.

وجـاءني مودعـاً قبل السفـر، وجاءتني خـطيبته بعـد ذلك بشهـرين. . وأسعـدني أن أودع البـاقين واحـداً واحـداً. وأن أتلقى منهم مـا يؤكد نجـاحهم وسعادتهم ونشـرت خطابـاتهم نمـوذجاً يبعث على الأمـل ويخفف من مخـاوف الشبـاب من العمل خارج مصر، والهجرة كمـا فعلت شعوب أخـرى كثيرة بنجاح وشرف!

أكبـر مجموعـة مهندسين في تـاريخ الهجـرة المصريـة: عشرون من كل التخصصات!

وكانوا يـطلقون على أنفسهم: جمـاعة العشـرين. ورغم أنهم تجاوزوا المائة عدداً. . هم أولادهم.

أما أول مهاجر لأسباب سياسية ـ الظلم والقهر ـ فكان في سنة ١٩٥٤.

كان اللواء محمود صاحب، مدير سجن مصر، قد دعاني لمشاهدة الحفل التمثيلي الذي يقيمه النزلاء. وبادرت برفض الفكرة نفسياً ـ كيف أتفرج على سجين، كيف تفتح عينيك في عين كسيرة كليلة ساخطة نادمة كافرة.. من الذي يجرؤ أن ينظر في مثل هذه العين.. وإذا لم استطع فكيف أهرب من النظر إليها.. هو ينظر وأنا أهرب، كأنني أنا المذنب.. المجرم.. كأنني القاتل وهو القتيل وهو يطاردني بهذه المعاني الثقيلة ويلقي بها طوباً وحجارة أو وحلاً أو مسامير أو دبابيس أو ماء النار كل أعصابي!.

قلت للواء محمود صاحب: هذا شيء صعب!

قال: إذن أنت خائف من السجن.. خائف أن تدخل فلا تخرج.. أنا أعرف هذا الشعور عند كثير من الناس.. وهذا يدل على أن في أعماقك مذنباً.. غلطان.. مجرماً.. وأنك هارب من العدالة.. أو تحاول.. ولذلك فأنت تخاف أن تدخل المصيدة برجليك.. تعال تعال.. يا أخي أنا قرأت لك مقالاً أمس تقول فيه أنه ليس صحيحاً أن الدكاترة غلاظ القلوب.. أو لا قلب لهم، ولكنهم اعتادوا على

سماع الصراخ ورؤية الدم. . ولو ضاق الطبيب بصرخات المرضى وأورامهم، فمن الذي يداويهم. . وأنت يا أخي رجل مشغول بعالم (النفس الإنسانية، . . فكيف تضيق بالألم والقلق والتمرد. . إن السجن هو مستشفى علماء النفس والمصلحين في الدين والسياسة والمجتمع. المصغر أن كل هذا كلامك أنت. . نسيت؟

تعال. . اشرب فنجاناً من القهوة. . أو تناول غذاءك معنا. .

أي أنه هو الآخر يشرب القهوة ويتفرج على الذين لا يذوقونها. . ويأكل في الأطباق ولا يضايقه أن يرى النزلاء يلملمون الطعام من الأرض. . اعتاد واعتادوا!.

وعندما اقتربت من سجن مصر، وجدت سيدة تجلس على بابه تخيط ملابس زوجها أو أبيها قبل الزيارة. . ورأيت بكرة خيط في يدها. . وتسمرت أمام هذه البكرة. . وعرفت أن المطلوب مني الآن، وفي كل وقت: أن ألف أعصابي كلها على مثل هذه البكرة، وأرميها في الزبالة قبل دخول السجن ـ فأكون بلا أعصاب. . ممكن؟ ممكن. وقد أمكن عندما ترددت على السجن زائراً عدة مرات. وفي هذه المرة الأولى انفتحت الزنازين: ووجدت الشاويش يشخط في النزلاء ويلعن ويمزق الصور العارية على الجدران قائلاً: قلة أدب!

ألا يكفي السجن عذاباً وحرماناً وأنه يحتل من هذه الدنيا الواسعة متراً × متر × متر من الرطوبة والظلام والعفونة.. لا يكفي! ولذلك يجب نزع أية صورة من صور الوهم.. أو لحظة من لحظات الهرب من الواقع المؤلم.. مع أن هذه الصور الجميلة العارية، هي عذاب متجدد بالألوان.. سجن آخر يضاف إلى سجن الجدران.. ولم ألاحظ أن اللواء محمود صاحب يحتج على ذلك..

تذكرت هذه الحادثة عندما ذهبت للفرجة على ناقلة الطائرات الأمريكية «يوجيما» الواقعة بالقرب من بورسعيد أيام تطهير قناة السويس من الألغام. وهذه القطعة الرائعة المروعة من الأسطول الأمريكي. هي سجن نظيف أبيض عائم.. ولذلك فقد تعلقت صور نجوم السينما الأمريكية في كل الأوضاع وبأوراق التوت ومن غيرها.. والضباط لا يعترضون ـ اكتفاء بأن الجنود سجناء وبأنهم محرومون من تناول الخمور في كل قطع الأسطول والطائرات والقواعد العسكرية.. ولم يروا أن هذه الصور العارية إخلال بالأدب أو بالضبط والربط، وإنما هي مثل!

الأفلام التي يرونها: لحظات وساعات من الهرب من واقعهم العسكري!

وفجأة وجدتني في أحضان أحد السجناء.. قصير القامة «البجامة» قذرة ممزقة.. والقبقاب متآكل واللحية

شائكة ودموعه دليل على أن كل الغدد تعمل في تحويل الدم والماء إلى طوفان من الحزن والعويل وهو يقول: أشكرك.. لن أنسى ذلك مدى الحياة.. أيدك أبوسها.. رجلك أبوسها.. الحمد لله.. ربنا كبير!

لقد تصور المسكين أنني جئت من أجله.. وأنني علمت أنه اشتكى لطوب الأرض يطلب أن يحققوا معه.. فقد دخل السجن ولم يسأله أحد عن شيء..

وتركني اللواء صاحب مع صديقي ابراهيم السيد، مدير المستخدمين بشركة شل. فقد نقلوا عنه في إحدى الحفلات أنه كان دائم القول بصوت مرتفع: اللهم صل على محمد.. صلى الله على محمد..

وكان ذلك خلال أزمة جمال عبد الناصر ومحمد نجيب ـ فظنوا أنه يقصد الوقوف إلى جانب محمد نجيب ضد جمال عبد الناصر!

ولم يخطر هذا المعنى على باله. ولا هو من المشتغلين بالسياسة.

وعندما عدت إلى مكتب مدير السجن سألني عنه..

وقلت له: إنه إنسان طيب وشريف. وابن حظ وابن نكته!

وكتبت له عدداً من أسماء الأصدقاء في شركة شل:

المذيع مايك فلتس والطبيب فيليب المنقباوي والمدير الصحفي أحمد الشناوي رزق الله المحلل السياسي في التليفزيون الآن!

وبعد شهور وجدت إبراهيم السيد في مكتبي في صحة وعافية؛ جئتك مودعاً.

- إلى أين؟

- إلى استراليا. . وعرفت أن أمه أصيبت بالشلل عندما دخل السجن. . وأن والده قد مات من الصدمة. وأقسم إبراهيم السيد أنه سوف يحمل أمه على كتفه إلى استراليا، إذا لم يجد وسيلة للسفر. . والحمد لله وجد الوسيلة. وإبراهيم السيد هو الآن رئيس الجالية الإسلامية في استراليا!

وفي سنة ١٩٦٩ عاد إبراهيم السيد إلى القاهرة. وجدته أحسن حالاً. ولكن بسرعة تساقطت الدموع من عينه وهو يقول: تصور منذ ذلك اليوم الأسود، ما يزال بعض زملائي في السجن. . لم يسألوهم. . أما الآخرون الذين لم يسألوهم ولن يسألوهم فهم في مستشفى الأمراض العقلية. . والله كانوا واقفين معي. . والله العظيم ما قالوا شيئاً. . والله ما نطقوا. . ومن الذي يبقى لحظة واحدة في هذا البلد؟!

وفي آخر مرة رأيت فيها الصديق إبراهيم السيد أكد لي

أنه ساعد مائة مصري على الهجرة إلى استراليا. وأنه وأنهم سعداء بالحياة في دنياهم الجديدة!

وكان لنا صديق فاضل هو الأب «ف..» يساعد الكثيرين على الهجرة بنصائحه وبخطابات التوصية. ذهبت إليه. وكان يقول لي: أنت منافسي الوحيد..

قلت مداعباً: ولكنك تشجع المسيحيين فقط؟ فمد يده في درج مكتبه وقدم كشفاً ٩٠٪ من المسلمين. قلت: إذن أنت تريد أن تفرغ مصر من المسلمين؟. ومد يده إلى الدرج وأخرج كشفاً آخر ٩٠٪ من المسلمين قد عادوا إلى مصر!

قلت مداعباً: إذن تريد أن تثبت أن المسلمين أعجز الناس عن الهجرة. وإن المسيحيين أقدرهم.

فأخرج ورقة من مكتبة يقول: أبداً وحياتك.. وهؤلاء مسيحيون قد فشلوا وعادوا أيضاً!

فقلت له مداعباً: إذن أنت تدفع المسيحيين على التمسك بالبقاء في مصر!

وضحكت وضحك الأب «ف..» من كل قلبه وهو يقول: يعني ملعون أبويا في جميع الأحوال!

ولولا مقامه الديني ووعدي له ألا أذكر اسمه حتى لا يساء فهمه، لرويت قصصاً كثيرة عن صدق هذا الرجل

وإخلاصه وشهامته وصبره في مواجهة وحل مشاكل المهاجرين الجدد. وليس صحيحاً ما قيل عنه في ذلك الوقت ولا في أي وقت: إنه كان يبعث بالخطاب مع المهاجر وبخطاب مضاد له مع مهاجر آخر..

غير صحيح.. فلا مصلحة لرجل الدين في أن ينسف أي شاب وأمله في حياة كريمة!

وإذا ذهبت إلى مدينة بربسبان الاسترالية ولفت نظرك محل اسمه «كوديريوم» ولاحظت أن الصورة المواجهة للباب لرجل ارتدى قبعة كبيرة تخفي ملامح الوجه، وإذا نظرت إلى الوجه من تحت القبعة وتخيلت أنه ربما كان مصرياً، فهذا الاستنتاج صحيح .ويمكنك أن تدخل وتسأل من يكون صاحب الصورة في الإطار الذهبي وما علاقتها بهذا المحل الضخم الذي له عشرة أبواب!

أنا أقول لك. إنه مواطن من بورسعيد.. اسمه الحقيقي: الشاذلي أبو الوفا الخضيري.. وكلمة الخضيري هي التي تحولت بعد ذلك إلى كوديري.. ثم أصبحت عنواناً على محلاته: كوديريوم..

والخضيري هذا «بمبوطي».. يركب الزوارق الصغيرة ويعترض السفن ذهاباً وإياباً ويبيع أي شيء. ولا بد أن يكون الخضيري شاباً ذكياً جداً وإلا كيف تعلم اللغة

الإنجليزية بهذه السرعة.. أو كيف أقنع زوجته التلميذة في المدرسة الثانوية أن تنزل معه إلى البحر وأن تبيع الأحجبة التي تمنع من الحسد.. والتحف الفرعونية التي تحقق السعادة الزوجية.. والخرزة والسلسلة ومفتاح الحياة وطاولة الخضة وسورة ياسين.. والسبع آيات.. وأسماء الله الحسنى.. وينادي وتنادي زوجته عليها: لسعادتك الزوجية.. نصيحة فرعونية.. ليكون عندك أولاد أكثر.. حتى لا ينظر الزوج إلى امرأة أخرى والزوجة إلى رجل آخر.. جاء ذلك في كتاب الموتى.. نصيحة كليو بطرة لعشاقها.. نصيحة نفرتيتي لأختها..

أهم من هذا كله.. إن هذه الفكرة خطرت على بال الخضيري وحده.. لم ينتبه إليها أحد من أهل بورسعيد.

أما لمن يبيع هذه التحف، فهذه هي القصة الحقيقية التي جعلته مليونيراً هو وأولاده وأحفاده في استراليا الآن!

في الخمسينات كانت استراليا تشكو من توقف النمو السكاني. والسبب أن الرجال أكثر عدداً من النساء. ولذلك فقد كانت استراليا تعلن في كل الصحف العالمية: مطلوب عروسة شقراء.. والعريس في انتظارها وقارة استراليا الغنية والمستقبل العظيم!

وكانت السفن تنقل مئات.. ألوف العرائس الأوروبية مارة بميناء بورسعيد.. ليكون الخضيري وزوجته عنايات في

انتظارهما. . وكانت عنايات ترفع لافتة مكتوبة بخط واضح تعلن فيه عن الفوائد السحرية لكل هذه التحف. . وكانت عنايات الفتاة المصرية الجميلة الأنيقة تصعد إلى ظهور السفن وتبيع وتكسب. . والزوارق محملة بالتحف في انتظارها. . سفينة. . بعد سفينة. . ويوماً بعد يوم. . وعاماً بعد عام. .

وفجأة قرر الزوجان أن يهاجرا إلى استراليا، بعد أن لاحظا أن سفن العرائس لم تعد تقف ببورسعيد. فقد اكتفت استراليا بما لديها. ولم تعد في حاجة إلى عرائس، بعد أن فتحت باب الهجرة للبيض. .

وكانت عنايات تتلقى خطابات من العرايس يكتبون لها: إن الوصفة الفرعونية قد نجحت تماماً. وإنها سعيدة بزوجها وأولادها. .

وتجمع لدى عنايات وزوجها ألوف العناوين وتلقت عنايات خطابات تدعوها إلى الهجرة وإلى بيع الوصفات في استراليا، وسوف تكون تجارة ناجحة. .

واقنع الخضيري أخوات عنايات وأخواته البنات بالهجرة. . وكان أول مشغل يدوي للتحف المصرية وتحول المشغل إلى مصنع للتحف المصرية والأقمشة والجلود والأخشاب من كل لون ونوع. .

وقد توقف الخضيري منذ شهور بالقاهرة وبورسعيد في طريقه إلى الأراضي المقدسة ليؤدي فريضة الحجَ هو وثلاثة من أحفاده. وفي جيبه صورة طبعها على البلاستيك حتى لا تتآكل.. الصورة له واقفاً أمام فندق الباب الحديد في بورسعيد: يبيع الأحذية والطرابيش منذ ٣٥ عاماً!

في سنة ١٩٥١ كنا في رحلة إلى أوروبا تضم عشرين من الفنانين يرأسهم الأستاذ أبو صالح الألفي وتضم صلاح طاهر وحسين بيكار وكمال الملاح وحسن فؤاد وجمال كامل وعبد الغني أبو العينين وغيرهم وقبل أن نقترب من مدينة الاسكندرية فوجئنا بواحد من الفنانين قد اشترى من إيطاليا مائتي كرافته ـ فالكرافتات في إيطاليا في ذلك الوقت تباع في القفف مثل الفجل والجرجير عندنا.. وفوجئنا بهذا الزميل «ج.ج.» يوزع علينا الكرافتات هرباً من التفتيش في الجمرك.

وعندما وصلنا إلى الاسكندرية سبقنا إلى الهبوط. وخرج ينتظرنا في الشارع. فلا يكاد الواحد منا يخرج حتي ينقض عليه يطالبه بالكرافتات فكان ينتظرنا هكذا في الشارع: كل واحد يفتح الشنطة ويخرج ملابسه ويفتش عن الكرافتات التي أخفيناها في الجيوب والأكمام.. وفجأة وجدت شاباً أعرفه ووالدته تتوكأ على

عصا: أهلاً يا مجدي. . أهلاً يا تانت. حمد الله على السلامة.

ـ بل مع السلامة. . نحن مسافرون إلى استراليا. .

ـ سلامتك. .

ـ أبداً. . لقد ركبت ساقاً من ذهب. .

ـ سلامتك. . لا أفهم. .

وهمست في أذني: أنها قد أخفت مجوهرات في هذه اللفافة حول ساقها، هرباً من الجمارك المصرية. . ولتنفق منها على الحياة في استراليا!

وفي عشاء في بيت أحد المصريين في مدينة سيدني في العام الماضي، سألت جاري: منذ متى أنت هنا في استراليا؟.

قال: يوه. . من أكثر من ثلاثين عاماً. . أقول لك منذ متى بالضبط. . سوف أذكر لك تاريخاً لا يمكن أن تنساه. . فاكر لما نزلت من المركب أنت وشلة من أصدقائك الفنانين وجلستم تبيعون الكرافتات أمام جمرك الاسكندرية!

وضحكت وقبل أن أشرح له ما حدث قال: لقد سافرت على نفس المركب مع مجدي ووالدته وقال لي يومها أنك كنت مكسوفاً جداً. . وظل هو حزيناً على أنه رآك بهذه

الصورة. . إلخ .

وكلها كما تـرى: قرارات فـردية لأسبـاب شخصية، دون مساعدة من هيئة أو من الدولة!

طريقتان لكي تعرف بلداً جديداً: أن تقرأ عنه وأن تراه

وتنسى ما قرأت!

هناك طريقتـان لكي تعرف بلداً من البـلاد: أن تقرأ عنـه وتـرى صـوره وتتـأمـل نسـاءه وأدبـاءه فـإذا ذهبت كنت على علم ـ بعض العلم. وفي استـطاعتـك أن تجـد الأمـاكن التي تريدهـا بسهولـة. . كلنا فعلنـا ذلك قبـل أن نسافـر إلى البلاد الغربية.

وأن تـذهب إلى هذه البـلاد فتجدهـا عكس مـا قـرأت. وهنـاك سـوف تلقي بنفســك وسط النــاس وفي زحــامهم. تـدوس الأقـدام وتـدوسـك. وتضحـك بـلا منـاسبـة وتتلفت وتحاول أن تكون ظـريفاً ـ وهـو سلوك الأقلية وسط الأغلبيـة. فيكون الضحك والابتسـام نوعـاً من خلق علاقـات رقيقة مـع النـاس. . وسوف تجـد أن الـذي قـرأتـه مختلف تمـامـاً عن الـذي تراه. وإن كـل إنسان قصـة وقامـوس وتـاريـخ حي. . وإن الـذي يتعلمـه من النـظر إلى النـاس يعـادل عشـرات الكتب. . ثم إنـك لن تحمل قـاموسـاً في يدك طـول الـوقت لكي تعـرف معاني المفـردات. مثـلاً إذا اصـطدمت بـإنسـان فـوقـع كـوب البيـرة من يـده ليسقط على كلب نـائم على

الأرض وتفاجأ بأن الناس دفعوك إلى الوراء وأخرجوا المناديل من جيوبهم يمسحون الأرض قبل الكلب.. ثم وقفت النساء طابوراً ليتمكن من تقبيل أنف الكلب وأصابع رجليه. وظهر من تحت الأرض صحفي يلتقط لك صورة وقد وضعت يدك في جيبك تجففها في داخل البنطلون لأنك نسيت منديلك في البيت وتفاجأ في اليوم التالي بالصحف قد نشرت صورتك وتحتها هذه العبارة: إنهم لا يحبون الكلاب ـ وأنت المقصود بهذه الوحشية!

فمالذي تتعلمه من هذه الحادثة؟ كثير جداً. وليس شيء من ذلك في الكتب!

وقبل أن أسافر إلى استراليا، قارتي المفضلة جعلت أدور في المكتبات في أندونيسيا وفي السفارة الاسترالية أبحث عن شيء يدلني على هذه القارة الجديدة العجيبة المجهولة لنا. ولم أجد ما يكفي. فالذي وجدته ليس إلا أرقاماً وبينات وجداول وخرائط ولكني لم أجد الناس. ولا أعرف الطريق إلى قلوبهم.. أو إلى عقولهم. وكنت مثل كل الناس أتصور أنهم طوال جداً عراض.. مثل الخيول والبغال الاسترالية ولكن وجدت أن الأمريكان وأبناء السويد أطول وأعرض.. وأن المرأة الاسترالية تقول للرجل: قف وأنا أجلس مكانك!

ولما ذهبت إلى استراليا وجدتها تقول له: قف!

وتتركه واقفاً، ثم أنها لا تجلس!

وأنا أحاول أن أجعل كل شيء مجهول شبيهاً بالمرأة: فهي رمز القلق والتلون ولذلك كانت غامضة. ويصعب فهمها في أي وقت: أما أو زوجة أو ابنة. وهي معذورة فهي لم تشأ أن تكون غامضة. وإنما هي مثل موج البحر صاخبة متداخلة، وهي أيضاً مثل قطرات الندى. ومثل قطرات السم. والقليل منها يدل على الكثير. ثم أنت لا تعرف بالضبط ماذا تريد ومتى تريد. وهي تبدو طفلة مع أنها ناضجة، وتراها ناضجة واعية مع أنها طفلة. فكأنها ولدت أماً وزوجة. أما الرجل فولد وعاش ومات طفلاً مغروراً. والمرأة تعلمت غريزة انتظار الرجل والانتصار عليه في النهاية، إنه القتيل وإن ظهر قاتلاً، وإنه الضحية المؤكدة وإن اعتقد أنها هي التي ستكون الضحية.

والدنيا امرأة.. والقارات كالمرأة. لماذا؟ هذا ما اعتدت أن أصوره لنفسي لكي أرى أوضح وألمس أعمق واقترب دون خوف ـ مهما كانت النتيجة. فمن أجل أن أعرف شيئاً جديداً، مستعد أن أدفع أي ثمن. وقد دفعت كثيراً من كل شيء.

وأما الحساب الختامي: فهو أنني الكسبان دائماً، فعندي ما أقوله. وهذا هو الكسب الحقيقي.

فالمرأة في العشرين مثل «استراليا» شابة المعروف منها بارز صارخ والمجهول منها مخيف.

وفي الثلاثين مثل «إفريقيا» حارة ناضجة ثائرة متسلطة وأكثر غموضاً.

وفي الأربعين مثل «أمريكا» كاملة الأوصاف والمعدات مجنونة بمستقبلها ومستقبل أولادها، ولو كان ذلك على جثة زوجها!

وفي الخمسين مثل «أوروبا» متناقضة متلونة تنظر وراءها في فزع وتؤمن بأنها خسرت الكثير عندما قامت بدور الأستاذ في تطوير الشعوب الأخرى.. وتريد أن تقاضيها الثمن لحماً ودماً وحرية وعدلاً.

وفي الستين: مثل «القارة القطبية الجنوبية»: كل الناس يعرفون مكانها ولا يذهبون إليها.

(١)

وعندما قابلت مئات المصريين في استراليا وجدت بعضهم سمع عن الكتب التي قرأتها قبل سفري إلى استراليا.

فمن بين هذه الكتب واحد بعنوان «لكي تعيش سعيداً جداً في استراليا، خذها مني! «الكتاب في ٧٥٠ صفحة.

وهـو من أخف الكتب دمـاً وأمتعهـا وأعمقهـا سخـريـة. . والمؤلفـون أرادوا أن يفتحوا عينيـك وأذنيـك ـ وأن يسـاعـدوا على صـدمتك بعنف لكي تفيق، ولكي تؤدي هـذه «الصدمـة الحضـارية» إلى تسـاقط أفكارك وعـاداتـك القـديمـة قبـل أن تعيش في هذه القارة الجديدة.

والكتـاب من أول لحـظة يحـذرك من أن تكـون مثـل حيوان الكانجرو ـ أي مثلنا نحن المصـريين ـ ترتبط بـأسرتـك وزوجتـك وأولادك وموطنـك الأصلي. فالكـانجـرو هـو ذلـك الحيوان الذي له أربع أرجـل لا يستخدم منهـا إلا اثنتين. أما السـاقان الأمـاميتان فمـرفـوعتـان دائمـاً ـ إن وقف أو جـرى. ويقـوم الذيـل الطويـل بدور السـاق الثالثـة أو بـدور الـزمبلك الذي يستند إليه أثناء الجـري والوقـوف. . وهو يشبـه المنصة التي تقف عليهـا قبل أن تقفـز في حمـام السبـاحـة. . فـأنت تقف فـوقهـا وتضغط عليهـا لتعلو بـك وتهبط وتـدفعـك إلى أعلى وكذلك ذيل الكانجارو.

ثم إن أبنـاء الحضـارات القـديمـة ـ مثـل المصـريين ـ يشبهـون الكـانجـارو فهم يقفـون على تـاريخهم القـديم ويعتمـدون عليه ويتبـاهون بـه. . ولا يزالـون فراعنـة في كثير من عادتهـم.

وهم أيضـاً مثـل الكـانجـارو يحملون صغـارهم أينمـا ذهبوا.

فالكانجارو عندما يخرج من بطن أمه يكون في حجـم حبة الفـاصوليـا وتنقله الأم إلى داخـل الكيس وفي داخـل الكيس هو الذي يخـرج إلى الحياة ويـزحف إلى الغدد التي تفـرز له اللبن في داخـل الكيس.. والكـانجـرو لا يلد إلا واحـداً في كل مرة.

ويقول الكتاب: قـد تجد في نهـاية الأسبـوع الأب والأم والأطفال جالسين معاً يقرأون في وقت واحـد. وتندهش لهـذا الاتفـاق العام في الثقـافـة. وتقـول لنفسـك: شعب متحضـر تماماً!

غلط يا سيدي..

أمـا الأب فليس غارقـاً في القراءة إنـه يقف حـائـراً أمـام الكلمات المتقاطعة ويندهش كيف استطاعت زوجته أن تحـل هـذه الكمات بهـذه السـرعـة. ويخـاف أن يـرفـع عينيـه عن الكتاب فيجد زوجته تحل كلمـات متقاطعـة أخرى. ويخـاف أن ينظر إليها مباشرة فتسأله أن كـان قد سـاعد ابنـه على حل نفس الكلمات. ولما كان الزوج يعرف مقدمـاً معنى أن يقول لهـا: نعم.. فهو لا يفعـل شيئاً يلفت نـظرها. فلو قـال لها: نعم قد ساعدت ابني.

يكون سؤالها التالي : ولماذا هذا الأسبوع!

إننا نجلس هكذا منذ الربيع الماضي. فيقول الزوج مثلاً: صحيح. ولكني غيرت رأيي.

فتقول: أراك تغير رأيك في التفاهات فقط.. وقد أتيحت لنا فرص كثيرة لكي نراك تغير رأيك في الانتخابات الماضية، ولم تفعل. أو تغير رأيك في البقاء في هذه الشقة التي أصبحت ضيقة، ولم تفعل ـ وقد عرضت عليك أن ننفصل بعد زواجنا بثلاثة أيام، ولكنك لم تفعل. فهل أفهم من موقفك من ابننا الذي يحتاج إلى إرشاد الأب وحنان الأم، أنه قد آن الأوان لأن يمضي كل واحد منا لحال سبيله أنت تتزوج ابنة خالتك، وأنا أتزوج رئيس مجلس إدارة شركة الألبان، والذي يكبرني بثلاثين عاماً من التجارب والملايين.

ولذلك فالرجل الاسترالي يفضل ألا يفتح فمه بكلمة، لأنه يعرف المصائب التي سوف تجيء بعد كلمة واحدة يقولها وهو سرحان!

وفي الكتاب أيضاً: ما الذي ينبغي أن تقوله إذا سمعت خبراً جديداً لم تكن تعرفه. فمثلاً إذا قال لك واحد: اليوم ونحن في طريقنا إلى المقابر فوجئنا بأحد رواد الفضاء أغلب الظن أنه من أبناء المريخ.

والتعليق على هذا الخبر هو:

إما أن تقول: مدهش!

وإما أن تقول: أول مرة أسمع عن شيء كهذا!

وكلها إجابات غير صحيحة وغير دقيقة.

ولكن الإجابة الصحيحة هي أن تقول: هذا غير معقول.

ومعنى ذلك أنك تعرف كل ما هو معقول في الدنيا. وإن هذا الحادث يتنافى تماماً عن كل الذي لديك من معلومات. وأنت ترفض هذا الخبر لأن عالمك محدود تماماً. كل شيء معروف عندك. وهذا الموقف يؤكد أنك قد أصبحت استرالياً تماماً. فالرجل الاسترالي يرفض المفاجأة التي تجعله يحس أنه جاهل، أو أنه نائم على أذنيه. وأنك أتيت له بالذئب من ذيله.. وأنك أعلم وأكثر تطوراً!

ويقول الكتاب: إياك.. إياك أن تتحدث عن الكتب.. أو عن الذين يكتبون أو يؤلفون أو يتاجرون أو يوزعون الكتب.

مثلاً تقول: قرأت أمس..

وبسرعة يقاطعك أحدهم قائلاً: زبالة!

ـ ما هذه الزبالة؟

ـ هي التي نشرتها الصحف.

ـ فعلاً.

ـ هل تعرف عن ماذا؟

ـ لا أعرف. ولكن أنا على يقين من أنهم يتحدثون عن..

ـ فعلاً يتحدثون عن ذلك الحصان الذي لم يفز في سباق الأمس، رغم أن صاحبه من اللوردات.. وأنه قد ورث تربية الخيول عن أجداده. ألا ترى ذلك؟

ـ أرى ذلك.

ـ إذن نحن متفقان..

ـ ولكني لم أكمل كلامي عن الكتاب.

ـ كل الكتب متشابهة.. إن ناشري الكتب يعتمدون على ضعف ذاكرة الناس. والناشرون يطبعون الكتاب الواحد ويضعون عليه عشرات الأسماء. هل تعرف أنني اشتريت عشرة كتب لعشرة مؤلفين والكتاب واحد. إنني لم أفتح هذه الكتب. فعلى غلاف كل منها صورة لحصان. فلم يكن صعباً أن استنتج أنه ما دام الحصان واحداً، فالمضمون واحد. أما تعدد الأسماء فهي من خدع الناشرين لكي يبيعوا الكتاب الواحد عدة مرات.. أراك قريباً.. لقد

كان حديثك ممتعاً!

ـ . . . .

ويقـول الكتاب: لا تتضـايق من التكـرار في استـراليـا. فكل شيء مكرر. والـذي يدور بينـك وبين شخص ودعته من ساعة، كالذي يدور بينك وبينـه نفس الشخص لو قـابلته بعـد عشرين عاماً. هكذا:

ـ هه، كيف حالك؟

ـ وأنت؟

ـ لا بأس. . وأنت؟

ـ حسن. وأنت؟

ـ أيضاً. . لا جديد؟

ـ لا جديد، سعيد لرؤيتك!

ـ أراك قريباً.

نسيت أن أقول لك: إن هذا الحوار يجيء بعد ضربـات على الكتف أو «زغدة» في البطن ـ إن كـان صديقـاً لك جـداً جـداً. . وإذا قررت فجأة أن تتركه لأنـه لم يعـد لـديـك مـا تقـوله: فـلا تسحب احتياطي الـدم الموجـود في جسمك كله وتضخه في وجهك، لأن هـذا يدعـو الرجـل لأن يتشكك في سلوكك. فهذا الاحمرار ليس ما يبـرره. فلم تكن صداقتكمـا

في أي وقت غير عادية ـ فهذا الاحمرار مألـوف لدى النسـاء. أما إذا احمر وجهك، تشكك الرجل في أخـلاقك ممـا يجعله يتـربص بك فـإذا رآك بعد عشـرين عـامـاً، فقـد يكتفـي بهـز رأسه لتحيتك!

يقـول الكتاب أيضـاً: هتلر لا يمكن أن يكون استـرالياً. لأنه عندما وجد الحلفـاء يحاصـرونه من كـل مكان جـواً وبراً طلب من مسـاعـديـه أن يشعلوا فيـه النـار مـع عشيقتـه بعـد انتحارهما!

فلو كـان استراليـاً لطلب إليهـا أن تحرق نفسهـا بنفسها. لتكـون مسؤولـة بعد ذلـك عن كل الـذي يصيبها إذا لم تـأت عليها النار تماماً. فإذا احترقت تماماً، فسوف يضايقـه جداً أن يرى أثر النار والدخان في وجهه ويديه.. ممـا يدفعـه إلى العدول عن ذلك. وبعـد أن يتم إحراقهـا تمامـاً يحاول بكـل قـوة أن يوقـظها ليعتـرف لها بـأنه لم يكن جـاداً عنـدمـا طلب منها أن تحرق نفسها ثم يقسم لها أنـه لن يتزوج بعـدها وأنـه سـوف يهجر البـار الذي اعتـادا أن يذهبـا إليه وسـوف يختـار مكـاناً آخـر ويتذكـرها من كـأس إلى كأس.. ويـظل يشـرب حتى ينسى كل شيء!

ويقـول الكتاب: إذا عـادت إليك ابنتـك من الـمدرسـة تبكي لأنهـا قـد رسبت في امتحـان الأدب الانجليـزي. فـلا

تذهب مع ابنتك إلى المدرسة تسأل عن السبب فالمدرسة لا تحب أن يناقشها التلامذة أو أولياء الأمور. وأنت طبعاً سوف تأخذ وجهة نظر ابنتك تماماً فقد كنت تراها طويلاً. ومن حديثك مع ابنتك عرفت أنها تفهم كل ما تقرأ. وكان لا بد أن تنجح بتفوق.

تقول أنت للمدرسة: ولماذا رسبت ابنتي؟

المدرسة ترد: لأنها أخطأت في الإجابة.

أنت: السؤال يقول ما الذي تعرفينه عن «هاملت» أحد أبطال مسرحية شكسبير المعروفة! وقد أجابت ابنتي تماماً عن هذا السؤال بمنتهى الدقة.

المدرسة: هذا صحيح. ولكن ابنتك اخطأت لأنها لم تتحدث عن هاملت، وإنما حللت هذه الشخصية المعقدة..

أنت: وهل هذا خطأ؟

المدرسة: طبعاً لأن التحليل معناه أن يكون لابنتك رأي خاص!

يقول الكتاب: إذا انقلب الجو وسقطت الأمطار فماذا يحدث؟

في سويسرا: يبحث السويسريون عن أسباب هذا التقلب المفاجىء.

والفرنسيون: يقارنون الذي حدث بما حدث قبل ذلك في عشرين قرناً..

أما في استراليا فيرون أن هذا طبيعي جداً. فالجو متقلب، وهم أيضاً. ولذلك لا يوجعون رؤوسهم بأبحاث سويسرا وفرنسا. لقد تعلم الاستراليون من الجو أن يكونوا مثله: عواصف.. ومطرا وشمسا.. وحرارة ومطرا وبرداً..

ولذلك من الطبيعي أن يكون هذا الحوار بين اثنين لا يندهش أحدهما لما يقوله الآخر:

ـ حدث شيء؟

ـ أبداً. فقط عندي موعد.

ـ ولكنك قلت أنك على حريتك اليوم.

ـ فعلاً. لقد اكتشفت أن رياضة اليوجا لا تتفق مع طبيعتنا.. فهي تريدك أن تهدأ وأن تسكن وأن تستقر، بينما نحن نفضل أن نكون هوائيين ـ مثل الجو.

ـ وكيف اكتشفت ذلك؟ أخيراً؟

ـ فعلاً أخيراً. فقد كنت أمارسها في السنوات العشر الماضية.

ـ وما الذي جعلك تضحك فجأة؟

ـ لا شيء.

ـ هل قلت أنا شيئاً أضحكك؟

ـ لا . . تذكرت قصة طويلة حدثت منذ زمن.

ـ متى تذكرتها؟

ـ وأنت تتكلم طوال الساعة الماضية؟

ـ إذن أنت سعيد اليوم؟ ماذا حدث؟

ـ أبداً . . إنها سعادة داخلية.

ـ لا يصح أن تسخر مني في المرة القادمة. لقد أثرت اليوجا على مخك . .

ـ ولكن اليوجا رياضة عضلية . .

ـ هكذا؟ إذن لا يصح أن تسخر مني لو قابلتك بعد ذلك!

ـ أنت غضبت فجأة!

ـ وأنت ضحكت فجأة!

ـ هاها . . كنت أعرف ذلك!

ـ هاها . . فعلاً!

يقول الكتاب: في ألمانيا يفضلون: الدقة والنظام.

وفي فرنسا: يأكلون ويشربون ويتنفسون النقد الجريء لكل شيء . .

وفي أمريكا: يعشقـون.. يعبدون.. مصـابون بجنـون: التقدم.. فكل شيء من أجل الغد الأفضل..

وفي التليفزيون الاسترالي تجدهم يتكلمـون بصراحـة.. وينقـدون كل شيء بـطلاقة.. ويـواجهون بعضهم البعض.. وكل واحد يقـول للناس في وجهـه: إن لم تكن حماراً الآن، فسـوف تكون غـداً، وإذا أنا سكت عن هـذا التحول العـظيم لإنسانيتك، فأنا حمار مثلك!

الخلاصة: إنـك أمام أنـاس يتحولـون إلى حمير بمنتهى الإنسانية!

الـدرس المستفاد: إنهم في استـراليا يحبـون الصـراحـة مهمـا أدت إلى أن يصبحوا في نهـاية كـل منـاقشـة من ذوات الأربع ـ لا تصدق ذلك. فليس هنالـك شيء أبعد عن الـواقع مثل هذا الرأي!

وأخيراً وفي صفحة ٧٤٦ يقـول المؤلفون السـاخرون من أنفسهم ومن بـلادهم ومنك، إن كـان في نيتك أن تسـافـر أو تهاجر إلى استراليا:

إذا ذهبت إلى واحد من عصابـات المافيـا، لكي يحصل ابنـك على امتحان الثـانـويـة العـامـة، ودفعت لـه مبلغـاً من المال، فالإيطاليون يسمون ذلك: رشوة!

وإذا دفـع المـواطن الـروسي مبلغـاً من المـال، لكي

يحصل على سيارة قبل مائة ألف سبقوه إلى حجزها، فالقانون يسمى ذلك: رشوة!

أما في استراليا فيسمونها: هبة.. منحة.. مكافأة مستحقة!

أما الصفحة الأخيرة من الكتاب فهذا نصها:

اعترفنا لك بكل ما لدينا.. وقد يدفعك سوء الظن الذي تعلمته منا في الصفحات السابقة، أن تسيء الظن بنا أيضاً. شكراً ـ إذن. فأنت قد تعلمت الدرس جيداً..

ولكن لا تنسى أننا استراليون وأننا نريد أن نصدر الجزء الثاني من هذا الكتاب. ولن تتمكن من ذلك إلا إذا صادقنا أناساً مثلك تضحك عليهم.. فإذا جئت إلى استراليا بعد أن تكون قد قرأت هذا الكتاب فأرجو الاتصال بنا لتعرف ماذا حدث لك.. فنحن لم نضحك عليك لوجه الله.. وكل شيء له ثمن. فإذا صدقت أننا سوف نقابلك، فهذا دليل على أنك لم تتخلص من الأثر السيء لهذا الكتاب.

لا يهم أي شيء.. أنت ضحكت منا، ونحن ضحكنا عليك.. ولكننا ضحكنا عليك أكثر، يكفي أنك دفعت ثمناً لهذا الكتاب.. وشكراً لك وكل الذين ينصحون بقراءة هذا الكتاب... إنهم خبثاء يا سيدي، فهم لا يريدون أن يكونوا المغفلين وحدهم!

(٢)

وفي سيدني قابلت أسرة الطحاوي . . إنهم من أبناء الغربية. قال لي الأب أنه كاد يطلق زوجته بعد ساعات من وصولها ـ وفي استراليا مطلقون ومطلقات كثيرون جداً كلهم مصريون ـ فلم يكد يخرجان من المطار حتى كان أحد رجال البوليس في انتظارهما. وطلب إليهما أن يرافقاه بعض الوقت. وحمل حقائبهما الكثيرة ووضعها أمام قسم البوليس.

وفي القسم سألهم الضابط : هذه زوجتك!

ـ نعم . وهذا هو جواز سفرها .

ـ ومنذ متى تزوجتما؟

ـ من عشر سنوات . . وهذان ولد وبنت.

وقال للزوجة : وأنت متزوجة من هذا الرجل؟

ـ طبعاً.

ـ منذ متى ؟

ـ عشر سنوات .

ـ ولماذا جئت إلى استراليا؟

ـ لماذا؟ إنه زوجي . وقررنا أن نعيش هنا . .

ـ وكيف تفسرين قسوته؟

ـ لا أفهم.

ـ أليس قاسياً عليك!

ـ لا..

ـ ألا ترين الضرب علناً حتى الدموع، قسوة وفضيحة.. ألا ترين أن الخوف هو الذي منعك أن تتقدمي بشكوى من أول لحظة.. إن بلادنا ترفض القسوة من أي نوع.. ومن حقك، وسوف نساعدك، أن تنفصلي عن زوجك فوراً. إن لدينا سجلاً طويلاً للعرب الذين ضربوا زوجاتهم.. وانفصلوا عنهن بمجرد وصولهم جميعاً إلى استراليا!

ـ لا أفهم!

ـ (ويقول للزوج) وأنت أيضاً لا تفهم!

ـ لا أفهم!

ـ إذن لا بد من استدعاء الشهود.

ودخل ستة من الرجال والنساء. ينظرون باحتقار شديد للرجل.. إلخ.

فما الذي حدث في المطار. لقد أصيبت الزوجة «بزغطة» وراحت تسعل وتتنفس بصعوبة.. فلم يجد الزوج

بدأ من ضربها على ظهرها عدة مرات.. والزوجة تسعل والدموع تنزل من عينيها.. والزوج لا يتوقف عن الضرب..

ورأى الناس ذلك وفزعوا وتطوعوا للإبلاغ عن الرجل تليفونياً.. ونشطت الشرطة.

والقانون الاسترالي يعطي الزوجة الحق الكامل في الطلاق من زوجها فوراً!

روت لي السيدة «... نبراوي». بعد سبعة شهور من حياتها في استراليا أنها صحت من النوم على أصوات غير عادية في البيت. قفزت من السرير. ارتدت الروب. إنهم البوليس. وقد أجلس أحدهم طفلها على حجره. ولما خرجت نهض رجال البوليس. واعتذروا لها عن المجيء في هذه الساعة المبكرة ولكنه ابنها.

قالت: ما له؟

هو الذي طلبنا لإنقاذه!

- من ماذا؟

- أنت تضربينه وتحرمينه من الطعام وترغمينه على النوم على البلاط وهو لذلك يسعل!

ولاحظت الأم أن ابنها يسعل. أو يفتعل السعال، فلما

حاولت أن تضمه إلى صدرها رفض الطفل الـذي عمره سبـع سنوات!

وتصـرح الأم: ليس صحيحاً. إنـه طفل صغيـر. يتخيـل أحـداثـاً وقصصـاً. . وكـل الأطفـال يفعلون ذلـك. . إنـه قـد تخيـل بالأمس قصـة أن البوليس يـطارده وإنه اختبـأ في بـطن حصـان. . تمامـاً كالمسلسـلات التي في التليفـزيـون. . إنـه صغير. .

ـ ولكن ابنـك لم يقل لنـا ذلك. . قـل لأمـك مـاذا قلت لنا.

قال الطفل: إنها تضربني بالكرباج. .

ـ وماذا أيضاً؟

ـ وتلقي لي بالطعام تحت الترابيزة. .

الأم في ذهول: أنا يا ابني؟. . يا حبيبي. .

الـطفـل: نعم أنت. . وأمس حـاولت أن تعلقينـي في السقف ولكني هربت منك!

الأم: أنـا؟! اسم الله عليـك يـا ابني يـا حبيبي. . عين وصابتك. . أنا تنقطع ايدي ولساني. . أمـوت قبل مـا أشوف اليوم ده. . يا ساتر يا رب. . اسم الله عليك يا ضنايا. .

رجـال البوليس: يـا سيدتي نحن لا نفهم مـا تقـولين. .

والقانون صريح .. إذا قست الأم أو الأب على ابنهما، حكمنا بأن الأم والأب ليسا كفؤا لتربية الطفل.. وذلك وجب أن يعيش في مدرسة داخلية.. بعيداً عنهما.. إلخ..

ومن النوادر التي يتحدثون عنها في استراليا أن شاباً مهاجراً جاء من أسيوط لزيارة أخته «فيوليت...» هي تحاول إغراءه بالبقاء وهو يشكو من نقص الفلوس وصعوبة جمع المال الذي يمكنه من البقاء أو الاستقرار. ولم تشأ أخته أن تروي له «الحيل» التي يلجأ إليها المواطنون الجدد. فهي لا تريده أن ينحرف فقد تربوا جميعاً على الأخلاق الكريمة.

وفي يوم كانا يسيران في أحد الأحياء حيث يعمل المصريون في بيع السلع والحلويات.. وفجأة صدمته سيارة وهو يمشي بالضبط فوق المساحة المخصصة للمشاة. وبسرعة غريبة التف حوله «أولاد البلد» المصريون. وراحوا يصرخون: لا تنهض!!

وجثم على صدره واحد منهم ثم انشغل في حوار مع آخرين: ما رأيكم.. قولوا بسرعة؟

ـ ولا حاجة.. كسر في الساق..

ـ لا.. لا.. كسر في العمود الفقري.. لأن التعويض

عن إصابة العمود الفقري يصل إلى مائة ألف.. ثم أن هذه الإصابة لا تظهر في الأشعة.. ومن الممكن أن يعاوده الألم من حين إلى حين.. وإصابة العمود الفقري هذه إصابة العمر كله.. ومن الممكن أن تعوقه مدى الحياة.

ـ إذن العمود الفقري!

ـ ما رأيك في إصابته بعمى الألوان؟

ـ لا.. عمى الألوان يجعله يتقاضى تعويضاً قدره خمسون ألفاً..

ـ أقصد مع إصابة العمود الفقري..

ـ آه.. كويس..

ـ عندك طبيب؟.. عندك محام؟

ـ موجود..

ـ اتفقنا.

ـ اتفقنا.. ولكن يجب أن نلقنه ماذا يقول في التحقيق..

كل هذا الحوار يجري بين عشرين مصرياً، والشاب ملقى على الأرض وهم يمنعونه من أن يتحرك.. فلم تكن إصابته خطيرة.. بل لم تترك السيارة أي أثر. ولكنهم أقنعوه ولقنوه كل التعبيرات الضرورية.. بل طلبوا إليه ألا

ينطق بكلمة واحدة.. بدعوى أنه لا يعرف الإنجليزية وأنهم وحدهم سينقلون عنه كل شيء.. وهو ملقى على الأرض.. حاول أن ينهض منعوه.. وطلبوا إليه أن يقوم بتمثيل دور المكسور المعوق تماماً.. وحملوه «مرابعة» إلى المستشفى..

وبعد أيام أعادوه إلى البيت وفي يده أول مائة ألف جنيه!!

وأذكر أنني سألت عن أحد الصحفيين الذين هاجروا أخيراً..

وظهرت السعادة على الوجوه وهم يقولون: الحبايب.. إنه ينام على ربع مليون جنيه!

فلم يكد يصل من مصر حتى أوقعوه على الأرض ـ بشكل ما ـ مصاباً بانزلاق غضروفي.. وصمم مؤقت وعمى الألوان. مع ارتجاج في المخ..

وقالوا ضاحكين: ولكنه سوف يعود إلى العمل بعد شهرين يقضيهما أمام التليفزيون في البيت.. إلا إذا جاء مندوب التأمين فإنه يقفز كالكانجارو إلى السرير وهات: يا آه.. يا عين ـ من اللي قلبك يحبها!

وسمعت عن حكايات عن شبان درسوا الأدب والقانون والتجارة، ولكنهم انتقلوا إلى كل الأعمال اليدوية.. ولم يستفيدوا شيئاً من الذي تعلموه في الجامعة. ولذلك فهم

أنصاف عاطلين. ويكون الحل الوحيد أن يعملوا أي شيء، إلى أن يتعلموا اللغة الانجليزية.. أو يتزوجوا من استرالية.. أو يعيشوا معها بلا زواج.

سألت واحد منهم فقال بالضبط ما أعرفه: لا أعلم شيئاً عن هذه البلاد.. ولا أحد قال لي ماذا تحتاجه من الخبرات.. وهل الأفضل أن أكون تاجراً أو مهندساً زراعياً أو طبيباً بيطرياً.. لم يقل لي أحد ما هي السن المناسبة للهجرة.

قال شاب آخر: نصحونا هنا بأن أسعد المهاجرين هو الذي مات أبوه وأمه وزوجته.. يجب أن يكون الواحد منا مقطوعاً من شجرة.. وكلهم هنا مقطوعون.. حتى لو كان الواحد يعيش بين أهله، فإنه ينشغل بحياته وينسى أن له أباً أو أماً أو أخوة، وأنت تعرف!

وانتظرت أن يوضح لي فقال: منذ وصولي إلى هذه البلاد وجميع أخوتي يبعثون بخطابات بكاء وعويل.. ويتركون الدموع على السطور.. وكل يوم يصيبون أمي بمرض وتكون رغبتها في أن أكون آخر وجه تراه.. والحمد لله لم تمت أمي من خمس سنوات.. ولكنهم يؤكدون قرب وفاتها وحاولت أن أدعوهم واحداً واحداً رفضوا الابتعاد عن قبر والدي.. وسألت هنا إن كان من الممكن نقل رفات والدي.. قالوا ممكن.. ولكن أمي رفعت الصوت..

والله العظيم رقعت بالصوت. . وأرسل لي أخوتي كاسيت بصوت أمي الذي يقطع القلب. . هل تتصور ذلك! إن أمي تريدني أن أعود صغيراً. . جنيناً في كيس تضعه على صدرها أو على ظهرها تماماً كما تفعل أنثى الكانجارو!

(٣)

ثم جاءتني هذه الرسالة الطريفة من قارىء أو من قارئة، وسوف أعود إليها فيما بعد. تقول الرسالة بإمضاء «الفرخة»:

الأستاذ أنيس منصور:

تحياتي. . جاء في «مواقف» بعدد الأهرام الصادر في ١٩٨٧/٢/١٣ سؤال «هل أحد يعرف أهمية المهاجرين؟. . كلنا نعرف».

أسفي الشديد فكلكم لا تعرفون. . حكومة وشعباً. . لا تعرفون.

لن أقص عليك قصتي. . وسأكتفي بوصف شعوري وأحاسيسي. . أحاسيس مهاجر عاد ليعمل في وطنه. . ولن استخدم الصفات الرنانة. . في خدمة الوطن. . ومن أجل مصر. . إلخ. . عدت لأعمل. . لن أطيل.

إليك شعوري. . إحساس أهديه إليك. . وإلى كل من يعرف أهمية المهاجرين. تخيلت أني فرخة. . وديعة. .

طليقـة. . وفجأة كـان هنـاك أكثـر من جـزار أحـاطـوا بهـا. . وتمكنـوا منهـا. . وذبحـوهـا. . بـأكثـر من سكين. . وكـانت الفـرخة أو روحهـا تحس بهم وهم يرونهـا والدمـاء تسيـل في محـاولاتهـا الأخيـرة لتقف على سـاقيهـا لتعي مـا حـدث. . ولمـاذا؟. . ولكن سـرعـان مـا ألقـوهـا في المـاء المغلي. . والفـرخـة تشعـر بقسـوة الحـرارة. وفجـأة. . بـدأوا في نتف ريشهـا. . وهي تشعـر بكـل ريشـة تنـزع تشعـر وتتعجب. . لمـاذا؟. . وجـاءت صينيـة كبيـرة. . ومنهـا إلى الفـرن. . شعرت الفرخة بالنـار. . شعرت بـالشوكـة التي يغرزونهـا في لحمهـا للتأكـد من تمام نضجهـا. . لقد كـرروا هذه العمليـة أكثـر من مـرة. . وتـأكـدوا أنهـا نضجت. وكـانت على المـائدة. . وتجمـع الجزارون. . وشعـرت الفـرخـة. . وكـل منهم ينهش من لحمـهـا. . ويكسـر عـظامهـا. . ويـسلخ جلدها.

ويقيت عظامها. . وشعرت الفرخة بالبـرد الشديـد عندمـا ألقوها في صفيحة الزبالة وبدأت القطط تتشـاجر على العـظام التي تنـاثرت في كـل مكان والفـرخـة مـا زالت تشعـر وتحس أنها متناثرة في كل مكان.

ورأت الفـرخة الجـزارين. . كلهم. . في وقت واحد. . وتعجبت مـاذا فعلت؟ ولم تستطع أن تجـد الإجابـة. فنظرت إلى السماء. . حسبنا الله ونعم الوكيل.

هـذه.. هي قصـة الفـرخـة التي عـادت إلى مـا يسمى الوطن.. لتعيش بين ما يدعونهم مواطنين.

إن قـدر لي أن ألقاك يـوماً مـا.. سأقص عليـك القصـة كـاملة.. فمن هذا المكـان لا أستطيـع.. وكل مـا أتمناه أن يـزور سيـادة الـرئيس المهـاجـرين.. بـالـداخـل لمعـرفـة مشاكلهم.. عندئذ.. سيجري ويـرمح عشـرون وزيراً لتنفيـذ توجيهات السيد الرئيس!

نصائح سورية ونتائج مصرية:
بشرط
أن تعمل أكثر وتستقر أقل!

عندما زرت د. عبد الرحمن الطوخي وجدت خطاباً في برواز على الحائط. إنها عبارة واحدة بإمضاء: ماما.. العبارة تقول: لا ترجع يا حبيبي قبل ١٥ عاماً!

قال لي د. الطوخي أنه عندما قرر السفر إلى استراليا، كان يعرف العذاب الذي سوف تعانيه أمه. ولكنه قرر. أما أبوه فقد كان قبطاناً عاش مهاجراً في البحار والمحيطات ثلاثين عاماً. فرأيه معروف. ولكنه الابن الوحيده. وأمه قد عدمت والديها في سن صغيرة. وأخوها الوحيد هاجر إلى كندا ولم يعد. ولكن حبها العميق لابنها جعلها تدوس على قلبها وتبكي سراً. وتتظاهر أمامه بأنها سعيدة بأن يكون الوحيد رجلاً فريداً بين الرجال!

وزارته أمه أكثر من مرة في استراليا. ولكنه لم يزر وطنه مصر إلا في الموعد الذي حددته أمه. وكان ذلك موعد لقائهما الأخير. فقد ماتت بعد ذلك بأيام. وبعد أن ملأت عينيها من ولدها وزوجته وبناته وأولاده.. أما ابنته الكبرى فلها اسم أمه وصورتها. شيء عجيب حقاً!

ولكني لم أعرف أماً بهذه الشجاعة في كل القصص التي رواها المهاجرون المصريون!

أما كيف حدث ذلك، فقد كانت أمه سيدة قوية. وكانت هي القائد والقبطان في البيت. وكانت واقعية. وبعد مناقشة بينها وبين ابنها، رأت أن الحق معه وأن المستقبل في بلاد أخرى. وإنها سوف تعتبر ابنها في إجازة دراسية. وكلما أحست شوقاً إليه، سافرت. أما هو فيجب أن يبني مستقبله وزوجته وأولاده.. وفي يوم السفر ملأت جيوبه بالدولارات وأعطته بعض مجوهراتها لكي يبيعها هناك. ثم دست في جيبه خطاباً استحلفته ألا يفتحه إلا بعد وصوله إلى مدينة سيدني باستراليا. وتشاء الصدفة أن يتعطل في الطريق بضعة أيام.. وكاد يفتح هذا الخطاب. ولكن حبه واحترامه لعقلها وقلبها جعله يضع أعصابه في ماء بارد. ولما فتح الخطاب وجد فيه هذه العبارة ـ وليس في الخطاب دموع ولا قبلات ولا محاولة لابتزاز عواطفه هو كأن تقول له الأم: عندما تصل إلى استرليا أكون قد انتقلت إلى السماء السابعة.. أو أكون استأجرت جناحاً في أحد مستشفيات القلب!

وقصة الدكتور الكيمائي الطوخي نموذجية.. ولو نشر مذكراته وروى لنا المصاعب التي واجهته في شهوره الأولى لكان ذلك صورة أنيقة من عذاب وهوان كل المصريين

الذين سافروا وعقولهم بيضاء لا يعرفـون شيئاً عن استـراليا. . ويلتقطون الكلمات والملومات من الشارع. .

فهـو لم يكن يعـرف أحـداً. وإنمـا قـد حصـل على بكالوريـوس في الكيمياء من كليـة علوم القاهـرة. ولا بـأس بلغتـه الانجليزيـة. وبعد أن استـراح أيامـاً، ذهب إلى إحدى الصيدليات يعرض مؤهلاتـه العلمية وأنـه يستطيـع أن يساعـد في المعمـل. واندهشـوا لهذا الـطلب. فالصيـدلية ليس لهـا معمـل. وأشـاروا عليـه أن يـذهب إلى أحـد المستشفيـات. وسـأل إن كـانـوا يعـرفـون أحـداً بـالـذات. تـطوعت إحـدى الفتيات. وقالت: تعال الساعة الخامسة في هذا المقهى!

وفي السـاعة الثـالثـة جلس ينتـظرهـا. وكـانت هـذه هي الخـطوة الأولى الصحيحـة. وأقنعتـه أن يعمـل في تـوزيـع الأدويـة على البيـوت مقـابـل مكـافـأة متواضعة. وأشارت أن يشتري دراجة.

ثم قدمت له النصيحة التي تعلقت في أذنيه. ونقلهـا من أذنه إلى آذان الآخرين:

طلبت إليـه أن يكون لـطيفـاً جـداً جـداً مـع كـل إنسـان يلتقي بـه لأول مـرة. وأن يحـرص على تسجيـل اسمـه ورقم تليفـونـه واسم أولاده وبنـاتـه. . وأن يعـرف بشكـل مهـذب المناسبات العائلية وأن يبعث بكارت أو بوردة. لا بد!

وتكملة لهـذه النصيحـة: أن يتـرك اسمـه وعنـوانـه ورقم تليفـونه مـع كل إنســان يعرفـه وأن يحاول أن يتـرك انـطبـاعـاً مؤكداً أنه مصـري وأنه سعيـد بذلـك وأنه فخـور. وألا يهاجم بلده مطلقاً. وألا يقول أنه لم يجد اللقمة في بـلاده، ولذلـك قرر أن يموت جوعاً في استراليا. أبداً!

أمـا أغلى نصيحة فهي: أن يكـون نـظيفـاً دائمـاً. أنيقـاً دائمـاً. لا يـدخن. ولا يشــرب الخمـر. وأن يبـدو متـدينـاً متشـدداً. سوف يحتـرمه النـاس. واحتـرام النـاس هـو أعـظم استثمار له عائد متزايد بمرور الوقت!

وكـان ذلك في أول لقـاء لهما. وفي نهـايـة هـذا اللقـاء قالت: لا تعلق أية أهمية عاطفية على هذه المقـابلة. فأنـا لا أعرفك وأنت أيضاً. وفي حياتي شـاب أحبه. ولا تـرتبط الآن بـأية فتـاة مهمـا كـانت جميلة ومهمـا كـانت غنيـة.. فهي لا تعـرفك ولا أنت تعـرفها. ثم أنـك تمشي على أرض نـاعمـة جـداً.. لا تضعف أبـداً.. مت جـوعـاً ولكن كن في غـايـة الأنـاقة! ولا تشغـل بالـك بما أقـوله لـك الآن.. فـأنـا أيضـاً مهـاجرة من اليـونان وقـد ساعـدني كثيـرون. وإيـاك إيـاك أن ترتكب أية مخالفة قانونية.. القانـون هنا عنيف. ولا رحمـة. ولن يصدق أحد أنك جاهل بالقـانون!.. وأنت الآن تستـطيع أن تنفذ من الحديد سالماً تماماً!

وعن طريق الزبائن الذين زادت معرفته بهم، طلب أن يساعدوه.. وانتقل من توزيع الأدوية إلى توزيع الصحف إلى توزيع الكتب.. إلى العمل في أحد المطاعم في الميناء.. فهو يعرف الفرنسية والإيطالية ـ فأمة إيطالية ـ ويستطيع أن يتحدث إلى البحارة من الشرق من سوريا ولبنان واليمن.. ثم أصبح مديراً للمطعم.. وترك المطعم وعمل في شركة لبيع الخمور. ولم يسترح إلى هذا العمل، رغم أن أجره مرتفع ورغم أنه أصبح بعد سنة ونصف يملك سيارة ويسكن شقة جميلة واسعة رخيصة. ولكنه نشأ متديناً. وأبوه وأمه كذلك.

وبينما كان يقضي إجازته السنوية على الشاطىء استمع إلى النصيحة الثانية التي غيرت مجرى حياته. قال له سوري مهاجر: اسمع يا ابني أنت لم تستفد حتى الآن مما درسته في الجامعة. لا يهم. ولكن إذا أردت، فأمسك دفتر التليفون وابحث عن الأماكن التي يمكنك أن تعمل فيها. واختر عشرين عنواناً. وضع لنفسك برنامجاً أن تذهب كل يوم إلى ثلاثة أو اثنين. وقبل أن تذهب يجب أن تعرف بالضبط ماذا تريد أنت وماذا يريدون هم.. ولن يتيسر لك ذلك إلا إذا عرفت أحداً من موظفي هذه الشركة أو أحد زبائنها. ولا تفكر إلا في شيء واحد: كيف تستطيع أن تفيدهم هم.. لا كيف تستفيد أنت.. لأن المطلوب هو

إقنـاعهم هم بمـدى الفـائـدة التي سـوف تعـود عليهم من وجـودك. بين المصـريين أو العـرب المقيمين. . أو تـوزيـع منتجاتهم في الشرق العربي. . وبعد أن تنجح في إقناعهم، انتقل إلى الخطوة الثانية: كيف تستـطيع أنت أن تكسب أكثر منهم. . أو الانتقـال إلى شركـة أخرى ممـاثلة، مع زيـادة في الأجر والمخصصات!

وكأنه إنسـان «آلي» راح ينفذ الـوصية حـرفياً. وقـد وجد الشركة الثـانية بعـد يومين. . ولكن المهـاجر السـوري نصحه بـأن يستمر في البحث، فلعله يجـد شركـة أفضـل. . وكلمـا زاد عـدد الشركـات التي عرفهـا، زادت قدرتـه «التفـاوضيـة» وانفتحت شهيته للمساومة على الأجر الأكبـر والمزايـا الأكثر. ثم اختـار إحدى الشـركات. وتضـايق المهاجـر السـوري من تسرعه في اتخاذ القرار بعد يومين. إنـه لم يعط لنفسه فـرصة أكبر في ارتياد مجالات أخرى، نوعية أفضل.

أما النصيحة الجديدة من المهاجر السـوري فهي بالضبط مـا لم يستـطع د. الـطوخي أن ينفـذهـا. فقـد طلب منـه المهاجر السوري السيد عدنان حلبي: أن يغير أسلوب حياتـه نهـائيـاً. وأن يبحث عن حـرفـة أخـرى. لأن تغييـر الحـرف ينعش العقل ويجلو العين ويثبت القدم.

وروى لـه القصـة الآتيـة: إن السيـد عـدنـان جـاء إلى استـراليا يبيـع الأقمشة الحـريريـة الدمشقيـة. ثم فتح مـطعماً

لبنانياً. ثم امتلك مصنعاً للعبوات الدوائية. وباع المصنع واشترى سوبر ماركت. وبعد أن أصبح له أكثر من عشرين فرعاً باعها جميعاً. واشترى سفينة لنقل البضائع. ثم كانت له سفينتان وثلاث. وباعها لأولاده الأربعة. واشترى مزرعة نصفها لتربية الأبقار والجواميس والأغنام والنصف الثاني لتربية الحيوانات المنقرضة فساعدته هيئات دولية كثيرة. ثم أنه يبيع هذه الحيوانات النادرة بأسعار فادحة الثمن.. ولما علمت زوجته وابنته أنه سوف يبيعها اعترضتا وكادتا يتهمانه بالجنون.. فباع المزرعة لزوجته وابنته وزوجها.. وهو الآن يتسلى في محل لبيع المجوهرات!

وبعد سنتين بدأت المشاكل التقليدية للمهاجر المصري. فهو لا يجد الصحف المصرية. وإنما ما لا عدد له من الصحف العربية والكتب اللبنانية والسورية.. ولا كتاباً مصرياً واحد. وإذا ذهب للقنصلية أو السفارة! سارعوا بوضع القطن والعجين في كل أذن رسمية..

وإذا سأل إن كان في الإمكان تعليم أولاده اللغة العربية والدين الإسلامي.. إن كانت هناك كتب أو كاسيتات.. أو فيديو..

أو كانت هناك صور ملونة لآثار مصر الفرعونية ورؤسائها ومشاهير الرجال والنساء..

إن كـان في استطاعتـه أن يحصـل على أخبـار مصـر وقراراتها السياسية والاقتصادية بأية لغـة. وإن كان أحـد يدلـه بـالضبط على ما هـذا الـذي يحـدث في مصـر ويجعـل المصـري والعربي والأجنبي يخـاف أن يحول مليمـاً إليها لأن الفلوس تمشي في تجـاه واحد إلى مصـر ولا تعود. وإن كـان ذلك صحيحاً!

ثم ما الذي يدل على أنه كذلك في ورق مطبوع!

مرة واحدة اصطدم بالـواقع المـرير فقـد سأل القنصـل: كيف؟ قـال له القنصـل: يا سيـدي أنـا مثلك لا أعـرف. أنـا متطوع. فأنت تتبع وزارة الهجرة!

ولأنـه عاش في دولـة متحضرة. وكـل شيء فيها مـطبوع وواضـح. ولأن كـل الـطرق مستقيمـة محـددة مضيئـة. فهـو يعـرف آخر الـطريق إذا وقف في أولـه. وكـل شيء يـوصلك لأي شيء. فـلا توجـد مشكلة. أو لا توجـد مشكلة ليس لهـا حـل. وعنـدمـا يقـول أي واحـد استـرالي: لا مشكلة! فهـو صـادق تمامـاً. لأن المشكلة أن ظهرت فلهـا حـل. وبـذلـك تتلاشى مشكلة ويظهر الحل. على عكس ما اعتدنـا أن نقول في بـلادنـا: مـاشي ـ ولا شيء يمشي. وحين تقـول: مفيش مشكلة ـ والحقيقـة مفيش عندنـا إلا المشاكـل يـركب بعضهـا بعضـاً وتتعلق الـواحـدة من الأخـرى كمـا تتعلق الخفـافيش بعضهـا من بعضهـا عشـرات الأمتـار.. ويقـال أن القـرود

قدسوها في الهند، لأن سيدة مريضة طرودها من بيتها فحاولت الهرب إلى جزيرة سري لانكا. . فتماسكت القرود بعضها في بعض حتى أقامت لها جسراً من الهند إلى سري لانكا، عشرات الكيلومترات!

ولكن مشاكلنا تتكاثر بعضها إلى جوار بعض، خنادق أو حقول ألغام!

وسمع، كعشرات المصريين أن هناك وزارة للهجرة. لا أحد يعرف عنوانها. وربما اسم وزيرها. فهي وزارة مبتسرة. ولدت ناقصة عمراً.

فلا عندها موظفون ولا عندها ميزانية. وهي وزارة تمد يديها لكل الوزارات تساعدها في مساعدة ملايين المصريين في الخارج. .

ولأن وزارة الهجرة ليست إلا وزيراً وسكرتارية ـ بلا أطراف. . أي بلا موظفين خارج مصر، فهي لا تسمع ولا ترى. ولا تعرف كيف تفكر في حالهم. . فليست لديها معطيات اجتماعية واقتصادية عن هؤلاء المهاجرين. بل أن وزارة الهجرة لا تعرف شيئاً عن هؤلاء المهاجرين. بل أن وزارة الهجرة لا تعرف بالضبط كم عدد المصريين. يقال أربعة ملايين ويقال خمسة ويقال ثلاثة ونصف؟!

عجيب أمر هذه الوزارة التي تولد عند كل تشكيل

وزاري ولادة غير طبيعية . . وفي كل مرة يظهر اسمها متأخراً. يكون ظهورها مفاجأة. ويقال في تفسير ذلك ما يقوله كل زوجين احتياطاً لعدم الحمل، فإذا حدث حمل ومن بعده الولادة كان التفسير: هذا المولود جاء فلته. . لم يكن مقصوداً أبداً!

وكذلك هذه الوزارة. كأنها فقط لاستكمال الوجاهة. ولإيهام المصريين في الخارج أن أمهم ـ مصر ـ معنية بهم.

وأكبر نشاط لوزير الهجرة أن يسافر حيث التجمعات المصرية وأن يتحدث في السياسة والاقتصاد. وأهم ما في أحاديث الوزير، هو بالضبط ما يتمنى أن يصدقه المهاجرون، وما يعجز هو عن الوفاء به: وعود. . ووعود. . وعود عندما يصل إلى مصر، سوف يحل العقد ويذيب المشاكل. . وإنه بعد أيام من وصوله إلى القاهرة سوف يقرأون أو يسمعون قراراً بزيارة السيد الرئيس لهم، ليحل مشاكلهم فوراً!

وليس هذا من شأن الرئيس، لأن هناك وزيراً وجهازاً أو وزراء وأجهزة. والرئيس مهامه هي السياسة العامة للدولة، فلسفة الحكم، خطة الاقتصاد. . بناء القواعد والأوعية الواسعة العميقة التي نتحرك فيها جميعاً!

وينتظر المهاجرون أسبوعاً وشهراً وعاماً، يظهر وزير آخر يؤكد أن سلفه العظيم كان «فشاراً» وأنه لم يعرف حدود

قـدرته. . أي أنـه هو الـذي يعرف. وهـو وحده الـذي سوف يحـل مـا يقـدر عليـه. وينتـظرون. وكمـا ذهب الـذي وعـد بـالحـل، ذهب الـذي لم يعـد بحـل ليـظهـر وزيـر ثـالث. . وتتضاعف المشاكل والعقد!

وكمـا أن المهاجـرين المصريين ليست لـديهم «تقـاليـد» في الهجـرة أو الحيـاة في المهجـر. . فكـذلـك الحكـومـة المصـريـة. . فـأقـدم المصـريين في استـراليـا، جـاءهـا من خمسين عـامـاً. لا أحـد قبل ذلـك. . بينما السـوريون جـاءوا هـذه البـلاد من قـرن وزيـادة. . وعنـدمـا هبط استـراليـا أول مصري، كان عـدد السوريين واللبنـانيين عشرة آلاف، وعـدد الإيطاليين عشرين ألفاً وعدد اليونانيين مثلهم. .

والمصـريون في كـل مكان مثـل كل الأقليـات يجتمعون معاً. ويتمسكون بعضهم ببعض. تمـامـاً كمـا يتزاحم كثيـرون في غـرفـة واحـدة. إنهم كتلة واحـدة. ولأنهم كتـلة فهـم مقيـدون بعضهم ببعض. إنهم عبء على أنـفسـهم. إنـهـا وحـدة خائفـة. ولذلـك يضيقون بـأنفسهم. ويكون لهم ردود فعـل عنيفة: خصـام ومعـارك وانشقـاق وانـطواء. وكثيـراً مـا أحسوا بأن مشاعرهم مزيفة ـ وهذا صحيح. فهم قد تزاحمـوا خـوفاً. تمـاماً كمـا يتعـانق النـاس في أحـد المخـابىء أثنـاء الغـارات الجويـة. . أو يتعلقون بعضهم ببعض أثنـاء الغرق. فهـو سلوك الخوف من المـوت. . والذين يعـرفـون السبـاحـة

يقـولون أن الغـريق إذا أمسك أحـداً، فلن يتركـه أو ينقـذه أو يغرق معه. . فهو يريد أن ينجو، ولـذلك فكـل طاقـاته تتـركز في ذراعيه. . ويفتح ذراعيه كفكي سمك القرش: موت!

قـابلت السيـدة هنـريت جنـدي ويسمـونهـا أمَ فيكي ـ وفيكي هي فيكتـوريـا كبـرى بنـاتهـا. وأم فيكي صيـدلانيـة كوالدها وأخوتها الذين هـاجروا إلى كنـدا. أما هي فهـاجرت معَ زوجها الـذي توفي بعـد وصولـه بثلاث سنـوات تاركـاً لها بنتين وولـداً. وإعجاباً بشهامتهـا وصلابتهـا كـانـوا يسمـونهـا أيضاً: أبو فيكي . .

ولكنهـا تضيق بهذه الـدعـايـة، فقـد كـان زوجهـا رجـلاً بمعنى الكلمـة: رجولـة وشهامـة وحنـانـاً وكفـاحـاً وحبـاً لهـا ولأولادهـا وحـرصـاً على مستقبـل الجميـع. وقـد مـات قبـل الأوان: داسته سيارة. . حتى مـوته كـان نقـطة تحـول، فقـد حصلوا على تعـويض مالي كبيـر. . لـولا هـذا التعـويض مـا استـطاعت هذه الأسـرة أن تملك بيتاً وحـديقة وسيـارات وأن تجد الزوجة عملاً في نفس مؤسسـة الأغذيـة التي كان يعمـل بها. . وكذلك بقية أولادها.

وأم فيكي لهـا تفسير معقـول: فالمصـريون يجيئـون إلى استراليا ومعهم كل مشاكلهم المصرية. لا تركوهـا هناك، ولا أفلحوا في التخلص منها. . ولذلك كلهم يكتبـون الخطابـات

المطولة لأقاربهم في مصر، ويبعثون بالكاستات.. ويا داهية دقي، لو تأخر وصول أحد الخطابات.. ثم أنهم يبددون أموالهم على المكالمات التليفونية ـ فهم سعداء بأن التليفونات بها حرارة، وإنها قادرة على أن تجعلهم يعايشون أهلهم في مصر ـ وكل مشاكل مصر. فكأنهم، لا سافروا ولا عبروا محيطاً ولا غيروا اللغة والبيئة ومفردات الحياة الحديثة في استراليا!

هل البيئة الاسترالية أضعف من البيئة المصرية؟

الجواب: لا.. ولكن قدرة المصريين على أن يديروا ظهورهم لبلادهم ضعيفة جداً.. إن المصريين عندهم تصلب في العمود الفقر. فهم عاجزون عن الالتفاف ٩٠ درجة أو ١٨٠ درجة. بينما هذا هو المطلوب، لكي يعايشوا البيئة الجديدة.. ويتكيفوا معها.. وبغير التكييف فلا حياة ولا تقدم. لأن الهجرة معناها أن تعيش في بلد آخر، بشروط هذا البلد. وبقدرتك ومرونتك وإصرارك على النجاح.. فأما أن تنجح أو تموت!

وبقدر حماس المصريين ـ تقول أم فيكي وهي سيدة سمراء طويلة لبنانية الملامح، فهي مصرية الأب لبنانية الأم ـ تكون برودة المسؤولين في القنصلية أو السفارة. فلا يكاد أي مسؤول يرى مهاجراً مصرياً حتى يضع يده على جنبه.. كأنه أمام نشال.. أو يزرر الجاكته كأنه يتوقع سكيناً

تنفـذ في صـدره. . ولم يحـدث في العشرين عـامـاً التي عاشتها أم فيكي في استراليا، أن احتاج أحد المهاجرين إلى فلوس القنصل أو السفير. لم تسمع قط!

ولكن هذا هو الشعور المتبادل، المزدوج الخطأ: عند المهاجرين وعند الموظف الرسمي.

ولكن التفسير الحقيقي هـو أن المصريين المهاجرين لهم مشاكل، وإنهم في حيرة. وإن لديهم إحساساً بأن بلادهم سعيدة بخروجهم من مصر وأنها كسرت وراءهم ألف بلاص قناوي حتى لا يعودوا. . ولكن المهاجرين يرون أبناء الجاليات الأخرى أكثر تماسكاً وأحسن. . وأن سفارتهم أكثر رعاية وفهماً. . فالسوري واللبناني واليوناني والإيطالي لا يشعر لحظة أنه بعيد عن بلاده. . بل إنه يتابع كل ما يجري هناك. . ثم أن عدداً كبيراً من المسؤولين في ذهاب وإياب يباركون المهاجرين من أشقائهم ـ إلا مصر!

وروت لي «أم فيكي» دوختها الكبرى عندما تطوعت لحل مشكلة أحد أقاربها الذي كان واجب التجنيد. وسألت أقاربها من الضباط في مصر. وراحت الجوابات، ولم تعد. . ولما عادت كانت الردود: لا نعرف. . فهذا الشاب لم يعد مصرياً. إنه استرالي. ولكن جواز سفره مصري، ويشرفه ذلك، فهل يمكن تجنيده؟ ومن الذي يسألون؟ وسمعوا عن مشاكل مصريين تعذبوا كثيراً في المطار بسبب

ضـرورة التجنيد رغم أنهم أصبحـوا أجـانب. ومـا تنشـره الصحف من قـرارات لا تبلغ المسـؤولين بسـرعـة. . بـل قـد يصـدر القرار في الصحف ويعـرفـه كـل النـاس، ولكن لكي يكون نافذاً لا بد أن يجيء بصـورة رسمية. . ويمضي الـوقت ولا يجيء. . وكـأنه لم يصـدر. والمسـافـة طـويلة بين جهـة إصدار القرار وبين وزارات الخـارجية والـداخلية والهجـرة. . والقنصليـات المصـريـة، مئـات، في القـارات الخمس. والنتيجة: دوخة ما بعدها دوخة!

أما مشاكـل المواطنين المعـارين في الخارج، فهي عقـد إدارية بيروقراطية. وكذلك تصاريح العمـل وتضارب القـواعد في الوزارات المختلفة: فكل وزارة وكل محـافظة لهـا قانـون خاص، على كيفها. وكذلك الإجازات. .

وتحويل عملات المهاجـرين إلى مصر، وسعـر العملات الطالع النـازل، يضاعف القلق عنـدهم. . ومشكلة الزوجـات الأجنبيات إذا عدن من الخارج. .

وأهم من ذلك: كيف يساعد المصريـون بلادهم، مـادياً وفنيـاً؟ كيف يطمئن هؤلاء المصـريـون على أمـوالهم، وعلى مشـاريعهم. . وهم يقرأون ويسمعـون العجب عن المشاريـع التي سحبت من مصـر بسبب الكـاتب المصـري الجـالس القـرفصاء والـذي يعترض بجسمـه سيولـة المـرور بين الأمـل والحقيقة. . بين المهاجرين ووطنهم. .

وكم مرة جاء المهاجرون وعرضوا مشاكلهم علينا وخطبوا وصفقنا لهم.. ثم عادوا إلى أوطانهم وانتظروا.. ولم يحدث شيء. وانعدمت الثقة مرة أخرى. وكانوا قد نسوا كل ذلك، بعد أن عاشوا في بلاد متحضرة التفكير والتدبير.. إننا ـ إذن ـ في حاجة إلى جهود كبيرة نستعيد الثقة لهؤلاء المواطنين الصادقين في إخلاصهم لوطنهم الأم، وفي حرصهم على تقدمنا واستقرارنا.. ولكننا عاجزون عن مساعدتهم، لكي يساعدونا!

نعود أخيراً إلى هذا الحيوان العجيب الذي تنفرد به قارة استراليا: كانجرووه..

فعندما رأى المكتشفون الإنجليز هذا الحيوان الغريب لأول مرة اندهشوا.. فهو يعتمد على ساقيه وذيله.. ويقفز إلى أعلى وينطلق بسرعة ستين كيلو متراً في الساعة.. وإذا وقف كان صدره واسعاً، ويداه ممدوتان متدليتان ـ وهو لا يعتمد على اليدين واقفاً أو منطلقاً. فقط عند الطعام والشراب أو عند حفر الأرض بحثاً عن تربة مبللة يأوي إليها من شدة الحرارة..

ولم يكد المكتشفون الأوائل يرونه حتى سألوا السكان الأصليين عنه. فقالوا لهم: كانجرووه..

وأصبح لهذا الحيوان هذا الاسم. ومن مائتي سنة

اكتشف الأوربيون في استراليا أن كلمة كانجرووه معناها بلغة السكان الأصليين: ماذا تقولون؟!

وإذا جلس الكانجرووه على ساقيه وذيله عالي الرأس واسع الصدر معطل اليدين، فقد أحس المصريون أنه يشبه الكاتب المصري الجالس القرفصاء.. وإنه مثل المصريين، وأبناء الحضارات القديمة يجلسون على ذيولهم.. على ماضيهم العريق. والكانجرووه يرتكز على ذيله ارتكازاً شديداً. فلا هو واقف ولا هو قاعد.. ولا هو من ذوات الأربع.. ولا هو يجري ولا هو يزحف.. وإنما هو ينط كأنه زمبلك قوي..

وهو - وهذا هو الأهم - يحمل صغاره في كيس في مقدمة بطنه.. وفي بعض الأحيان يحمل صغيراً رضيعاً ووراءه صغير انفطم حديثاً، وفي داخل الكيس بيضة لم يخرج منها الجنين بعد.. وارتباط أنثى الكانجرووه بصغارها، وكذلك الذكر يجعلها جميعاً هدفاً للوحوش. ومن النادر أن تترك الأم صغيرها لتنجو بنفسها..

هذا هو الكانجرووه البري..

ولكن هناك كانجرووه يتسلق الأشجار ويعيش عليها، وفي الغابات الغزيرة الأمطار.. والفراء الكثيف على جسمه يقيه من المطر.. وقد تطور هذا الكانجرووه بسبب تسلق الأشجار والقفز من واحدة إلى أخرى، والتعلق من غصونها

أن تساوت قدماه ويداه. . أما ذيله الأخضر مثل رأسه، فمن الممكن أن يلتف حول الأغصان. . فيتعلق منها. . وله مخالب يغرزها في الأشجار. . والكانجرووه نباتي. وكانجرووه الأشجار يعيش على الأوراق والثمار ـ نوع خاص من الثمار. ولذلك فهو لا يعيش طويلاً في المنفى ـ أي في حدائق الحيوانات ـ بسبب فقدان النباتات والثمار التي اعتاد عليها في موطنه الأصلي. .

وكانجرووه الأشجار من النادر أن تراه. . لأنه يختفي بين الأغصان الكثيفة هرباً من السكان الأصليين الذين يجدون لحماً ليناً. . ويوقعونه بكلاب الصيد المعروفة باسم «دنجو» فهذه الكلاب تطارده. . وتتعلق من الأغصان التي تقف عليها حتى إذا سقط على الأرض، راح ضحية الكلاب والإنسان. .

والتطور لا يعرف النكسة ـ أي لا يعود إلى الوراء. فلو حاول كانجرووه الأشجار أن يعود إلى الصحارى يعيش على أوراقها، ويقفز بدلاً من أن يجري، فإنه لن يستطيع. فهذا الكانجرووه الذي يستخدم يديه ويجري على الأرض ويقفز على الأشجار مرحلة متطورة من الكانجرووه الجالس القرفصاء ـ كأنه مصري قديم، ينظر إلى الوراء. . ويحرص بكل ما أوتي من قوة أن يجعل ماضيه مستقبله ـ ولذلك يقترب من الماضي متجاهلاً الحاضر، يائساً من المستقبل!

ولكن إذا كان الكانجرووه قد تطور وحيوانات أخرى.. فكيف لا يتطور المصريون في الغربة؟ إنهم استطاعوا ونجحوا، قبل أن يتخذ الاهتمام الرسمي شكل وزارة أو سفارة.

ومن العجيب حقاً أن المهاجرين المصريين ينظرون إلى بعض سفرائهم وقناصلهم على أنهم كانجرووه قابعون يقفزون بعيداً كلما رأوا مهاجراً مصرياً - فلم يبق إلا أن يعتمد المصريون على تجاربهم التي تتزايد وتتعمق وأن يجعلوا تجاربهم تقاليد مرعية من كل المصريين المهاجرين والمصريين الرسميين، وسوف يرحبون بكل مبعوث يجيء من مصر - فهو - كما يقولون - حسن النية، قصير اليد، قليل الحيلة! لأن وزارة الهجرة: وزارة بلا وزير، ووزير بلا وزارة!

الفهرس

الصفحة

رقم الايداع : ١٩٨٨/٣٨٨٢
الترقيم الدولى : ٠ ـ ٢٣٠ ـ ١٤٨ ـ ٩٧٧

مطابع الشروق

القاهرة: ١٦ شارع جواد حسني ـ هاتف : ٣٩٣٤٥٧٨ ـ فاكس : ٣٩٣٤٨١٤

بيروت : ص ب : ٨٠٦٤ ـ هاتف : ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٧٦٥ ـ ٨١٧٢١٣



ليس نبيلاً من لا يغضب ..

ليس إنسانا من لايحرك عقله إلى أبعد من قدميه .. ولايتخيل أبعد من عقله ..

والعرب قديما قالوا :

هاجر تجد عوضا عمن تفارقه ..

وقالوا :

نقل ركابك عن ربع ظمئت به

إلى الجناب الذى يهوى به المطر

والرسول عليه الصلاة والسلام هاجر من مكة إلى المدينة ..

حتى الطيور والحيوانات تهاجر من الحر إلى البرد ومن البرد إلى الحر .. والأسماك تسافر ألوف الأميال لكى تضع بيضها وتعود إلى حيث كانت ..

والمؤلف الكبير أنيس منصور أكثر الأدباء

الغلاف للفنان حلمى التونى

دورانا حول الأرض ، عشرات المرات .. على سفر يقلب الأرض بقدميه ويديه وعينيه .. فدنياه كتاب مفتوح .. وهو يدعوك إلى أن تسافر وإلى أن تهاجر .. فالله جعل الدنيا واسعة حتى لانضيق بها ولاتضيق بنا .. وهو قد شجع مئات الشبان على الهجرة هناك والاقامة .. فى ذلك توسيع لرقعة مصر ، وتجديد لدمائها ، وانعاش لحب الوطن الصغير والكبير ..

إنك مع الكاتب الكبير الأستاذ أنيس منصور أمام مطرب يغنى الهجرة وموسيقار يعزف لحن الشباب والحب والمجد .. وهو يكره بيت الشعر الشهير الذى استقر فى وجداننا كأنه حكمة أبدية :

بلادى ، وإن جارت على : عزيزة

وأهلى وان ضنوا على : كرام

لا ... مادامت قد جارت علينا فهى جائرة .. ومادامت قد ضنت علينا فهى بخيلة .. فلماذا لايجرب أرضا غير الأرض ، وأهلا غير الأهل .. لماذا يكلف بلاده فوق طاقتها، وأهله، فوق قدرتهم !

حتى إذا لم تهاجر ... الكتاب حكايات وبطولات لأناس هاجروا ... وعشقوا ومازالون يحيون المحنة الإنسانية ... التوافق والتكيف .. والدعوة إلى ذلك ...



© دار الشروق

القاهرة: ١٦ شارع جواد حسنى ـ هاتف : ٣٩٣٤٥٧٨ ـ فاكس : ٣٩٣٤٨١٤

بيروت : ص ب : ٨٠٦٤ ـ هاتف : ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٧٦٥ ـ ٨١٧٢١٣